إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معتّرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

بريد بيروت

رواية

ABU ABDO ALBAGL

بريد بيروت بريد بيروت

بريد بيروت بريد بيروت

بريد بيروت بريد بيروت

بريد بيروت بريد بيروت

بريد بيروت بريد بيروت

بريد بيروت بريد بيروت

حنان الشيخ

دار الآداب

حنان الشيخ

بريد بيروت

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
بيروت ١٩٩٦

الغلاف: هدية من الفنانة
نجاح طاهر

عزيزتي حياة

أفكر بك الآن، بدلاً من أن أحذو حذو زمزم وأدُبّ على أطرافي الأربعة وأتحرك ببطء شديد خوفاً من أن يراني المدفعجي. وبدلاً من أن أمسك المسبحة كما تمسكها الآن جدّتي وأسبّح الله وأنبياءه وأستشهد وأستغفر، وأنا أمسك بالمصباح الجديد «إنرجايزر» الذي يوزّع مجاناً كلّما اشترينا من الماركة نفسها أربع بطاريات، أصوّبه إلى الغرفة، وإذا بنوره يتدفّق على لوحة رسام كنتِ قد قدّمتِها لي في إحدى زياراتك إلى بيروت، لأن المرأة التي في اللوحة كانت تشبهني، تشبهني؟ وقسمات وجهها ليست واضحة؟ لعلّ جلوسها وحيدة في الغرفة، إلاّ من نور يتسرّب من كوة النافذة، قد ذكّرك بي.

أمرّ بالمصباح على الخزانة، لأرى المسامير التي دُقّت خلف الباب حيث علّقت ثوبي. «المغسلة»، وقطعة الأثاث التي لها مرآة وأدراج ورخامة بيضاء. أتذكّر السلك بدل المفتاح فأصوّب إليه النور وأراه. على رخامتها أيضاً، أرى الكيس وداخله العباءة التي تنتظر أن أرسلها لك، بحركة تلقائية أهبط بالمصباح إلى الجهة الأخرى وأرى الفسيفساء ساكنة كسكون أشكالها الهندسية الملوّنة. أجدني أفكّر بما تكبّدته لجلب الفسيفساء وهذه العباءة، وأهزّ رأسي غير مصدّقة.

أفكّر بك وأحادثك وكأنّك لست بعيدة، رغم أنّي لم أشعر بهذا القرب أثناء زيارتك الأخيرة إلى لبنان، يبدو لي أن الأفكار والأحاسيس التي تولد أثناء العنف هي الحقيقة، إذ تلمع في عين المرء «فلاشات» أخيرة تريه الأحبّ إلى قلبه، تماماً كما لو أنّي في حالة حبّ، أذكر أنّي عندما كنت أفتح عينيّ في الصباح، كنت

أفتحها على ناصر، وأعْرف أنه بقي بين أجفاني طوال اللّيل، لحظة إطفائي للنور.

أثناء علاقتي به، بل في بدء علاقتي به، كنت أذكرك طوال الوقت، فأنت بطانية الاطمئنان، كلّما شعرت ببروده تجاهي، قلت له فجأة بأني سأسافر إليك، أو أنّك ستزورينني، أو أنّنا سنلتقي في بلد ما. أفرش أمامه ما ترسلينه لي، لأكتشف أنّك فعلاً كنت في حياتي كجدّتي وكإسعاف، رغم أنّ حبي له عوّضني عن الاشتياق لك كما في السابق، وجعلني أعتاد على الحوار مع آخر غير نفسي، إذ بحواري وقربي منك كنت كمن يحاور ذاته.

أعرف أنّك تحاولين الاتصال بي الآن بينما آلة هاتفنا صامتة منذ شهر. أنت البادئة دائماً بالاتصال أثناء المعارك أو بعدها. يليك مباشرة أمّي وصوتها المضحك المبكي. كنت أعرف أنّك على الطرف الآخر ما أن يرنّ الهاتف. كنت لا أصدّق صوتك الذي كان يأتي وكأنّه لا في شريط التليفون بل في أرجاء البيت كلّه. فأجدني أتنبّه إلى الحياة من جديد وأرى أصص الزرع، وألاحظ سطح الطاولة وعروق يدي.

تحاولين الاتصال بي، فصدى المعارك بين حزب اللّه وأمل لا بدّ أنّه على الصفحات الأولى في بلجيكا وفي النشرات الاخبارية. لا أخفي عليك أنّي، بدلاً من الشعور بأنّي لا أريدك أن تحملي بين أضلاعك القلق والخوف عليّ من هذه المعارك ككلّ مرّة، أشعر بالارتياح لحدوثها هذه المرّة، فوخز الضمير المتواصل الذي حلّ عليّ منذ مكالمتنا الأخيرة لم يفارقني سوى الآن، إذ تركت وقتها فتوري الذي لا يُصدّق يتغلّب على حديثنا، رغم معرفتي بجلوسك الساعة تلو الأخرى تحاولين عبثاً التقاط خطّ بيروت التي وكأنّها أصبحت بيت إبليس. حتى الخطوط الهاتفية تتّقي شرّها ولا تؤدّي مهمّتها، وكان بالإمكان أن يظهر قبل الآن، لكنّي كنت أدّعي وأمثّل اللّهفة وأنا أتحدّث معك حتى ولو زفرت تأفّفاً إذا كنت على موعد أو في حضرة أحد كنت أحوّل زفرتي بسرعة إلى زفرة اشتياق وأنا لا أفهم ردّة فعلي تلك.

فأنت تودّين معرفة رأيي بما يحدث والاطمئنان عليّ، بينما أكون أنا منغمسة بتفاصيل أخرى، الحب، الجنس، وأحياناً الجرذ. كيف أتلو عليك ما يحدث في بيروت وفي لبنان كلّه؟ وما يقلق بالي لم يكن المتفجّرات والمصابين بل الجرذ الذي احتلّ مطبخنا، والذي أصبحنا نستأذنه كلّما أردنا الدخول إلى المطبخ أثناء اللّيل، لنقوم بدفش باب المطبخ مرّات عديدة، ولنتحدّث بصوت مرتفع طوال مكوثنا في المطبخ ونغنّي له: «ميّل يا غزيّل ميّل». ولنكتشف أنّه أشدّ ذكاء وقوّة منّا. فهو قد استطاع أن يخطئ الكمائن ويحذّرها، فيرمي بلوح خشب على السائل الدبق الذي مسحنا به الأرض حتى لا يقع في الفخّ.

أتأفّف من حياة التي اقترن اسمها باسمي حتى بات اسمانا واحداً: «حياة واسمهان، اسمهان وحياة» أيكون هذا نتيجة عدم ارتياحي للتحدّث في التلفون بينما خلقت وأنت تعشقين التلفون، تتكلّمين عبره براحة وكأنّك ستلتقين بهم وجهاً لوجه. لا أصدّق الآن هذه الخرافة التي أحاول إقناع نفسي بها إذ كان فتوري تجاهك يتحوّل إلى نوع من الشراسة التي طالما حاولت طمرها أمام أخبارك المضجرة ولهفتك:

– «يا أسمى.. شو خبريني.. كيف الحالة؟».

أليس من السخافة أن الخّص ما يجري بجملة: الحرب هيك وهيك.. ناس بترقص، وناس بتموت، أو: «اني غير مهتمة... رغم أنّي كنت في أشدّ الاهتمام البارحة». ثم نصمت وأحاول أن أسأل بدوري بلهفة.. لكن عمّ سوف أسألك؟ ماذا سوف أسمع عنك؟ ما هي أخبارك؟ لو وجدت طبّاخة لبنانية تطبخ لك كبّة الصينية والملوخية؟ وابنك يلعب التنس وسيصبح «شامبيون» وأنك مشتاقة... ويا لطيف، مشتاقة».

بينما الحياة التي كوّنتها في بيروت لم تعد تحاكي سوى لبّ الروح، أصل بها عميقاً حتى العظم، لم أعد أطفو على سطحها ولا حتى في أحاديثي مع زمزم وأم فضيلة، وهما كأنهما بدورهما قد أخذتا تدخلان جوّ نفسيهما، لتقول لي زمزم منذ أن سكت المحرّك

الكهربائي: «واللّه أنا فاقدة لها الموتور كأنّه بني آدم، ساعة يطلب أكل ساعة بيهدر ساعة بيوقف، ساعة يطلب من يراضيه، ساعة بيطمئن»، وفضيلة أخذت تحفظ أقوال زياد الرحباني فتبادرني قائلة: «كان عندنا بيت شعر لكن المهجّرين صادروه»...

لم يعد من الممكن للسنوات التي مرّت والحرب بين أضلاعها أن تحتفظ بصداقتنا كما كانت فحتى اللّغة قد تبدّلت. الحرب طمرت ناساً وأبرزت آخرين. ووجدت نفسي ألف أشخاصاً ازدحموا بالقصص والأخبار كما لو كنت في سنّ المراهقة أو في سنتي الجامعية الأولى، ولأن الحرب ألغت الظروف الطبيعية اليومية ازداد النّاس غرابة. أخذت أستمتع بهذه الغرابة، وهي تشدّني إليها بعد أن فتحت نفسي للآتي وللغادي كخان طومين الذي كانت تصف جدّتي به بيت والدي، وأخذ البشر يدخلون حياتي زرافات. ولأنّ لكل منهم حركته وصخبه، كان عقلي وساعاتي تضيق بهم من وقت إلى آخر، لكنّي لم أكن أقوى إلاّ على معاشرتهم.

ربّما لأنّه ما عاد من الممكن أن توطّدي في بلجيكا سوى علاقات هامشيّة، فقد فضّلت أنتِ البقاء في الماضي الذي عشناه معاً، والذي منه أخذنا معاً نستمدّ الوقود لتبقى صداقتنا على ما هي، حاولنا لصْقَهُ بالحاضر ونجحنا إلى حدٍّ ما في الفترة الأولى. لأنّ فضول كلّ منّا لمعرفة حياة الأخرى كان كبيراً. ولأنّ كلاً منّا حاولت أن تعيش تجربة الأخرى وأفلحنا في ذلك لمدّة قصيرة. يساعدنا تدفّق الشعور، لكنّ المسافة البعيدة منعت كلتينا أن ندخل فعلاً في حياة الأخرى الجديدة. ورحت أشعر بأنّ الماضي أخذ يطمر نفسه بنفسه لفرط ما تساقط عليه من ركام الحاضر، حتى لم تعودي أقربَ إنسانة إليّ، وإلى الآن لا أعرف إن كنت قد لاحظت هذا في زيارتك الأخيرة أم أنّك علّلت هذا الفتور بتبدّل مرضيّ في شخصيّتي، وشعرت بالحزن لأنّ صديقتك لم تعد على عهدك بها، وربّما غفرتِ لها وفكّرتِ بمساعدتها. فأنت لم تستوعبي كيف أتركك وأترك السهرة في منتصف اللّيل وأخرج يداً بيد مع صديق أخيك الذي كان يصغرني بأعوام إلى دير الراهبات للسؤال عن أمّ فضيلة،

بينما لا بدّ أنّك رأيتني أميل عليه تارّة وعلى الحصي تارة أخرى، سعيدة بأنفاسه، لأعود إلى بيت أهلك عند الفجر وكلّي رغبة لأنام فقط. عندما سألتني عن أمّ فضيلة ضحكت وقلت: «مبسوطة بين نساء أهل البيت».. وأوضحت لك: «يعني أهل بيت النبيّ».

منذ أن عرفت أنّك ستزورين لبنان، لحضور عرس أخيك ركبني الهمّ، عليّ أن أستعدّ، عليّ أن أجد «علي» وأذهب لاستقبالك إذا كنت ستأتين عبر المطار. عبر المطار؟ وزفرت عند هذه الفكرة، معنى ذلك أنّك ستبقين الليلة الأولى عندي، وأنّ عليّ أن أحضّر لك غرفتي، وأتناول أشيائي من هنا وهناك وأعتذر عن موعدي مع سيمون وأحاول أن أقنع جمانة على أن تذهب معي لحضور عرس أخيك، وأن أقرّبكما من بعضكما، كأنّي مسؤولة عن الفيزياء بينك وبينها... كلّ هذا والنشاط الذي يقتضيه ذلك غادرني من زمان.

ثم أخذت أفكّر بما سوف أرتديه في ليلة العرس، أذكر أنّي وقفت طويلاً أمام المرآة، أتخيّل ما سوف ترى عيناك، متمنيّةً أن تكون الدهشة ردّة فعلك، ورغم بقائي في لبنان فإحساسي بالذوق مازال ينبض، وبأنّني لم أزل ألمّ بما يحدث في الخارج، وبأنّي أتطوّر، وبأنّه لم يسدل عليّ الستار بعد.

وأخذت أختار وأبدّل، وأرتدي وأبدّل، ولم أفلح في تخيّل ابتسامة أو دهشة أو استحسان في عينيك أو على وجهك.

لا بدّ أنّك ترتدين أجمل الملابس وأن التلميذة الفنّانة التي أخبرتني عنها قد صمّمت لك الفستان لأنّها أصبحت تصمّم لك كلّ شيء، تقوم بنسج القماش لك وصبغه وإيجاد من يصمّم لك الحذاء والحلق. (أذكر أنّك أخبرتني بهذا وأنا أنتظر مكالمة من عليّ لأخبره بأن المحرّك قد تعطّل) ووجدتني أقف أمام الخزانة المفتوحة أمامي كأنّي أمام ثلاّجة تطفح بالمأكولات، ومع ذلك لا أجد لقمة واحدة أضعها في فمي. لم أعد أؤمن بشراء الملابس الثمينة، ولم أعد أعترف بأنّ هناك حفلات وأعراساً، عدا أنّ التقاليع التي كنت أبتكرها لم تعد تليق بسنّي، ثم وجدتني فجأة أحزر كيف أجعلك

تشـهـقين.. أتيت بفسـاتين جـدّتي، التي تكاد تكون مـهـتـرئة تحت الإبطين لكنّي أحبّها وهي لم تزل معلّقة في خزانتي منذ دهر. كانت من المخـمل المطبـوع على الحـرير بلون الصـدأ والأخـضـر، الأزرق والبنفسجي، بينها فستان من الدانتيل الأسود، لم أرَ في مثل نعومة تخريمه.

أمام المرآة رفعت شعري بيد وابتسمت، ثم رفعت صدري بيدي الأخرى وابتسمت وكأنّي أمـام عدسـة تصوير أو عين رجل، لكنّي كنت وحـيدة أمام المرآة المكسـورة، ودعاء جدّتي الذي كان يصلني عبر الباب المفتوح. إنّها تدعو اللّه أن يحميني وأنا أجتاز المعبر إلى الشقّ الآخر، إنّها خائفة عليّ وأنا قلقة البال، لا من أجل العبور إلى الجهة الشرقية فقط، بل لأنّي سألقاك، وجدتني أطوّق نفسي بيديّ، وأتمنى لو أنّهما يدا غيري، يدان طويلتان تحيطان بكامل جسمي، ولم تتـبدّد حـيرتي في اليـوم التـالي، فـأنا كلّي تمنٍ لو أجـرؤ على ارتداء الفسـتان وأعبر به إلى الشقّ الآخر، غير مهتمّة للسير بين الرمال وأوراق الشـجر الميتـة. ومع ذلك فقد وضعته في الحقيبة الصغيرة.

أوّل مـا انتقـدته كان الطريقة التي كنت تتحرّكين بهـا وتجلسين وتتكلّمين، إنّما عبرت عن عدم حساسيّتك أو عـدم ذكائك، وعندمـا حاولت أن تكوني معنا، خيّمت على وجهك الشفقة تجاه كلّ من بقي هنا. تتحدّثين وأنت تضمّين الأشخاص إلى صدرك ثم تتحسّسين الوجوه، تضمّين الشـخص إلى صـدرك من جديد، كأنّك تقولين: «أنا أعـرف عـذابكم»، لماذا أيقنت أنّ من بقي فـقط هـو الذي يتـعـذّب، ثم بدوت لي وكـأنّك حـمـامـة سـلام بين أهلك، تتنقّلين من شـخص إلى آخـر، حـتى عندمـا وجّـهت أمّك اللوم لك لسـبب مـا ابتـسـمت لـهـا وقبّلتـهـا على خـدّها وعندمـا اسـتـعـوق الحـضـور أهالي العـروس، اكتفيت بالابتسـام، باختـصـار، أنت لم تعـودي معنا، ابتسـامـتك وعطفك يغطّيان عجزك لأنْ تكوني معنا.

انتـهى العـرس وتمنّى لنا الجـمـيع الزواج، قلت أنا ضـاحكة من جديد بأن عليّ وجمانة أن نتزوّج بعضنا.. علّقت امرأة: «مضبوط،

وين، في رجّال مثل العالم؟ غير الزعران والمسلّحين، والأوادم ما عندهم قرش، والباقي هاجر».

وبدلاً من أن ننتحي معاً، نتبادل ما حدث طيلة غيابنا عن بعضنا وجدت نفسي أتسمّر على مقعدي فرحة، لأنّي لم أعد إلى بيروت ضمن قافلة السيّارات التي قفلت راجعة إلى الغربيّة، والتي لا بدّ أن ركّابها شاركوا بفرحة العرس نصف مشاركة إذ التفكير بالعودة أثناء اللّيل كان ملحاً بلا شك.

فرحة لأنّي أجلس على الشرفة أسمع صرصار الغابات يغنّي، وهو الذي فكّرت أنّي لن أسمعه طيلة حياتي وسراج اللّيل الذي كان يلعب لعبة «الغمّيضة» بين الأشجار، أتنهّد فتفهم جمانة معنى تنهيدتي وتجيبني بأخرى، ومن غير أن نتحدّث، فكّرنا معاً بأن شقّهم هو المحظوظ، لأنّه نال الجبال أيضاً، ويبدو أنّك كنت تنبشين عن موضوعات للحديث. لا بدّ أنّها كانت تلغي نفسها بنفسها وهي تمرّ بخاطرك، فتكبتينها وكلّك ثقة بأنّها لن تهمّني، فهي بعيدة عن الحياة هنا. وربّما بدت بعيدة حتّى عنك.

قلقي كان في محلّه، إذ رغم قبلاتنا وعناقنا شعرت بأن بعد المسافة لايزال يهيمن علينا، فيبعدك عنّي تارة ويبعدني عنك تارة أخرى. حاولت أن أحدّثك بعفوية، بلهفة، أن أقترب منك، بينما بدوت أنت متردّدة غير واثقة واكتفينا بترديد هذه الجملة: «مشتاقة كثير، مشتاقة كثير» وضعت اللوم على زحمة العرس والضجيج الذي يلفّك ويلفّني وعلى تدخّل الآخرين: ...«كيف قطعنا؟ كيف نستطيع العيش في الغربيّة؟ تتذكرني قريبة لك، وتسألني: «لماذا لم أتزوّج حتى الآن؟ ولدهشتي وجدتك تشاطرينها الرأي فتعلّقين: «بأنّ عليّ زيارتك في بلجيكا حتى أكشّ عنّي الرجال اللبنانيين من كثرتهم».

أتراك تكذبين أمْ أنّك غافلة عن أنّ الذين يعودون لزيارة لبنان هم إمّا الأموات في التوابيت وإمّا الذين يريدون الزواج.. على أيّة حال كان عليّ أن أبتسم لك وأجيبك ساخرة بأنّه ربّما كان عليّ أن أتزوّج بجمانة. تحاولين التقرّب منّي وأنا لا أشعر بالدفء تجاهك هذه المرّة،

وإذا أمعنت النظر في وجهك أيقنت أنّي لم أشتق لك، هل هو حذاؤك الذي يشبه حذاء راقصات الباليه المزيّن بزهور زرقاء، أم فستانك الأزرق الذي كان يشبه ما ترتديه فتيات «غوغان»؟ لا يمكن لنا أن نتقارب وكلّ منا تحيا حياة تختلف كلّ هذا الاختلاف عن حياة الأخرى، ابتداء من حذائك الذي لا يمكن أن تخطي به خطوة واحدة على الأرصفة المحفّرة، فهو لا يماشي المستنقعات، ولا الأصوات المنبعثة من الجوامع أو الكنائس المصلّية على روح الأموات، هذا حذاؤك! فكيف إذن تعابير وجهك التي تفصح بأن رحيلك يعني أنّ الحرب لم تعد موجودة، وإذا ألصقناها بوجهك لاعترفت بأنها موجودة، لكن «لا بأس، إذا كان بعض النّاس قد عاشوها وتضرّروا من جرّائها». مع كأس العرق الثانية الاحظ أنّي سعيدة بنظرات أقربائك وأصدقاء أخيك خاصّة.. هذا الذي هو أكثر جاذبية من الآخرين والذي لم يرفع بصره عنّي، كلّما صدح بقريدة زجل، ابتعد عنّي، ليعود يبتسم لي وهو ينهيها، كانت عيناه تقولان لي بأنّه يغازلني وبأنّ أسطر هذا الزّجل كلّه من أجلي.

بدلاً من أن نلتفّ معاً لنغازل الشابّ ونضحك التفّت جمانة حولي: باتت أفكاري تلتقي معها من غير أن نتحدّث، تماماً كما كنّا، أنت وأنا معاً، فأنت لم تتبدّلي حتى في العام الذي عدت به متزوّجة، بل كأنّ الزواج فتح قابليتك للغزل وأردت المزيد من المعجبين، كأنّك لم تشائي أن يطوي الزواج صفحة عليك، وها أنت الآن تجلسين وكأنّك تراقبين بامتعاض هَرْجي مع جمانة.

تتدخّل أمّك ضاحكة قائلة للشابّ الجذّاب:

– «حاج عيونك عالبنات يا ملعون، والله فاهمتك».

يردّ وهو ينظر في عينيّ أو يقبّلني ويضمّني إليه رغم الطاولة بيننا وما عليها من كؤوس وصحون وزهور.. «لا والله أنا عم غازل الست ايفيت» ضحك الجميع، ست ايفيت صاحبة الدكان التي منذ الصغر كانت تعِدُنا كلّما رأتني معك بأنّها سوف تعدّ لنا قالباً من الكاتو. ضحكت الست ايفيت ومدّت كأسها وقد علّقت ورقة بقدونس

بين أسنانها: «كاسك وكاس الشباب» قال لها: «اكرعيه يا ستّ ايفيت وإلك بوسه». كرعته الست ايفيت بسرعة ثم غطّت وجهها بكفّيها، فكّرت أنّ هناك فعلاً شقّيْن، لا أتصوّر هذا الجوّ المرتاح يخيم في شقّنا، لا في بيروت ولا في القرى، لا قبل الحرب ولا بعدها، بل إنّ الأمل في توفّر جوّ كهذا ولو بعد سنوات طويلة بات غير وارد. ربّما لو لم تحدث الحرب لكنّا على هذه الدرب.

عدت إلى الطاولة، أعادتني حرارته، عيناه تقولان لي: «خلّليني آخذك تحت هالشجرة وبوسك». لذلك وجدتني لا أعود أنظر إليه، أخذت أشعر بالخجل كلما فتح فمه ليتلو بيت زجل، رغم أن الأنثى كانت في أبياته بصيغة الجمع...

«من لما.. العرسان راحو اللّيله وتركوني مع حبّات اللولو..

... وقلبي بيوقف ويدقّ أنا بقلّلو

... اسكت إنت وقت اللولو ما هلأّلولو...»

تمنّيت لو التصق به تحت الشجرة، أريح وجهي على صدره أقول له: «قلبي عم يدقّ، إذا مسكت إيدي غبت عن الوعي، صار لي زمان، أي زمان كثير ما حدا تأملّني، وغازلني هيك، مظبوط من زمان، ما حدا دعاني على السينما أو على مطعم عالبحر حتى نمشي ونحكي ،نتغازل وأرْضى شوَيّ وأتدلّع شويّ، هون في سينمايات وفي مطاعم عالبحر، بس بكره لازم أقطع عالغربيّة إذا مش بكره، بعد بكره، إذا مش بعد بكره بعد أسبوع، بصراحة أنا حاسّة مش ببلدي، أنا سايحة، راحت عليّ، بس أنا مش دايماً بفكّر هيك... أوقات من قبل كنت قول إنه الحرب عطت معنى لحياتي، الآن فهمت انه راحت عليّ، مش ممكن أفتح قلبي إلك.. لليلة واحدة؟ مش لأنك مسيحي.. بس لأنه في قطعة بكره، وانت مش راح تسترجي تقطع عالغربيّة، يمكن انت تعوّدت على الفكرة أنا من هونيك لأنك شربان ولأنّي صاحبة حياة، وانت يا ترى مثلي ومثل حياة لا شرقي ولا غربي؟ بس أنا صايرة كلّي ظنون.. النّاس عم تتبدّل عندي.. ناس كنت أعرفهم وهنّي تلاميذ وصاروا أساتذة رجعوا وصاروا للخلف

مية سنة، انحازوا لجهة، يمكن يجي دوري وأنحاز أنا!! مين بيعرف؟ يمكن وقتها برتاح، الانتماء حتى للشياطين الصفر يمكن أفضل... القرار مهما كانت نتيجته صعبة بخلّي الواحد يرتاح، والمتعصّب بصير يلاقي كثار مثله. ياخذ ويعطي معهم، يللي منتمي لشقّي. بيكره الكلّ حتى اللّي على الحاجز من شقّكم، وأنا بالعكس دايماً بشعر انّه بدّي أحكي وطقّ حنك مع اللّي عالحاجز، كأنّه بدّي يضحك لي ويغازلني، بشعر دايماً بدّي تأكيد منكم بدّي عاطفة منكم، بدّي الأمور تكون مثل زمان.. زمان.. بس هلّق أنا شربانة، ما بدّي شي إلاّ ريّح راسي على صدرك».

نظراته تخترقني، لكن تفكيري بما أريد أن أقوله للنظرات، زادني تعاسة، للحظات، ثم عاد الدفء من جديد يمتدّ إليّ عبر صوته، عبر أسنانه التي تظهر كلّما ضحك عالياً، وهو يغازل إيفيت: «ببيع حياتي كلّها لأمسك إيدك... لبوسك على تمّك.. لا غيّرت فكري ما عندك أسنان، طيّب على خدّك».

تجيبه: «إذا جاي عبالك تشمّ ريحة الهبرة، يلّلا، أنا من الصبح عم دقّ كبّة الجرن».

يضجّ الجميع بالضحك على ردّها هذا، فيزداد شعور الشابّ بإكمال هذا الغزل الضاحك، فيسألها أن تشرب معه كأساً أخرى وهو يقترب من فمها بكأس مليئة وهي تبعده عنها: «هلّق أضراسي بيوجعوني وحلقي بيلتهب». وعندما انتشل قطعة الثلج من الكأس، أبعدت وجهها وهي لم تزل تضحك: وحياة مار مارون، حلقي بيلتهب».

فأجابها: «شوفي هلّق مار مارون نايم، شوفي، هو مغمّض عيونو، بس شو بيعمل، هو تمثال، ومجبور يبقى واقف».

مار مارون؟ عرفت أنّ النقطة المضيئة هناك، التمثال الأبيض هناك، الذي كنت أظنّه المسيح هو مار مارون.. «مار مارون» وشهقت أنت تتذكّرين، مار مارون «يي شو كنت خاف منّه.. ستّي أم جورج كانت تخوّفني فيه إذا ما شربت كباية الحليب كلها».

شعرت فجأة بالحنين إلى حياة الماضية رغم أنّي كنت تحت تأثير هذا البناء الذي بدا تحت قدَمي التثمال وكأنّه دودة قزّ بيضاء امتدّت عرضاً، وسألت بلهفة: «إذا كان هذا مستشفى دير مار مارون؟ وعندما قيل لي بأنّ هذا هو، هبط قلبي وهمست: «حرام فضيلة!» لا بدّ أن صوتي جاء عالياً إذ سألتني أم حياة: «مين حرام؟» أجبت وكأنّي أخيراً أتتني الفرصة للتعبير عن صمتي: «أم فضيلة، بمستشفى مار مارون»، وكنت قد عرفت ما يدور في عقل الآخرين».. فضيلة.. ما هذا الاسم العتيق، الفلاّحي، المسلم».. وسألت ايفيت مستغربة: «وأهلها هونيك عندكم».. قلت: «أهلها دايماً بيقطعوا ويزوروها هون»، ولم تستطع فضيلة إلاّ أن تشقّ الصخب ونظرات الشابّ الجذاب وتصل إليّ.

تتراءى لي فضيلة وهي تستحلفني بصندالها الذهبي العالي وبسحنتها البيضاء وعباءتها السوداء المطروحة فوق كتفيها، تستحلفني بيديها السمينتين والعلكة بين أسنانها لأن ترافقني إلى الجهة الشرقيّة، لا أعرف من أين تطلع. فضيلة في وجهي كلّما همت أو فكّرت بزيارة أصدقائي في الشقّ الآخر. يلحّ عليّ أن أصطحبها معي فتزور امّها في مستشفى المجانين هناك، أتمنّع، فيزيدها ذلك إلحاحاً، آتيها بالحجج فلا تسمع، بل تشهق وتضرب صدرها، لائمةً نفسها لأنّها لم تكن تعاود زيارة امّها بالقدر الكافي وهي لا تستطيع السفر وحدها، لأنّها لم تعد تسيطر على خوفها وعصبيّتها كلّما وجدت نفسها وحيدة في سيارة في الشقّ الآخر باتجاه مستشفى مار مارون. أخبرتنا عن زيارتها الأخيرة كيف فتحت علبة البقلاوة تقدّمها للسائق كي يتناول منها قطعة، فربّما زال خوفها منه لكنّه رفض قائلاً: «مرسي» ووجدت نفسها تبحث عن علبة سكائر اشترتها خصّيصاً لهذه الرحلة حتى تبدو امرأة قويّة الشخصيّة وأخذت تنفث دخان السيكارة وتسعل، فهي عادة لا تدخّن، وبدلاً من أن تلعن الشيطان على جاري عادتها عند السعال، راحت تلعن حزبي أمل وحزب اللّه، مقحمة السائق في القضية:

– «بشرفك، سمعت حدا بيعمل حزب لربّه غيرنا؟».

وإذ لم يجبها السائق، تشاغلت بفتح كيس النايلون لتتأكّد أنّ العباءة السوداء لاتزال محشورة في القعر، تُخرج علبة شوكولا وتقدّمها إلى السائق الذي يمتنع هذه المرّة أيضاً. تؤكّد فضيلة لنفسها أنّه يظنّ بأنّ العلبة مسمومة، لديه الحقّ، فشطرا المدينة التي ينتميان إليها عدوّان متحاربان. وقصص الجواسيس بين الشقّين في انتشار. تخاف وتحار في أمرها. تعود فتقرب منه علبة السكائر وعندما يمدّ يده متناولاً سيكارة ترتاح قليلاً لكنّ الخوف يعود إليها من جديد حين تدرك فجأة أنّها لم تعد تسمع أبواق السيّارات بل ولا ترى سيّارة واحدة على هذه الطريق الوعرة، ولهذا راحت تخبره عن العذاب الذي يلاقيه أهل الغربيّة في معيشتهم وهي تكاد تبكي من الخوف، ولأنّ السائق اكتفى بهزّ رأسه أخذت تخبره من جديد عن ولائها للمسيحيين وكيف أنّها لم ترض أن تودع أمّها إلاّ في مستشفى ما مارون، غير مبالية بالتكاليف التي بلغت ثلاثين ليرة يوميّاً، ولا ببعد المسافة أو مشقّة العبور من الغربيّة إلى الشرقيّة... «مستشفيات الغربية فوضى، المجنون عندهم مجنون!».

عندما زاد السائق من سرعته أيقنت فضيلة أنه سيذبحها، سيقطّعها إرباً إرباً ويرمي بأشلائها في تلك الساقية أو عند منعطف الجبل ذاك، الاغتصاب أهون إذا أراد اغتصابها، ستتركه يفعل ما يشاء بها إلاّ التخلّص منها بقتلها، قطعت الصمت وتحدّت الخوف قائلة له بتوسّل: «لو بعيش هون، معزّزة مكرّمة.. هون الحياة! مش عندنا».

لهولها، ضرب السائق فجأة بكل عزمه عجلة القيادة، رمى السيكارة من الشبّاك وزفر زفرة عالية وكاد ينحرف جانباً بالسيّارة وهو يصيح بها: «ولك خلصيني من هالحكي.. هونيك أجَلّك حياة خرا.. وهون أجَلّك حياة خرا..» ومع ذلك لم تشعر فضيلة بالارتياح تماماً إلاّ عندما تعرّفت على الفندق الذي انزلتْ به ملكات الجمال سابقاً والذي كان على مقربة من المستشفى، فأخذت تشكر لطفه ومروءته قبل أن تترجّل من السيّارة، وهي تقدّم له من جديد قطع البقلاوة والشوكولا والسكائر، وعندما قال لها: «بالقليلة بعد في

عندكم محلاّت الصمدي..» أجابته بكل ودّ: «واللّه تعطيني عنوان بيتك، المرّة القادمة أسلّم مدامتك أكبر علبة بقلاوة، ولو بحر بقلاوة ما بيكفي مروءتك وحسن أخلاقك، حاملين أمي وحاطينها وحاضنينها برموش عيونكم....».

وإذ تهمّ فضيلة بدخول المستشفى لا تستطيع إلا أن تستشهد بالخالق وهي ترى الجبال والوديان المنحدرة حتى البحر، تنبّهت إلى شهادتها، فضربت على فمها. التفتت حولها بغتة خوفاً من أن يكون أحد قد سمع شهادتها، لم ترَ سوى الممرضات يمشين هنا وهناك. ضحكت وهي تتذكّر اليوم الذي أدخلت فيه أمّها المستشفى. كانت مسكورة القلب تتودّد إلى أمّها طوال الطريق وهي تمسح لها شعرها طالبة منها الغفران لأنها ستودعها هذا المستشفى البعيد، ثم أخذت تلقّنها أن تقول يا عذراء بدلاً من النبيّ محمّد والإمام عليّ، وباسم الصليب بدلاً من بسم اللّه الرحمن الرحيم، حتى يحبّها الجميع خاصة الممرّضات. والأمّ تردّد خلفها يا عذراء وباسم الصليب بصوت طبيعي مطيع لم تعهده فضيلة بأمّها من قبل. لدرجة أنها شكّت بأن تكون أمّها مجنونة فعلاً، وفكّرت: «لعلّها الحرب».

ولكن ما أن داستا عتبة المستشفى حتى رفضت الأمّ أن تخطو خطوة أخرى قائلة إن الدجاجات تضربها بأجنحتها وأنها خائفة من أن تدوس على أعين الأطفال إذا هي مشت. ولما أجبرتها فضيلة على السير ووجدت نفسها في رحاب المستشفى شهقت أم فضيلة صائحة:

«اللّهم صلّي على النبيّ محمد وآل النبي، وعلى نساء أهل البيت الطاهرات» وهي تشير إلى الراهبات بثيابهن البيضاء.

لم أخبرك بكلّ هذا والذي مرّ عليّ بلمح البصر والذي غاب حتّى قبل أن أسمع الشابّ الجذّاب يقول لي: «يلّلا حتّى آخذك عند هالماسورات كلّهن بيعرفوني. غيّرنا كل الكهرباء بالدير من مدّة، يلّلا قومي تآخذك. شو ناطره؟.» إنّه يريد الاختلاء بي، يريد أن ينفرد بي تحت الشجرة، أريد أن أريح رأسي عند صدره. لا يهمّني أن أتلو

عليه قصّة أمّ فضيلة. أريد أن أمسك بيديه وأمرّ بهما على شعري. أجيبه بلهفة: «يللا» فتتدخّلين أنت قائلة: «بأن الدير لا بدّ أن يكون مغلقاً». وجدتني أسرع في النهوض وأنا شبه مترنّحة من جراء كأس العرق الثالثة التي رست عند ركبتيّ وقدميّ، لا يمكنني البقاء والنوم من غير الحرارة التي سوف تمتدّ بيني وبينه.. وشعرت رغم كأسي الثالثة أنّك ضد هذه الفكرة، لكنّي نهضت غير مبالية بنظرتك المستغربة تصرّفي هذا، بينما عرفت من غير أن أنظر إلى جمانة بأنّها تتمنّى لو أن يسحبها آخر إلى حيث سحبني الشاب، إلى أشجار الزيتون عند الدير، وكانت البرودة قد امتدّت إلى زجاج السيّارة. رغم عناقنا إلاّ أنّي لم أستطع أن أبعد صورة أم فضيلة، وهي تستند بكلتا يديها إلى حديد الشباك، بينما وقفت الراهبات بأجنحة فراشات رؤوسهن المنشاة، يلحسن شواربهن بصمت وهن يتأملنني وأنا بين ذراعي الشاب، أتمنّى لو تزول من السيّارة جميع المعدّات الميكانيكيّة التي تعوق من تمدّدنا بارتياح معاً، لكن الكأس الثالثة تجعلني أنسى وأصبح كلّي في مكان واحد. كلّما أسرعت، كلّما دخلتني أجنحة فراشات رؤوس الراهبات ثم وكأنّي أدخل باب الدير، أدخله وأدخله لأجدني في غرفة أحد الأسرّة أرتعش وكأنّه فارغ من المرضى ومن المجانين.

عندما عدت إلى بيتك تراءى لي أن الأضواء لم تزل في الغرف لكنّي كنت واهمة، فالفجر قد أطلّ والجنيناتي كان ينشل رؤوس البطاطا ويكوّمها على حدة، والباب مفتوحاً، أسرعتُ إلى غرفتك ولم أجدك بها بل وجدت جمانة.

وبدلاً من أن يعيدنا غيابي إلى أسرارنا كالماضي، زاد من الهوّة التي أخذت أراها بيني وبينك، والتي كانت تمّحي أثناء إقامتك عندي، خاصّة عندما نذهب إلى البحر، وعندما ندخل الجامعة الأميركية لتعود الهوّة تكبر بيني وبينك، وأنا أسمعك تنتقدين ذهابي مع الشابّ الذي يصغرني وتسرّين إليّ بأنّ تصرّفي ذاك لم يكن طبيعيّاً وأنّي ربّما كنت بحاجة إلى استشارة نفسيّة، هكذا من غير أن يرمش لك جفن، أو أن تحاولي فهم كيف أصبح نمط الحياة في

بيروت. لم أهتمّ وقتها إذ كنت أبتهل ألا تبدأ مناوشات المعارك التي كانت كالرذاذ طائرة في الجوّ، فأنا المسؤولة عن سلامتك، وسلامة متاعك وسلامة الطائرة حتى تصلي بروكسل، وما أن سافرت حتى تنفّست الصعداء وعدت إلى روتيني اليومي.

غريب، كم أنت معي الآن، أشعر بصوتك وبوجودك وبلهفتك. أستطيع أن أتصوّر إصبعك وهو يدير رقمي. لا بدّ أن قلقك عليّ عظيم إذ أنا قلقة على نفسي من هذه المعارك. هذه المرّة أشعر بالخوف حتّى من صوت الأسلحة الجديدة.

شارعنا يهتزّ الآن من القذائف. عشرون قذيفة في الدقيقة الواحدة. وكنت قد مسحت شعري بزيت الزيتون عندما دخلت زمزم إلى غرفتي، لاحظت أنّ كلامها قد اكتسب نبضاً وقوّة، ربّما لأنّها كانت تسترق الأخبار من الجيران ومن الملجأ، بينما لم أفارق سريري وغرفتي. كذلك جدّتي لم تفارق غرفتها. اقتحمت زمزم شرودي وصاحت كمن تولول: «بدهن يطلعوا بمظاهرة، بدهن يحملوا مصاحف ويلبسوا عبايات» أجيبها بسرعة: «حدا من الاثنين دافعهم حتى يكسبوا من الهدنة».

تصيح بصوتها الناشز: «أنت كل عمرك هيك، إذا إصبعك مش عم يحركش بالطبخة يعني مش طيّبة، بدهن يتظاهروا لأن الجيش السوري راح يدخل الضاحية.. لأنّه حزب اللّه بقولو ربحان، وأمل آكلتها مظبوط».

تُظهر زمزم كلّ غلّها وكبتها، منذ أن بدأت المعارك وهي تحاول أن تشركنا بذعرها. بينما نجد أنفسنا نغوص أكثر في استسلامنا وهدوئنا. ولم تندم زمزم على صراخها بل أضافت: «ليش مدفوعين! مالشباب عم تقتل بعضها، الاثنين من جبّ الإمام علي يللا قومي بينبسطوا لو بتمشي معهم.. يللا البسي.. قفطانك الليلكي.. يللا».

الجيش السوري، حزب اللّه.... ماذا عن ريكاردو. هل تذكرين ريكاردو؟، «يحي» ابن أخي فضيلة، الذي ما إن رأيته في إحدى زياراتك في المطار حتى لمعت عيناك غير مصدّقة حدسك الذي أوحى

إليك بأنّ هناك شيئاً ما بيني وبينه، وطبعاً لم أخبرك، فأنا ابتدأت أخفي عنك ما يضايقك. انه على بالي الآن، رغم أني متأكدة أنه لا يخوض المعارك: لا بدّ أنّ عمّته أوصدت عليه الباب، خائفة عليه لا من السوريين بل من يأسه.. سوف يكتشف أنّه أسقط نفسه سهواً في اللاشيء. ورفقاؤه في الحزب؟ لا أشعر إلاّ بالشماتة تجاههم، تجاه الشيخ المودرن، تجاه كاظم. أين هم الآن. هل يحاربون؟

هل هذا البيت يسمع ضجيج أسلحتهم الآن بدل نقاشهم الذي كان يدوي منذ أسبوع؟

كاظم الذي أصبح يتردّد عليه ويأتي بأخيه، بالشيخ المودرن، لزيارتي قصد التسلية ولا لإقناعي بمثاليّة وبضرورة وجود «حزب اللّه». منذ أن ظبط ريكاردو في محلّين خطيرين وظنّ أنّه يتجسّس على حزب اللّه، ولم يقتنع أحد أنّ ريكاردو يودّ الانضمام إلى الحزب إلاّ عندما اصطحبه كاظم إلى بيتنا بناء على طلب من ريكاردو بعد أن كانت عمّته فضيلة خارج البيت وكانت تلك المرّة الأولى التي أرى فيها ريكاردو بعد أن سافر إلى أفريقيا بعد عشر سنوات عن إقامته في لبنان والذي جيء به منها وهو صبيّ لا يتعدّى الرابعة من عمره. بعد إصرار والد فضيلة على ذلك. بعدما أتته الأخبار بأنّ امرأة أفريقية أنجبت لابنه صبيّاً وأخذت تطوف الجالية اللبنانية بحثاً عنه بعد أن فرّ إلى منطقة أخرى وتزوّج من امرأة لبنانية. ولم يستطع ريكاردو التأقلم في بيت أخذ الجنون يخيّم على سقفه عدا أنّه لم يعش حياة طبيعيّة تقرّبه من الأولاد الآخرين أو من الجيران فيلجأ إلى دفنهم بدلاً من صقيع بيت جدّه، فهو من أمّ أفريقيّة مجهولة لذلك ما أن تبيّن ريكاردو موقع بلده، بين بلاد خريطة العالم حتّى ترك لبنان ولم يعد إليه سوى أثناء الحرب بعد أن بدّل اسمه من ريكاردو إلى «يحي» وكلّه إيمان بالاستشهاد وبالجنة وبحوز العين، عاد آملاً أنه يقود طائرة في سماء بيروت ويرمي القنابل على أعداء اللّه من السياسيين لأن حلفاء اليوم هم أعداء الغد حسب السلاح والمادّة. أمّا الدّين فهو فوق كلّ شيء، لا حليف له ولا عدوّ: «القائد لازم يكون الله، مش بني آدم، فقط الله لأن بني آدم ضعيف... ويتحارب مع غيره».

كان كاظم يسمع حديث ريكاردو ويعود ويصوغه مستعملاً الألفاظ والمصطلحات العقائدية قائلاً بأن الدّين هو الحلّ. وبأنّه قد أتى نتيجة ردّة فعله لفشل الأحزاب السياسية التي انتمى إليها: «واجهناهم بالسلاح وبالوطنية والأعمال الفدائية شو كانت النتيجة..» إذا واجهناهم بالإيمان وبالدّين تفوّقنا عليهم شوفي إسرائيل لأنها دين واحد هي القوية لازم الدين هو اللي يصير الحكم».

فيتدخّل الشيخ الوسيم نزار الذي كان يلبس البنطلون الشبيه بالجينز وسترة جميلة الألوان. كان يفوح العطر من لحيته وهو يستذوق القهوة ويثني على سجادة الصالون العجمية وينسبها من شكل ورودها إلى قرية ما في إيران وبطري شجاعة ريكاردو قائلاً: إنّ الدّين الاسلامي قد امتدّ إلى أفريقيا السوداء حيث كان ريكاردو وحيث العراة نافياً دور شيخ الجامع هناك الذي كان الوقود لحماس الشباب وصلة الوصل بينهم وبين ما يحدث في لبنان مضيفاً أن يوماً ما أميركا كلّها بدها تصير مسلمة وإن شاء اللّه الست اسمهان صاحبة أجمل شعر تعود إلى الإيمان».

كلمة مظاهرة تعيدني إلى حرب ٦٧والكليّة تضج بالقهر وبالمظاهرات. تسألينني أنت إذا كنت أحبّ لون بودرة الجفون الجديد، وأنت تمدّين إليّ وجهك وتغمضين عينيك حتى أراها. فأصعق وقتها لسؤالك، أمّا الآن فأعترف بأنّك كنت نبيّة من غير أن تدري. نبيّة «مودرن»، تنظر إلى ما وراء الأيّام.. بعينيْ أشعّة، تتكهّن بما يجب عمله، مستمدّة هذا الشعور من الواقع. كنت جريئة وأعترف جهراً بأنك مهتمّة بالفرد لا بالأوطان. وبالذهاب إلى البحر عوضاً عن الانخراط في مظاهرة. لأنّك كنت ترطنين باللّغات الكثيرة وتحافظين دائماً على مظهرك. حتى في فرشاة الأسنان. اعتبرناك على الهامش رغم تفوّقك الباهر في الكليّة.

والآن أجدني أرفع لك قبّعتي. وأعترف بأن سفرك عن هذه البلاد كان نبوءة. كأنّك تكهّنت بأن الحرب لن تنتهي بأيّام أو بأشهر كما اعتقدنا، وأنّ الحياة أهمّ من أن نقضيها في الانتظار، فجميعنا نسي

لما ابتدأت الحرب. كذلك تاه عن سببها حتّى الذين أشعلوها. فهم يحاربون وينالون الهدنة ويتصالحون ويحاربون دون أن تجدي حربهم أو حتى سلامهم.

لولا هذه الفسيفساء أمام ناظري، لما كنت صدّقت أنّي ذهبت إلى حيث أشارت لي أمّك أن أذهب، إلى صديق عائلتكم المهندس حتى يساعدني بالإتيان لك بواحدة ثم إلى بائع الفسيفساء. لولا هذا الكيس لما صدّقت بأنّي توغّلت قبلها في أزقّة الضاحية وأتيت لك بالعباءة. كأنّ هذه الروحات إنّما هي من اختراع العقل حتّى يبثّ الأمل في الجسم من جديد، فيجعله يمارس نفسه الماضية.

قصدت أوّلاً الآرتيزانا لأشتري لك عباءة، لكنّي لم أر اللّون الذي يليق بك. أعرف أنك تودّين أيّة عباءة تبدو «أوريجنال» في أوروبا مهما كان لونها. لكنّك تعرفينني كم أحبّ الألوان، وإذا بالبائعة تهمس بأذني بلهجة جنوبية بأنّ في الضاحية يبيعون عباءات من جميع الألوان كهذه طبق الأصل إنّما بنصف الثمن. لاحظت أنّها تحاول أن تتخلّص من لهجتها الجنوبية وأن يكون شعرها على آخر طراز. كذلك فستانها، لكنّها لم تفلح بإخفاء لهجتها أو اخفاء السنّ الذهبيّة بوضع كفّها على فمها كلّما ابتسمت.

ذهبت إلى عنوان العباءات الذي أعطتني إيّاه. لطالما ظننت أنّي أعرف الضاحية جيّداً إذ نحن على أبوابها، لكنّي تهت إلى درجة أنّي لم أعد أتحمّل تيهاني واستعلامي المتواصل. ربّما كان عدم تركيزي ينبع من الهاجس بأنّي لست في الضاحية ولا في بيروت، بل في ضجيج أزقّة هونغ كونغ. من طرطقة الحديد إلى دروزة المكنات. الرمل الزاحف إلى داخل حذائي. الذبائح، الذباب، باعة الخضر. باعة فرش النوم. مستنقعات، أغانٍ تصدح، ناس تتدفّق، الأبنية عجيبة تنبت كأغصان في كلّ الاتجاهات. حتى السطوح أصبحت غرفاً بعد أن أضيفت لها السقوف فقط. سراديب، أغنام، سكائر، ملبوسات، دكاكين تعرض فيها المصوغات الذهبية، الطرق هي الأسواق. الشاحنات تقف عند فتحة الزواريب، تسدّها لدرجة أنّ المارّ يزحم نفسه بينها وبين الجدران حتى يتسنّى له المرور،

الحمّالون يعبّئون ظهرها بما تنتجه المعامل الصغيرة والكبيرة تحت الأرض وفوق السطوح وبين الغرف. ملبوسات وأدوات ميكانيكية وألعاب تبدو أنها جاهزة للتصدير. أقرأ على الصناديق الخشبية أو الكرتونية «صنع في ألمانيا» بدلاً من صنع في لبنان وعلى ثالثة «صنع في إيطاليا».

لم تكن هذه المرّة الأولى التي آتي بها إلى الضاحية، بل في كلّ مرّة أقصدها رغم أنّي تردّدت عليها مدّة أثناء مساعدتي لصديقة طبيبة إنسانيّة كانت تعدّ دراسة عن أطفال لبنان في الحرب. في إحدى مدارس الضاحية، التي كانت اسطبلاً للخيول. كنت كلّما دخلتها رفعت قدمي أو حافري كأنّي حصان حتى أتخطّى عتبتها المنخفظة. تداهمني رائحة الخيول التي سرقت والتي كانت تخيّم على كلّ شيء من الجدران إلى رسوم الأطفال.

وفعلاً وجدت عباءة باللون الذي أريده. وبنصف الثمن. إنها كما أخبرتك فوق المغسلة تنتظر من ينقلها إليك. بعد الضاحية مباشرة قصدت منزل المهندس خوفاً من أن يجعلني كسلي أؤجّل ما عليّ أن أفعله، وكان دخولي إلى بيته تجربة. فأنا ما أن رأيت بلكونه الفسيح، حتى عرفت سرّ بقائه في هذه البناية في قلب الغربيّة، فهو كان بعيداً عن الحرب. لم تكن تصل إليه معارك صواريخ السماء ولا متفجّرات الأرض. كان المهندس يرى كلّ الأمان على الأرض، عبر أشكال النّاس التي تبدو من هذا الارتفاع الشاهق قصيرة، صغيرة. والدبّابات والمدافع كأنّها دمى وأسلحة، الرجال كأنّها أعواد ثخينه. تبدو الحرب في هذا الارتفاع وهماً، كذلك هندسة هذا الطابق في البناية التي لم تزل تحمل سمات جمالها من الماضي سواء بهندستها أم باختلاف حجرها.

رحّب الرجل المهندس بي، وكأنّه يعرف وقع بيته على الزائرين، إذ تركني أنظر إلى الكنبة الجلدية الكبيرة في وسط المساحة إلى جانب البيانو والسرير ثم طاولة الفليبرز. والأرض كانت من الحجارة الكبيرة التي لم يزل فيها حسك الأسماك. ثم الفسيفساء. امرأة عارية تفتح منشفتها بينما يحوّم فوقها صقر في حجمها،

ويسحب بمنقاره المشنفة عنها وحولها أشجار البلح والطيور وأربع أوان بينها الزهور ودواليات العنب.

اعتذر لي بأنه لن يستطع أخذي إلى البائع لكنّه شرح لي أين أجده لأذهب مباشرة إلى حيث دلّني. ولدهشتي كان في بيت. فتحت لي زوجته الباب وتأهّلت بي كأنّها تعرفني من زمن. ونادت ابنتها التي دخلت بأكواب الليمون. كانت رائحة الغاردينيا قد انتشرت في بيتهم الذي اختلط أثاثه الذهبي من طراز لويس الرابع عشر بتيجان العواميد الرخاميّة والتماثيل. يطلّ الزوج بعد لحظات ويمدّ يده لمصافحتي وكأنّه يدلق قنينة الكولونيا على يديّ ثم ليقودني إلى المرآب. لولا صوته العالي ودرّاجة ابنه الناريّة لظننت أنّي في غرفة بيزنطية أو كنعانية. رغم أن الرطوبة والبرودة كانتا تجثمان على الغرفة، فإنّ التماثيل مدّتني بدفء غريب، حدس البائع بأنّي هاوية إذ كلّما سألته عن التماثيل التي راقت لي أشار إليّ بأنّها مزوّرة. لمس قدَماً من رخام وخبط عليها بيده وكأنّه يداعبها، وكأنّها قدمه أو قدم أحد أولاده وقال: «مثلاً هيدي حقيقية، بس منباعة». ثم كان صريحاً لدرجة أنّه أخذ يدلّني على المزوّر والحقيقي، المهمّ وغير المهمّ، لم نغادر هذه الغرفة إلاّ بعد أن سألته عن الفسيفساء. خرجنا إلى مدخل البناية ثم إلى حديقة، وهناك نهض رجل يتبعنا، تعالت طلقات في الفضاء، لم نهتمّ لها لكنّها جعلتني أفكّر ماذا يحلّ بالفسيفاء إذا وقع عليها صاروخ؟ بعدها شعرت بكراهية تجاه الرّجل، لكنّ ابتسامته وصدقه جعلاني أبدّل رأيي بسرعة. عند باب الحديقة كانت قطعة فسيفساء ملقاة، ما أن تلكّأت في السير وأنا أنظر إليها، حتّى علّق قائلاً: «غشّونا فيها اللّه يغشّهم». وحين فتح باب الغرفة ورأيت ما عنده من قطع الفسيفساء، عاد الشعور بالكراهية تجاهه يشتعل بي من جديد، وأنا أراه يتخطّى فسيفساء متناثرة على الأرض ويسأل مساعده: «شو قضيّة هاالنسوان» أجاب مساعده: «واللّه ما بعرف! جرّبنا تركيبها بس كثير صعبة. لأن خصايل العنب بيناتهن،» «ثمّ ليحدّثني عن جمال هذه الفسيفساء الباهر قبل أن تتلف»... انحنيت عليها، بدا وجه امرأة في الوسط..

عنقها ويدها وكأسها وقسم من ثديها، ثم لتضيع أجزاؤها وتصبح حجارة صغيرة ملوّنة متفرّقة هنا وهناك، فيتّخذها النمل والحشرات بيوتاً لها. قلت بإلحاح «لازم حدا يرجع يركبّها. لازم تجيب حدا من سوريا». أجاب المساعد: «الغلطة على اللزيق اللي بحطّوه على الوجه حتى تطلع الصورة مثل ما هي بس الظاهر استرخصوا وما حطّوا لزّيق كفاية أو جنس منيح».

ضاق البائع ذرعاً بقرفصتي التي لا بدّ أنّها طالت. وخفت على النّساء الثلاث من أن تضيع كؤوسهنّ ووجوههنّ وصدورهنّ المتفتّته تحت الأقدام هنا بعد أن عاشت قروناً، وها هي الآن تموت على هذه الأرض الوسخة تحت دعسات حذاء «تنس الشوز»، بين جدران حفظت أصوات المتفجرات. تنام على الأرض، إلى قربها قنينة بيبسي كولا حشر صرصور فضولي نفسه في عمقها. وصورة لمطربة شعبية تبدو كأنّها فزّاعة ليل. ووجدتني أقترح على الرّجل فكرة ترميمها بنفسي. «صعبة... مثل تنقاية الملح برموش العين». لكنّي لم آبه لجواب بل سألته بلهفة: «إذا كان يملك صورة لها»، ويبدو أنّ صدره لم يعد يحملني خاصّة بعد أن بان الشكّ الذي أخذ يساوره بأني لن أشتري شيئاً. اعتذر له عن طلبي وأنا لم أزل منكبّة فوق هذه الفسيفساء أوهمه قائلة بأنّي أعرف من يعيدها إلى ما كانت عليه من غير مقابل. ويبدو أن موضوع المال لم يكن يشغل باله مطلقاً، إذ علّق: «حتى بمصاري أنا مستعدّ، بس مستحيلة إلاّ إذا كان الواحد عنده صبر أيّوب. وأنت بتعرفي مدام هلّق كيف صار الواحد.» ثم تقدّم من الطاولة وفتح درجاً وأخرج منه رزمة صور قلبها بسرعة ومدّ لي صورة النساء الثلاث كما تخيّلتهن. كانت شعورهن متطايره، أثيريه ونهودهن صغيرة جميلة وعناقيد العنب بينهن أشهى من حبيبات العنب في الفم الجاف. ولا أخفي عليك أني كنت قد عزمت على عدم شراء أيّة فسيفساء لك عندما رأيتها مكدّسة، وفكّرت أنه من الإجرام أن تعتلي هذه الفسيفساء جدراناً غريبة أجنبية، فأنا بين حين وآخر أجدني أنتقد كلّ ما يفعله المقيمون خارج لبنان وأنت واحدة منهن ووجدتني أشحن نفسي بحادثة عَنَتْ

لكلينا الكثير حتى أخرج من بين عشرات قطع الفسيفساء من غير أن أشتري لك واحدة ومن غير أن أندم.

هل تذكرين الأمّ الجميلة التي ترجّلت هي وأولادها وزوجها من السيارة تختار حجارة أثرية من قلعة بيت مري، بينما أولادها يدلّون ويصيحون: «هيدي ماما.. لا.. هيدي ماما». كأنّهم يكشتفون أين خُبّئ بيض الفصح. وزوجها يقف سعيداً لفرح أولاده، منتظراً أن تحسم المرأة أمرها ليجيء بساعديه الفتيّين ويمسك بالحجر، كأنّه ينقل جرناً لدقّ الكبّة من مكان إلى آخر.

أجدني أشحن نفسي بصوتك الصائح لأن يتركا هذه الأحجار وإلاّ... لكنّ المرأة لم ترفع نظرها إلينا حتّى عندما دحرجنا عليهم حجراً صغيراً. بينما أكمل الزوج نقله للأحجار ساداً أذنيه أمام صياحك وأنت تهدّدين وتأخذين نمرة سيّارته التي ركبوها بعد أن صفّقوا أيديهم من غبار الحجارة، وقد أخذوا بعض القرن الخامس في صندوق السيّارة قرب تنكة زيت ودولاب السيّارة الإضافي.

لكن وجدتني أدافع عنك أمام نفسي، وأسترجع وجهك بحنان، وأفكّر بأحجار مغارة قاديشا المثلّجة، التي أخذت تباع «كالترمس» وأفكّر إذا اشتريت لك قطعة فسيفساء كأنّها ستسلم من الجحيم عندك وستسدي خدمة لجمالها وللتاريخ.

وأخذت الفسيفساء وعباءتك تلعب معي لعبة «الاستغماية». كلّما توقّفت المعارك فترة، عدت أنظر إليهما بشكل طبيعي وأرى «علي» يخرج بها من الباب بعد أن يخطّ قلمي اسمك وعنوانك، لكن ما أن تعود المعارك حتّى لا أعود أعرف ما هذا الشيء ولماذا هو مسند على الجدار. هكذا طوال ثلاثة أيّام وأنا لا أفارق سريري وأرفض حتى الاختباء في الممرّ أو في غرفة المؤونة المحايدة.

رغم الهدوء الذي غلب عليّ إلاّ إنّي لا أخفي عليك أنّ الانفجارات قد اقتلعت من رأسي جذوره، وأنّي داومت على الاستلقاء وأخذت أؤجّل كلّ شيء حتى الذهاب إلى المرحاض وأنا أفكّر بأن آتي بمرحاض متنقّل تماماً كخال فضيلة، بائع الأزهار المتجوّل، الذي

كان كسولاً لدرجة أنّه وضع اللّوم على البرودة حتى لا يفارق زاويته في اللّيل بل ينهض ويتسلّل عند الفجر مخبّئاً وراء ظهرهِ وعاء بوله، ليهرع إلى وروده التي تركها عند المدخل، يضعها في الخارج رغم الصخب متمتماً: «الورد بدو شمس ولازم يتنفّس» فتلحقه فضيلة بلسانها، وتدلّ على وعاء بول قائلة: «وعاء شخاخك كمان بدو شمس ولازم يتنفّس».

أكتشف أن الاستلقاء يريح طنين الأذنين، وتحمّل جدّتي وزمزم، ويخلط اللّيل بالنهار والزمان. لكنّه لا يعود يستفزّ العقل لأن يلاحق ويستوعب المتحاربين ويضعهم في خانة. لذلك فمن الصعب عليّ وأنا في هذه الحالة أو بالأحرى وبيروت في هذه الحالة أن أفكّر بما أشعر به بوضوح تام. أنا الآن لا أستطيع أن أسمع رنّة صوت زمزم فكيف كلامها؟: «يا شحاري السورية عم يفوتوا عالضاحية». رأسها كان «كأم سكوكع» هل تذكرين تلك الزهرة؟ كم شعرت بالخجل وأنا أدعوها بهذا الاسم مشيرة إليها قبل أن أنتشلها من تربتها وأمعسها على باطن كفّي، ولاهتف ما أن فرزت اللون الأصفر، «عندها إسهال»، بينما بدوت أنت أمام أوصافي كأنّما أصابتك نوبة ذهول، فبالنسبة لك اسمها «عصاة الراعي» وكلمة إسهال وكلمات أخرى نسيتها كانت تفاجئك في البداية إلى أن اعتدتِ على أن هناك بشراً يختلفون عن الطريقة التي نشأت بها. أستطيع الآن أن أتذكّر كلمات كثيرة، مواقف كثيرة أدهشتك بي، لكن زمزم لم تزل تطرق رأسي بمطرقة. أتمنّى لو أنّ حبّة تنبت في لسانها كذلك في قدمها حتّى لا أعود أسمع كلامها العصبي ولا خطواتها المتعثّرة. إنّي أبدّل رأيي الآن «فأمّ سكوكع» زهرة جميلة، وزمزم ليست جميلة، حاجباها رفيعان، ملتويان دائماً يعسكان التعجّب والخوف. تصيح بي: «يللا نروح عملجأ البناية قبالتنا يللا».

وأجدني أجيبها: «ناقعة شعري بالزيت».

عزيزتي جيل موريل

سيرة المخطوفين أو الرهائن لم تعد على سطح الأخبار ولا على سطح الفكر إلاّ في هذين اليومين. بعد أن كانت قد ردمتها تفاصيل الأيّام.

ما يجري الآن من عنف في الثواني وقبل الثواني هي التي تحثّ الإذاعات المحليّة والعالمية لتأتي على ذكرهم بتواصل، لأن منطقة الضاحية حيث هم مخبّأون، تشتعل، لأن حزب اللّه وأمل يشيران إلى بعضهما، حزب اللّه يردّد أن أمل خائنة لأنّها تدعوهم بالمشاغبين وأمل تردّد أنّ حزب اللّه قد حوّل المنطقة إلى منطقة إجرام وخطف، وبيتنا يقع قرب حرج بيروت، عند مشارف الضاحية، دائماً أصرّ على أنه مشارفها. رغم أنّه أصبح منسوباً لها.

ما يخيفني هو النسيان والتراكم والتأقلم، فأنا قد فكّرت بك قبلاً بصورة ملحّة كلّما ورد اسمه، كلّما رأيت صورتك، كلّما سمعتك عبر الإذاعات، تنتظرين ولو بصيص نور عن حالته. تمنيت لو أساعدك. فكّرت بك كلّما مررت بأزقّة الضاحية ورأيت زاروباً كالمتاهة وزاروباً آخر كحكاية أبريق الزيت وزاروباً كأنّه فم حوت، كلّما لحقت بالإشاعات بأن المخطوفين في هذا البناء، لا في ذلك المرآب. لكن ماذا أفعل بالنسيان والتراكم والتأقلم؟ وبالفكر الذي يقفز وكأنه حصان فوق الحواجز. ليعود به السائس إلى نقطة البداية؟ وكذا نعود إلى أنفسنا.

لا أخفي عليك بأني عندما سمعت أوّل مرّة نبأ حبيبك المخطوف

مكارثي خطر ببالي بول مكارتني والبيتلز رغم فارق التاء والثّاء بين الاسمين. وتساءلت ترى ماذا حلّ بأسطواناتهم؟ وأخذت أسترجع في ذاكرتي غلاف الأسطوانات الواحدة تلو الأخرى خاصّة تلك التي يقفون فيها مستندين إلى الباب ومن على جانبهم تمثال وسطي لامرأة على رأسها قبعة سوداء. لطالما فكّرت من هو صاحب القبعة جون أو رينغو؟ ومن فكّر بطرحها على التمثال؟ أسترجع ظلمة التتخيتة حيث تتكدّس الأشياء خاصّتي والتي لم تكن تجرؤ زمزم على رميها مع أنّ الفعل هو واحد. فنحن كأنّنا نرميها في «التتخيته» وننساها. وجدتني أشتاق إلى تتخيتة بيتنا الذي ولدت به وبقيت به إلى أن توفّي والدي وحرقت أمّي مخلّفاته وكادت تحرق البيت. لحظة ما أُدير مواجهاً «القبة» وابتدأت ولولة حوله أسرعت أمّي تكوّم أغراضه التي اعتاد أن يجمعها وتطعمها للنار التي امتدت السنتها تلطم الجدران والسقف وتطقطق الخشب. ارتفع الصياح وسعال الجميع بين الولولة، وهم يحاولون إطفاءها بدلق الماء عليها، فاختلط الصخب مع طرطقة الأواني وعلب الحليب «النيدو» الفارغة، عندما أخذت النّساء يتراشقن بالماء لا عن قصد ثم ليجهشن بالضحك عندما قالت أمّي: «لو الحاج بقوم من الموت ويشوف هالمنظر وأغراضه عم تحترق حتى يرجع ويموت من جديد..» تتخيتة بيتنا لم تكن مهجورة فهي كانت كالكنز، فيها خوابي الزيت والسمن والزيتون. كانت تطمح أمّي إليها وتحبّها لغاية خفيّة في نفسها، رغم أنّها لم تكن تطبخ، وإذا طبخت فلتحرق الطعّام والقدر. كانت تبيعها بالخفاء عن والديّ إلى صديقاتها. لتشتري بثمنها كل ما هو موضة، خاصّة مادّة البلاستيك، إذ كانت هذه المادّة محرّمة من دخول البيت، كما كانت تبيع مصاغها، وتقسم بالله أنّها قد أضاعتها أو سرقت منها. كانت تعيش في حوارات الأفلام والأغاني وفي دنيا أسمهان وأنور وجدي. كان من الممكن أن أبقى في البيت الذي ولدت فيه، لكن عندما رضيت أمّي بالزواج والانتقال إلى أمريكا لم أخطر ببالها، ولم تتشاور وجدّتي ماذا سيحلّ بي، بل عرف الجميع بالحدس أنّي سأعيش مع جدّتي وزمزم أو إسعاف لا فرق أين، في البيوت

الكثيرة، بين أولاد الحيّ وأهاليه، إذ لم تكن تؤخذ القرارات في عائلتنا، بل كانت الأمور تترك كما هي تُسيّرها الظروف.

أعرف أن ما أتحدّث عنه لا يهمّك. ولا يهمّك حتّى بول مكارتني رغم أنّه من إنكلترا، ربّما لم يسمع بنبأ اختطاف حبيبك وإذا سمع فهو لن يهتم، لكنّي لا أستطيع إبعاد غلاف الأسطوانة عن مخيّلتي ولا وقع أغاني البيتلز، كنت أفكّر أنّي سأجمع المال وآتي إلى لندن وأتعرّف بجون لينون وأتزوّجه.

هل ترين كيف يعود المرء إلى نفسه، دائماً كما الحصان إلى نقطة البداية؟ حتى في مرورك على بالي الآن فإنّما ينبع من التفافي حول نفسي. أشعر الآن وكأنّي لا أملك سوى هذا الجسم وهذا الفراش. فعقلي لم يعد لي، وإذا شحنت نفسي واستعرت عقلي للحظة أو فكّرت عنوة عنه عرفت أنّي أملك جسمي، لكن لا أملك ولو مؤقّتاً أرضاً لأخطو فوقها. أيّة أرض، لا أملك حتّى مسافة ما بين حلقي ونفسي، باختصار أنا رهينة تماماً كصديقك، حبيبك، خطيبك، من هو المخطوف؟ هو المبعد قسراً عن محيطه، أهله، أحبّائه، بيته، سريره، إذن أنا مخطوفة أكثر من المخطوفين وأعاني أكثر منهم. هم ركبوا عربة مريحة أنزلتهم خطأ في مدينة الأهوال، أمّا أنا فقد خطفت إلى مدينة تشبه مدينتي الأولى، بصفو سمائها وتبدّل سحابها وبتفاصيلها الصغيرة: كالكعك بالصعتر، والشحتار الأسود الذي لم يزل يغطّي الجدار الخارجي للفرن، فأنا مازلت مكاني، لكنّي أبعدت عنها بطريقة مفجعة، هذه مدينتي ولا أتعرّف عليها.

أنا غريبة عنها وفيها، لا لأن الشوارع قد تبدّلت ولا لأنّه لم تعد هناك إشارات ضوئيّة ولم يعد يأتي لنا زرّ الكهرباء بالنور ولا لأنّ الماء لم يعد ينساب من الحنفية كما في قديم الذاكرة. لا لأن السيّارات قشرت ألوانها وبانت أحشاؤها ولا لأن الفصول قد اختلفت في مدينتي من شارع إلى آخر. غابة من الأشجار نبتت مكان الاسمنت بينما في الجنائن والفسحات ارتفعت أشجار من قناني البلاستيك، لا لأن المستنقعات فلشت مياهها الآسنة وسط

الطرقات ولا لأنّ الأبنية أصبحت منهارة، ونصف منهارة، حتى المشيّدة حديثاً هي منهارة سلفاً. لا لأنّي لم أعد أتعرف على هذا الدكّان من واجهته، بل لأن واجهته تنقلني إلى بلد آخر. أعلام إيرانية على زجاجة على الجدران بين البنايات، أفيشات لرجال دين، لزعماء لا أعرفهم. لم أعد أفهم اللّغة، أعرف أنّها عربيّة لكنّها أصبحت الغازاً وكأنّ أحرفها سريّة، رمزيّة، كأنّها ليست اللّغة التي تعلمناها في الطفولة ومارسناها في الشباب، إنّها تحمل معاني مجهولة لديّ، حاولت أن أفتح القاموس لكنّي لم أجد كلمات مرادفة للّتي أسمعها رغم أنّي حاولت أن أنتبه جيّداً لوقع الكلام وإلى أين يؤدّي حتّى أفهم ولو القليل منه، لكن كان يتعذّر عليّ فهم المنطق.

حاولت الاستعانة بخريطة، إذ أصبحت أسماء الشوارع ومعالمها تتبدّل بين ساعة وأخرى وأحياناً بين دقيقة وأخرى.

كأن الدُّنيا ترتعد وتنشقّ وتنقلب وتستبدل النّاس، فبدلاً من أن يطلّ وجه صديقتي الجميل، يطلّ وجه خروف من بين حديد بلكونها، مهجّرون جاؤوا إلى بيروت التي كانت حلماً، تفجّرت عاطفتهم بالموسيقى والأغاني فرفعوا المكبّرات في قلب الشوارع السكنية والتجارية. أصبحت أسير وكأنّي داخل فقاعة صابون كبيرة أتدحرج ولا يمسّني شيء ولا المس شيئاً إلى أن التقي بفقاعات أخرى ويخرج منها أصدقائي. كيف أتعرّف على مدينة رضيت بالوجوه العصبيّة التي تبحث عن الشعر الأشقر والأعين الملوّنة لتخطفها كما في قصص الأطفال ورضيت أن تقلع شجرة البلح التي يعود عمرها إلى مئة عام والتي كانت تكاد تصل إلى باب السماء ليثبت مكانها صاروخ يذوّب حتى حشوة الأسنان الرصاصية.

كيف أتعرّف على مدينة تسمعني صدى ما تفكّر به، فهي ترقص وتقاتل، تقاتل وترقص. أسمع أنفاسها المختلطة بالموسيقى العربية والغربية عبر الملاهي وشاشات التليفزيون والانفجارات وسيّارات الإسعاف ورائحة الموتى. كخطيبك اعتدت أنا على العتمة، لم أعد أرى الظلال ولا الخيال، هم يعصبون عينيه كلّما انتقلوا به من مكان

إلى آخر، من القاووش إلى المرحاض، وأنا صادقت العتمة التي لا مفرّ لي منها، أني أضيء الشموع أحياناً أخرى أوهم نفسي بأنّي استمدّ النور من العتمة، التي أخذت تخفي تجاعيد وجهي الخفيفة. وبعض الشعيرات البيضاء التي حزرت طريقها إلى رأسي.

فروتين يومي هو روتين يومهم غير المريح: التريّض وغسل الوجه والأسنان، التحليل والوشوشة، الطعام القليل، توقّف الرهائن عن التلذّذ بالأكل وأنا توقّفت شهيّتي. الأكل بحاجة إلى أيدٍ مستسلمة للقمّة، لأسنان تمضغ وللّسان يتذوّق، لا بدّ أني أعاني من فقر الدم، إذ ما أن أمد يدي حتى أجد أن العضل قد غاب عن زندي، أفكّر بالرياضة. تبدو بعيدة، تليق بالجبال والطرقات الآمنة الواسعة وبالغرف التي تدخلها الشمس.

ومن الروتين اليومي أيضاً التريّض وغسل الوجه والأسنان، التحليل والوشوشة. الشعور بأنّ الزمن قد توقّف، فالدقيقة تمرّ طويلة، إنّها تتمطّى قبل أن تولي فاسحة المجال للدقيقة التالية، لذلك أتراجع من أنّي سأتخلّص من خاطفي وتحبط عزائمي، فأجدني أطابق وأماثل الخاطفين كحلٍّ أخير. لربّما أتى أمر إطلاق سراحي على أيديهم وعادت مدينتي إليّ رغم أنّي كالرهائن لم أكن أماثل من حولي، ولم أتعلّق بخاطفيّ كعادة المخطوفين بعد مدّة بل علاقتي معهم لا تتوطّد سوى بزيادة الكراهية والبغض لهم والتأكّد من أنّ شخصيات الحرّاس مهلهلة، غير ناضجة، وجدت نفسها فجأة في موقف قوّة لأنّها استعانت بالشعر الهائج، بالشوارب الغليظة، بلحى الذقون التي تركت لتحتلّ مسافة واسعة حول الوجه، يلفّون السلاسل الذهبية حول رقابهم والرصاص الفارغ، أصواتهم تصيح بقوّة، وأنا أعرف أنّه صوت صبيّ الدكّان الذي كان يبيع البطيخ قبل الحرب ويرشّ الماء على الرصيف عند العصر حتّى تبرد الأرض وتنتعش، حتى يجلس صاحب الدكّان مع آخرين يرشقون معاً أحجار النرد، والصبيّ يقفز بينهم كالجندب، يلبّي طلباتهم، يزيد نراجيلهم ببصّة نار ويغلي لهم القهوة.

وأجدني كالمخطوفين لا أجد الأعذار للسجّانين، للحرّاس، إذا

هم عرفوا التشرّد أم لا، بل أتساءل، ترى هل عرفوا حبّ الأب والأمّ والمرأة؟

لكن يتبدّل الخاطفون باستمرار، كأنّهم دخلوا آلة في مصنع تفرز شكلاً جديداً مع كل حركة ميكانيكية، أو كأنّهم أسماء وأفعال بلا قاعدة، ممنوعة من الصرف، مسائل متشابكة الأرقام والمنطق، كلّما فكّر بحلّها التلميذ والأستاذ معاً ارتطمت خلايا عقليهما بدبش من الباطون فيئسا وتركاها بلا حلول إذ أعداء اليوم هم حلفاء الغد، حلفاء الغد هم أعداء اليوم.

رغم أنّي لا أجد حلاً سوى الحقد على الجميع، إلاّ أنّي كالرهائن لا أجد بدّاً من إكمال روتين الأيّام غير المريح فأقرأ وألعب الورق ويصيبني الملل من القراءة والهمّ من الشطرنج. أجدني العب مع ورق اللّعب وحدي، أبصر بين أرقامه صورة، أصدّقها ولا أصدّقها.

من جديد. أهزّ رأسي كما يهزّون رؤوسهم. الطاسة ضايعة. من خطفهم ومن يخطفني. هل نحن في حرب أهلية أم دولية أم رأسمالية. أم..... مستغربة. مستغربين كيف اعتاد، واعتادوا هذا الروتين. وكيف لا يغيب الأمل بأن هذه الأيّام ستتبدّل وستعود الحياة من جديد.

رغم أنّ التفكير في الموت لا يغيب عنّي. إنّه موجود. إنّه يقترب منّي أحياناً. فأفتح عيني تارّة وأغمضها تارّة أخرى أتأرجح بين الاهتمام بأنّي أرى وآكل وأعيش وبين عدم الاهتمام واليأس. أرى في لعبتي هذه مع الرؤية وعدمها جدران غرفتي المتداعية، وزجاج النافذة الجديدة الذي هو عبارة عن كيس نايلون سميك. وآثار المرآة التي تصدّعت وهرّت على الأرض في جولة المعارك الماضية. لم أفكّر، حتى الآن بطلاء أثرها على الحائط بلون طلاء باقي الغرفة... فالمنازل لم تعد تجدّد وجوهها. أترك كلّ شيء على ما هو. كالمخطوفين لا أفكّر في إنجاز شيء، وإذا أردت أن أسترجع كيف خُطِفت، عليّ أن أعود إلى سنوات الحرب. منذ أن اعتلتني الصدمة وأنا أقبع في الملجأ أو القاووش الذي رضيت دخوله مرّة واحدة.

بناء على رغبة صديقتي حياة التي ما أن زارت بيروت وزارتني حتى ابتدأ برق العنف. خوفها كان كركّاب طائرة أذاع ربّانها بأنها ستنفجر في الفضاء بعد ثوان. خفضت رأسها في حضني كما يُقال للمخطوفين: «اخفضوا رؤوسكم» بينما أغمضت عيني حتى لا تتسرّب رائحة الملجأ الآسنة إلى شرايينها. وعرفت وأنا قابعة هكذا بلا حراك أمام الرائحة والجدران بأنّي لست حرّة. أقسمت بيني وبين نفسي أني لن أرضى بهذا الشعور أن يتملّكني وبأن عليّ مجابهته. والآن يبدو لي أنّي كنت مخطوفة ثم عدت وخطفت مرّة أخرى. كنت بين الطرقات المتعرّجة وشبه المقطوعة من جرّاء وجود سفارة أو مستشفى أو مركز حزب. كنت سيّدة الطرقات بين السيّارات التي فقدت لونها ومصابيحها وانخسفت حسب الكدمات ازاحم وأزعق بالزمّور حتى أصل إلى بناية سيمون. بينما ارتجافي يتدحرج أمامي وأنا أركض وألحق به. كنت سعيدة، فلقائي مع سيمون كان يضفي عليّ شعوراً بالدفء والهيجان وينتشلني تماماً من صخب المدينة وأحياناً من هدوئها العابق. فسيمون هو صخب المدينة داخل الأحداث، وبالوقت نفسه هو مثلي خارجها. أعيننا كانت تلمع، ويزداد تنفّسنا كلّما اقترب أحدنا من الآخر. أنتظر حتى نتمدّد عراة فوق الصوفا. لتأتيني حالة الخدر والحبّ والشعور بأنّي أريد أن آتي بلذّتي مهما كان. فقط عندما كنّا ننهض ونرتدي ملابسنا كنت أعرف أني لا أحبّه.

كنت لم أزل ألحق بتصوّراتي وتوقي إليه عندما توقّف السير من شدّة الازدحام. ولعلع الرصاص واختفى النّاس من الطرقات وأصبح الشارع مراباً صاخباً خائفاً. أخذت أتأرجح بين فكرة العودة إلى البيت أو المضيّ إليه. عندما هجم عليّ شلّة من الشباب وأنزلوني من السيّارة وتركوني وحيدة، مصعوقة، خاصّة وأنا أرى سيّارتي الحميمة تنصاع ليدين غير يديّ وتغادرني. لم ألجأ إلى بناية مجاورة إلاّ عندما رأيت قذيفة بعيدة تسقط وسمعت أصواتاً عديدة تناديني. دلفت إلى البناية لتتلقّفني عائلة اجتمع أفرادها في غرفة من اسمنت. ما أن نظرت إليهم حتّى فكّرت أنّهم سجناء.

خاصّة الأولاد الذين تكوّموا في زاوية من زوايا الجدران ثم فكّرت أنّهم قد خطفوا هؤلاء من ملاعبهم التي تحوّلت إلى ملاعب للجنّ. وقد أكل الخوف وجوههم.

لا بدّ أنّي كالمخطوفين، لم أعد أفكّر بالحياة خارج مكاني بل ألتفّ حول بقية المخطوفين. رغم الرتابة لا أستطيع التركيز على التفكير. فصدمة خطفي تتكرّر وأنا لن أتخطّاها حتى ولو أطلق سراحي. أعرف أنّي سأبقى مخطوفة وستلاحقني الذكريات المرّة. لم أعد أفكّر بالحياة خارج مكاني. حتى وجود البلاد الأخرى تبدو وهماً. نسيت السير في الليل ورؤية النجوم وطيران الشعر وشال الموسلين المتهدّل تارة على الكتف وتارة على الأرض. لا عالم يحيا سوى في غرفتي هذه. وفي بيتي هذا. لذلك لا يحمّسني أيّ طموح ولا حتى خيال الإنجازات، بل إنّي أزداد ألفة مع الكسل وعدم المسؤولية حتى تجاه عيني، فأنا لم أعد أستطيع حتى قراءة الجرائد.

واستسلمت إلى فكرة أني لست مسؤولة عن مصيري، وتركت الشكّ يغالب الأقربين إليّ من حياة وأمّي وأصدقائي خارج لبنان بأنّي في عداد الأحياء أو الأموات كلّما اشتعلت المعارك تماماً، كشعورك الآن.

ولا أخفي عليك، جيل موريل، أني فكرت أكثر من مرّة أن أخطف نفسي بنفسي بعد أن أوحيت للآخرين بخطفي، وكان هذا منذ سنوات وأنا خارج بيروت. ولا بدّ أن قوّة ما تقتصّ منّي الآن على شعوري آنذاك.

في المرّة الأولى. كنت متأكّدة أنّه حالما أشمّ رائحة ناصر وحالما يعانقني، وحالما نجلس معاً دقائق، سيقرّر الدفء الذي بيننا أن لا يعيدني إلى بيروت بل انه سيخطفني. وشممت رائحته كالعادة كلّما استرجعتها في خيالي وعانقني. وقرّر الدفء بيننا. لكنّي لم أره. انتظرته فوق رمال شواطئ تونس، حتى أصبحت كالجمرة أغلي من الشمس ومن الاشتياق. كان توقي إليه يلاعبني، يجعلني أبقى متمدّدة موهماً إياي بأنه يراقبني من بعيد، وبأنّه يتلذّذ وهو يراني

أنتظره وبأنه سيفاجئني في أيّة دقيقة وبأنّه سوف يرمي عليّ حفنة من الرّمل. فأبتسم لهذه الخاطرة، وبقيت أهدس به هكذا أياماً. كما هدست وأنا أنتظره على شواطئ بور سعيد والاسكندرية، دائماً عند الشواطئ، عند المدّ والجزر. من يسمعني الآن يظنّ أنّي امرأة حالمة تعيش في الوهم. وإلاّ كيف أفسرّ حبّي الشديد لناصر ولبيروت؟ ومع ذلك ارتميت على رجل إسباني استمیله حتى يخطفني إلى الربوع الاسبانية، بعد أن جعلت فكرة الاستيطان في تلك البقعة تزحف عليّ وأنا في صحبة صديق ناصر وزوجته على حافي الطريق. بين أشجار اللّوز المزهرة التي كانت تحمل ندف الثلج الأبيض كثمار لها، والأراضي والسهول منبسطة أمامي، لا تعطي سوى الشعور بالطمأنينة وبالسلم. عندما وصلنا البيت الكبير حيث أصيص من فخّار على كلّ من جانبي مدخله الطويل، فيه نبات الكاكتوس وكأنّه مرجان البحر بأزهاره، حسدت من يعيش هنا. بل ابتدأ حسدي ونحن في طريقنا إلى هذا البيت مروراً بالبلدة الصغيرة.

دخلت السيّارة الممرّ الطويل وتوقفت عند فسحة أشبه بفسحة خان، أمام أبواب الدار المفتوحة على مصراعيها. لا بدّ أنّ السيّارة أوصلت ضجيج فراملها إلى الداخل، إذ خرج رجل ممتلئ البنية، أجلح الشعر يستقبلنا. رغم اهتمامه بنا فقد كان مهتماً أيضاً بكلب ضخم ظهر فجأة ويدخلنا إلى بيته الأثريّ ثم يقودنا إلى الشرفة لأتنفّس الصعداء وأتمنّى لو أنّ سيّده يشفق عليّ.

كانت السهول الصفراء تخرج من الشمس الحمراء، وهي مغلّفة بغطاء ورديّ، بنفسجي، كان يُسمع هرولة قطعان البقر والأغنام التي لم تزل بعيدة. أقف على حافّة الشرفة أراقبها، أتذكّر قريتي، أراقب الراعي غير المهتمّ بنباح الكلب، كأنّه يلفّ سيكارة من بعيد أو كأنّه يأكل ثمرته. يقترب الرّجل الاسباني منّي مادّاً لي يده بكأس من النبيذ، ثم يقف مثلي، يده على الشرفة، أنظر إليه وأفكّر أنّه السيّد هنا، كان من الممكن أن يقف جدّي مثله، في مثل قميصه المودرن الملوّن وبنطلون الجينز.. هذا. والسيكار في اليد. من الممكن جداً أن

يتخيّل جدّي وجدّتي وقوفي مع رجل كهذا، أراقب معه عودة القطيع، رغم أنّه لم يكن هنا قطعان على أراضينا، بل أشجار وثمار وفاكهة.

تسقط العتمة شيئاً فشيئاً، يبتعد الصخب، والهدوء يعمّ المكان، كأنّ الطبيعة كلّها تخرج من جديد إنّما من فم اللّيل، السواد يغلّف كلّ شيء ويحوّلها إلى أشباح لا تتكلّم. حتى صرصار الغابات فاجأته العتمة فربض ساكتاً لا يحرّك جناحيه.

وقع خطوات خلفنا، تمنعني من أن أقول للرّجل الاسباني إنني أيضاً ابنة أرض وتراب.. خاصة أن الخطوات كانت لرجل عجوز، متجهّم الوجه تمتم بعجلة واستدار عائداً. يبتسم الاسباني ويدعونا إلى العشاء.

تهالكت على الكرسيّ. عادت بيروت تسكنني وتسكن يديّ الهابطتين، أتناسى انشراحي لهذا الجوّ. جوّ البلدان التي لم تزل قائمة، والتي لم تزل تعيش حياتها من غير بلبلة وحروب. رغم اعتيادي على هذه الفكرة التي كلّفتني أيّاماً وليالي قلقة، يعزّزها الشعور بالحيرة وبالحسد إزاء وجود حياة آمنة، إلاّ أنّها كانت تلغي ما عانيته وما رأيته وما سمعته وما لمسته في بيروت أيّام العنف والحصار. وها أنا أريد أن تخشع أنظارهم وينصتوا إليّ، وكلّي طموح لأن تتوقّف التفاصيل عن إكمال دورتها. فلا يعود الخادم العجوز يجد مبرّراً لأن يحضّر عشاء الليلة. وجدتني ألوذ بالصمت أنتظر أسئلتهم. لم تكن أسئلة بل كانت جملاً فيها التأثّر الحقيقي إنّما السريع لتعود تفاصيلهم تلفّ هذا اللّيل. نهضنا لنطوف البيت: غرف واسعة. مساحات واسعة. ماض واسع، ثم كنيسة ضيّقة. مريم العذراء واسعة العينين، مسرح ضيّق وصالة سينما ضيّقة ولكنّها كبيرة الشاشة.

ثم في غرفة تمتدّ على مدّ النظر، فارغة إلاّ من سرير كبير، غريب، توقّفنا، ودنا الرجل الاسباني من كتاب وضع على صندوق خشبي عند قدمي السرير يفتحه ويشير إلى صورة السرير. هززت رأسي أثني عليه غير مبالية بما يقصده، أفكّر كيف كان سيكون وقع

هذا السرير عليّ وعلى ناصر. هل كنّا سنضحك؟ هل سنرتمي فوقه، أم نأتي بفراشه ونضعه على الأرض كما كنّا نفعل عندما لم يكن يعجبنا أحد الأسرّة التي كنا نتنقل بينها حسب الظروف.

وجدتني أتحسّس بيدي نقوش السرير الفضيّة والذهبيّة وأعمدته الأربعة التي تذكّر بالأطلال، لا... لا أعتقد أنّنا كنّا أحببنا هذا السرير الموحش وفراشه الذي لا بدّ أن الرطوبة تعشعش فيه، لكنّا هربنا من هذه الغرفة الفارغة التي لا تذكّر سوى بأنّ هناك من يعدّ له كميناً.

أطير من بين هؤلا جميعاً إلى الغرف التي التقينا بها. واحدة، واحدة كنت ألقاه في غرف عديدة دائماً في ازدياد غرف في بيوت جميلة، على شرفاتها الياسمين. في بنايات تعجّ بالسكّان. في بيوت ممقوتة لا تدخلها الشمس ولا حتى الذباب. الغرفة الأخيرة كانت بلا كهرباء... والغرفة التي قبلها كانت في فندق حيث ارتمى في السرير الآخر صديق له يعاني من حمى جعله ينادي بهلوسات أضحكتنا. غرفة أخرى عبارة عن صالة للجلوس فخمة...

ثم غرف في بيوت أصدقائه المتزوّجين كانت تجعلني أصاب بخيبة أمل لأنّي لن أكون وحيدة معه. حين أسمع الضجيج وأنا أكبس الجرس وأرى الزوجات وأطفالهن أو أولادهن يعود يتوهّج الشعور من جديد أنّه يشدّني إليه في كلّ الظروف، وأنا أراه يلاعب الأطفال بسبقه لأكل طعامهم من يد الأمّ ومضغه فعلاً للقمة وبلعها أمام حيرة الطفل، وشعوري عندها بأنّي أودّ لو أمدّ أصابعي كما يمدّها الطفل إلى ذقنه.

شقق شاحبة، باهرة. أحاول أن أتكهّن كيف هي ما أن يتّصل بي ويعطيني العنوان الجديد. هل هي شقّة، مكتب، بيت، هل سنكون وحيدين؟ أبدأ في تخيّل المكان. الكرسي المجهول الذي ينتظرني لأجلس عليه. غرفة في فندق تنقلني إلى أجواء مدينة بحريّة لا تعاني من الحرب.. أجدني رغم التوتّر أبارك مصباح علاء الدين السحري الذي يخطفني من دنيا إلى أخرى، من اليابسة إلى البحار، في

سرير من الماء المتموّج، انطرح عليه كممثلات السينما، سعيدة لأنّه سرير من ماء. ولأن غطاءه من القماش الناعم النبيذي اللّون لاشعر بالغثيان فيه رغم دفئه. علّق ناصر متصنّعاً الأسف والجدّية: «يعني ما فينا نسافر بالبحر؟» نسافر بالبحر؟ نسافر؟ ونحن نلتقي كالمدّ والجزر في الموجة.

لكنّي كنت أعرف أنّه كان يفكّر في الزواج أكثر من الذين ينهجون حياة طبيعية، عادية. كان بحاجة إليه، حتى إذا مشى على الأرض وعى أنّه يمشي على الأرض وأن قدميه فعلاً تخبطان على الأسفلت. فكرة الزواج تبعد الشك و الحيرة إزاء التزامه. عندما لا يجد أحياناً أملاً في عمله الثوري، تزيده حماسة بأنّ كفاحه هو أيضاً من أجل الحفاظ على عائلته والبحث لها عن مستقبل أفضل فيه استقرار.

«عقبالك ناصر» تقول له زوجة صديقه التي أهداها قطّة لأنّها لم تنجب بنتاً كما تمنّت ثم التفتت إليّ وعقّبت: «قصدي عقبالكم» فرحت لأنّها تنظر إلى علاقتنا وكأنّها جديّة، وتعتبر لقاءاتنا في بيتها أثناء غيابها جميلة، لكنّه أجابها مازحاً: «شو أنا مجنون مثلكم بدى جرجر أولادي كل يوم من بيت إلى بيت؟» يخبرها عن ابنة نديم التي كتبت في دفتر الانشاء: هناك جنيّة تحملني كلّ ليلة تطوف بي بيروت». ينهض في صباح اليوم التالي في أماكن مختلفة، في رواق أو في بيت في الجبل، أو في كابين بحر، ثم يبلع حبّة الأسبرو من غير ماء وهو يقول: «دواءٌ لعدم التناقض، لوقف انفصام الشخصية. عم نشتغل حتى يصير عنّا وطن واستقرار. مع هيك عم نشرّد أولادنا ما منخلّيهم يكفّوا مناماتهم بمحل واحد».

يبدو أنّ الرجل الاسباني لم يكن متحمّساً قدر حماسة زوجة صديق ناصر التي همست: «يا أسمى.. لحى تجني فيها».

لو تعرف أين أنا وبماذا أفكّر، لا أريد أن أسمع صوتاً غير صوته ولا أريد أن أجلس سوى إلى جانبه. كل ما أراه لا يهمّني، بل إنّي أكاد لا أرى شيئاً ولا أستذوق ما آكله. أسير معهم حتّى بوابة

الحديد، أدفش الحصى وكأنّي طفلة نزقة، أتساءل: «كيف سأتحمّل هذه الليلة؟» لكن اختفاء مفتاح الحديقة واللّغط من أجله عاد وأدخلني الأجواء من جديد.

سرت بضع خطوات في ممرّ ضيّق، الأشجار كثيرة، في وسطها بحيرة. أفكر كم أنّ زوجة صديق ناصر تبالغ.. وقبل أن أسترسل في لومها وجدت نفسي أشهق: حديقة أو الجنّة؟ هي الجنّة كما توصف في كتب اللّه. كما يسرح الخيال، جنّة تجري من تحتها الأنهار، من فوقها الشلالات وأشجار الصفصاف وأشجار أخرى لم أرها من قبل سواء في الحقيقة أو مصوّرة في الكتب. امتدت أغصانها حتى تشابكت، لا تظهر إلاّ قرصاً من القمر أو أنّها الشمس.

«سبحان اللّه» عندما تنحنح صديق ناصر قائلاً، رفرفت الطيور النائمة. حامت قليلاً ثم عادت إلى أعشاشها، جذور الأشجار تركت باطن الأرض. أرادت أن ترى كيف نمت جذوع ابنتها الشجرة وكيف هو شكل أغصانها وما هو لون أوراقها. جذور كأنّها حبال طرزان يهبط بعضها في المياه المنسابة من بين الصخور. فسحة مستديرة في الفضاء تركها علوّ الأشجار فهي التي كانت تربط اللّسان وتهتزّ لها الحواسّ. هرول الاسباني إلى صخرة يعبث بها، وإذا بالموسيقى تنساب والطيور ترفرف من جديد ولا تهدأ إلاّ عندما تعتاد على الموسيقى، فتعود تسكن أعشاشها والأشجار. عندما أصبحنا نرى بعضنا بعضاً عرفنا أن جزءاً من القمر قد أطلّ عبر فسحة الفضاء المستديرة لينير هذه الجنّة.

تقدمت منها، صخرة فوق الأخرى كأنها سلالم وصعدت درجات الحجارة لتأخذني في درب ضيّقة. سمعت جلبة خلفي. يسألني الرجل الاسباني: «إلى أين؟» أجبته بارتباك: «إلى السماء»، عرفت بجوابي هذا أني أريد أن أبدو له امرأة أخرى كأني أريد مغازلته. يسير إلى جانبي، يخبرني بأنّ الطريق مسدودة وهو يبتسم لي.

كان فعلاً خائفاً عليّ. فالممرّ ضاق حتّى أصبحنا على شوار

نطل منه على الجنّة السوداء المغطّاة بالأشجار. أمسك بيدي كأنّه يحميني من الخطر ولدهشتي وجدتني أستأنس لهذه اليد السمينة الدافئة. ناسية أنّها جزء من وجه نسيت كيف هي ملامحه، ونفس لا أعرفها. وجدتني أسير معه. مع كل خطوة وأفكّر في هذا البيت القلعة، في هذه الجنّة وفي بيروت وحياتي عامة. إنّي فعلاً مضطربة؟ لم يكن ملمس يده هو الذي أيقظ بي هذه الأفكار. بل هذا السكون وكوني غريبة عن كلّ شيء. هذا المكان هو حيادي، فأنا غريبة عن اللّغة والأشخاص ومكنونات أفكارهم وقلوبهم. كأنّها بالنسبة لي بداية العالم وما عليّ سوى أن أتناول الكأس الفارغة وأنعم بالمخدّر الوهميّ.. كانت فكرة البقاء هنا قد أخذت تتضخّم في رأسي مع كلّ درجة أنزلها.

في مكان كهذا المكان، لا ينتظر منّي، بل لا أنتظر من نفسي أن أمسك بطرف خيط الماضي الذي يكوّنني وأواظب على غزله. إنّه سينقطع تلقائيّاً ما إن أفرد نفسي هنا. بلا أشيائي. لمعان واحد يريني نفسي وأنا أمسك برسائل يضعها أمامي الرجل العجوز المتجّهم الوجه، على صينية من ذهب. أو في فم جمجمة وأنا فوق السرير الأثريّ الذي ما انفككت أتزحلق على شراشفه الحريرية. ثم والرسائل تمسّ قلبي، أجدني أرى لمعاناً آخر. أطلع أصدقائي على هذه الجنّة وأعانق فيها ناصر. عند هذه الصورة أتوقّف. إنها لا تتماشى مع كوني في هذا البيت ولا مع الحياة المفروض أنّي تركتها.

لكن... سأحوله إلى بيت نصفه عربيّ. أعود إلى الزمان الغابر. أنجب أطفالاً وأدعوهم: بلقيس وطارق وليلى وزياد... أخذت أحدّق في الرّجل الاسباني، ومن ابتسامته حدست أنّه يعرف بأن بيته هو لا للطعم، لا للسمك، بل للحوريات، لكنّي لا أرى في ابتسامته أو عينيه أيّ تكهّن بما كنت أطمح إليه.

تحجّجتُ بالسكر الشديد، بآلام في الرأس. ولأوّل مرّة أجدني أفكّر إذا اتّصل ناصر ولم يجبه أحد في البيت فليس ذلك بكارثة. اقترح عليّ الرجل الاسباني أن أتمدّد في غرفة ما بعد أن جاء لي

«بالالكاسلسرز» حاولت فيرا أن تهتمّ بي لكنّها لم تفلح في إخفاء ضيقها منّي، فأنا استحوذت على اهتمام صديقها طوال السهرة، سواء في حديثي عن بيروت والحصار والاحتلال وكيف غادرتها أو عن بيروت قبل الحرب، بينما كانت زوجة صديق ناصر تتأمّلني غير مصدّقة أنّني المرأة الشاردة الحزينة التي استضافتها في بيتها ريثما يتّصل بها حبيبها.. وأنا لم أفتأ على ترديد هذه الجملة كلّما كان المتحدّث آخر: لقد نسي أمري.. أم ربما لم تُسلّم له رسالتي... أم..» وها أنا أحاول استمالة الرجل الاسباني... وأخلع حذائي وأقهقه.. قائلة: «سكرانه». وأنا أتمدّد على الكنبة.

في وقت استسلمت به للنوم بعد سماعي للأصوات المودّعة شعرت بيد فوق جبهتي ثم فوق شعري. نهضت أتصنّع الذعر. ما أن تبيّنت الرجل الاسباني حتى عدت أتصنّع الاطمئنان، أغمض عينيّ، وما كان منه إلاّ أن أحكم إحاطتي بالحرام الصوفيّ. ثمّ انحنى فوقي بكل أنفاسه، مادأ يده يتحسّس وجهي. عندها فتحت عيني ابتسم له وأدعه يطبق بشفتيه فوق شفتي، ولا أشعر سوى بحاسة شمّي تحزر رائحة النبيذ والسيكار. لكني استسلمت لشفتيه وبادلته القبلة ولم أرفض لسانه رغم أنّي قرّرت أن سوف أرفض أشياء أخرى، لكنه اكتفى بوضع يده فوق البطانية حيث صدري، ثم تنهّد تنهيدة عميقة قبل أن يتحسّس شعري ويتمنّى لي: «ليلة سعيدة».

كان الصباح في هذا البيت القلعة، أجمل من المساء. أصوات الديكة. أجراس القطيع، وصدى الأصوات الاسبانية كانت كلّها تأتي من بعيد، تماماً كأنّه الصباح في قريتنا، عندما ينهض المزارعون عند الفجر. النهار يحضر نفسه وهو يخفي رائحة المساء الرطبة. فكرت إذا كانت شجيرة ملكة اللّيل قد أغلقت نوافذها التي كانت تبثّ عطرها الذي خدّر شرايين حاسّة الشمّ ليلة البارحة. الأصوات تدلف إليّ من جديد. وأنا أرى نفسي أنهض في الصباح وقد أصبحت سيّدة هذه البقعة.

نهضت أتجوّل في البيت الواسع العالي، وألاحظ أن أرجاءه

الواسعة لم تبتلعني بل كأنّها تضمّني إليها، بل كأنّي أضمّه كلّه إليّ. تمنيت لو أعرف الاسبانية حتى أسأل الطريق إلى الحديقة الجنّة. الأصوات تداعب بعضها كأنّي بين أهلي وبين المزارعين الذين أراهم يحيّونني الآن.

لا بدّ أنّهم اعتادوا على رؤية النساء في هذا البيت من مختلف الأعمار والأجناس، في الصباح والمساء. لكنّهم لا يدرون أنّي امرأة أخرى. لا أريد إقامة الحفلات ولا أريد المال ولا المجوهرات. بل أن أعيش فقط وسط هذا الجمال وأبتدئ حياة جديدة.

لكن الرجل الاسباني كان على عجلة من أمره، يحمل شنطة جلديّة كربّ عملٍ عاديّ لا كسيّد هذه البقعة. إنّه محام. إنّه يخسف الصورة بأن من يدخل هذا البيت – القصر – القلعة لا تعود له صلة بالعالم الخارجي. لكن لا بأس. هذا من حظّي. سأبقى وحيدة معظم الوقت في هذه الجنّة.

وأنا في السيّارة عرفت أنّي لن أكون وحيدة معظم الوقت في البيت الجميل فقط، بل أنّي لن أزوره مرّة أخرى. الرجل يعرض عليّ تناول الغداء في شقّة له وسط البلد. لأن ثيرا أصابها الشكّ. عرفت أني طردت من الجنّة، وأن خيوط ثيرا قد تغلغلت في مسامه. ولم أجد نفسي حزينة كهذا اليوم، كان يفوق الحزن الذي عانيت منه وأنا انتظر تلفون ناصر يوماً بعد آخر. فأنا رضيت المساومة مع شعوري وجسدي من أجل ذلك البيت وتلك الحياة الجديدة ومع ذلك رُفضت.

أشعر بنفاد صبرك، جيل موريل، لكن هكذا هو الرهينة. يعيش ويحاور الماضي. عليّ أن أعود بك إلى قضيّة المخطوفين، وكلمة الرهينة والخطف والخاطفين، إنك تودّين العزاء والإفادة السريعة فربّما فتحت عينيك على أمرٍ لم يكن في الحسبان من قبل. وهأنا أتلو عليك كيف أن اللامعقولية في الخطف أصبحت عادة من عادات الحرب، لم يعد هناك قاعدة. الحرب تتبدّل بتبدّل اللهجات وأزياء الحرب، جعلت المضحك مبكياً والمبكي مضحكاً وأصبح الخطف حقّاً.

قريب حياة الذي خُطف لمدّة أشهر نهض يوماً، بعد أن قيل له «مبروك، اليوم راح نفلتك». أصابه الهلع من جملة حارسه هذه «لربّما نووا قتله». نُقل معصوب العينين إلى السيّارة ثم إلى مكان ليترك فيه وحيداً بعد أن أزيلت العصبة عن عينيه وقبل أن تعتادا على الضوء وعلى ضجّة أصوات وزعيق سيّارات وأذان وطرطقة، ظنّ أنّ من في وضعه يركّز على نفسه، وعلى حواسه الخمس، لتصبح هي كلّ جسده وفكره، ثم ليدفع الباب ويسمع الجملة الأولى: «الحمدللّه على سلامتك يا خواجا يللا العايلة ناطرتك» ومدّ الشاب يده يصافحه بلباس الميدان والمخطوف لم يزل تحت وقع الدهشة. غصت الغرفة بشباب كلّهم بثياب الميدان، تناول أحدهم إبريق الماء وتزقزق منه بينما بقي هو فاغر الفم ثم ليأخذ بالبكاء وهو يتناول بنطلونه ويلبسه فوق البيجاما المخطّطة في الفانيلا التي أعطوه إيّاها في اليوم التالي لخطفه، بيجاما من الفانللا رغم أنّه لم يكن يلبس سوى الحرير.

أين خاطفوه؟ هل دفعت زوجته الفدية؟

لكنّ القضيّة لم تنته بعودة المخطوف إلى بيته إذ اتّصل به الخاطفون بعد أيّام على إطلاق سراحه وأصرّوا على مقابلته.

دخلوا وسلّموا عليه كأنّهم أصحاب العمر وقالوا: «اشتقنا» ولمحوا أنه صار بينه وبينهم رابطة خبز وملح؛ ثم قال أحدهم لزوجته: «اللّه يا مدام كلّ الوقت فكرنا معك، لانه جوزك مدلّع: هيدي الأكلة مالحة. هيدي ما بحبّها. هيدي مش مستوية. صرنا نقول كيف المدام مستحملة الخواجة؟ اللّه يكون معها».

ثم دخلوا في لبّ الموضوع: اشتكوا بأنّهم تكبّدوا خسارة لم يحسبوا لها حساباً عندما قاموا بخطفه فهم أسرفوا في مصاريف طعامه. شراء «الجلوسيل» وبعض الأدوية لمعدته. دفع رشوات لبعض المقرّبين في الحيّ حتى لا يفشي سرّهم. حتى الحاجّة التي كانت تطبخ له كانت تطلب أكثر ممّا كانوا يستطيعون. وما أن فرغوا من شكواهم وشربوا القهوة، حتى اختفى منير وعاد يسلّمهم ظرفاً

فيه المال وأوصى أن لا ينسوا الحّاجة. كان يسمع صوتها وهي تسأل الخاطف إذا أحبّ الخواجة أكلها. والتي كانت تطبخ له كل ما يشتهيه. وكان أكلها طيّباً رغم إضافتها الكثير من الثوم والكزبرة التي كانت تمدّه بالنعاس. كان يتعجّب لاهتمامها بما يأكله وبالتالي اهتمامها لأن يتذوّق كل ما يأكله رغم حالته هذه. ثم سألهم لماذا هم خارج سجن الحزب التأديبي كما قيل له، فأجابوه أن الحزب أجبرهم على إطلاق سراحهم بعد أن تبيّن أنّهم أخذوا مشورة رجل دين أفتى بأنّه يخضع ليكون هدفاً للخطف أو القتل من جراء علاقته مع أميركا، حتى تصنع عدم المبالاة. إلاّ إنه ارتجف غضباً وخوفاً. بينما تمنّت زوجته لو تدلق ما بقي من القهوة الساخنة على رؤوسهم وأن تنتشل من بين أيديهم المال وتصيح بهم بأنّهم ليسوا من بلد واحد. وفي الليلة ذاتها نووا الهجرة.

لا بأس، جيل موريل، لا تخافي على حبيبك من هذه المعارك. ستتبدّل الأمور. سيتوقّف هذا القصف المجنون. سيجمعون القتلى وسينقل الصليب الأحمر أو الهلال الأحمر الجرحى ويصرحون عن هدنة مؤقّتة أو طويلة.

هذه هي المشكلة: أن يعود كل شيء إلى حاله. بهذا يكونون قد رشّوا ملح البحار كلّها على الجروح وزادوا من التهاب هذه الجروح. ما يحدث الآن لا علاقة لأحد به سوى المتحاربين. من سوف يفكّر جدّياً في حرب الزواريب والأزمة هذه وينتظر نتيجتها؟

لا أعتقد أنّي سأفكّر خارج حدود غرفتي. لكن أجد نفسي أسترجع نفسي وأنا أسترق النظر من ثغرة في جدار الحديقة إلى بيت قيل أنّ عناصر حزبية قد احتلّته وتنام فيه. كان اللّيل ساكناً، هادئاً والكلّ نيام. رأيت المسلّحين نياماً في الأسرة. كأنّي سمعت شخيرهم عندها خفضت رأسي وتساءلت ربّما لم أكن مخطوفة. ربّما لم أزل في حلم مزعج. فالنّاس النائمون بسلام لا يمكن أن يكونوا خاطفين، ووجدتني أتراجع مذكّرة نفسي بأن الشرّ ينام أيضاً.

عزيزي ناصر

أهذي بك من جديد، لولا الصمت، ولولا المصفّحة، لكنت ظننت أنّك ستمرض أو تموت. إذ لا بدّ أن يحدث شيء للّذين أهدس بهم سواء في الأحلام أو في اليقظة، أسمع منهم أو عنهم بعد وقت. أعرف أنّ النساء حولي قد حفرن بي هذه الأفكار منذ الطفولة. وأعرف أنّي لو آمنت بخرافاتهن هذه لما تركت أحداً حيّاً يرزق. لطالما أقنعت نفسي أن أكفّ عن هذه الهواجس، أذكّرها بأنّه إلى جانب سماعي أخباراً سارّة تحدث لمن أهدس بهم، فإنّ أمّي لم تقلع فقط عن هذه المعتقدات بل أخذت تجعلها مادّة للضحك عبر الكاسيت التي دأبت على إرسالها إلى فضيلة، والتي تبتدئ بصوتها الحنون يغنّي بيت العتابا ثم شهقات ضاحكة ثم: «يقطع هالعيشة هون، كلّ شيء عالأصول بطلنا حتى نفوّل على حدا»، لتروي قصّة أخي زوجها صاحب المغسلة المتخصّصة بغسل بياضات الفنادق الذي يغسل شراشف النزلاء المسافرين لحظة سفرهم، ومع ذلك لا يقعون من الطائرات ولا يلاقون حتفهم تحت دواليب السيّارات، ولا يتهالكون أمواتاً وهم يسيرون. قلت وأنا أبعد الشرّ عنك لأنّك تعود إلى أفكاري مجدّداً بأنّ الظروف هي التي تعيدك إلى سطح أفكاري. كأنّني كتاب يسكن فصوله وجمله أشخاص على شكل أوراق تبوخ ألوانها وتختفي من فصل إلى آخر، لتعود تتسلّق هذه الفصول بوضوحها وبسكنها لغرفها من جديد... عدا أنّي في أصعب الأحوال وخوفاً على سلامة عقلي، أجد نفسي أفكّر بعيداً عمّا يحدث حولي. إذ والمعارك جارية وابنة الجيران جاءت تستمدّ ولو القليل من الشجاعة، سألتها لماذا لا تحوك لي شالاً مادامت تعرف

شغل الصنّارتين، ثم جئت بالهاون النحاسيّ حتى ندقّ حبوب القضامي ونحضر «نعومة». رغم دهشتها لاقتراحاتي هذه وذعرها كلّما سمعت متفجّرة، فقد استأنست هي بعدما اقتنعت أن الملجأ يقطع الروح وأنّ البقاء في البيوت نعمة. رغم أنّ زمزم لم تتوقّف عن الصياح: «مجانين، موت، دماء، زعران، وحوش، جهنّم...» ولأنّي لم أعد أستطيع أن أتحمّل حتى خطواتها في البيت وجدتني أحرقصها، أعاندها قائلة «جهنّم كلمة حلوة، فيك تتصوّري شياطين أو ملائكة الشرّ ماسكين شوك كبيرة، وعم يغزّوها بالنّاس، والوهج بعيونهم ووجوههم صفراء رفيعة».

اعتدت على زمزم وضياعها، لكن لم أعتد على ولولتها وضربها على صدرها وصراخها ودورانها حول نفسها كأنّها كلب خمن أن ذنبه هو عظم شهيّ يودّ اللّحاق والنيل منه. وهي لم تكفّ منذ أن ابتدأت المعارك عن التوسّل تارة وحثّنا بالصراخ تارة أخرى لنترك بيروت، لا إلى الضيعة، بل إلى مصر، الشام. وجدّتي تعلّق: «بدك النّاس تشفق علينا ويقولوا يا حزام الشوم تركوا ديارهم وتشرّدوا هون وهون».

«اسمعوا شوفو هالحكي. النّاس بتشفق عليك إذا سافرت؟ ما بتحسدك فقط بل تدعو لك بالمرض أيضاً».

المدافع تهزّ البيت. كلّ منّا في غرفته. نسمع ولولة زمزم تسبقها قبل أن تدخل غرفتي وعندما ترى الكتاب بين يديّ تتراجع وكأنّي أصوّب عليها سلاح الموت: «بسم اللّه الرحمن الرحيم» ثم تهرع إلى جدّتي التي يبدو أنّها كانت تقرأ في كتاب الأدعية على ضوء الشمعة، سائلة إذا كان هناك دعاء خاص لوقف المعارك؟، يلحق جدّتي الضيق من زمزم فتخيّرها لأن تجد عائلة تأخذها معها خارج لبنان.

ارتعدت زمزم وكأنّها وضعت اصبعها في إبريز كهرباء. فأخذت جملها تتعثّر: «يعني هلّق فيك تستغني عنّي. لما مصّيت كل عافيتي، لما جيت بيتكم كنت مثل طربون الحبق». ووجدتني أشفق عليها

وأتدخّل: «ستّي عم تحكي هيك لأنّها مقهورة، خيفانة تروحي وتتركيها»، لأرى زمزم فجأة كالسمكة التي جفت مياه نهرها وحاولت أن تمصّ الماء من الحصى والأعشاب لكن عامود فقرها أصيب بالالتواء وهي تنادي طلباً للأوكسجين.

زمزم، من غير جدّتي وحياتنا، كهذه السمكة. لكن، ربّما كنت مخطئة. إذ ولّت الأيّام التي كانت بها زمزم تستمدّ الفخر والثقة من جلوسها إلى جوار جدّتي سواء في السيّارة أو في الدار.

نسمع الباب يرتجّ من عنف إغلاقها له بقوّة. «لو علّمناها أن تصرخ: لا أمل ولا حزب اللّه.. علي حبيب اللّه». ثم ولنفسها أخذت جدّتي تردّد: لا أمل ولا حزب اللّه.. عليّ حبيب اللّه». مظاهرة! هل معقول؟ حتى كلمة مظاهرة أصبحت بعيدة بعد الأمازون عن بيروت. فهي تذكّر بالأيّام العاديّة. زمزم تسير في مظاهرة؟ وهي تنتعل شحاطة البيت والقفطان، أسمع جدّتي تتنحنح في غرفتها. كم أصبحت ضعيفة وكم كفّت عن أن تكون جنيّة. ربّما لأنّها ليست كعادتها بفساتينها البيضاء الفضفاضة ومنديلها الحريري الأبيض كأنّها عادت لتوّها من مراسم الحجّ. هي الآن من غير بودرة وجهها الأبيض، وكأنّها تعدّ نفسها لخشبة المسرح، وأنا لست في تنانيري الواسعة ذات اللّون الباذنجاني التي تصل حتى أخمص قدمي، وبلوزاتي التي كانت تكمل شعري أو كان شعري يكملها بلونه.

ولم نتحرّك من غرفتنا طوال الأيّام الثلاثة هذه إلى أن سمعنا انفجاراً هائلاً فصحنا جميعاً، وهرعت كلّ منّا إلى غرفة الأخرى. وعندما سمعنا تبادل أصواتنا وأسمائنا وكدنا نتصادم، ضحكنا، كنت أسرع من جدّتي إلى غرفة المؤونة. حيث ينبعث اللّهب، وحيث ارتمى شيء حديدي على الأرض، وكأنّ لا علاقة له بهذا الخراب الذي أحدثه في الحائط وعلى الجوانب وفي الأرض. كان يشبه غصن شجرة تخيناً ويابساً. قلت لجدّتي وأنا أتأمّله «يلّلا نطبخه».. ضحكنا معاً من جملتي هذه. وعندما شبّهت جدّتي ردّة فعلي المضحكة بأمّي وبجدّي، وجدتني أقرّ لها بأنّي قد استعرتها من كتاب شعر كنت أقرأ فيه.

قرّرت أمي أخيراً إذا دخل الصاروخ مطبخنا

ستنقره وتسقطه في طنجرة الكوسى

تطبخه مع أرز الشظايا

وكمشة من صنوبر أصابعنا

وسندعو المحاربين إلى أشهى وليمة

وحين عدت أنظر حولي، وكلّي حيرة. شعرت فجأة بكراهية لبيتنا وبنفور منه. كيف لبّى رغبة القذيفة وجعلها تخرق باطونة وتسقط في مكان مستحيل. بين الصواني الحديدية وأكياس البرغل. كنت قد ظننت أنّ العنف لم يعد يلمسني. إذ زوّدتني النفس بدرع سحرية، كما زوّدت بها الآخرين حتّى الذين خلف المتراس. والمدافع، توهّمنا بأنّنا لن نصاب. لا يمكن أن نخرّ على الأرض بينما نحن نغلي بالحركة وبالأفكار. لا يمكن أن تُحبط هذه كلّها من جراء شيء جامد، كهذا المعدن لأنّه يدخل الجسم صدفة.

وعادت زمزم تنقل لنا الأخبار بأنّ الدبّابات ستدخل هذه الشوارع، وأنّها سمعت بأنّ فضيلة أقفلت الباب على ابن أخيها ريكاردو، وحبسته في البيت وبأنّها تظاهرت هي أيضاً وأخذت تهتف للسوريين وتضرب صدرها وتلفت انتباههم حتى يتذكّروا وجهها، حين يبحثون عن مقاتلي حزب اللّه. وبدت زمزم كالقرد الذي دخل مخمراً للموز وتاه من أين يبدأ. تكرّر جملتها الوحيدة وهي أنّ الحيّ بأجمعه يستعدّ للهرب. في الأيّام التي تلت، اكتشفنا كم كانت زمزم مصيبة. فقد امتدّت وحشية القتال إلى أهدابنا وأصبح صخب القصف كأنّه جزء من الآذان.

ويبدو أن تفكيري الملحّ بالهرب من هذه الأصوات ومن أحلام جدّتي بأنّها في بساتين خضراء تقطف الكرز وبأنها فوق جبل عرفات وبأنها في بحر مرمرة. وصراخ زمزم لأنها خائفة ولأنّها تتوسّل: «دخيل أجرين اللّه. حدا ياخذني من هون، حتى لو عزرائيل يهزّ ورقتي الصفراء ويخطف لي روحي ربّما في دنيا ثانية وبرتاح» جعلتني أسمع خبطات على الباب وصعقنا من التساؤل. وكأنّ كلّ

هذا الضجيج المجنون في الخارج لم يحرّك بنا شيئاً كهذه الخبطات رغم أنّ قلبي رحّب بالطارق، متمنّية لو أنّه فارس الأحلام سمع عن الأميرة التي لا تنام وجاء بسيفه يقتلع الأشواك التي كانت تنتهي بالرصاص. أركض إلى الباب. أطير كأنّي فراشة، رغم أنّي قبل لحظات كنت أتخبّط بين الوهم والحقيقة بأنّه ربّما لم تعد لديّ القدرة للنهوض والسير على قدمي. صوت علي: «عجّلوا افتحوا الباب». ابتسم وأنا أفتح له بحماس وهو يصيح: «إن شاء اللّه افتكرتو إنّه علي نساكم خلص؟» أجبته بكل سعادة: «وده معقول يا سي علي؟».

لا بدّ أنّه استأنس لهذه العاطفة وبالوقت نفسه أخجلته إذ قال بسرعة وبكلّ فخر «ياللا.. جاي آخذكم عالضيعة، بسرعة، حضّروا حالكم». نادته جدّتي وكعادتها أرادت أن تتمسّك بشخصيتها حتى في هذا الظرف. فسألته وكأنّها وزيرة حرب تسأل جنود الجبهة: «شو الأخبار؟» مين الغالب؟ شو راح يصير؟

أجابها علي بنفاد صبر «حضّروا حالكم بكم دقيقة. المسألة مطوّلة. راح يوصل الدم عالركب. تجيبه جدّتي: «بسيطة لو عالركب؟ ما وصل عالتم».

أشعر بالفرح الحقيقي. أسمعه يصيح من الصالة: «ما حدا سألني كيف بدّي قطّعكم؟ جايبلكم مصفّحة، أيّ واللّه مصفّحة، لا فرق عندي مصفّحة أم بُراق مذهّب الجناحين. ما همّني هو أن أفلت طليقة من بين ذبذبات صوت زمزم وثقل أنفاس جدّتي. وناديت منافقة: «مصفحة يا علي واللّه أنك». وقاطعني وهو يشعر بالقوّة والزهو: «أيّ واللّه ست اسمهان. مصفّحة طويلة عريضة».

قمت بجمع اسطوانات بيلي هوليدي في كيس نايلون، أضيفها إلى ملابسي الداخلية وإلى تنورتين وعدّة قمصان ولم أنسَ علبة الكوتكس، أعرف أن دكّان الضيعة لا ينقصه بين حين وآخر سوى الكوتكس. عندما كنت أتأفّف لعدم توفّرها لديه حين كنت أحتاجها كانت زمزم تعلّق: بإنه أهالي الضيعة حكماء عكس أهل بيروت الذين ينفقون ليراتهم على قذارة الجسم.

اسمع صياح جدّتي يعقبه صياح زمزم. زمزم هي في الحالة التي تصفها جدّتي الآن. «مزلغطلك بـ... شي نوري اندبوري» بقدر ما هي كانت تتمنّى مغادرة البيت واللجوء إلى أيّ مكان يبعد عن عنف المعارك، بقدر ما هي لا تستطيع فراقه الآن، تدور حول نفسها ولا تعرف ماذا تأخذ معها وماذا تترك. لا بدّ أنّها خائفة على البيت ولا تستطيع مفارقة أشيائه.

رغم سعادتي، أجدني أتردّد في الخروج خلف عليّ والركوب في المصفّحة، كأنّي هاربة وأنا أخاف من هذه الصفة حتى ولو مرّت في خيالي. خائفة منك؟ من سكان الحيّ، لكنّهم في الملاجئ، طمأنت نفسي وأنا أتباطأ، تهكّمت على نفسي. لا بدّ أنّي خائفة من القطط التي أصبحت تعرف ما هي الحرب. أو تراني خائفة من أعمدة الكهرباء الملتوية؟

يستعجلنا عليّ. يتناثر ريقه في الفضاء. أصبحت نبرته أكثر سلطة وحزماً في هذه السنوات الأخيرة، منذ أن ترك خدمتنا. فقد كان السائق ومدبّر العائلة وكل ما نحتاجه في بيروت إلى أن أتت الحرب.

أردت أن أكون الأخيرة. لكن صياح عليّ بزمزم لأنّها تحمل مع الحقيبة التي سمح لها بها قفص الحجلة جعلني أسرع في الخروج. صياحه وصياح جدّتي يختلطان معاً: «خلصوني، هلّق بينزل شي صاروخ على هالمصفّحة». وهو يرى زمزم تركض إلى بيت الجيران حتى تودع عندهم الحجلة. يقسم بأنّه لن يأخذها معنا وبأنّها لا تستاهل الشفقة. نصعد إلى المصفحة وجدّتي مستغربة لأن زمزم أصبحت في نظرها من بني آدم. لأنّها تركّب مكنة المولينكس وأتت بطير الحجل.

صوت زمزم يلعلع من جديد بأنّها قادمة. تصعد المصفحة وهي تجيب علي الذي لامها على عدم إيداعها الحجلة لديه. «ليش بدّي أعطيك الحجلة ما أنا بعرفك. بتذبحها وانت مبسوط وبتنتفها ويمكن تاكلها نيّة». وتسألها جدّتي إذا كانت أودعتها لدى ذكيّة. لكن زمزم

لا تجيبها بل تقول نادمة: «اللّه يسامحكم» ثم تسألها جدّتي: إذا كانت قد أدارت المفتاح في القفل وكانت قد سألتها السؤال نفسه ونحن ننزل الدرجات القليلة حتى الحديقة وسبق أن أجابتها زمزم بأنّها وضعت قفلين. رغم صخب الجميع إلاّ أنّي لم أستطع إلاّ أن أشمّ رائحة الفتنة وكانت شجرتها لم تزل تمتدّ في حديقتنا ليصل بعض أغصانها إلى الشارع. لكنّها هذه المرّة كانت تختلط برائحة البارود الذي حوّل الجهنمية الليلكية إلى جهنمية سوداء. العمارات أم نمور عالية بجلودها المرقّطة؟ غرفة جيراننا بلا جدار. لم تزل زرقاء اللّون في وسطها طاولة الطعّام وحولها كراسي. بدت جميلة، كأنّها معلّقة بين السماء والأرض، تتساءل جدّتي: يا كافي البلا، يا علي مدري شو صار بجيراننا الأوادم؟. «ما بعرف يصرخ علي» يللا اطلعوا، دخيل إجرين الله اطلعوا!» وهو يرفع يديه وينزلهما على شكل قدمين. الحيّ ساكن. كأنّه يرتاح من حفلة الأمس الصاخبة، حيث الألعاب الناريّة شعشعت في السّماء، وبقيت فترة طويلة. بناية مالت رقبتها من التعب. مواسير مياه كأنّها أفاع سوداء ملتوية. عامود الكهرباء انحنى كأنه يلامس الأرض. دخان مازال يتصاعد كأنه غيوم سوداء في الربيع. قرميد أحمر بدا كأنّه لعبة للأطفال بانتظار البلاط المفقود. باب الدكّان المعدني الجرّار، كأنّه مراوح صينية أفلتت طيّاتها. أحجار البلاكين قطعت أرجلها. المصفحة تقف بانتظارها، وأغنية تنبعث منها. ندخل من الباب الخلفي، آخر ما وقع نظري عليه قبل أن أصبح في عالم سرّي هو الملصقات وما عليها من وجوه شهداء ورجال دين وزعماء، كأنها خافت من المعارك فقشرت نفسها عن الحيطان.

تبادر جدّتي الشاب الذي أحكم باب المصفحة دون أن يحيينا: «شكراً يااستاذ، متشكرين همّتكم ومساعدتكم». كأن زمزم لم يعجبها جديّة جدّتي في تقديم الشكر إذ أردفت: «الله يخلّيكم لاهاليكم، اللّه يردّ عنكم، ويبعد عنكم الشرّ كيف ما درتو وكيف ما مشيتو». عندها فقط ينظر إلينا الشاب بسرعة ويقول قبل أن يختفي في فتحة الباب، بلا مبالاة: «أهلاً وسهلاً».

لا بدّ أنّي فقدت جاذبيّتي، فهو لم يرد على ابتسامتي، بل إنه تجاهلني. برّرت هذا بالتوتّر الذي لا بدّ أنّه يعاني منه الآن، أردت أن أنظر في المرآة. لا بدّ أنّي أخسر جاذبيّتي وبالتالي حيويّتي. ولم يمت هذا الموضوع تماماً في ذهني إلاّ عندما سارت المصفّحة، وعندما اعتدت على هديرها، تلفّت حولي ورفعت رأسي أتأملّها. كانت أشبه بسيّارة إسعاف. مقاعدها كأنّها أسرّة حديدية قليلة الطول والعرض، انتبهت إلى سقفها الذي كان يشبه شكل القنفذ ولكن من حديد. ينهض علي وهو ينظر إلى السائق الذي لم نره بعد، وإن كنّا نرى قدميه حتى خصره، يدقّ على سقف المصفحة، كأنّها فرس نالت الجائزة الأولى في السباق ثم يدقّ على قدمي السائق الواقف الذي لا بدّ أن رأسه يناظر الشارع وعينيه على بندقيّة أو مدفع. لا أعرف تماماً ما اسم السلاح، رغم أنّ الجميع حتّى الصغار في لبنان باتوا يعرفون السلاح من دويه وما يتركه من آثار يفرّقون بين الرصاص الجدّي ورصاص الإشارة، ينزل الشاب رأسه وهو يبتسم لنا ابتسامة عريضة يوجه الحديث إلى علي: يللا شو بدّك تشوف؟ يرفع علي نفسه حتى يختفي رأسه.

لحظات ويعود به من الفوهة ويهتف: «تعي ست اسمهان. تعي شوفي». تتوقّف المصفحة وهو ينحني بجسمه، ويمدّ رأسه قائلاً بحماس: «ست اسمهان، بشرفك تعي. شوفي الصليب الأحمر عم يحفر... عم يشيلو ناس من تحت». ويمدّ يده لي. تحت إصراره نهضت رغم أنّي كنت مستأنسة بدفء مكاني، ومن فوهة المصفحة رأيت الدنيا بما فيها من سماء وأرض وقد دلقت كل ما في داخلها إلى الخارج. ورأيت نفسي أيضاً بين الخراب، رأيت تلك البناية التي.... ثم دوى صوت انفجار، ورأيت رأسي داخل المصفحة. يحاول الشابان غلق فوهتها ولا يستطيعان. يزيحهما عليّ ويجرّب كل الأزرار يخبطها، رغم محاولة أحدهما ردّه عن هذا العنف. تسقط العتمة داخل المصفحة. وهنا زاد أحدهما من تأنيب علي. بينما أفكّر بأنّنا ربّما تسرّعنا في الموافقة على الركوب في هذه المصفحة. يبدأ القلق ينهشنا لاسيما زمزم. أعرف قصصاً كثيرة عن الذين أرادوا

الهرب من القصف فخرجوا إلى البحر وعانوا من التيهان فيه بينما في البرّ وقعوا تحت القذائف. وكأنّه تبيّن لي الآن فقط أن شغف هؤلاء الشباب بقيادة المصفحة والسيطرة عليها كان وراء قبولهم لطلب علي لا حبّاً في سلامتنا. ثم أشعر بالوحشة والأولاد الثلاثة يحاولون السيطرة على هذه اللّعبة الجديدة واشتاق فجأة إلى البيت الذي تراءى لي هذه المرّة كأنّه اختصر نفسه، اختصر أشياءه الجامدة التي كانت تتحدّث والتي لازمتني بتدرّج والتي كانت شاهدة على خلجات أفكاري ومشاعري وأصبح كلّه في علاّقة مفاتيح في جيب علي مع الوصيّة، بسقي الحديقة وتنكات الحبق. أشعر فجأة بالتعب أريد الاستلقاء في سريري بالذات. فأنا كلّما ابتعدت عنه، أتصوّره ينتظرني. مؤكّداً لي أنّ الخطر سرعان ما يزول، يستفسر سرّ هربي منه، ويفتح الواقع أمام عيني بأنّ الخطر هو في كل مكان حتّى في هذه المصفحة. وكأنّ جدّتي أرادت أن تبعد عنها التوتّر فقالت استجابة لأفكاري: «يا ريت قلنا لذكيّة تسقي المردكوش والحبق، وتناظر الأولاد حتى لا يرشقوا شجرة البوسفيرة».

تتبرم بها زمزم قائلة: هلّق لح نموت وانت عم تفكري بالمردكوش وبالبوسفيرة!».

لا بدّ أن الشباب قد نسوا وجودنا، إذ حينما نزل علي، لم يعلّق بأنّهم أخيراً سيطروا على اللّعبة الجديدة التي هي أكبر من طموحهم، بل أخذ يحدث السائق ويسأله إذا كانت هذه الدبابة درجة أولى، وإذا كانت تستطيع دخول أزقّة الضاحية وإذا...

عندها فقط، تنفرج أسارير زمزم وتتمتم إلى الكيس الذي بجانبها: «كنت عارفة أنّك خير علي وجهي». كانت قد أخفت الحجلة معها في الكيس. نضحك كثيراً وتعلّق جدّتي: بأنها سمعت صوتاً يشبه صوت أمعاء البطن. يضحك عليّ ويخبر الشباب، ثم وكأنّ جدّتي تضايقت من هذا الموضوع، فبدلته موضية «عليّ» بالبيت. ليجيبها: «لح وصّي على باب حديد. على كلّ حال بيتكم فاضي لا ثروات ولا كنوز بسّ الواحد سبحان اللّه ما بحبّ حدا غريب يفوت

على بيته ولو كان فاضي». وعندما غمزني عرفت ما كان يقصده، كان يحاول إبعاد الأفكار السيّئة عن رؤوس شباب المصفّحة. وظلّ الجميع يتبادلون القفشات والمزاح. علي يتمنّى لو يجد كاميرا حتى تؤخذ له صورة وهو على فوهة هذه المصفحة. بينما أخذت جدّتي تردّد آية الكرسيّ وأدعية السفر.

أنت الآن في ذهني، لأنّي داخل مصفحة، وداخل جسدي لأن العرق الخفيف ينمو على مسامه كالذي كان يضخّ على جسمينا ونحن معاً رغم المعارك التي كانت في الأجواء.

هدير المصفّحة، كأنه همهمة عالية. من أين يأتي هذا الصوت؟ من خبطها على الأرض أو من المحرّك نفسه. المصفحة تشبه إسورة أمّي التي كان اسمها دبّابة. سلسالها الذهبي السميك يشبه جنزير الدبّابة. أفهم الآن لماذا هي الدبّابة أهمُّ ما في السلاح الأرضي في الحروب. اسمها يكفي، هديرها يكفي حتى يبثّ الرعب أينما كان. كأنّه عملاق يزأر قبل أن يمسك المدينة التي تبدو كصحن فاكهة. أفهم الآن لماذا يشعر الجنود وهم بداخلها بأنهم يستطيعون هرس السيّارات والأشجار. وكأنّها أشواك. لأن صلتهم بكلّ شيء، بالروح، بالجسد، تنقطع، وتبقى هذه الآلة الحديدية تتدحرج بكلّ ثقة رغم بطئها. أشعر كأنّي اختفيت عن الوجود. لا دمار. ولا شوارع ولا ناس ولا سنوات حرب طويلة مرّت كأنّي كنت طوال الوقت في غوّاصة. لا نافذة ولا كوّة، النور الضئيل يأتي من لمبة، ومن النوافذ الصغيرة في منطقة السائق.

أعرف أنّك أردت ترك بيروت. قبل خمس سنوات في مصفّحة كهذه، لا نافذة، لا كوة، فقط وحيداً مع خيبة أملك التي كانت كأسلاك شائكة فالتة في كلّ اتّجاه. كلّما حاولت الاحتيال عليها وناقشتها كلّما تجاهلتها. كلّما لسعتك هي وجرّتك إلى تشابكها، جعلتك تشعر بوطء ثقلها مع كل نَفَس كنت تأخذه وذهبت أبعد منها. حاولت أن تستغلّ خطرها، تحاول أن تنتقم منها بأن تحافظ على نفسك. جسدك هو الحريّة الآن. إذا بقي حرّاً. بقي عقلك حرّاً. لن تجعل نفسك فريسة بين يديْه مَنْ يدخل بيروت سواء أكانت إسرائيل

أم غيرها. إسرائيل ستدخل بيروت. ما يحدث هو الحقيقة. لن تدخل المطارات والمرافئ وتتمركز في المواقع فقط، بل ستدخل البيوت والمكاتب والملاهي والدهاليز وشقوق الأوراق والفكر وبياض العيون. هل هذا معقول؟ أن يصبح الجنود الإسرائيليون في الأحياء، أن يروا الغسيل المنشور، عناقيد البصل والتوم معلّقة على حائط الشرفات، وتلتقي عيونهم بالأشياء التي أصبحت تتَمّم ببيروت، من تنكات الورد والحبق الذي مات من قلّة الماء، إلى الزبالة المتكوّمة التي أصبحت مألوفه للعين، أن يجلسوا على الكراسي التي كنّا نجلس عليها في المقاهي والأماكن، حول الطاولات نفسها، أقدامهم فوق الأرض التي اعتادت على وقع خطواتنا. أن يلمحوا أبواب الجامعات ترفّ أعينهم على رحابها، حيث كنّا نندّد بهم في حرب ٦٧؟

لذلك كان تقهقرك يجب أن يتمّ إمّا عبر هذه المصفحة إذ هي الجليد الذي يغلق النفس، يحميها ويحافظ على انتعاشها، وإما في طائرة حربية أو في هليكوبتر أو في سيّارة جيب. بينما النزوح في السفن المدنية وسفن المشحونات، والوقوف على اليابسة أمام العسكري الذي ينادي: «اسمك، بلدك، عمرك» كان ينتشل الخلايا الوحيدة المتبقية في النفس. شبهت نفسك كالثور الهادئ الذي لم يستطع مصارعو الثيران غرز سكاكينهم به، ولهذا فهم يقومون بترحيله. لكن، لم ترَ نفسك سوى نعجة صغيرة. أو عنزة تثغو. وهي ترى الدمغة في يد الجزار تنقش عليها رقمها. لم تكن تفكّر يوماً بهذا التقهقر خاصة في أوائل نشوء المقاومة منذ ذهابك إلى المخيّمات والبحث بين الأشجار والأسماء والملابس المرقّطة عن سليم ولد الجيران، الذي اختفى وقيل إنّه التحق بالمقاومة، لا تعرف لماذا تبرّعت بالذهاب إلى سوريا والأردن والسؤال عنه لكنّك فاجأت نفسك متحمّساً لترك مكتبك الهندسيّ وطاولتك، ولأوّل مرّة تنسى الطنين الذي يونّ بأذنك والذي أصبح رنيناً متأصّلاً متواصلاً غير مرغوب به، من جرّاء تعرُّض أذنك لسماع كسّارة. مخرط الحجارة لسفلتة طرق الكويت.

لماذا كـان هذا الحـمـاس؟ هل لأنّ أهل سليم في قلق أم لأنّهم ينسبون اختفاء ابنهم إلى عصابة تخطف الأولاد والشباب باللين وبالقسوة والوعود والأحلام، أم لأنّك لم تشأ أن تصدّق أنّك لن ترى بيت عمّك في القدس العربية بعد الآن، وعليك أن تفعل شيئاً إزاء من يضع سوراً حول الضفّة الغربية ويقفل بابها ويُخبئ مفتاحها في جيبه. فتفكر بأنّك تريد أن تعمل للمقاومة ولكن على شكل آخر، على أن يكون هؤلاء الشباب كسليم، ووليد محور اهتمامك. لن تحمل بندقية ولا مسدّساً ولن تجتمع بالآخرين بل ستعمل وحيداً من خارج الدائرة. إذا حافظت على خصوصية أفكارك استطعت أن تفتح لها أبواباً لم تطرق بعد في المقاومة. لعلّها تكون أبواباً خطرة جهنمية، وماذا عن عملك كمهندس؟ مكتبك، عائلتك، تتراجع فأنت تكتشف أن الأمر ليس بهذه السهولة لكن وأنت ترى أصيص زهور عند العتبة، عدت تفكر بأن التناقض لا يجب أن يؤثّر عليك بل عليك أن تستخدمه لصالحك. ستعمل في الهندسة وفي المقاومة. ثم من غير أن تسأل أيضاً أخبرت المسؤول أنّ معظم أفراد عائلتك بقوا في فلسطين، والاشتياق هو الذي جعل أمّك وأباك يلحقان بك عام ٤٨.

لم أكن أتوقّع أن يأخذ حديثي معك هذه الوجهة بعد ثلاث سنوات من تعارفنا عندما أوقفت سيّارتي في زقاق وسألت عن البناية حيث مكتبك وأشير إليها. إستغرب وجود أكياس رمل تخبئ المدخل من الشارع حيث جلس البوّاب الذي كان يدقّق بالأسماء ويسأل عن الهويات ويسأل ما في الأكياس وشنط اليد، أعطيه اسمك قبل أن يشير إليّ قائلاً: «الطابق الأوّل عاليمين». ولم أكن أتوقّع أن أراك خلف طاولة صغيرة، في غرفة فارغة، يتدلى منها شريط كهربائي، ينتهي بلمبة عارية خفيفة النور وصوفا كأنها لحارس محطة قطار نائية، بحرامها الصوفي الباهت المطروح فوقها والبلاط الذي يبدو وكأنّه لم تمرّ عليه مكنسة أو قطرة ماء منذ أن بُلط. بينما أُسند عند الحائط صندوق من خشب كان للخضار ذات مسامير صدئة، وضع عليه ترموس وسخان كهربائي ومرطبان للقهوة وكيس من السكّر، ثم الكتب والكتب والأوراق والملفّات جمعت فوق بنك خشبي وفي زاوية على الأرض.

أين أعيش ومن أين أتيت وماذا أفكّر؟ حتّى سيارتي لا تمّت إلى هذا المكان. فكيف شريطة شعري؟ التفّت حولي مداراة لارتباكي، وإذا بي أرى بذرة مشمش في منفضة ولم أستطع إلاّ أن أعود وأتأمّلها إذ بدت مهمّة. فهي الوحيدة التي كانت تذكّر بالحياة في هذا الجفاف. لا بدّ أنّك قد تقلّبت وقشّرت عنك كلّ شيء ما عدا هذا القميص وهذا البنطلون. حتّى أصبحت صافياً كاستكانة هذا الشاي الذي بين يدي. ومع ذلك ومن مكاني رأيت شجرة البانسيتا، عبر النافذة، ذات الزهور الحمراء والتي كأنّها نقلتني إلى ضوضاء بيروت، إلى يوم تعارفنا في شقّتك الواسعة في حرب ٦٧ حيث الألوان، والنباتات الخضراء وأحواض السمك، وقميصك المخطّط. والبيك آب، والاسطوانات. لا بدّ أنّك تركت كلّ شيء خلفك لتكمل خاطراً يبعد عنك الشعور باليأس الذي داهمنا جميعنا أيّام الـ٦٧، تعود إليّ تلك الأيّام بسرعة لدرجة أنّي شعرت بهواء ساخن يلفحني وأنا قبالتك فوق كرسيّ القشّ غير المريحة هذه، انظر إلى التنس شوز الذي ظهر من تحت الطاولة وكأنّه لا علاقة له بالقدم التي عبثت بقدمي في تلك الأيّام. بينما جلست أنت تسألني عن أحوالي، بينما كنت مرتبكة أشعر وكأني حشرت رأسي بين قضبان حديدية حاولت أن أشرح لك ما يدور في رأسي لكنّي تلعثمت، أردت أن أقول إنّي نشاز في هذا المكتب. كلّي نشاز، من معطفي الأبيض الذي كاد يصل الأرض إلى جزمتي البيضاء الجلدية. لكنّك تنهض كأنّك ترفض ما أقوله وتسألني: «قهوة أم شاي؟».

تقف أمام السخّان تراقب الماء حتى يغلي في الركوة وأنا أحاول أن يصدر عنّي شيءٌ عدا ارتباكي ولا أستطيع. لكن ما ان ابتعدت بسيارتي عن مكتبك حتى شعرت بأنّ هناك هوّة تركتها خلفي سرعان ما اختفت.

لكن وبيروت تخوض حربها، وجدتني أنتمي إلى تلك الهوة لحظة ما رأيتك في المطعم الذي افتتح أثناء الحرب في شارع سكني. كأنّ هذا المطعم لا يطابق حالة بيروت، إذ كان هاجس الحرب يختفي عن الذهن ما أن نصبح داخله، نتزاحم على الجلوس قرب النافذة نراقب

المارّة وكلّنا يقين أنّ نافذة المطعم آمنة معصومة حتى والدنيا ترعد بالرصاص والمتفجّرات. ظروف الحرب لوّنت شخصيات الوافدين إلى هذا المطعم سواء كانوا من المثقّفين الذين بقوا في لبنان من الذين شاركوا في الحرب وتركوها، أو الذين لم يزالوا يشاركون بها. ولأنّ العلاقات كانت تتوطّد في الحرب بسرعة كان طوقها ينكسر بالسرعة نفسها، لكن الفضول أخذ يشتدّ لمعرفة ما خلف هذه الوجوه والأسماء الجديدة. لأنّ بيروت أصبحت حلقة ضيّقة. نهضت ما أن رأيتني ومددَت يديك تحتضنني كأنّك الأبُ الذي اهتدى إلى ابنته بعد بحث طويل، رغم أنّي ظننت أن معمعة الحرب هذه قد بدلتك. ووجدتني أميّز تلك الرائحة الخاصّة التي لا بدّ أني حفظتها منذ حرب ٦٧ والتي رافقت تلك القبلة التي قرّرت أنا أن تحدث بيننا. هذه القبلة لم تترك أثراً إلاّ في حينها إذ طارت منذ أن ابتعدنا برأسينا بعضنا عن بعض. ولم تعد تجد طريقها إلينا مرّة أخرى.

سنوات أخرى مرّت وأنت الآن تكرع الويسكي وأنا جالسة أمامك وأنت في حالة التوتّر هذه وعدم التوازن. متمنّية لو تعود ناصر الماضي ولا أقصد ملياً بالتفاؤل وبإقناع نفسك أنّ الطرق التي تتبعها الحرب متناقضة وبأنّ هذه المدافع ما هي إلاّ أصوات والنيران ما هي إلاّ ألوان واللّون الأسود ما هو إلاّ لون أحمر والقتلى هم أرقام في الجرائد، بل أن تعود ناصر الماضي.

أجلس أمامك وأنا أعرف أني الجريدة والأخبار المؤلمة. فأنا أصبحت صلتك الوحيدة بالخارج، كنت كطير البوم أنعق ولا أستطيع أن ألتفت بعيني فقط بل بكامل وجهي. أخبرك عن النّاس الذين احتموا بمساحة شاطئ الكورنيش بين السفارتين البريطانية والأمريكية وعن البنادق المستسلمة للرمال عند ركبة الأمّ أو الزوجة ريثما يعود المقاتل من مياه البحر، وعن طاولات لعب الزهر وعن تهافت النّاس على الأكل واللحوم والماء ومولّدات الكهرباء ومصابيح الغاز. وعندما كنت أمضي في إخبارك عن مباراة كرة القدم الدولي، كنت تنفجر صائحاً: «بعرف. بعرف شو أنا أطرش؟ ولك راديوهات الحي كلّها ايش بتسوى؟».

بتّ أكره وظيفتي هذه. لذلك لم آت على موضوع تشكيل اللجان والجبهات للتموين وللأقران وللمستوصفات وإصدار النشرات، إذ أنّ هذه كلّها أدلّة على أن كل مجهودك ومعتقداتك كانت وهماً. لذلك توقفت عن إخبارك بتفاصيل ما كنت أراه أو ما كنت أشعر به. كأنّك أصبحت عبئاً ثقيلاً عليّ. كلّما تمنيت أن أبقى معك صدمتني برغبتك في الانفراد بنفسك. كلّما بقيت في منزلي فكّرت بأنّك تتشبّث بي ولو عن بعد حتى أبثّ فيك حرارتي. أريد الاقتراب منك إذ كان شوقي يصبّ بي، ويتوقّف عند أصابعي. لكن صمتك كان يبعدني عن الاقتراب منك. فأجلس صامتة، بعيدة، ألومك بيني وبين نفسي لأنّك لا تقبلني ولأنّك لا تلصق بي. وأنا أراك كالجندب تهرب من مكان إلى آخر. كنت أعرّيك من قميصك الذي لم تبدّله منذ أسبوع، من بنطلونك ومن سروالك التحتي. أشعر بأنفاسك عند رقبتي. كلّما كنت تروح وتجيء كالفهد المحبوس في قفص عصفور، كلّما شعرت بثقل جسمك فوقي بينما كنت أستمع إلى كلماتك تفور كالزبد.. وأهزّ رأسي وأغمض عيني.

كنت ساذجة وأنا أفكّر بأني غدوت المسؤولة عنك. أتكتّم أمامك عمّا أسمعه وأراه، عن الازدحام في الشوارع الذي أخذ يذكّر بالأعياد وبلعبة القرعة: هل أنت باق أم راحل؟ هل ستعيش أم ستموت؟ من هو صاحب الحظّ السيّئ هذه المرّة؟ أم أن القرعة ستشمل الجميع؟ لكن يبدو أنك كنت مجّهزاً بالأشعّة، فلقد أتيت مرّة وجلست على الكنبة الهث وأنا أغمض عيني متصنّعة التعب. فلم تسأل ماذا جرى. بل وجدتك تدلق الكاز على أوراقك في وسط الغرفة ثم تقف تتأمّل النّار وهي تشتعل بها. لم تتحرّك حتّى عندما امتدت النّار قليلاً. أردت أن أخبرك عن الحريق الذي أحدثته أمّي لحظة توفي والدي. أردت أن أستميلك حتى تسامحني على ما كنت قد فكّرت به في طريقي إليك وأنا أهرع بسيارتي مارّة بحرج بيروت، وقد انتصبت أمامي أنصاف الأشجار، وبدلاً من أغصان الصنوبر التي كانت كمظلّة منمنمة من اللون الأخضر انتشر الجمر الأسود. أشهق وأنا أكمل شقّ طريقي عبر اللون الأسود، وأفكّر بأنّه ربما

يجب أن ينصرف الفلسطينيون، بدلاً من أن تمتلئ السماء بالطائرات الإسرائيلية، وتترك آثارها فوق كلّ شيء، أعرف. أعرف أنّهم إذا مضوا، مضيت أنت، لكنّي لم أكن أريد أن تتبدّل بيروت بحيث لا نعود نعرفها. سماؤها تتبدّل بهذه المناشير الملوّنة تتلاعب في الجوّ حين تقذفها الطائرات الإسرائيلية بدلاً من طائرات الورق الملوّنة وبدلاً من السحاب. كان الهواء قد توقّف عن دخول حنجرتي، وأنا أعدو خلف المنشور أقرأه، يحثّنا على مغادرة بيوتنا خوفاً على سلامتنا. هل هذه المناشير من السماء أم أنها «أبابيل وحجارة من سجيل؟».

الرصيف احتلّته الحفر الصغيرة والكبيرة، إلاّ أنّه بقي رصيف بيروت. لايزال المرء يسير في شوارع بيروت ويقول بعينيه، لا بدّ أن انفجاراً هدّم هذه البناية أو حطّم هذا الزجاج أو حرق هذه الأشجار. هذا محلّ الألعاب أصبح محلاً للفراريج المشوية، صالون الحلاقة أغلق إلى الأبد مستعيناً بألواح حديدية. لكن أن تذوب بيروت كلّها، أن تذوب بيروت كلّها؟ عند هذه الأفكار توقّفت، وأنا لم أزل أراقب معك النّار وهي تخمد في الأوراق التي أصبحت رماداً متجمّعاً ضمنها الأماني التي اصطحبت تلك الحروف والأيّام والليالي التي لم يعد ينفع أن يشيع بينها المنطق أو الحوار الداخلي أو الإيمان. الشرايين التي سدّت أيّ محاولة لأن تندفع بها الحياة من جديد، أو حتّى أن تعود كما كانت في الماضي. فأنت ترى صديقك وهو يسدّ عليك باب بيته، معتذراً لعدم إمكانه منحك سقفه الليلة خوفاً من أن تصبح البناية هدفاً للقصف إذا عرف أنّك لجأت إليها، يصدمك هكذا لأنّ صداقتكما لم تتوطّد حول تبادل الحديث وارتياد السينما معاً والمناقشة إنّما ارتباطكما كان من أجل تحقيق المستقبل معاً. ومع هذا لا بدّ أنّك لمحت في عيني ثقل وطأتك ان بقيت ببيروت. هل معقول؟ أن تصبح عبئاً عليّ وعلى بيروت وكأنّك لست ناصر الذي أصبح ولايزال لمدّة طويلة هوسي. أتعلّق بنبضك وكأنّه نبض الحياة. وأطلب الالتصاق والالتصاق حتّى تتشابك الأجزاء والأنفاس وتصبح درعاً واحدة في وجه شيء مجهول

ومخيف. كانت رغبتي بك المتواصلة هذه تخيفني رغم أنّ هناك كثيرين كانوا يشاركونني مشاعري. لا بدّ أنّك تذكر تلك الليلة، قبل رحيلك بثلاثة أيام أو أربعة؟ عندما تنهّدت وقلت لي: «أشتهي ثلج كثير مع كاس الويسكي» وكنّا قد خرجنا من فندق الكومودور، نسير في ترنّح من كثرة ما دلقنا في جوفنا من ويسكي ونبيذ أبيض وأحمر ونحن نحاول أن نحزر أي شقّة من الشقق وعدت بها في تلك الليلة. وجدتك تطلب منّي الصعود من جديد إلى سيّارتي لنتوجّه إلى المستوصف. قدت السيّارة وكأنّي في حلم. أوقفتها ونزلت منها وكأنّي مازلت في حلم، فبيروت مظلمة، هادئة رغم أنها تضجّ بالقصف. ندخل حيث كانت الممرّضات يلعبن في ورق اللّعب مع الأطباء وبعض الجرحى. بعد أن تمازحنا معهم، طلبت ثلجاً لكأس الويسكي. رغم أنّ الثلج كان مقصوراً لتبريد بعض الأدوية ومع ذلك فقد أعطيت قطعة من اللوح. ولم نبحث عن الشقّة التي وعدت بها بل توجّهنا لزيارة صديق رسّام. كان باب بيته مفتوحاً كأنّه على معرفة بأن كثيرين سيزورونه. دخلنا غرفة الجلوس الطافحة بالشباب، خاصة بالفتيات اللواتي افترشن الأرض كأنهن في مدرسة داخلية. أشياؤهن مطروحة هنا وهناك. جلست أنت تحتسي الويسكي المثلّج الذي أخذته معك تتحدّث إلى الرسّام وأنا اتحدّث لواحدٍ قال لي إنّ الجوّ خانق فلماذا لا نخرج إلى الشرفة. كأنّنا في قدومنا قد أشعلنا الجمرة التي كانت قد خمدت، إذ لعلعلت الموسيقى من جديد ونهضن يرقصن طرباً عليها وبعضهن رقصن وهن جالسات على الأرض. في الدقيقة التي امتدت يد الشاب تتحسّس صدري من فتحة قميصي، التفت عبر الباب إلى الداخل لأرى ابنة صديقك تتكئ على صدرك وأنت تتحسّس شعرها بحنان. هل كانت تبكي؟ لا بدّ أنّها كانت خائفة. وكانت يد الشاب تعبث بحلمة صدري، بينما بيروت محاصرة وهناك أعين ساهرة تنكبّ على التلسكوب لتعاين الأسلحة البرية والبحرية والجوية. ما أن همدت الموسيقى حتى همد كلّ شيء، عدا يد الشاب التي كانت لاتزال تعصر صدري وأنا لا أشعر إلاّ بالسواد يلفّ بيروت. وعادت غرفة الجلوس وكأنّها غرفة

مدرسة داخلية. عندما دخلت وأنا أراك تربّت على كتف ابنة صديقك وتتنفّس الصعداء ما أن رأيتني. ولم تنسَ أن تشدّها إلى صدرها وأنت تمسك وجهها بحنان جامعاً شعرها من الناحيتين، لتقول لي هامساً ونحن ننزل الدرج: «البنت خائفة» وأخبرتني أن يدها امتدت إلى وسطك وأنت أوقفتها وطلبت منها أن تريح رأسها على كتفك ووجدتني أصمت، لم أخبرك عن الشاب الذي تحسّس صدري. لم نكن نتحدّث في أمور كهذه. كانت المدافع الإسرائيلية تدوي آتية من البوارج ونحن نصعد الدرجات إلى غرفة على سطح إحدى البنايات وفي الظلمة التي اشتدت ربّما من كثافة السكّان الذين تناثروا على الدرج بينما انعدمت أصوات الأطفال من التعب والنوم وبقيت أصوات الكبار تهمهم داخل نفوسهم فقط، تكفر وتسامح، تصاب باليأس وبالتفاؤل. تعلّقت امرأة بقدمك وظننت أنّك تعثّرت بها فانحنيت تعتذر منها. لكنّها أعطتك وجهها وعلّقت يدها الرطبة برقبتك. وما إن ضمّتنا الغرفة من جديد حتى أخذت تتكلّم وتتكلّم ولا تسكت ولا تنصت ولا تسأل ولا تجيب. قدر ما كنت سعيده، لأنّك كنت تؤكّد أنّك تخصّني بهذا الكلام بجملتك: «سامعة حبيبتي». قدر ما شككت بأنّي فعلاً حبيبتك وبأنّي لست متمّمة لديكور بيروت. شعرت بأنّك تتحدّث إلى بيروت لأنّك ستنزح عنها بين ليلة وأخرى. ومع ذلك تركتك تتحدّث وأنا أستمع لك كأنّنا تعرّفنا ببعض لتوّنا، وكأنّ أمامنا أفقاً واسعاً من أيّام ولياليٍ وهمسات وكلام. وضعت يدي على الجرح. بأن بيروت كانت تأخذنا بضجيجها ولم تترك لنا وقتاً حتّى نتحدّث كما نتحدّث الآن. أمدّ يدي لأخذ يدك. لكنّي أعرف أنّها كاليد المستعارة. كنت أنظر في ساعتي، وأنت تتضايق متسائلاً: «عندك موعد». وأنا أنظر في ساعتي غير مصدّقة أنّ الوقت يسرع كأنّه يلبس في قدميه كراجتين. كنت تعرف وأنا أعرف أن نزوحك عن لبنان سيطلّ قريباً.. وبأنّك ستفارق الدفء الذي شعرت به. منذ ليلتك الأولى وأنت تنام في خان القرية اللبنانية مستمداً الحرارة من الحيوانات النائمة...

كنت قد اصطحبت عائلة عمك في المشوار، من قريتك إلى مكان

يدعى لبنان والذي ظننت أنه بستان آخر، من بين البساتين التي تخطيتها إما سيراً على الأقدام وإما ممتطياً فرساً واحدة تناوبت عليها مع زوجة عمّك وولديها..

وعندما طال المشوار أيقنت أنّ والدك قد أبعدك عن البيت خوفاً من اقتصاص الجنوبيين الانكليزيين بعد أن قفزت بكلّ عزيمتك في بركة ماء حتى يتطاير الوحل على نصاعة زيّهما العسكري وولّيت هارباً.

لكن المشوار طال في هذه الأراضي التي اسمها لبنان بعد أن لحق بك باقي أفراد أسرتك وأمل تقبلك وتعصرك إليها وهي تردّد أن الشوق هو الذي جعلهم يلحقون بك، حتى أصبح سكنكم عبارة عن غرفة ذات منافع بدل الخان ودير الراهبات وأصبح لديك مدرسة وصفة جديدة.. ناصر الفلسطيني.

لا بدّ من الانتحار.. الانتحار؟ لا. لا بدّ من الاستمرار.. إذ الاثنان غير مهمّين لأنهما يؤدّيان إلى النتيجة نفسها: «الاستسلام» لأنّ الاستمرار ليس معناه أنّي أُشهر على الإسرائيليين سيفي أو مسدّسي، الاستمرار هنا معناه أن أرحل وأرمي خلفي كل الآمال وأنسى كل ما جرى، والانتحار معناه أنّي ألبس بذلة مباهاة وفخر أنا لست أهلاً لها.

مونولوجك هذا طال رغم أنّي ظننت أحياناً أنّك كنت تشركني به، لكن ما أن أفتح فمي حتى كنت تكمل الحديث وكأنّ حركة فمي ما هي إلاّ محطّ استراحة للكلمات. بينما أخذت أصل إلى حقيقة جديدة وهي أنّ الكلام مات. لا بيني وبينك فقط. بل أن الكلام نفسه مات. شعرت أنّك فعلاً قد أقلعت عنّي بصحن طائر خفيّ. وبأنّي أجلس مع آخر يشبهك وينتحل اسمك ويقلّد صوتك وهو يفكّر أن يهاجر إلى بلاد بعيدة لا يسمع بها كلمة عربية واحدة وأن يبدّل اسمه أو أن يحطّ في بلد خليجي وسط أكوام الثروات.... الثروات: تخطئ في لفظ الثروة والثورة. وأقول لك أنّها ليست زلّة لسان بل زلّة نفس. وأنت لا تضحك بل تنظر في سماء بيروت وكأنّك تودّع

نفسك بعد أن استسلمت إلى نصفك الآخر. فأنت أصبحت شقّين. شقّ يود أن يعرف ما يجري في الخارج والآخر استسلم لروتين هذا الانفراد الذي يحاكي بالكاد أفكارك فانقطعت عن الاتّصال بقيادتك ولم تعد تفتح المذياع لتسمع التعليمات. ولم تعد تستطلع ماذا جرى للآخرين. عندما تحول وجهك إلى شرايين ظاهرة فكّرت أنّها تحاول بنبضها اللحاق بشرايين عقلي. تفكّر بصوت مسموع: «اللبنانية خايفين تبيدهم إسرائيل أم كفروا بنا؟».

رغم أنّ بيروت بدت من الشرفة مظلمة متشابكة الأحياء والأزقّة فقد كان كلّ ما فيها مسطّحاً وكانت تحت المجهر. كأنّها انقلبت بين ليلة وضحاها من الصديقة الجميلة المتحرّرة التي حدودها السماء والبحر والأشجار إلى كمّاشة مغناطيسية تجذب الدبابيس إليها من كلّ مكان حتى من الأماكن اللاطية بين الثقوب. كأنّها أصبحت بلا روح، أماكن وأبنية وأزقّة وعواميد كهربائية وبعض الأشجار. ساكنة أمام الكلمات العاطفية حتّى أمام ضربات البشر لها.

هل هي بيروت نفسها التي كانت ولاتزال وكأنّها كرة ألوان تتدحرج بالوجوه البرونزية بالمايوهات بالسيّارات ذات الأسماء الباهرة. بالمسرحيات ودور السينما. بالمقاهي. بالنوادي الرياضية بالأعين المكحّلة والمساحيق لإطالة رموش العين بالمغنّين العالميين بالفنّانين بالدرّاجات الكهربائية ذات الضجيج تمتطيها البنات، بالشقق العصرية في بنايات عالية مقفلة أو مشرعة النوافذ كأنّها كبسولة لا علاقة لها بشيء لأنّ من كان يسكنها لا يرى سوى البحر الأزرق. ومع ذلك كانت الأحياء القديمة هي بيروت أيضاً. مع الصعود إلى بناياتها القديمة، وأدراجها كان يشمّ الصاعد رائحة الطعام المألوفة ومن على شرفاتها كان يسمع ضربات السجّاد، كان هذا التناقض يجعل من سكّان بيروت كأنهم أزليّون.

كل هذا وأنا ألهث، أراقب ما يجري من بعيد ولا أجرؤ على الاقتراب، أعي جيّداً عدم الانسجام بيني وبين ما يجري. فأنا أتمنّى أن ألحق بما انتقده رغم شعوري بالجاذبية إلى هذه الأجواء. فأنا أنتقد بيوت بيروت الغنيّة وفي الوقت نفسه أتمنّى لو أملك ذلك

القماش الذي يذكر بقصور مدينة البندقية، أتمنّى لو أضع هذا الشمعدان الزمرّدي اللون على طاولة زينتي. كان ما يعوقني لأقترب من بيروت البرّاقة هو الحشد الذي يحيط بها سواء من النّساء أو الشابات اللواتي كنّ كأنهنّ امبراطورات أو أميرات بتساريح شعورهن وبملابسهن وبهدوئهن أو بحركتهن التي تنمّ عن ثقة بالنفس وبالمعرفة أو من الرجال الذين مارسوا الثقافة الأجنبية سواء عاشوا في الخارج أم بقوا في لبنان. كنت أسأل نفسي لماذا أقف حائرة لا أتقدّم لأكون كالآخرين من اللبنانيين الذين يكادون ينقضون على كلّ ما هو جديد يفد إليهم من غير أن يعوا ما يقدّمه وإذا كان يتماشى مع أذواقهم أم لا.

هل هي بيروت نفسها التي اكتشفتها وأنا في الحرب وعبرك. كأنّها أعلنت بالحرب عن إقامة مهرجان دولي، فما أن ابتدأ المهرجان حتى تدفّق عليه المثاليون والمقاتلون والصحافيون. تدفّقت أفكارهم وسواعدهم في البلد ذي الجوانب المفتوحة، فابتدأت العلاقة به في الفكر وفي القلب ثم امتدت أحياناً إلى الجيب. وكلّ من فكر بلبنان امرأة تزحف على عانتها من بريق المال والذهب والفنادق الفخمة قبل الحرب وبأنها يجب أن تزول، جاء يرى المرأة التي أطلقوا عليها العاهرة لأنها كانت فالتة وهم اعتادوا على قادة أنظمتهم.

كأن والدي عليه أن يعود إلى الحياة الآن. فهي سوف تفهمه أكثر. تفهم لماذا كان يدور على المطاعم ويأتي ببقايا الخبز. وأخذت مقاهيها الشعبية التي تلصق بفم البحر، تصبح كمقاهي المدن ذات الروح، حتى قططها الزقاقية أصبحت قططاً حقيقيّة وهي تلتقط الذباب بعين واحدة أو بثلاث أرجل. أنت اصطحبتني وعرّفتني بمدينتي التي أصبحت تنبض كمدن الماضي العريقة، كالقاهرة مثلاً. أصبح هناك شخصيات وكأنّها أبدية تناسب هذا الحائط الخائر نصفه، كأنّ هذه الشقق التي ما حلمت من قبل سوى برائحة الطعام وصدى حفيف الفساتين الناعمة أصبحت بيوتاً للعقائد والأفكار والأنفاس. أجلستني أمام من يدخّنون النرجيلة بهدوء. أمام من

يختارون الأسماك ويمضغون الهواء وكان هذا الصفاء الواسع يمتدّ بينهم وبين الموج. ووجدتني كالنحلة. أكتشف معك أنّ بيروت هي قرص الشهد. أحاول أن أزيد هذا القرص استدارة فأجلس وأمامي البحر. والنراجيل تقرقع وأجدني لا ألتفت كما في السابق إلى صور الحطام والجثث. بل أقارن بيروت الماضية التي بهرت الضرير بأضوائها. وأفقدت المبصر نظره، أنتقل من غرفة مكتبك حيث شريط اللّمبة الحزين المتدلّي من السقف إلى ركوة القهوة الوحيدة. غرفتك، حيث الأوراق المهمّة التي تحمل أفكارك وخططك في هذه الحرب وقبلها وأنت تنزل الدرجات بحماس، تعرفني على البواب، تسأله عن الكلب المصاب. تدخل دكان حلوى، تلفت نظري إلى لون حبّة الفستق فوق البقلاوة السكريّة اللون. وتنادي آه مع أم كلثوم. تحتسي عصير قصب السكّر.

تأخذني إلى ملهى في منطقة الزيتونة، حيث المغنّيات تعبات، والراقصات سكارى والفرقة الموسيقيّة التي تتحمّس فجأة ثم يفتر حماسها فجأة. كل عازف منها يختار امرأة ساهرة يغمزها أو يلحس شفتيها يغريها أو يمدّ بيده إلى شعره كمن يحييها. أحببت هذا الملهى الذي يكاد يكون مقفراً. تقول لي إنه حقيقي. أكثر حقيقة من أي ملهى آخر. وفي هذا الملهى، حيث يختلط فتح قناني الشمبانيا الرخيصة، برمي الأرتيستات لما تحويه كؤوسهن تحت الطاولة وفي أصاصي الزرع الميتة من كثرة ما سكرت. تراقصني التانغو وأنت تواجه البحر. وفي جيب سترتك أوراق سريّة مهمّة. تتفقّدها بين حين وآخر. بينما عيني على الساهرين وعلى الموسيقيين، أشعر بالارتباك لأنّ منظرنا ونحن نرقص لم يكن يوحي إلاّ بأنّنا نهزأ بهم. أنت ترقص وعينك على البحر رغم أنّ الظلمة في الخارج والنّور في الداخل لم تكن لتريك البحر، بل الزجاج الملطّخ بالبقع وبالبخار. تغمض عينيك منتشياً. كنت تقرّبني منك لدرجة أنّك تكاد تبلعني بأنفاسك قبل أن يبلعني جسمك. وأنت تهمس في أذني وفي رقبتي. تودّ أكلي: «أنتم اللبنانية بتريدو تاكلونا أكل انتو اللبنانية ستطردونا.. طرد». كنت تبالغ؟ إذ تراءى لي وقتها أن بحر

لبنان الذي كان بلا أفق هو لمراكب الورق فقط. والسماء للسحاب وللشمس. والثلوج والطيور هي الرقيبة الوحيدة من على قمم الجبال. والمراقبون هم الصيّادون يراقبون فقط العصافير وهي تغطّ على السواقي وعلى الزرع ليعلنوا الحرب عليها بالخردق.

البحر نفسه هذا، هو الذي أصبح هاجسك في الأيّام الأخيرة إذ ما يحدث في شارع الحمراء امتدّ أخيراً إليك. المقاتلون يعدّون أنفسهم للسفر. وقد تحوّلت الأحياء إلى باحة مطار واسعة. حيث الحقائب جديدة، قديمة. بكلّ الألوان والأشكال. والدكاكين تحوّلت إلى دكاكين حقائب سفر. بينما انتشر كتّاب العدل ينقلون ملكية سيّارات شقق المقاتلين النازحين الذين عليهم تركها خلفهم إلى الذين بقوا. بدا الجميع وكأنّهم تلامذة وقفوا في اليوم الأخير للمدرسة في باحتها. يودعون بعضهم بعد توزيع الجوائز وإعلان العطلة الصيفية، يكتبون على الأوتوغرافات جملاً كهذه الجملة «كلّ شيء يمرّ إلاّ الذكرى الخالدة مع مرّ الزّمن» هل قلت لك اني كتبتها مرّة لشاب في القرية أحببته وأحبّني. وكنت فخورة بخطّي أوّلاً ثم بمعرفتي لهذه الجملة التي حفظتها من كتاب ما. وكيف أنّ الصبيّ دقّ رأسه في الحائط قائلاً أنّي لا أحبّه رغم بكائي غير مصدّقة اتّهامه لي. كان جميع من في الباحة يتبادلون العناوين أو حكاية ابريق الزيت أو التلفون المقطوع، خاصّة عناوين الذاهبين: اتّصل بفلان الفلاني وأنا أتّصل به حالما أعرف أين سيأخذني البحر. أو أنّي سأكتب إلى عنوانك في لبنان. لا بدّ أن يعاود البريد اللبناني عمله. على كل سأكتب، الكلّ في لغط في حرّ بيروت الرطب في باحة المدرسة هذه وباحة المطار أو في ميدان الأزهار حيث غطّت الأزهار المسافرين. زهور مغروزة أينما كان على أفواه البنادق، في عرى الأزرار على سيّارات الجيب والسيّارات المدنيّة، عندما صعدت أنت إلى السفينة. كنت أنا في سريري أفكّر بطريقة أهرّبك بها، عبر الجبال والقرميد الأحمر والشبابيك الخضراء والصنوبر وشجر الغار وكلّي إيمان أنّ هذه كلّها سوف تقف معك ومعي ضدّ من يسحبك من خروم سيّارتي حيث سأخبّئك، كنت مؤمنة حتى البارحة

أنّك لن تهرب بحراً. ستظلّ تؤمن ببيروت وبدهاليزها وبحبها وبسيّارتي. فكّرت لربّما آتي لك بجواز سفر مزوّر، أو أتوسّط لك لدى هيئة الأمم؟ أو نصعد في سيّارتي حبيباً وحبيبة؟ تهزّ رأسك وتنفي لعلّك ترى حقيقة أخرى. بأنّ هذا البلد لم يعد مفتوحاً يحطّ عليه البشر من أقاصي العالم. رجل الجمارك يطبع على الجوازات من غير أن يدقّق في صفحاته. كأن بيروت ترعرعت على هذه العادات. كل من يأتيها ويسكن بها يسلك مسلكها يعرف أنّ البلد يوغل في التناقض. كلّ ما كانت تقدّمه البلاد العربية كان عليه أن يمرّ بطريقه إلى لبنان حتى يسجّله وينشره، من فكرة سياسيّة إلى أغنية إلى كتاب إلى شركات. ومع ذلك لم يعد بوسعنا الآن الصعود في السيّارة كحبيب وحبيبة. وكان حدسك أكثر حقيقة من حدسي رغم اعتكافك في الغرفة. بدت سيّارتي ونحن نتوجّه بها إلى الأمان كعلبة كرتون والشوارع هي أبواب الجحيم، ونحن كالأطياف لا قوّة لنا فكّرت بأنّ الكفاح من أجل تعلّمي القيادة رغم حلم زمزم الذي فسّرته جدّتي بأنّه إنذار لأقلع عن الفكرة، لا نفع له. فأنا عندما احتجت لأركبها وأطير بها لأحطّ على طرقات آمنة، خارت هي أمام الشوارع المحاصرة على طوال الشاطئ حتى صيدا. التي قلت لي عنها إن الاسكندر المقدوني لم يرف قلبه لوداع مدينة مثل مدينة صيدا، ولا للون بحر ولا رائحة زهر، بينما فكّرت أن ما أسمعه لم يعد يعني شيئاً وأسفلتها يتلقّى ضربات أحذية الجيوش الضخمة الإسرائيلية، وصيدا الشرنقة قد تفكّكت خيوطها، بينما بيروت لم تزل شرنقة إنّما بخدشات وهي تنتظر تفكّك خيوطها بين لحظة وأخرى.

وعندما لم تفتح لي الباب، توقّف نظري على لونه. توقّف سمعي على دقّات يدي. بلعت لساني حتى وصل امعائي. حدست أنّك في عرض البحر. على إحدى السفن، مع المئات من الفدائيين. ثم غصصت وأنا أبلع مياه البحر المالحة. أسرعت إلى أيّ بحر رأيته، ووصلت إليه، وكانت المياه بلا لون. أمعنت بها وبأفقها ولم تكن تحمل سوى الحرّ واللامبالاة. هذا ما يضايقني في الحرب، الطبيعة

تؤدّي واجبها ولا تنساه.. ولو مرّة واحدة. لم تزل الموجة ترشق هذه الأحجار. لم يزل الزبد يفور ويهدأ، فقط السماء، كانت على غير لونها من كثرة ما زرعت بالرصاص وتحمّلت رائحة النيران التي أطلقت من أجلكم. لا بدّ أنّك شتمت هذه الزخّات واستهزأت بها. بينما حطّ نظرك على الأولاد الذين شغفهم جمع الرصاص الفارغ. وعلى الولد الذي كان يصطاد فرخ السمك بقنينة صحّة. الصبيّ الآخر الذي يمسك بباقة ذابلة يحاول أن يبيعها للمسافرين وللمودّعين. لكن، لماذا تبدو الأمور في كتب التاريخ أكثر جديّة، عندما نقرأ «وحوصروا حتى لم يعد لهم منفذ سوى البحر». هرعت إلى الملعب البلدي. مركز التجمّع، وكانت الزغاريد قد توقّفت بينما تناثرت حبيبات الأرز وفتات الزهور على الأرض. وعدت إلى البيت منهارة، تطلّ صورتك وأنت تعبث بالأوراق طويلاً قبل حرقها. وكنت أجلس على الكرسيّ المجاور أتصنّع قراءة الجريدة وأنت تقول لي: «أنا أبله، ولو ما تعلمت درسي بعد؟ ما تعلّمت أن الدّنيا بتتغير، شوفي ما في حدا محلّه. من الأرض للشمس، الأمور تتغيّر بس بدها صبر. اللّي ماسكين بالكمّاشة، غيرهم بدن يمسكوها ويكمشوهم...». ينتهي النهار في بيروت وفق من يهيمن على روحها. كثيرون هم الذين جلسوا فوق قلبها وعصروا اوردتها ثم ليجدوا خناقهم في قبضة آخرين». ربّما من شدّة ثقتك فجأة في المستقبل لم تشأ أن تسمع منّي وتتركني أحاول حمايتك، عازفاً عن التفكير بأن وراء حماسي لمرافقتك شوقي أيضاً لأكون معك وحيدين ألصق بك وأكون قريبة من رائحتك. من يفكّر بهذا المنطق غير امرأة؟ أن أجد ثقباً في عقلك هذا الذي يضجّ وهو على كفّ عفريت لأستخرج منه حبّات عاطفة واشتياق.

عندما لم يفتح الباب وقفت منهارة، لا أفكّر سوى باللحاق بك وأنا أدرك استحالة هذا الهاجس. فقد كانت كلّ الطرق مسدودة أمامي ما عدا البحر الواسع. عدت لا أرى إلاّ البحر الأزرق. إلاّ اللّون الأزرق.

عليّ أن أسرع إليك، لا لأنّ حمى ترك بيروت الغربيّة تفشّت بي

أيضاً وبدأت تنتشر كالعدوى بين أهاليها. بينما المنطقة الشرقية فتحت أسلاكها وحواجزها أمامنا. وكلّ من يعرف عائلة أو صديقاً أو من يستطيع مادياً أن ينزل في فنادق الجبل وجد نفسه يترك الغربية، ليراها في اللّيل من على ترّاس الفندق أو من على شرفات الأصدقاء شعلة من النيران. فيتجاهلها وهو يستمتع بسكون الجبل والأشجار. ويلوم نفسه لأنّه تركها. قلبه يتفتّت على ما يحدث لها. عندها يصدم بعدم مبالاة سكّان الشرقيّة إزاء ما يحدث ويكتشف أنّ لجوءه إلى الأمان هو وهم. عدا سائق التاكسي الذي أقلّني إلى بيت حياة من المرفأ، حيث مئات الباحثين عن مكان ما في البواخر أو المراكب. كان ينزف كلاماً وألماً عندما عرف من أين قد أتيت.

لم تكن المسافة بذلك البعد، ومع ذلك قصّ ليّ السائق قصّة حياته أو حنينه إلى الشقّ الآخر من بيروت، أي من حيث أتيت، لم يكن تحت وطأة العجلة أو الضيق من أبواق السيّارات والزحام وتمنّيت لو يلوذ بالصمت. فأنا أكاد أرتعش من عدم الصبر. لكنّه ركّز المرآة حتى أرى وجهه أو حتّى تلتقي عيناه بعينيّ. ممّا أحرجني في بادئ الأمر لكن عدت وبدّلت رأيي وأعطيته كلّ اهتمامي إذ كان همّ السائق أن يسترجع نفسه في ذلك المكان. من عين المريسه، في بيت أشبه بكوخ قبالة مسبح الأوندين. كان إذا اصطاد والده سمكة فهي طعامه. كانوا فقراء: «عائلة صيّاد السمك»، «آه» يتنهّد السائق، «آه آه آه لو أستطيع فقط رؤية تلك الغرفة.. أو ذاك الكوخ. الأرض الخشبية والطينية السقف الخشبي. وعدّة الصيد معلّقة عند حائط المدخل. أشمّ رائحتها، أعرف وقع مسكتها على اليد. قلوسة الصيد. لو أرى المقلى والمجلى والسكّين». لم أسأله شيئاً. إذ كلّما استفهمته امتنع عن إجابتي وأكمل: «لو أرى الحمّام والطبلية واللّيفة. اللّحظة التي ولد بها أخذني الصيّاد وزوجته من عائلتي. كنّا عشرة، ولم تعد أمّي تستطيع أن تطعم العائلة رغم أنّها كانت ترسم إشارة الصليب على العجين الذي كانت تخبزه. ورغم أنّ عمّتي الراهبة دأبت على اصطحاب القسيس حتى يبارك البيت. عشت مع والدي الصيّاد وكنت أناديه بابا نقولا، وأمي وكنت أناديها ماما ليلى خوفاً من أن

تختلط الأمور على من يسمعني. خاصّة كنت أزور أهلي كلّ يوم أحد وكنت أشعر بأني الابن الغريب وسط عائلتي الغريبة. آه مدموزيل.. آه مدام.. ماما ليلى ماتت بالحرب... وبابا نقولا مات قبل الحرب. وتركت لبنان في هليكوبتر تابعه للجيش بعد أن توسّط لي قريب حياة، الظابط في الجيش. مع أولاد يضجون رغم تهديد أمّهم، مع رئيس جمهورية سابق وزوجته. مع راكب أخير والذي ما إن أطلّ حتّى تبيّنا المهاجر الشيعي، الذي ارتبط اسمه بمعونات ماديّة للأحزاب في شقّنا..

يقترب المغترب ويصافح الرئيس السابق وحرمه ثم يجيل النظر وهو يبتسم ثم يجلس مكانه، يتناول سيكاراً يشعله وينفخه، يبعد الأولاد الدخان عن وجوههم قائلين: «ماما الريحة بشعة.. ماما دوخانين. ماما.... ماما..» لاحظت أنهم يتحدّثون العربيّة فقط كلّما أرادوا المشاكسة أو التعبير عمّا يضايقهم وهذه الجمل في العربية هي الصفة اللبنانية الوحيدة التي ميّزتهم عن أيّ عائلة أجنبية. هذه الفكرة أوصلتني إلى فكرة أخرى بأنّ لبنان هو فعلاً كحبيبات الزئبق. هذه العائلة، التي لا بدّ أن الأمّ من طريقة كلامها وملابسها لا تعترف بالشقّ الغربيّ، لا بدّ أنّها متأكّدة بأنّ لبنان هو هذا الشقّ ومع ذلك فهي لا تستغرب لماذا هذا النائب الشيعي في هذه الهليكوبتر.

لو يعرف ضابط الجيش ما أفكّر به ولماذا أنا هنا في هذه الهليكوبتر لربّما أسكت ضجة موتور الهليكوبتر والمراوح وأنزلني، أفكّر أنّي لست ممتنة له لإمساكه بي وقوله لي: «ستنا، نحن تحت أمرك» وهو يوصلني الدرجات، إنّه السبب خلف تركك للإسفلت ولجو بيروت الصيفي الخانق وصعودك على الباخرة.. اتمهل في الحقد وأفكّر. لا، ظابط الجيش لم يكن السبب، بل إسرائيل هي التي أخذتك من الإسفلت، إذا لم تكن إسرائيل بل من أجلها. لو هربت معي إلى بيت حياة لكنت الآن معي هنا ولكان أيقن محللو السياسة بأنّهم لن يستطيعوا كمش حبيبات الزئبق. لن يستطيعوا تحليل ما يحدث في لبنان. أنت الذي تخوض طرفاً في الحرب اللبنانية. إنّك

ضد رئيس الجمهورية السابق هذا، التخين الرقبة، ضد ما يمثّله. هو ضد هؤلاء الأولاد الذين يضجّون قائلين بالفرنسية. «زهقانين جوعانين. وين هيدي قبرص، خلليها تجي. هيدا مش هليكوبتر جيمس بوند، عم تكذبي ماما». هؤلاء الصغار سيحاربون ما تنتمي إليه. أو أنّ أحدهم ربّما سيحارب إلى جهتك. ولو رزق رئيس الجمهورية هذا أولاداً وأحفاداً لشنّوا الحرب على هؤلاء الصغار بعد سنوات لأنهم لا يحبّون المنافسة ولأنّهم ربّما يودّون توحيد لبنان الذي أراه الآن يجثم كثمرة بلوط وقعت من الشجرة.

من قبرص لحقت بك إلى مصر، إلى شاطئ بور سعيد وجلست على الرمال غير مصدّقة أني أمام البحر. أنّي أمام الأزرق. أنتظر كأنّي امرأة بحّار، أو كأنّي قطّة جائعة لعودة قوارب الصيّادين تراقب الموجة تلو الأخرى. ولا تشعر بالغثيان بل بالجوع. أكاد لا أصدّق أنّي هنا. وبأني تركت بيروت البارحة فقط، يبدو لي أنّي قضيت أعواماً طويلة بين بيروت وجونية وقبرص والقاهرة، كل هذا السباق، لأراك ولأسمعك تودّعني. لقد فاتني بأنّك قد ودّعتني عندما نزلنا بكلّ هدوء الدرج المعتم: أعمى يقود الآخر. كنّا شخصين رأيا بابهما يحترق واكتفيا من بعيد بالتحسّر على بيتهما وتعديد مزاياه وتذكّر الأوقات السعيدة التي قضياها بين جدرانه دون أن يحاولا شيئاً لإطفائه أو أن يفكّرا ببيت آخر ولو مؤقّتاً.

إلى جانبي صديقتي المتلهّفة لسماع أخباري بل أخبار بيروت والحصار. رغم شعوري أمامها بالخيانة لأنّي هجرت بيروت. وشعورها بوخز الضمير لأنّها تركت لبنان لتعيش في القاهرة منذ بدء الحرب إلاّ أنّي لم أكن أودّ أن أستدرّ أيّ شعور.

ظننت أنّ السّفن ستتوقّف ما أن ترانا وكان أوّل من ركض صديقتي وابنتها التي لحقت بها باكية، غطستا أقدامهما في البحر ثم أسرعتا حتى غمر الماء وسطيهما. الكل يلوح ويصيح، ولكنّ السفن تختفي كما أطلّت، رغم أنّنا نرى أشخاصاً يلوحون بأيديهم من على سطحها. ابنة صديقتي تبكي: «احملوني ماما بدّي شوف

الفدائيين». السفن تهرب كأنها لم تعد على سطح البحر.

تختفي هذه السفن. تختفي كرمشة عين، كالسحابة، وتترك في خيالي أيادي مرفوعة وأصابع تلوح بإشارات النصر. لم أصدّق أنّ السفن تمرّ هكذا حتّى الطائرة المسرعة نراها أكثر. وإذا غابت عن الأنظار يبقى ضجيجها في الذاكرة السمعية كذلك الشقّ الأبيض الذي تخلّفه وراءها في السماء. كأنّ هذه السفن غوّاصات ارتفعت للحظة ثم غطست مستأنسة بقاع البحر.

بقي الانتظار لرؤية السفن الأخرى سريع اللّهفة، يضرب بشريان رأسي وقلبي. الحرّ لم يعد له وجود على الوجوه ولا على زجاجات المرطّبات. لا بدّ أنّ البحر فتح بحراً آخر بعيداً عن أعيننا. ووجدتني أخاف من أن يكون هذا الانتظار بلا فائدة، رغم أنّ بي ذرّة شعور تتمنّى ذلك. كأنّي خائفة على كبريائك وأنا أراك تقف واجماً حزيناً على الدكّة أو أنّك قد شمّرت على ساعديك تحضّر التوابل التي سوف تضيفها إلى السمك المشوي. تمنّيت لو يسكت الصخب، خاصّة الصوت الذي ينتج عن فتح زجاجات المرطّبات. وصراخ الأمّهات الخائفة المؤنّبة، كلّما اقترب الأطفال من البحر.

الشمس تكاد تغطس في البحر أو ما وراءه. والضابط المصري يقترب منّي يطمئنني بأن سفناً أخرى لا بدّ أن تمرّ، لا بدّ أنّه لايزال يذكر الهلع الذي بدا على وجهي البارحة عندما اختفت البواخر في لمح البصر.

أطلّت السفينة، إنّها تقترب، إنّها ترسو أو لعلّني مخطئة. الضابط يشدّني من يدي وأنا أشدّ بيدي صديقتي وابنتها. يلحق بنا آخرون إلى مركب صغير ومنه إلى السفينة. كأنّ كلّ هذا الانتظار المكتوم تنفّس في هذا المركب الصغير. وجدتني أفكّر أنّ القلب هو الجسم والعقل والحياة. إنّه يفهم متى يتمهّل بضرباته أو يسرع بها، وبأنّه يكاد يأخذ نَفَسي. فكّرت كيف سأراك وماذا أقول لك. كلّ ما فكّرت به قبلاً من حوارات ونظرات تلاشى. فقط عندما وقفت على سطح السفينة، عرفت أنّني كنت طوال الوقت واهمة، لا بدّ أنك

في السفن الأخرى أو أنّك لم تزل في بيروت. تبكي صديقتي بحرقة وهي تعانق الفدائيين، تبكي ابنتها على بكائها. يحاول تهدئتها الشباب والشابات المقاتلون. يهدّئها الرّجال، يهدّئون كلّ من يبكي. كان العياء شديداً على الوجوه. اقتربت منّي شابّة فدائية خمرية اللّون تضجّ عيناها بالحياة والشيطنة وقالت: «طمّنوني» صحح السودان أو اليمن مثل إفريقيا شمسها لاذعة»... وعادت فأعقبت: «خيفانة يصير لوني أغمق ممّا هو».

ضحكنا لها. وابتسمت صديقتي تخفّف عنها قائلة: «ما تخافي شهر واحد وبترجعوا». الجرحى على خشب الدكّة يلتفّون بحطّات أو بملابس وهم يرتجفون من البرد، يطلبون البطانيات من الضابط المصري الذي يسألهم إذا كانوا هم بحاجة إلى شيء ليعدهم خيراً، لكنّه لم يتحرّك من قربي. كأنّي أسمع موسيقى يونانية، أصواتاً يونانيّة. أنّها سفينة يونانية تجارية. تعرف أنّ حمولتها تتبدّل من رحلة إلى أخرى. هزّني هذا الواقع أكثر من رؤيتي للدماء الجافة على الخشب. الوحدة التي تنتج عن معاشرة البحر تبدو على قساوة وجوه بحارتها، تجاه كلّ شيء يأتي من اليابسة. الأصوات تنادي: «دولار، دولارين» قهوة وشاي وساندويش». أستغرب والشباب يمدّون أيديهم إلى جيوب ملابس الحرب ويخرجون منها الدولارات. التفت البعض إلى البحر والبعض الآخر حولنا، يعطوننا المزيد من الحطات والأعلام وبعض الرصاص الذي لم يستعمل. يعطوننا رسائل لنرسلها بالبريد.

وجدتني أتوقّف عن التفكير بك، وجدتني أنساك في هذه المعمعة، ولا أنسى خشب السفينة المهترئ وأصوات من التف حولها. أمسك بالرسائل وأنا أعدهم بأني سأودعها البريد هذا اليوم، بينما يعدهم الضابط من جديد بالإتيان بالبطانيات. أحاول أنا وصديقتي الإمساك بابنتها التي أخذت تولول، رافضة مغادرة السفينة عندما سمعت صوتاً يناديني: «أسمى، أسمى».

وكانت رنا ابنة صديقك في الشورت الأسود. تضمّني إليها

وتعانقني وتسألني إذا كنت سأذهب معهم. تبحث عنك من حولنا وتسألنا عنك. استرجعت غرفتها التي مكثت أنت بها بضعة أيّام وكيف كنت أرفض الاستلقاء فوق سريرها. أستعيد همسها لي ذات ليلة عندما طلبت أنت منّي الدخول إلى الغرفة متحجّجاً بإعطائي شيئاً ما «يمكن بدو يبوسك؟».

عزيزتي الأرض

نتّجه إليك وأنت مازلت مفقودة. رغم أنّي أتصوّرك الآن متمدّدة تحت الشمس، وتحت المطر، أنت الوحيدة المفقودة الظاهرة للعيان في هذه الحرب.

لم أزرك منذ أن احتُلّت، منذ أن قُطعت أشجارك، منذ أن بدّلوا معالمك. وكم حاولت أن أجعل جدّي يفارقك. لكنّه فضّل التعرّض للخطف، للموت حتى يبقى قربك. كيف يمكن أن يتعلّق المرء بالجماد إلى هذا الحدّ؟ لكنّك حيّة، تثمرين وتعطشين وتبردين وتتقلّبين وترفضين، إذ أنت سواء بشساعة حجمك أو بحفنة من ترابك، لقد شُذبت وكوّنت الإنسان وأنجبت عائلة وأشرفت على أدقّ مكنونات النفس. إنك همست باسم عائلتي ليتناقله الصدى ويهرب به صائحاً بين الجبال والوديان والسهول وأعمدة الكهرباء حتى وصل به إلى بيروت. ومع ذلك بقيت حيث أنت ملازمة لنا أيضاً في بيروت.

رغم انتظاري للألم الذي سوف أعانيه ما إن أقف أمامك وأتأمّلك غير مصدّقة ما جرى لك رغم أنّ ما أراه الآن يشبه قطع الكلمات المتقاطعة في الجرائد من اسمنت وأخشاب وفسحة من السماء ثم أكياس، ونحن في طريقنا عبر الطرقات وعبر ما أراه من خراب. فإنّ شعوراً خفيّاً سعيداً تسلّل إليّ. وأنا أفكّر بأنّ لا بدّ أن يكون على هذه الشجرة عصفور يغرّد أو يطير في فضاء السّماء الجميلة، وأنّه لم يزل في الدُّنيا ألوان وحياة، يتوقّف السائق عند ازدحام السير من جرّاء الحواجز، أسمعه يقول لسيّارة موازية له: «معي مراطبين عسل، أي واللّه لأبو رفيق، من ابنه في انكلترا». هذه الطبيعة، ولو مشوّهة، أدخلت الراحة إلى قلبي، أبعدت عنّي أجواء بيروت، صفائح

الماء البلاستيك الملوّنة التي أصبحت منتشرة وكلمة الدولار التي طفت على كلّ كلمة وعلى ضجيج المحرّكات. دكاكين الصيرفة، الأجهزة اللاسلكية حول آذان الصيارفة لمتابعة الدولار، والتي أخطأت فضيلة وظنتها «ووالك مان» فسألت أحدهم: «إذا كان هيدا موديل جديد! وبكم اشتراه؟» حتى إنّ دكاكين الصيرفة أصبحت متنقّلة، في كيس واحد يمسكه رجل ويقف في الشارع. الدولار الذي أخذ يستأنس اللبناني له ولصورة جورج واشنطن بدلاً من ازرقاق المئة ليرة لبنانية، أصبح حتى على شفة النورية التي تبيع الصعتر الأخضر والهندباء والتي طلبت ثمن ما اشترته منها زمزم بالدولار. وردّت زمزم عليها بكلّ خبث: «اي ليش لا. تكرم عيونك! بالدولار إي بالدولار». وتركتها تجلس على الدرج تحتوي كيس الخيش في حضنها وأتت لها بأقصوصة من جريدة، وعندما اعترضت النورية ضحكت زمزم وقالت: «يعني شايفة بحياتك الدولار»؟.

رغم أنّ بيروت تصبح بعيدة كأنّها جمرة مشتعلة لا نستطيع الاقتراب منها حتى بأفكارنا وإلا احترقنا، إلاّ أنّه لم يزل صدى القذائف ينفجر في رؤوسنا. ترجّلنا من السيّارة قرب بستان أخضر وارف، نرتاح من وعورة الدروب ومن انتظار مجيء دورنا لدى الحواجز والذي يبدو أنه طويل والمسافة إلى ضيعتنا باتت ساعات طويلة أيضاً. اقترح السائق عليّ أن نتناول طعام الغداء، وأخذ يضرم النّار ويتناول البطاطا والبيض ودجاجة من كيس قائلاً: «هيدي توصية الأستاذ علي».

تتمنّع جدّتي متمتمة بأننا لسنا جائعات. بينما تصيح زمزم قائلة: «بأنّها جائعة كذلك السائق... وبأن الجميع يأكل».

وفعلاً كان قد انتشر في البستان ركاب سيّارات كثيرة، فتمدّد بعضهم على الحشيش، والبعض الآخر أخذ يلحق بأطفاله. تتسلّل رائحة الشواء إلى أنفي، وأشعر بالجوع فجأة، فأجدني أتمدّد أيضاً فوق الحشيش لتطلب منّي جدّتي عدم التمدّد معلّلة بأنّي لست كسواي.

نهضت أجلس وأضمّ قدمي وأضع وجهي على ركبتي، لتعود تنتقدني جدّتي. نهضت أتركها وأسير أراقب السائق الذي لم يزل يلوّح بجريدة حتى تشتعل النّار، وقد تجمّع حوله الأولاد ومن بينهم ولد مبتور اليد يركض رغم أنّ على قميصه بعض نقاط دماء. لا بدّ أنّي نظرت إليه كثيراً، إذ اقتربت منّي امرأة وقالت: إنّ أولاد الحرام الذين يعمل لديهم قد قطعوا يده! قبل أن أستفهمها، استأنفت: «راح على عمله متل العادة لما وضع يده على فردة حذاء حدث انفجار طيّرها له». هل من الممكن أن يكون زبّالاً وهو لم يتجاوز العاشرة؟.» «ليش شو بيشتغل؟» انفرجت أساريرها لأنّها وجدت أذناً صاغية واهتماماً وقالت «بروح عالزبالة يفرز كلّ شي لحالو بكيس يعني أجلّك شي عتيقة عجنب. قناني قزاز عجنب، قناني بلاستيك، علب نيدو أو تنك فاضية، يعني بضلّ أحسن ما انّه يخاف إذا راح ينبش القبور باللّيل حتى يفتّش عن أسنان الذهب. متل ما عم يعمل غيره».

خجلت من عدم استدراكي لما تقوله: اسألها ماذا يعمل بما يجمعه؟ نظرت، تتفرّسني من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى. وأيقنت من تفرّسها بي أنّها لم تستطع أن تكوّن فكرة عن وضعي المادّي من ملابسي: «يلمّها لتجّار الزبالة». أجيبها بسرعة كأني لا أريد أن يقع اللّوم على أصحاب عمله بأن قطعهم ليده ليس من مصلحتهم.

ولم تبادرني: «ولو ليش؟ وين أنت عايشة». بل عادت تتفرّسني من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى، وتهزّ رأسها تؤكّد سذاجتي أو صدق كلامها: «ولو، معروفة، القصّة، لمّا صارت النّار رجال قد الحيطان، ونسوان إلها قيمتها بتفتّش بالزبالة، تضايق تجارها.... كأن الزبالة لشوارب أهلهم، على كلّ.. اللّه يعوّض. رجال طويلة وعريضة عم تهرّ وتموت، يللا بكرة منعمل طلب على «الحريري»، و«بيركّبو له يد من كاوتشوك» تتحرّك قليلاً وتطرق إلى الأرض ثم تسألني إلى أين نحن ذاهبون وإذا كان السائق أخي أو ابن عمّي، وإذا كانت زمزم أمّي، ثم تشير إلى الشاحنة الكبيرة وتقول: «شِفق علينا جارنا، بدّي روح شوف أمي، وركبونا

بهالشحن».. لماذا لم أكن أصدّق أخبار زمزم وأصدقّ كلام زمزم تغلب عليه رنّة تشفّ؟ رنّة بكاء؟ مبالغة؟ كلّما أخبرتنا قصصاً كهذه وجدتني أنا وجدّتي نوّجه اللوم إلى أصحاب القصص أو نشعر باللامبالاة تجاهها، ألم تخبرنا زمزم عن المتفجّرات في النفايات التي تبتر الأصابع ونحن نصرف الموضوع بأنّ هذه ما هي إلاّ إشاعات حتى يعم الخوف والفوضى. «حتى ناس مثلك تصير تخاف».

«أم فلان باعت محبسها مشان تعمل فتّوش وكبّة، أمّ فلان اشترت فستان لعرس بنتها من أهل عروس ماتت قبل العرس. ذكيّة سحبت ابنها من المدرسة حتى تقدر تعلّم البقية».

فعلاً شعر كل بيت بالغلاء حتى بيتنا، وفكّرت جدّتي أن جبنة القشقوان لن تطيل حياتنا إذا أكلناها، فتوقّفنا عن شرائها. وأخذت زمزم تشوي دجاجة واحدة بدل دجاجتين بينما أخذت تفرغ بيوت الموظّفين ومتوسّطي الحال من الأوليات. لم تعد الجارة تأتي بركوة القهوة في العصر حتّى تكون على مقربة منّا تسمع أخبارنا، بل أخذت تأتي بعصير التوت الذي أتت به من ضيعتها.

نعود من جديد إلى السيّارة لنتوقّف عند حاجز. كنت قد اعتدت على مختلف الحواجز، وأصبحت أعرف كيفية التعامل معهم. إظهار الجديّة أمام حاجز الميليشيا، لا نظرات توسّل وخوف. طولة بال أمام الحاجز السوري، فالجنود يبدو عليهم التعب ووحشة الغربة: في الماضي كنت استفيض عاطفة أمام هذه الحواجز، كأنّها كانت تفكّ العصاب عن عيني وتريني الحقيقة لا التمويه بأنّ لبنان قد انقسم إلى دويلات ومناطق. وأنّ هناك من يعمل الآن على خطط وأنّ ما حلّ بنا كان نتيجة لم يحسبها المتحاربون من قبل.

نتوقّف، علينا أن نرجع عائدين، سنأخذ الطريق «الفوقية» إذ السفلى يشغلها قطّاع الطرق. على كل أوامر السيّد علي».

«هللا هللا يا دنيا» تتنهّد جدّتي، أفهم سرّ تنهيدتها وجملتها، لأنّ علي أصبح السيّد علي. الطريق السفلى كانت هي الأقرب، هي

الأسهل، تشبه الأكمة من غزارة أغصان أشجارها من على جانبي الطريق، لذلك انتشر بها قطّاع الطرق، يخفون مآربهم خلف طلبهم للهويّات وهم يخفون وجوههم ويرتدون لباس الأحزاب. ليت السائق يجازف ويقصدها، حتى أرى كثافة أشجارها. كما أني أريد أن أتسلى برؤية قطاع الطرق وأتسلّى بمراقبة زمزم متسائلة إذا كانت ستخاف على الحجلة منهم.

رغم بعض القرى المتهدّمة التي تبدو بحجرها القديم كأنّها آثار، أو أن الطبيعة جعلتها على هذه الصورة، أخذت أستأنس لرؤية الغسيل المنشور، ورائحة الدخان المنبعثة من ذلك الوادي حيث تحرق النفايات وأوراق الشجر اليابسة. بل إني استأنست حتى لنهيق الحمار، كل هذا يذكّرني بالماضي وبك. حتى الحاجز الذي يدلّ على الحاضر والمستقبل يذكّرني بك، لا أستطيع إلاّ أن أفكّر باختفائك.

أثناء سنوات الحرب بل في أوائل سنوات الحرب عندما كنّا نزور الضيعة من وقت لآخر، كنا ما أن نقترب من الصخور والجبال حتى نتراءى الكروم وبساتين الزنابق كأنّها أعواد تحمل حلوى المعلّل الأبيض والأصفر. لا يبدو أنّ الحرب قد مسّتها، أو أنّها سمعت دوي المدافع والصواريخ رغم جدرانها التي تصدّعت.

في زمن السلم كنا نترك البحر ونصعد من جبل إلى آخر ثم نغور في السهول حتّى نصل إلى مشارف القرية، كنت أستغرب لماذا هي هناك ولا تبدأ بهذه البورة مثلاً، فيهرع الراعي الأعمى إلى سيّارة جدّتي. كان هو أوّل من يسمع فراملها ويميّزها عن السيّارات الأخرى الآتية. كانت عصاه تتحسّس الحجارة، وما أن يشعر أنها لمست الأسفلت حتى يصيح بقطيعه طالباً منه البقاء. ويكون عَلِيّ أثناءها قد أوقف السيّارة وترجّل منها وأتى بالراعي الأعمى حتى الشباك وهو يلجم له عصاه التي كانت تضرب السيّارة على غير هدى. وما أن يسمع صوت جدّتي حتى يقبل كفّه ويضعها على جبهته شاكراً. فتفتح جدّتي حقيبة يدها السوداء التي كانت تحدث صوتاً عالياً حين تقفلها، كأنّ الحقيبة كانت تعرف بأهميّة ما في

داخلها. فتتناول جدّتي الليرات وتضعها في يده بعد أن تطويها طيّتين.

ولم تستقبلنا بساتين جدّي هذه المرّة كالماضي بل استقبلتنا لافتة «كوافيرة سميرة». «شو صار في كوافيرة»؟ صحت: «مش معقول»؟ ولم أستطع أن أتخيّل أيّاً من نساء القرية تصفّف شعرها سوى روحية. ابتسمت لوجه روحية، رأيتها والسيكارة في يدها وفنجان القهوة في حجرها، لأصيح من جديد» معمل شوكولا؟ بنك، معمل للشوكولا؟ بنك؟ مزارع، مأكول العائلات؟ قهوة النبع – ثلاثة طوابق، فلل... معقول هيدي ضيعتنا يا ستّي، بنك.. بنك تاني». تجيب زمزم بلهفة «ماانت بتقعدي وبتحطّي قطن بأذنيك، أخبرتك قبلاً انه صار في الضيعة كوافيرة. ولمّا كواكب راحت تعمل شعرها قالت لها الكوافورة أوّل مرّة ما فيش مي سخنة. وتاني مرّة عم لفّ ورق عنب وثالث مرّة نعسانة مش فاضية، وأخبرتك أنّ حمد جعفر عمل مصاري من الكويت. وإجا وفتح معمل وأخوه فتح مطعم وحمدوا ربّهم وشكروه!». سمعت هذه الأخبار من قبل. لكنّي لم أستطع تصوّرها في ضيعتنا. أن أتخيّل الطاولات وعليها أغطية، وخادماً يحمل ورقة وقلماً. بدل أحد المزارعين في الصحراء الصغيرة عندما كنّا نذهب لناكل بطّيخاً أصفر لم يزل عجراً وقثاء... كنّا نصيح به «نصف كيلو» فيترك معوله ويأتي حاملاً بين يديه القثاء في أقصوصة جريدة، أو ورقة مزّقها من كيس ترابه. حتى الآن لن تسمع أذناي سوى أزيز الذباب، حتى لو كان الأزيز يصدر عن آلات معمل الشوكولا.

تتنحنح جدّتي أكثر فأكثر، إنها لا تستطيع أن تحطّ ببصرها على بساتينها، بينما أجدني لا أبعد نظري عنها. كأنّ الشجر قد مات كلّه والأزهار البريّة لم تعد بتلك الغزارة. وكأنّي أرى لون التراب يغلب الألوان الأخرى، ثم يلوح بيتنا. ثم أسمع صوت حاووز الماء. أشعر بأنّي لم أفارق هذا المكان. كلّ على حاله. تركض نعيمة. تركض صبيّة أخرى. يركض جدّي. تتأمّلنا الصبيّة ثم تعدو باتجاه معاكس وتختفي. يقبلنا الجميع، بينما يضمّني جدّي إلى صدره ثم

يتركني ليقبل يد جدّتي ثم يعود فيضمّني من جديد إلى صدره وأنا أرى خلف قامته حبل الغسيل يراقصه الهواء. الصنوبرات لم تزل على حالها، وشجرة الإجاص عند الحاووز مباشرة. أفلت من قبضته وأتمطّى حتى أرى الخيمة عند السطح. حيث كان قريب لجدّي ينام فيها عند القيلولة وينظّم أشعاره حتى لقّبه الجميع بـ«أبي تمّام».

النوافذ لم تزل بلا دور، كنت دائماً أقارنها بنوافذ بيروت. فأنا لم أرها قط تفتح أو تغلق إلاّ أثناء المطر والشتاء، ولا أذكر أنّها كانت تمطر وأنا في القرية. فكأنّ المطر من اختصاص بيروت، هذه الشبابيك موجودة وكأنّها ليست موجودة. لا يطلّ منها المرء إذ في منتصفها كان الحديد على شكل هندسي، ولم يكن أحد لينظر من خلالها. عندما يسمع بوق أو دواليب سيّارة تدعس الرمل والحصى، كنّا نهرع إلى الباب المشرّع.

يحيطني جدّي بساعديه القويين: «هيك، بتشغلولي بالي، ولو ابعتوا شي مرسال، ليش ما تركتوا من أوّل يوم». وطبعاً، استسنحت زمزم الفرصة لانتقامها. وأخبرته بأن نقيقها كالضفدع لم ينفع وبأنّه عندما اخترق بيتنا صاروخ أخذنا نضحك ونفكّر أن ننقره ونحشوه بالرزّ.

حاولت أن أبادل جدّي عاطفته بأن شددت على ساعديه، لكنّي لم أجد شيئاً أقوله له وأنا لم أره ربّما منذ سنتين ونصف. لا بدّ أنّي لاأزال تحت وقع رحلة العذاب هذه التي لم تزل فوق جسمي بينما أصوات المعارك لاتزال في أذني.

ووجدتني أعي وأهمس لنفسي أطمئنها، ها هو وقع ماء الحاووز. الحشرات كأنّها الهليكوبتر تقلع وتغطّ في مياهه، ها هما الصنوبرتان. وها هو بيت جدّي كما كان.

جدّي يسحبني الآن من يدي حول البيت، حيث الأراضي. وكان الغروب قد هبط على بساتينك، أسمع أصواتاً تأتي منها وينخلع قلبي وكأنّه قفلٌ يحافظ على جهازي التنفّسي. أرى غرفاً من حجارة

وتنك توتيا تتوسّطها. ضحكات، يدل جدّي عليك «شوفي السم المزروع»، لكن لم أرَ شيئاً في العتمة سوى غرسات هادئة: «شفتي شو زرعوا. زرعوا السمّ والقطران» أقول مواسية: «يزرعوا قرود وسعادين. بكره مصيرهم بروحوا».

ثم يرتفع صوته بالشتائم وكأنّ توسّلي له لأن يسكت شحن دماءه بمزيد من الوقود. فصاح: «ليش بدّي أسكت؟ إن شاء اللّه مفكريني خيفان. كلّ ما كان عندي صوت، كل ما أنا بدّي خلّيهم يسمعوا، شو فيهم يعملوا. يخطفوني؟ اللّي قبلهم جرّبوا. وهنّي جربوا..».

وعلى ارتفاع صوته دلفت نعيمة وجدّتي، تحاولان سحبه إلى الداخل من غير كلام، وعندما أبَى أخرجت نعيمة ما كانت تكبته في صدرها:

«كل يوم هيك! صبح وظهر ومساء وبنصف اللّيل. كأنه واقع بالنقطة بعيد من هون، منيح اللّي جيتو حتى تشوفو بأمّ أعينكم شو عم يقضي هالمشحّر وقدّيش عم نقضي نحن معه».

من جديد تضمّنا المصطبة التي لا نرى من خلالها سوى النجوم وسلسلة الجبال العالية، يجلس جدّي بتثاقل، فهو يحملك بين كتفيه وفي قلبه. ثم يلتفت حوله ويسأل عن جهينة، ثم ينادي: «يا جهينة. يا جهينة». ليعقب وكأني طفلة: يعدني برفيقة حلوة وذكية». ثم يصيح: لوين رحت يا جهينة؟ ثم لنفسه: «اختفت مثل الجنيّة بسم الله الرحمن الرحيم!».

يحاولون منع الذي أحبك من أن يلامسك. من أن يطأ ترابك، هو الذي يحنو عليك، وأنت تحملينه. يطلقون عليه سيدك، صاحب الأراضي التي أحبها كما أحب أعشاش النسور، والذي قال لأمّه يوماً، إنّي أحبك منذ أن اعتلى ظهر طير حلّق به عالياً، وبعيداً ورأك من فوق.

مع ذلك أراد أن يتعلّم القراءة والكتابة، رغم أن والده وأفراد عائلته تجمّعوا حوله يثنونه عن عزمه: «عيلتك عندها كلّ الدُّنيا وانت

بدك تقعد بين يدي معلم يأمرك، ويعلّمك. الألف لا شيء عليها والباء نقطة من تحت. جيب خدم بيقرأوا عنك وبيكتبوا عنك.... ليش حتى تتعذّب».

لكنّه أصرّ على أن يتلقّى العلم. فالعثمانيون والفرنسيون يقرأون الجرائد ويمسكون القلم، يراهم يفعلون هذا وهم يرتاحون بعد حفلات الصيد.

وأخذ يعتلي فرسه قاصداً مدرسة الشيخ في البلدة المجاورة بينما تقف أمّه وخالته تقرآن تعويذات السفر والدعاوى الطيّبة، لكن عندما حان الوقت حتى يفارقك ويدخل كليّات بيروت لم يستطع، الطيور والعصافير هي أوّل من ناداه إليك حتى أصبح جدّي صيّاداً ماهراً كوالده، لكنّه لم يعد يعتلي الفرس مثله كأنّه ملك على الجميع يأمر الخيّالين وكشّاشي الحجال والكلاب أن تتبعه. ولم تعد الطلقة الوحيدة هي طلقته. حتى يتحدّث أهالي القرية والقرى المجاورة عن عدد الطيور المتدلية من على سراج حصانه كما كانوا يفعلون أيّام والده، بل أخذ يشارك هوايته هذه مع رجال القرية وشبابها ومن يحبّ الصيد من القرى المجاورة. أخذ يحضر حفلات الصيد مع العثمانيين والفرنسيين. إلى أن أخذ يجد نفسه شيئاً فشيئاً في قلبك. يستمدّ أنفاسه منك ويزفر انشغاله بك. وأخذ يكتشف أنّك الثابتة. لا الكتاب ولا الدفتر. أنت التي سوف تقفين في وجه المصائب والكوارث وأنّ الحلّ سوف يكون على أيديك. أما أهالي القرى فوجدوا أنفسهم ينجذبون إليك. أهميّتهم هي في الانتماء إلى الذي يملكك. أنت روح ترفضين وتقبلين. يرتعد باطنك أو يبارك، وأنت قبلت جدّي ومددت جذوراً له في أعماقك.

عرفت أنّ عليك أن تجدي له عروساً. وأوجدتها له ذات يوم عندما ذهب بفرسه إلى أقصاك. كانت جدّتي قد بكت قبل أن يوافق والدها على أن تخرج وأمها بصحبته من البيت ملتفّة بالسواد من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها. وكان قد انتظر الغروب حتى لا يراها أحد واختار تلك البقعة النائية لديك التي جلست جدّتي فيها فوق حجر تناجي السماء وتسألها لماذا والدها هو بتلك القسوة

والجبروت. فهي سجينة الدار لا يسمع صوتها أحد، ولا حتى الجدران، ولا يراها أحد سوى بعض النسوة اللواتي ينقلن لها ولأمّها ماذا يحدث في العالم وفي القرى المجاورة. حتى ذاع صيتها كابنة ملك الجان، لا يراها إلاّ والدها والسماء. وكانت لا تكفّ عن سؤاله لماذا لا يسمح لها بالذهاب إلى الشيخة، فكان يردّ بأنّه لا يحبّ أن يلمحها أنس ولا جنّ، فهي عدا كونها أنثى فهي ابنته. وعادت تسأله لماذا إذن لا يأتيها بالشيخة إلى البيت حتى تعلّمها قراءة القرآن، خاصة أن عائلتهم اقترن اسمها بالدّين، إذ نشرت أولادها حتى يتعلّموا الفقه وأصوله. وحتى لا يقرّ بأنها غلبته أوهمها أنّه لا يعلم أنّ الشيخة تقرأ وتكتب بل ظنّ أنّها جوّدت القرآن غيباً، مضيفاً بأن الشيخة لا تغادر منزلها في غير المناسبات الدينية وعندما لم تنفعه أجوبته قال: ربّما تستغلّي القراءة والكتابة وتتعلّمي خبايا القصص وتصبحي قادرة على كتابة الرسائل».

أجابته: «وهل تجويد وتفسير القرآن يعلّم سوى التقرّب من اللّه ورسوله؟».

وتغلّبت جدّتي عليه لتصبح القراءة والكتابة هي الأهمّ في حياتها، لا أحاديث النّساء التي لم تكن تتعدّى نطاق الشجرة التي حملت والبقرة التي أجهضت وزواج فلان وعلان. وأخذت ترفع فتيل قنديل الكاز حتى النمرة الرابعة لتكتشف أنّ فكّها لرموز الكلمات قد أمدّها بالقوّة وجعلها ترفض الأكل على الحصيرة وتضع طعامها على طاولة صغيرة. وعندما رمى والدها بحذائه الضخم المهترئ وضعته في قدميها حتى شعرت بقوّة تنبع من الحذاء. في أراضي جدّي هبطت بعينيها من السماء وسمرتهما على والدها. بكت قائلة أنها بحاجة إلى أن ترى السماء وتستنشق الهواء كلّ يوم لا نادراً. لكنّه كان مشغولاً عنها. يدور في الأنحاء حتى يتأكّد من أنّ البقعة هادئة. لا صوت فيها إلاّ صوت الوحشة وصوت حصان العربة التي كان قد أوقفها في السهل، وعندما أيقن أن لا إنس ولا جنّ سوف يرى ابنته تتنفّس الصعداء. لكن الأنس كان موجوداً وكان يراقبها. رأى جدّي نصف وجهها يتنهّد ويتمتم وأحبّها.

امتدّ اسم جدّي إلى بيروت بعد أن أصبح اسمه من جبلة لبنان، كالشوارع التي كانت تدعى بأسماء العائلات: حي السراسقة وبيضون. وأحياناً على أسماء المهن: حاووز الساعاتية وأسماء الأقليات: سوق الأرمن، حي السريان. وكان اسم عائلة جدّي يطلق على صناديق التفّاح، الإجاص وعلى نوع فاكهة جديدة. أمر جدّي بتطعيمها من بذرتي التفّاح والغوافا فأتى ملمسها بين نعومة التفّاح الحلو السكّري وبين خشونة السفرجل ذي المسام وطعمها بين ماء الزهر والعنّاب. كنت أسمع باسمها يصدح أينما كان خاصّة بين البّاعة المتجوّلين.

رغم أن جدّتي رحلت عنك، إلاّ أنك بقيت متأصّلة فيها، لذلك لم تعط هي للمدينة سوى نصفها. عين واحدة. فتحة أنف واحدة، ويد واحدة. كل ما يتعلّق ببيروت كان مؤقّتاً. وإذا لم يكن مؤقّتاً بقي على الهامش.

فجدّتي لم تغدق ذوقها على الأثاث كما تغدقه على ملابسها الأثاث الذي تمّ شراؤه صدفة. عندما بقيت هي في السيّارة وأوكلت «علي» لشراء ما يجده في دكّان المفروشات. لم تحاول قطّ أن تندمج والجارات البيروتيّات ولا حتى مع بيروت نفسها، بقينا نعيش كما لو بقربك. نأكل في صحون مختلفة، ومعالق نحاسية تكاد تكون صدئة. نأكل قطع اللّحم النيئة، كذلك قطع المعلاق والكبد. لا نبالي بالماء الذي يعوم في السلطة، ولا بالذباب الذي يحوم حول اللّبن ويسقط فيه.

كنت أتفاعل وأعيش في بيروت على طريقتها. رغم أنّك كنت تلوحين وتظهرين عليّ كلّما عدت راجعة إلى البيت ورأيت صناديقك الخشبية المتكوّمة عند مدخل بيتنا. كلّما دخلت سيّارة علي وجلست قرب كرتونة البيض أو الدجاج المذبوح أو سطل اللّبن.

ما إن حدثت الحرب وامتدّت إلى خارج بيروت حتى تغلغلت هي بك. دخلت حتى ببطنك الذي كان يغلي ويُروى ويضاجع البذر ويثمر ليضاجع الحرائق.

الفلسطنييون هم أوّل من احتلّوا قسماً منك «الوعر» وجدّي لم يترك أحداً له علاقة بالفلسطينيين من قريب أو بعيد دون أن يشكو له همّه، حتى أنّه ذهب إلى المسؤول ايّاه الذي سبق وزار جدّي طالباً منه هذه الأراضي ليتمرّنوا فيها لفترة. ورفض جدّي وقتها طلبه لا خوفاً من إعطاء إسرائيل الحجّة لتضرب المنطقة بل لأنّه داب وجدّتي على التفكير بأنّه إذا انتقلت فراشة أو نحلة من شجرة إلى أخرى فهي ملكهما. أرادا أن يعرف الملأ حتى الأبقار بأنه ابتداء من هذا الحجر تبتدئ مملكتهما. فلا رقبة بقرة تمتدّ على هذا العشب الأخضر أو اليابس. لم يكن حولك سياج من أسلاك شائكة ولا سور بل كنت سائبة للعين ولكن مسيّجة بالفكر سياجاً متيناً يعطي رجفة كهربائية لمن يتعدّاه قاصداً الشرّ. ولم يكن الخوف منهما، إنّما من كل ما يملكان: من البيت ومن الأشجار ومن السيّارة والسائق والبيت في بيروت والضيوف الذي يفدون عليهم. من حجّهما عدّة مرّات لمكة وللديار المقدّسة والاتيان بمسابح من جبل عرفات وماء من بئر زمزم، ومن الطعام الذي لا حدود له والذي كأنّه كان منبع قوّتهما.

وأصبح جدّي يقصد «الوعر» يراقب الفدائيين ليلاً نهاراً: وهم يؤدّون عملياتهم الوهمية يتدحرجون على التلال الطبيعية، يختبئون ويسدّون الطلقات، ويطلقون الصيحات وهم يشوون ثعباناً لعشائهم. كان جدّي يقلّدهم فيرقص ويرفع يديه وينزلهما ويخرج حشرة أم أربعة وأربعين من المرطبان ويحاول قضمها أمامهم. كان يسأل الفلسطينيين من بعيد: «شو بدكم... كم ليرة حتى تعطوني قفا ظهركم». فهو لم يكن يؤمن بالسياسة والكفاح إلى أن ضاق صبرهم به، إذ كان كلّما سمع طلقة أسرع ونادى: «الظاهر في حدا مثقل فاصوليا وعم يضرب رصاصة ريح وراء الثانية».

قدر ما كانت روح جدّي، كان البشر روح جدّتي. لا لم تكن تحبّهم بل كانت تشعر بأنّها تستمد نبض روحها من الهيمنة عليهم. بفقدانها الوعر كأنّها فقدت جناحين كانا سرّ طيرانه. حاولت أن تحافظ على صورتها وصورة جدّي وأجداده في أعينهم بإقناع

جدّي بالموافقة على إقراضهم الوعر، بل استمالتهم لهما حتى إذا تربّعت في المجالس قالت بلا مبالاة، كأنّها تبعد عنها ذبابة: «نحنا تمننا عليهم... وهم ياخذو الأمر من شواربنا».

رحل الفلسطينيون عن الوعر، بعد طيّارة استكشاف إسرائيلية، حلّقت فوق الضيعة ومشارفها وجبالها أكثر من مرّة، بناءً على نصيحة جاسوس من أهالي ضيعتنا كما قيل وقتها. ذهب جدّي يستفقد الوعر فرحاً، يرمي من أعلاه الحجارة المدهونة بالكلس الأبيض على الصخور والتي كانت قد قسّمت المخيّم إلى أقسام ليفكّر مع جدّتي إذا كان عليه أن يبني مزارع في هذا الوعر أم يتركه ليضرم تلال الخشب ويتركها تحت التراب مدّة لتصبح فحماً. لكنّ شباب الضيعة لم يجعلوه في حيرة بين هذين الأمرين أكثر من بضعة أيّام، إذ احتلّوه ذات فجر، في الوقت الذي تغفو العين مطمئنّة إلى أنّ اللّيل وما يحمله من سواد في طريقه للانقشاع، لأن تباشير الصباح والوضوح إنّما تبعد شعرة واحدة.

وأخذ جدّي يعدو ويصيح: اغتصبني أولادي.. اغتصبني أولادي».

ركض وقميصه فوق بنطلونه وجدّتي تسرع خلفه تمدّ له بالحزام صائحة: «الرجل الذي بلا حزام يعني بلا حزم، والذي يركض يوحي بأن لا عقل له ولا هيبة» وما أن رأى جدّي مصطفى ابن أبو مصطفى وبقيّة الشباب في الوعر حتّى أصيبت عينه بانفجار. ومنذ اللّحظة التي استرجع وعيه بعد استيقاظه من البنج صاح. «مصطفى؟ ابن أبو مصطفى؟ الذي لما ولد كانت أمّه تعبّئ المحصول بالصناديق فأدخلوها بيتنا لتولد هذا الأزعر؟. ولم يسكت جدّي رغم أنّ الطبيب حذّره من انفجار آخر.

ظنّ جدّي أنّه قد أنهى الموضوع مع بعض أهالي الشباب الذين وعدوه خيراً وهم في غاية التأثّر بما حصل له لكن أولادهم الشباب خطّطوا لترك «الوعر» واحتلال البساتين، إذ فكّر المثاليون فيما بينهم أنّ البساتين سوف تدرّ عليهم النقود بدلاً من الالتزام بحزب أو بأشخاص أو بدولة، وأنّ هذه النقود ستمكّنهم من إنشاء حزب حرّ

يتخلّص من الأحزاب المجاورة كلّها. بينما أقسم جدّي والشاش لم يزل يخفي عينه المنفجرة لا على الاقتصاص منهم فحسب، بل منك، من التراب والأشجار التي رضيت أن يكون لها سيّد سواه. أقسم أنّه سيولع النّار بك حتى تطقطقي، لكنّه وجد نفسه طفلاً صغيراً، يبكي من ألم عينه في المستشفى ويحتاج إلى من يهدّئ هيجانه طوال الوقت، لكنّ جدّتي وأشقاءه كانوا يزيدون من آلام الطفل الذي يعود إلى الصراخ بعد أن يرفض كل الألعاب. «السنّ بالسن والعين بالعين يا شفيع المؤمنين» تحرّض جدّتي بجملتها هذه مضيفة بأن عليهم إنشاء ميليشيا «قبضايات زعران أو يللي شو بتسموهم مسلّحين، عليهم جقرة عين تخلّي الأسد يرقد ويقوم على إجريه وينادي التوبة».

وحينما صاح جدّي مقهوراً من كلامها «ميليشيا يعني، يعني ميليشيا.. بقوصوا وبيتقوّصوا. كأنه صاير لك شي؟ إنت ست الفهم والحكم والعقل... بتفكّري بالميليشيا؟».

ردّت عليه بصراخ يفوق صراخه «بدَني بهبّ هبْ كأنّه حدا علّقني بصناير من عيوني، معقول كم أزعر يشيلنا من ترابنا. ومن تراب جدود جدودنا. معقول هالبيت اللّي حيطانه صارت كلّها طاهرة قد ما استشهدت وصليت وركعت وابتهلت، نترك اللي بلا دين يحاوطونها». فصاح عمّي حاضراً «كلّهم شيوعيّة بلا دين وبلا أصل بس يا إم فاطمة ميليشيا، شو نحنا زعران؟» أجابته باستهزاء: «معك حق نحنا مش زعران. بس الواحد لازم يتغيّر.. إذا حمينا أراضينا بالطريقة الوحيدة وقالوا عنّا زعران. يمكن نحنا زعران. وإذا كان شمعون أزعر، أو صائب سلام أزعر.. نعم نحنا زعران». كانت فكرة إنشاء ميليشيا بذرة في قلبها منذ أوائل الحرب، روتها على مهل حتى كبرت وترعرعت وأصبحت حاضرة رهن إشارتها. وقفت كمن يودّ تثبيت فكرته كإثبات قدميه على الأرض، فسألت: «شو قلتوا؟» كانت توّجه عن قصد حديثها إلى جدّي فقط، إذ كانت تعرف أن أخاه لن يشجّعه على هذه الفكرة. فقد كانت ولاتزال تشعر كأنّها وجدّي هما العائلة فقط.

ردّ جدّي: «مين بدو دخلك يمسك بارودة. أبو كركي أو أم كركي حسين أو أبو مصطفى، اللي ابنه متزعّم كل شي. أو فضل؟». عندها ضجّجنا جميعنا بالضحك، فجدّي قد اختار الأكثر تقدّماً بالسنّ، الأكثر انحناء الأكثر سذاجة أو الذين لم يزالوا على ولائهم لعائلتنا، لمجرّد أنّ أولادهم هم في المهجر أو في بيروت.

اختصرت جدّتي ضحكتها ومالت تستعيذ بالشيطان لأنها ضحكت وأجابت: «لا... شو أنا هالقد عديمة النظر والفكر... لاه... لاه... يا شيخ... ما حداش سمعني وأنا بقول: ميليشيا يعني قباضيات زعران. يحبّوا لون القرش وطعمة القوة.. حرّاس وقباضيات، إنت بس وافق على كلامي وأنا أكفل لك ان الجميع يصير صراصير بين قدميك».

تكلّم عمّي هذه المرّة بعد أن مهّد بأن الذي سوف يقوله سيقع وقع الصاعقة على السمع، لكنّ هذه المسألة ذات حلّ واحد، سيقوله مهما كان:

«لازم تتفقوا مع عائلة اللي ما بتتسمّى».

صاح جدّي: «أم فاطمة جنّت. وإنت جنّيت، وأنا مش لح جنّ. نوسّخ اسمنا مشان كم أزعر طايش، عم يعصوا على أهلهم لأنّهم بدهم يتجوّزوا ومش عارفين كيف؟» بينما علّقت جدّتي من غير أن تنظر إلى أخي جدّي: «إن شاء الله لعب الساعاتي بعقلك»، ثم تعود إلى فكرتها متجاهلة اقتراحه: «بيت فلان عندهم ميليشيا وميليشيا فلان، خليني عدهم، حتى الأبرص صار عندو ميليشيا، قديش صاروا عشرين»!

«هلّق مين في حواليكم؟ اسمعوا منّي.. احكوا عائلة اللي ما بتتسمّى وهي بتبعتلكم الزعران. وهي تحمي الأرضيات... ومش راح تخسروا قشرة بصلة، بالعكس راح تربحوا.. لما بيحموكم الأراضي، لح بنبسطوا أنه حطّيتوا إيديكم بإيديهم.

«عائلة اللي ما بتتسمّى لا أذكر أنّنا تفوّهنا باسمها مرّة واحدة. بل لقبا خلف الآخر. عائلة بزر القضامة. عائلة الششامي.. عائلة

الزفت والقطران. عائلة اللي ما بتنذكر، عائلة اللي ما بتتسمى».

لم يكن الحقد على هذه العائلة لأنّها تعمل في تهريب الحشيشة والكوكا (والتي تعلم أحد أبناؤها الهندسة الميكانيكية من أهمّ جامعات أمريكا وعند عودته بعد تخرّجة قام بتصميم طائرة خشبيّة صغيرة حتّى تستخدمها العائلة في التهريب). بل لأنّها برزت في الحرب وأصبحت ذات أهميّة. رغم أنّ جدّي وجدّتي لم يعترفا بوجودها بل تجاهلاها طويلاً.

ولم يكن جدّي ينسى كيف أخذت هذه العائلة تتوسّع وتصبح من أغنى أغنياء الضيعة والضيع المجاورة، رغم أنّ أجدادها لم يعرفوا غير مهنة المكارين، ينقلون على دوابهم الحصى والرّمل وكيف أنّ دهاء بعضهم جعلهم يصبحون من أهمّ مهرّبي الدُّخان. ثم الحشيشة أثناء الحرب. وأصبحت هذه العائلة بين ليلة وضحاها تغدق المال على نفسها فتقتني السيّارات الكبيرة الأمريكية والفلل الجديدة والأثاث الذهبي. منعت نساءها أن يحضرن بعر الجمال والبقر لتكون غذاء للنار بل ألغت الصاج والتنّور عن المداخل بعد أن شقّت طريقاً من الإسفلت وزرعت أحواض الزهور من على جانبيه.

وبدلاً من انتقاد هذه العائلة لأنّ أحد أبنائها تزوّج من ممثّلة جميلة، تزوّجت من قبله مرّات عديدة ونشرت صورها في المايوه وهي تقرب من صدرها زجاجة عطر ولسان حالها يقول: «الدفا عفا ولو في عزّ الحرّ»، ازداد إعجاب أهالي الضيعة والضيع المجاورة بهذه العائلة، وشعروا بالفخر أنّهم ينتمون إلى البقاع ذاتها خاصّة أنّ الانبهار ازداد بهذه العائلة لأنّها تدخّلت بالأحزاب وأتت بمخطوفين. وخطفت أيضاً من وقف في طريقها التجاريّ. التفّ حولها القباضيات والحرّاس، ثم توسّعت حتى أصبح لها ميليشيا تحميها، وتحمي طرقاتها وتحمي رجالها الذّين ازدادت حركة تهريبهم للمخدّرات وأخذت كيفية اتّصالهم بالخارج تجلب أجلّ الاحترام. فقد أصبح لديهم اللاسلكي، وخط دولي خاصّ يمتد فوق غرسات ميال الشمس وعواميد الكهرباء وقرب السواقي، حتى أنهم أدخلوا الطرق الحديثة على كيفية تحضير الحشيشة، على كيفية

توضيبها وتهيئتها للشحن. أخذ كلّ شاب سواء من القرية أو من جوارها يطمح أن يكون من دائرتهم، وهو يرى طائرة الهليكوبتر الخاصة تحلّق بهم، وهو يرى تسريحاتهم قد صفّفت على طريقة ألفيس برسلي. الخواتم الذهبية حتى الألماسية في بنصر أصابعهم. أحزمة من جلد التمساح الأصلي حول خصورهم.

لم تطق جدّتي أن تراك ساكنة أمام المحتلّين، كأنّك لست مبالية. ارتفعت الحيرة في رأسها وهي ترى نفسها لأوّل مرّة بلا وسيلة، بلا حيلة. عندما تجمّع المسلّحون وجاءوا وانتشروا حتى عند حدودها. أسرعت تزور بيوت القرية واحداً واحداً، بيوتاً لم تطأها قدماها إلاّ عند موت أحد أو ولادة طفل. غاب عن فكرها، هي التي لم يكن يغيب عن بالها حتّى لون الجفون أنّ الأهالي كانوا خائفين من زيارتها، خائفين من أن يقوم أولادهم بتسميعها الكلام الذي سمعوه قبلا، وهم يحاولون إقناع أولادهم بترك الأراضي سواء بالصراخ أو بالتهديد، أو بالمسايرة والكلام اللطيف وبالذكريات المشحونة بقصص مروءة عائلتنا من قبل أن يبصر أولادهم النّور، كلام مشحون بالماضي لا يتماشى مع أولادهم الذين ما وعوا سوى الحرب وما درسوا سوى أنواع السلاح وما طمحوا إلا لارتداء ملابس الميدان. لكن هذا التدخّل لم ينتج عن نفور الأولاد واستيائهم من أهاليهم، فهم لم يستوعبوا حتى الآن سرّ موقف أهاليهم الطيّب إزاء عائلتنا، صاحبة أطنان الأراضي. ليتهموهم بأنّهم لايزالون يعانون من خوف الماضي وسيطرته.

فهمت جدّتي من تأتأة نعيمة التي أرسلتها مرسالاً لهم بأنّ الأهالي يفضّلون زيارتها في الصباح. بلعت جدّتي ريقها وكأنّه محشور بالدبابيس، تتذكّر الأيّام الماضية التي لم تكن تسأل أو تستفهم عن وقت الزيارة، إذ كانت البيوت مشرّعة طوال السنة تنتظر إطلالتها. والجدران تكتفي بأن تسمع بسؤالها عن فلان أو فلانة، لكنّ جدّتي ابتسمت أمام نعيمة وقالت: «لا بأس الصباح رباح، شو أنا لازم زورهم بليلة القدر؟».

وجدّتي تجول حولها وتسمع صدى كلماتها، إذ أنّ الغرف تكاد

تكون عارية إلاّ من الطراريح، والخزانة وعلى الجدران علّقت مشكّة الإبر وصدور من القشّ. حزرت هي أنّ الوجوه لم تعد مضطربة كما بدت في الماضي عندما انتشر خبر احتلال الأراضي رغم أنّ الوجوه بكت أمامها وانحنت تقبّل الكتف، تتنصّل تارّة من الأولاد وتقسم على الاقتصاص منهم تارّة أخرى. تَعِدُ أن تفعل ما في وسعها. لكنّ جدّتي حزرت أن تبدلا ما طرأ على هذه البيوت: إنّه الشعور بالطمأنينة. كأنّ الأهالي أصبحوا طوعاً لأولادهم، تلومهم لأنّهم تخلّوا عن سلطتهم. كانت تجلس بالفستان الذي لم تلبسه من زمان والذي أصبح يحزّ قليلاً على خصرها. لكنّها تحبّ أطراف كمّه المخملي، تغطّيه بذلك المعطف الذي باخ لونه ومع ذلك فهي لم تزل تحبّه. وكانت قد تعطّرت بعطر العنبر ولم تنسَ أن تعطّر مسبحتها لم يجعل اليأس يتمكّن منها، كأنّها دهنت عقلها بالكثير من الحجج، المستمدّة من التاريخ والحكم وحتى من الجرائد اليومية. وكأنّ عقلها أخذ «يزيزق» من شدّة ما قامت بتلميعه لدرجة أنّ من يستمع إليها كان يجد نفسه يغوص في بحر عميق لا لأنّ ما كانت تقول لا يستوعب سوى الذكاء أو أنّه كان من الصعب فهمه، بل لأنّ عقولهم وألسنتهم أصبحت في حوزة أولادهم. تقول لهم إنّ أولادهم هم الذين قاموا بإلغاء الماضي والولاء والخبز والملح. وعندما كانت تشعر من ردّة فعلهم أنّ حقّها لم يزل مصوناً بينهم حتى تشدّد لومها، لأنهم رضخوا لأولادهم وتنكّروا للماضي. ثم تعود فتطرّي الموقف وتهزّ رأسها متذكّرة الماضي ثم لتكتشف أخيراً أنّ الكلام معهم لم يعد يجدي. إنّهم يجلسون على نار، أعينهم على الأبواب مخافة دخول أولادهم عليهم بغتة وإحراجها بما سوف يقولونه لها. وأخذت جدّتي تتلكّأ في النهوض عن قصد. تريد أن تتحدّث مع الأولاد فقط. لا مع هذه الوجوه المبهمة، التي كانت تميل من جهة إلى أخرى مكتفية «بالطقسمة» وبترديد «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله» وهذه الجمل: «مش قادرين نعمل شي، إلاّ نحطّ السكّين على خوانيقهم! نحنا مستعدّين، فداك ،فدا...». ولم يمدّها هذا الكلام بالراحة بل بالحقد عليهم لأنّهم ضعفاء. تلكأت بالنهوض وهي

تتصدّر بيوتهم المتواضعة وهم يلتفّون حولها كما في الماضي رغم القلق الذي بدأ يظهر بوضوح على وجوههم، كلّما سمعت خطوات، أو صوتاً. ولم تنهض أخيراً إلاّ عندما دخل مصطفى الذي لا بدّ أنّ الخبر أتاه وهو في البستان، وجاء لا من أجلها، بل من أجل أن يتصالح مع والده أبو مصطفى الذي تنصّل منه بأنْ أقسم يميناً من فوق مئذنة الجامع. لكن وقْعَ صوته القويّ ذاب قبل أن يحطّ بآذان أهالي الضيعة وقبل أن يسمعه جدّي. كانت جدّتي قد وضعت ما تبقّى لها من التفاؤل في زيارتها الأخيرة إلى بيت أبو مصطفى الذي رغم بنيته الضئيلة، كانت عيناه تقدحان قدحاً، كأن شجرك لم يكن يحمل إلاّ عند لمسه له وترابك لا يروى إلاّ إذا سقاه. ومع ذلك فالموّال الذي كان يصيح به والده أمام والد جدّي هو الوحيد الذي كان يجعله طريّاً كالعجينة أمام جدّي

«يا سيّدي ويا سيّدي أنت، الفدّان وأنا الذبان. أحسبني تحت ذيلك ذبانة وبدّي احكيلك عن الفلاّحين شو عم يعملوا وشو عم يسوّوا اللّي حاسبين حالهم عليك. وإذا كنت عم كذّب ضلّك اضربني.. اضربني».

عرف مصطفى أنّه يستطيع في حضرة جدّتي فقط أن يدخل منطق والده. إذا استمع إليه وهو يحاور جدّتي ويسدّ أمامها كل منافذ دهائها وكلامها الجميل ويتركها وقد أصيبت بالتأتأة أو بالجمود. تحاور معها وهو واع كل الوعي بأنّ لن يقع في الخطأ نفسه. لن يفتح لها قلبه ويقول لها كما قال لوالده إنّه تمنّى أن يكون فدائيّاً، واقفاً مستعداً في الزيّ الفدائي، يلقي الأوامر ويمسك سخونة الرصاصة في يده، وأفلام بروس لي تتجسّد في بساتينك التي وعى عليها، ومع ذلك وبدلاً من هذا الطموح كان عليه أن يقضي الحاجات لأمّه وأن يبارك بصقتها كلّما بصقت على الشباب، وأن يتلقّى برحابة صدر دعواتها لهم بالفناء. كلّما دلقت طشت ماء الغسيل وقالت: «إن شاء اللّه بتصيروا مثل زوم هالمي أسود». قال مصطفى: الآباء لا يفهمون غضب أولادهم، نعم هم كانوا في البساتين وأمّهاتهم في البساتين ينكشون ويزرعون ويحصدون

ويعبّئون الأكياس». بينما الشمس تلفح الأطفال طوال النهار تحطّ عليهم الحشرات فيصرخون من لدغ النحل. وكلّما امتدّ نظرهم التقوا بالأفق وعرفوا أنّ هذه كلّها للرجل الأشقر الذي يجلس في التخشيبة صاحب الضحكة المجلجلة والذي يمتطي الحصان ويلكعه. هل هذه الأراضي تحقّ له لمجرّد أنّ جدّه جلب القمح أثناء الحرب العالمية إلى كلّ القرى كما جلب ألواح الثلج وأخذها بدلاً حين لم يستطع الأهالي تسديد الليرات الذهبية.

رغم هذه الحجج وهذا التاريخ تاه مصطفى عندما عرف أنّه لم يستطع أن يغلب جدّتي في حواره معها. فقد كانت أوسع معرفة ممّا يظنّ، إذا أدخلت الدين وأقوال الأئمة والأحاديث الشرعية أمام والده المؤمن. فجدّتي كانت تتمسّك بالدّين من خلال نبيّه وأئمّته والشخصيات النسائية. فاطمة الزهراء وستنا زينت ورغم إعجابها بخديجة بنت خويلد كان الأحبّ إلى قلبها من الشخصيات الدينية العبّاس بعد علي بن أبي طالب. تتبع قصصهم وأقوالهم وأحاديثهم والأحاديث التي تروى عنهم. تناقش سيرهم وتعطي تفسيراتها العنيدة التي لا تتزحزح شعرة حتى وإن حاجّت رجال الدين أنفسهم. وفي الوقت نفسه كانت تعرف الكثير عن جمال عبد الناصر وتأميمه للأراضي وعن العدوّ الإسرائيلي. عندما لم يجد مصطفى حيلة إلاّ أن يدخل تجربته الشخصية قال صائحاً: «بعدني بتذكّر أبوي وأمي على البيدر بعزّ طقة الشمس وبتذكر أختي الكبيرة عم تمسك الشجرة وتهزّها. تحطّ الثمر بعبّها وبفستانها».

شهقت جدّتي مستنكرة برياء. وهي تنهض وتلملم معطفها وتمسك بمظلّتها وتمشي: «شو هالظلم اللّي ظلمناكم اياه، أمّك وأبوك اشتغلوا بالفلاحة وبالبساتين نزّلناهم عن العرش، بعد ما كانوا ملك وملكة وأخذنا ذهبهم وأجبرناهم عالشغل. إي شو بعد بتتذكّر؟ شفت خلّيناك تتذكّر مش أحسن ما كنت طلعت تلطميس مش فايق على شي».

وكانت تلك الزيارة الأخيرة التي قفلت بعدها جدّتي وزمزم عائدتين. المظلّة الزرقاء في يد جدّتي تحنيها حتى تكاد تلاصق

وجهها خوفاً من أن تذيب الشمس بشرتها الناصعة كالثلج. تنهّدت حتى تفتح الموضوع. أرادت أن تسمع رأي زمزم لأوّل مرّة في حياتها رغم معرفتها بأنّها سوف تختار منه كلمة أو كلمتين. جملة على الأكثر. ولم تنتبه زمزم إلى اختيار كلماتها كعادتها لكنّها اكتفت بالتنهّد هي الأخرى قائلة: «لهيب وطالع» عندما حشرتها جدّتي علقت زمزم بلا اهتمام. «الشغل بالأرض مثل الوظيفة أولادهم صار عندهم وظايف وصار عندهم قيمة ومش هيك بسّ صاروا يجيبو مصاري عالبيت. وبيصرفوا على حالهم. لو حطّيت بجيبتهم خمس قروش كانوا فهموا شو كنت عم تقولي». ردّت جدّتي وهي شبه منهارة كأنّها صبيّة اكتشفت أن حبيبها تزوّج من أخرى في ليلة زواجهما: «مظبوط المصاري بتحكي والكلاشنكوف بجيب القوّة والقوّة بتجيب المصاري».

كانت في ضيق كبير لأنّك لم تعودي أراضيها، لم تعودي بحاجة إليها. وأخذت جدّتي وهي تسير تجد نفسها تتضاءل بين شساعة مسافاتك، تحت امتداد الشمس الوحيدة بلا ظلّ. لا بدّ أنّ الأعين كانت تراقبها من النوافذ والمصاطب. كان عليها أن تفكّر بطريقة تجعلها تتمطّى طولاً بدلاً من أن تتضاءل. ماذا حلّ بالصندوق الخشبي الذي كان قرب سرير والدها في غرفته؟ تمنّت لو أن الذهب لم يزل في ذلك الصندوق الخشبي والذي كان المخمل يحيط بجوانبه الخضراء والبنفسجية. جنيهات إنكليزية وإطارات عثمانية وجنيهات مصرية من الذهب الملتمع وذهب يرنّ. رأتها هي في الصندوق وهي صغيرة. أين هي، كيف تلاشت؟ لا تعرف، لو فكّرت من قبل بها وهي صغيرة لربّما وصلت إلى جواب، لو أن ريع هذه البساتين تحوّل إلى أموال، إلى حسابات في البنوك، بدلاً من شراء الأراضي، لو أنّها اشترت الأثاث الوثير وأتت بسائق آخر عندما تركها عليّ. لو... لو...

ولم يفكّر جدّي وجدّتي بأنك ستعودين إليهما إلاّ عندما أصبح الإسرائيليون فعلاً في لبنان. كم تمنّياً معاً لو يصل الإسرائيليون إلى القرية! فهما لاحقاً عمليات الإسرائيليين عبر الراديو، وفي الأيام الأولى طلب جدّي من ابن نعيمة أن يذهب إلى «العائلة اللّي ما

بتنذكر» حتى يأتي له بالأخبار التي كانت تأتي العائلة عبر اللاسلكي، بينما اعتمدت جدّتي وكانت في بيروت على أخبار إذاعة مونت كارلو. كلّما استنتج جدّي من الأخبار إن إسرائيل تتقدّم ازداد وجهه احمراراً واستدارة. كلّما سمع أن أميركا والدول العالمية تنذر إسرائيل وتحاول إيقافها هاج شعر حاجبيه في كل الاتجاهات. وكانت جدّتي في بيروت تقلب مخدّتها كلّ مساء وكلّ صباح، محدّثةً جدّي: «إن شاء اللّه اللّي بفكري يوصلّك». وكانت زمزم تسمعها وتضحك في سرّها وهي تخبرني أنّ جدّتي شاخت وما تابت» وأنّها لم تزل متعلّقة بجدّي كرجل.

وكانت الأخبار والشائعات بدأت تتناقل بأن الإسرائيليين سوف يصلون إلى مشارف القرى بسلاحهم الجوّي. ذات صباح باكر حلّقت طائرات هليكوبتر في الجوّ، ما جعل المسلّحين الذين يحتلون أراضي جدّي يفرّون كالدجاج المذعور من هجمات الثعاب وتفرّقوا في كل مكان. وقد فرح جدّي وهلّل وركض إلى بساتينك يقبل وجهك ويرفع نظره إلى السماء ولم نعرف إذا كان يبتهل للّه أم لإسرائيل. وحينما مضى يومان وبقي الصمت في فضاء هذه البلاد، خاف جدّي من عودة المحتلّين، تمنّى وقتها لو أنّ عنده ميليشيا. وفكّر للحظات بأن يلجأ إلى تلك العائلة ولكن صرف النظر عنها. وفكّر في طرق أخرى. لكن الأيّام التالية جعلت قلبه يخفق بالاطمئنان، إذ حطّت طائرة هليكوبتر عليها نجمة داوود ونزل منها رجال بملابس عادية يسألون عن مصطفى ورفاقه الذين كانوا قد فرّوا من الضيعه والجوار حيث الطبيعة الجغرافية ساعدتهم في الهروب في طرق معقّدة، متشابكة بين الجداول والحقول التي تلصق القرى ببعضها. ورغم الخوف والحذر تجمّع الصغار والمراهقون حولهم بفضول ولحقوا بالجنود الذين لم يكونوا في ملابسهم العسكرية. كانوا يتحدّثون العربية بطلاقة إنما بلكنة. عندما توجّهوا ودخلوا إلى بيت مصطفى من غير سابق معرفة، يبحثون عن السلاح، تأهّلت بهم عمّة مصطفى التي فقدت معظم سمعها أفضل تأهيل: «يا أهلاً وسهلاً شرفتو وأنستو أهلاً بالشباب الحلوين. أهلاً بأصحاب مصطفى.

شو بضيّفكم؟ ثم نادت أخت مصطفى أمينة التي كانت تكزّ على أسنانها قائلة: «ليش واقفة مثل الصنم، ضيّفي الشباب. يا أهلاً وسهلاً. جلول، شي بارد، أو بركي بعدهم بلا غداء... حطّيلهم صحن مجدّرة». عندها عيل صبر أخت مصطفى وصاحت بالعمّة: «انت استريحي».

اقترب أحدهم من العمّة وخبط على كتفها قائلاً: «انت آدمية، انت كويسة. وين مصطفى؟». ولم تسمعه بل سألته: «شو مش جوعان؟ طيّب ليش واقفين واللّه استريحوا». لم تتوقّف عن الكلام والاعتذار منهم لعدم وجود مصطفى. «لاحق الزعران والبارودة مش مثلكم لابس مرتّب، نظيف، محلّس، مملّس». ثم ودّعتهم وهي تشير بيدها ملوّحة ولم تنزلها إلاّ عندما خبطتها عليها اخت مصطفى صائحة في أذنها: «بدّو لسانك قصّ. هول الإسرائيلية وانت عم تتأهّلي فيهم؟» صرخت العمّة وضربت وجهها. «الله يبعتلي السمّ والسخنة» ثم ركضت إلى السطيحة تتناول شحاطتها مهدّدة بيد، لامة خدّها بيد: «اللّه عليّ اللّه على هبلي. هول الاسرائيليين وأنا بدي طعميهم». بينما رأى الجنود في الهليكوبتر المرأة الطيّبة تشير إليهما فبادلوها التحيّة. ولم ينتبهوا إلى شحّاطتها التي رفعتها بيدها.

ما جرى في بيت أهل مصطفى مدّ الشعور بالتفاؤل بين نساء البيت والضيعة. لربّما أحب الجنود عمّة مصطفى وعفت إسرائيل عنه بينما جعلت هذه الهليكوبتر جدّي يفكّر بأن صفحة سوداء قد اقتلعت من جذورها وبأن الحياة معك ستعود كما كانت في بساتينه. سرعان ما تبدّدت مشاغله وهمومه. هل يعيد والد مصطفى وأهالي الشباب إلى سابق وظائفهم أم انّه يستبدلهم بعمّال من الباكستان ومن السودان الذين بدأوا يتناثرون في القرى، يدقّون الأبواب طلباً للعمل. لكنّ إسرائيل أصبحت همّه الجديد فهي تغرق الأسواق اللبنانية بالخضار بأسعارها الرخيصة لإغراء التجار اللبنانيين. عندها أخذ جدّي يصف اسرائيل بالثعبان. بينما أخذت جدّتي تتوجّه إلى خالقها بعد كل صلاة تبتهل لخراب بيوت إسرائيل وحقولها. ثم حوّلت أدعيتها بعد مدّة لخراب بيوت الغرباء والأقوياء

الذين عادوا واحتلّوا البساتين وأعينهم لم ترمش مرّة واحدة وهم يشوّهون معالمك ويحوّلون باطنك وسطحك إلى روح أخرى. كأنّي أسمع الآن أصواتاً، قتالاً يدور إنما بصخب غريب حتى انّه يغطّى على الماء المنساب من حنفية الحاووز. أنهض وإذا الضوضاء هي ضوضاء الريح فوق تربتك. أحاول قفل النافذة جيّداً وأفلح في ردّ الصخب، لكن أجد نفسي مستيقظة أكتب رسالتي هذه كلمة كلمة. أراعي حتى النقطة والفاصلة وأفتح القوسين وأقوم بقفلهما وأنتبه إلى أنّي لم أعد أستعمل علامة الاستفهام أو التعجّب. ذبابة تطنّ في أعلى السقف المنخفض رغم الظلام تجعلني أصاب بالأرق. ولم أكن نائمة عندما أيقظني صوت جدّي وهو ينادي: «جحشك لا يملّلي جحشي وجلالك لا يملّلي جلالي». كأن أوردة أغصانك وذرّات ترابك لم تزل معبّأة بصوته وما عليها إلاّ أن تعيد الصدى. لكن أصواتاً تنادي: «خلّلينا ننام الليلة وخلّي أهل بيتك يناموا»، جعلتني أعي بأنّي قد صحوت للتوّ.

أسمع من جديد وقع خطوات على المصطبة. نباح أو بكاء أو موّال أو ضحك. انه جدّي من جديد. عندما لم أسمع شيئاً من الطرف الثاني عدت أفتل إلى الجهة الأخرى من السرير متجاهلة ما سمعته قبلاً وأعود إلى التفكير بك وبأمّي وبهذه الدنيا العجيبة. إلى أن عدت أثب من جراء حركة صاخبة. شيء زجاجي يتكسّر على المصطبة وصراخ جدّي من بعيد: «وين بدّي ودّي وجهي من أهلي، من عضام ابوي ومن أمّي والأرض مزروعة افيون وسم وشحار».

ركضت إلى المصطبة. كانت قنينة الزيت الفارغة التي كسرها جدّي على حائط المصطبة لم تزل في يده. أخذتها منه برفق وأبعدت قدميه الحافيتين عن تناثرها. سألني ببساطة: كنت نايمة يا جدّو؟ من وقت هالأولاد صاروا بنصف دين عيني بطّلت فيني نام مثل الخلق». أفهم الآن لماذا يتجاهله المحتلّون، فهو لا حول ولا قوّة له. لقد حاولوا خطفه في اليوم الأوّل لاحتلالهم الأراضي وكان يمتطي حصانه ويحمل بندقيته. انصاع إلى الخاطفين بعد أن ترجّل عن حصانه حسب ما قيل له، ومشى معصوب العينين وسار مع الملثّمين

ثم أفلت من بين أيديهم وهو يركض رامياً بنفسه من على الصخور. ويبدو أنه حتى في أعمال العنف هناك قوانين متّفق عليها، فإذا عرف المخطوف هويّة الخاطف واستطاع الهرب فهو لن يخطف مرّة أخرى. وجدّي كشف عن هوية خاطفيه وناداهم بأسمائهم فأخذتهم الدهشة.

«مات والمسّاس بيده والبقر بتبكي علي...

أقول: بس يا جدّي مصطفى بطّل معهم..؟

يجيبني: «كان أو ما كان، هو السبب».

أضحك ويضحك هو على ضحكي. أوهم نفسي بأنه يضحك سعيداً لكنّه يعود ينادي: مش ستّكم أم أمّكم حسبت سيارةابوي منزلة من السماء وحطت إيدها مثل مالواحد بحطّ ايدو عالكعبة الشريفة لتتبارك منها. وبعدين حطّتها على تمّها تبوسها. ومش ستّكم أم أمّكم فكّرت انو المصوّر بيقدر يصوّرها من دون ما يشوفها عم تحكولي هلّق بالتوكا ووكا وبتركبولي سيارات؟

اسمع من جديد وقع خطوات على المصيطبة، حيث نافذة غرفتي وبابها. اسمع قهقهات بعيدة ولا أفكّر بالنهوض بل أفكّر لماذا البلاط الغامق الاحمرار يوحي بالدفء وبالبرودة في آن؟ وأفكّر بأنّه رغم الطريق والساعات الطويلة التي قضيناها في الوصول إلى القرية فوجودي الآن بها كأنه من فعل السحرة.

أفتح عيني فأعود أغمضهما، متلذّذة بالجوّ الطري الجافّ، بالأصوات التي تذكر بالحياة الطبيعية والتي تختلط بصوت وقع رسائلي التي ظننت أنّها تنام معي ما أن أغلق عينيّ. لكنها مستيقظة مثلي... اسمع صوتاً جديداً يضحك. ثم صوت زمزم، ثم الصوت الجديد يرتفع عالياً. ومن رنّة صوت زمزم المرتبك أعرف أنّ هذا الصوت يطغى عليه. تحاول زمزم لكن الصوت الجديد يعلو مقهقهاً. أجدني أنصت جيّداً لهذا الصوت الشابّ ثم لصوت جدّي لكن الصوت الجديد يعلو عليه. يمازح ويتحدّى وينادي: «بانه لن يلمس شيئاً إذ روحية بانتظار اسمهان ناطرتنا من دغشة الصبح». عندها

هببت جالسة. لا شك أن الخرف سيمتلكني يوماً ما. لقد نسيت روحية ما ان ابتعدت لافتات الكوافيرة والمقاهي ومزارع الفراريج عن ذهني. وجدتني من جديد أشعر بأنّي أترقّب لمعرفة هذا الصوت الذي كان يعلو كلّ الأصوات، خاصّة على مناداة جدّي لمحتلّي الأرض: انه ينادي اللّه قبل أن يضربهم بكلماته القاسية أو يضرب نفسه. يقول إنّ هذا اليوم هو المثاليّ للتشذيب، يشتم الزعران والشباب والحقودين. يشتم الشحّاذين والقوّادين. يصيح بأن نساءهم عاهرات وهم قوّادون لأمّهاتهم وبناتهم وزوجاتهم. الصوت الجديد يحاول إسكات جدّي بدلاً من أن يرتجف كما ارتجف الآن. لكن صوت جدّي الذي هو كإبرة غرامافون صدئة تدور في الاسطوانة. لم يستطع الصوت الجديد إسكاته بسهولة فبقي صداه المتحشرج يطنّ في الأذن وفي الصدر وفي أنحاء المصطبة. أرتدي ملابسي بسرعة حتى ألحق بالتهدّج الذي يحدث في الخارج وبالأصوات التي كانت تعكّر صفو نطقها كأنّها عثرات كبيرة من حجارة واختناق. هل يبكي جدّي؟ لا، إنّه يضحك، جدّي يضحك ويغنّي موّالاً. الصوت الجهوري الأنثوي يسكته. خرجت وكلّي شعور بأنّ النهار يكاد يولي. وبأنّه قد سبقني إليه الجميع. دخلوا بدقائقه وتفاصيله حتى لم يعد لي أيّ مكان. تهجم عليّ صاحبة الصوت بعد أن رمت الملاقط من يدها في طشت الغسيل. ولم تبال بانتقاد زمزم، بل هجمت عليّ تقبّلني وتشدّني إليها قائلة: «الحمد للّه عالسلامة، الحمد للّه عالسلامة». هي الصبية التي ما أن وصلنا البارحة حتى حدّقت بنا من بعيد وتردّدت بالاقتراب ثم اختفت. الابتسامة لم تفارق وجهها الجميل الذي يحمل عينين زرقاوين تكادان تثقبان وجهي لأرى بعد قليل لونهما الأزرق على كلّ شيء. قالت وهي لم تفهم سبب برودي، تعرفني بأنها جهينة وبأني أعطيتها بكلة شعري وهي صغيرة، أتذكّرها حمراء العينين من الرمد. فتجيبني بأنهما لاتزالان تصابان بالاحمرار في موسم التين.

ضحكت لها رغم ضيقي لأنّي أكبرها سنّاً: «جبت بوكيه الورد بأودتك. حطّيتها غصب عن نعيمة وعن الكلّ».

تدخّلت نعيمة: «حاج تكثري حكي بركي اسمهان بدها تتروّق».

لكن جهينة صاحت آمرة: «ليش بتناديها اسمهان؟ اسمها أسمى.. اسمهان دقّة قديمة.. لا بدهاش تاكل، روحية ناطرتها مناطرة. ثم استدارت إليّ وهي تحاول أن يكون صوتها مسايراً: «شو بتروحي لعند روحية، ولما عرفت إنّك جيت واللّه زلغطت واللّه. بتموت على ريحتك واللّه». عاد جدّي وكان في المساحة القليلة قبالة المصطبة وقال هو يضرب كفّيه ببعضهما محاولاً نفض التراب. اليوم أعظم يوم لا سقعة ولا حرّ والدّنيا مندية اليوم كانت بتلوّن التفاح. آخ من هالدحنونات لح يجرحولي قلبي والست جهينة جرحتلي قلبي وخلصت».

كان صوت جهينة مازال يعلو وكأنه يستفزّني قليلاً. لكن نظري أبعد أفكاري هذه وحطها على ما يرى من غرسات خشخاش تميل مع النسيم الخفيف تبرق ببياضها وبلونها القرمزي تحت الشمس، وكان امتدادها دلق الألوان الغامقة على لونِك الأصفر والأخضر. كأني اقف لأوّل مرّة عند مأساة جدّي وجدتي ومأساتي ومأساتك، كأن كبدي فرط لأوّل مرّة وأنا أفكّر أنّ هذه الأرزاق لم تعد لأحد منّا. لم يعد هناك ضوضاء ولا صيحات المزارعين تؤنسك كما من قبل. لا شاحنة ولا جراف. وبيتنا الذي يقف مواجهتها الآن كأنّه بيت من جرد فقط، لا تدبّ به روح ساكنيه. ابتعدت أفكاري عن نظري واستوت عند البيوت البعيدة. كيف اعتاد الجميع على هذا الواقع؟ ولماذا لم يخدش هذا الواقع شيئاً إلاّ عندما خدش عيني؟ وأنا أرى السيّارات التي شقّت طريقاً لها بين بساتينك. تصدر عنها ضحكات وأصوات وأغنية تصدح: «خش معايا خش. نلعب تحت الدوش».

«لو حرقوها كان احسن... الخشخاش مثل السمّ يمصّ موّية التراب. بسرق الفيتامينات والحيوية».

جدّي خائف عليك. على عافيتك وقلبك. يشبهك الآن بالجلد الذي يبدّله الثعبان ويتقدّد تحت الشمس برمشة عين. بينما أتساءل لماذا استفزّني صوت جينة. لا بدّ أنّ جدّي علق في جبال شعرها.. ينادي

صوت جدّي المقهور: «آخ لو اجاني كم صبي لكنت فلّتهم عليهم مثل الكلاب، حتى ينهشوا لحمهم نهش. أي والله». قلت مازحة: «شفت الحق عليك ما كنتش تتزوّج على ستّي».

تدخلت جهينة: «بس صار عندك اخوه من أمّك وجوزها هيك قلتلي نعيمة».

– صار عندي ثلاث أخوة.

– صحيح انه أمّك سرقت حذاء عفاف بنت أحمد لما نامت عفاف عندكم ببيروت؟ يجيبها جدّي بضحكة: ليش حتى ما تسرقها؟ كانت سكربينة حمراء وبتلمع...

تتّجه جهينة صوبنا تشدّني منه قائلة: «يللا خلّيها تلبس، روحية ناطرتنا» فما كان من جدّي إلاّ أن أحاطها بيده الأخرى وقرب وجهينا كالمرّة السابقة وتوسّل: «خذوني عند روحية» ثم سألني بجديّة: «بشرفك بعد جمالك وجمال امك شايفة مثل جمال جهينة؟».

قلت أدير وجهي عن وجهه: «أوف يا جدّي فطّستني». بينما صاحت جهينة قائلة: «اتركني جاي عبالك شي عضة؟ «فوجئت بكلمتها هذه وفوجئت أيضاً بإحساسي بأنهما من عمر واحد. عجوزان أم شابان؟ دخلت غرفتي أبدّل ملابسي وقد عمّني الفرح لأنّي في الضيعة ولست في بيروت، وشعرت بشوق يطفح منّي فجأة لأنّي سوف أرى روحية بعد قليل. أخرج إلى الفسحة ما بين الغرف حيث المرآة أتأمّل وجهي في المرآة الوسطية القديمة التي تغطيها طبقة من الغبار. كأن هذه المرآة انسحبت عن دورها. لم يعد يرى المرء وجهه فيها. عندما مسحتها بقيت دوائر رمادية كأنّها طيور صغيرة هنا وهناك. عبرها رأيت طرفك ساكناً كما لو كنت مازلت بين أيادينا».

عزيزتي بيلي هوليدي

أفكّر بك وقد اعتدت على السير، ولم أعد أسمع لهاثي وأنا أحاول اللّحاق بجهينة.

ربّما لم أمش منذ دهر. أراقب قدمي. وقع قدمي على الأرض وعلى التراب، لم أمش مسافة كهذه منذ دهر.

الحرب حرمتنا السير مطوطحي الأيدي، بدلاً من أن نضمّها إلى صدورنا. نفكّر إذا كان ما نرتديه لائقاً في أعين المارّة والمسلّحين، والحواجز الفعلية الموجودة والحواجز التي هي في الفكر والتي هي أشدّ هيمنة.

أسير بارتياح وسعادة. لا شيء يمسّني الآن. لا محتلّو أراضينا ولا لوعة جدّي. يطلّ وجهك باسماً، وأفكّر كيف أنك لم تعودي تقوين على السير في آخر أيّامك. كان المخدّر الذي كنت تعيشين من أجله ينشّط الفكر ويأخذه في رحلات سباحة وطيران، بينما كان يهمل الجسم وخاصة القدمين. لم أعد أمشي في بيروت لا لأنّ الأرصفة أصبحت شبه معدومة، لا لأنّ الطريق أصبحت حفرات ونفايات، بل لأنّ الطريق يجب أن تنتقل بك من مكان إلى آخر، من جوّ إلى آخر، من إنسان إلى آخر. هذه كلّها أصبحت معدومه باستثناء أماكن تعدّ على الأصابع. السير أو عدمه. لا يذكّرني بك الآن. بل روحية التي أنا في طريقي إليها وما أراه أمامي وخلفي ومن يميني ويساري: الحشيشة الخضراء وقد انتشر شذى رائحتها. أفكر لو اعتدت أنت على الحشيشة لكنت ممتطية الحصان. لكنت مازلت حيّة، لكن حصان المخدّرات ركبك ولم تعودي تفهمين إلى أين كان يقفز بك.

الحشيشة، وزهرات الخشخاش هي الممتدّة أمام ناظري، متروكة للشمس في السهول وحتى من على جانبي الطريق. تتمايل الغرسات الخضراء والقرمزية والبيضاء وكأنها شجيرات اللوبياء والبندورة. بقربها نربيش الماء الذي يمتدّ بين التراب والحشائش اليابسة وكأنّه أفعى، إبريق فخّار مطروحاً إلى جانب علبة الصفيح... كلاب تعوي، كلب يعوي، كلب آخر. تبادرها جهينة: «هيدا بعد اللّي ناقصنا... كلاب نجسة تعوي علينا وصارت حرّاسنا.. تنحني تتناول حجراً ترشق بها الكلاب وهي تشتمها.

رأينا بقرات ناعسة، نستأنس لمنظرها ولوداعتها وتعلّق جهينة بأنّ هذه البقرات تستذوق طعم الحشيشة.

تنحني جهينة من جديد تتناول حجراً وترميه. تكتفي البقرات بالتحديق بالأفق لتميل رأسها من جهة إلى أخرى. «مش معقول تقوم إلاّ بجهد جهيد». وكانت رائحة الحشيشة أخذت تنفذ إليّ. ضحكت جهينة: «هيك اخوي الصغير كتب في موضوع الإنشاء عن الربيع – قال انو ريحة الحشيشة عطرة، وانها بساط سندسي أخضر جميل».

الحشيشة أصبحت أينما كان في الضيعة. تشير جهينة إلى منزل العجوز التي ماتت من غير أن تدري أنّ الحشيشة أصبحت مزروعة بأرضها حتى الدرج. «ما هي الحشيشة اسم الله عليها مثل حبوب الفول... وين ما بترميها بتجي واقفة. أختي زرعت بذرة طلعت بيوم. الحشيشة مثل الطابة، طجّيها وبتجي واقفه، يقصف عمرها. يمكن تتحمّل حتى الساحل!».

يتّجه نظري إلى الأفق، والهضاب الوعرة تمتدّ عند ناظري. تكاد تكون جرداء، كذلك بعض الأراضي. ثم أتبيّن درباً ضيّقة في جبل، كان جدّي يشير إليها مؤكّداً أنّها ستصبح سكة ترام وكنت أصدّقه. أرى بعض غرف الفلاحين. دائماً بيضاء. مكلّسة الجدران. إلى جانبها عريشة العنب تلصق بالنافذة. عند مدخل أحد البيوت سيّارة أمريكية، ثم غرسة حشيشة باسقة كأنّها شجرة. امرأة تقف بالقرب

من زوجها تسألني عن أمّي وعن بيروت وإذا كان النّاس هناك بلا كهرباء. عندما سحبت يدها من يدي ووضعتها على صدرها كانت أصابعها سوداء، وجافّة. كانت أم كامل التي أصبحت الحشيشة هاجسها ومع ذلك فهي دائمة التحسّر على الماضي: «يا ريت من زمان استهدينا على الحشيشة، شو كنّا مجانين عم نزرع كوسى وباذنجان». ابتسم لجهينة وأنا أفكّر «ترى كيف اكتسبت هي ثقة النفس هذه. وهي تتصرّف إزائي كأني لا أكبرها بسنوات. وكأني لست أسمى ابنة... وكأنّي لست متعلّمة، وكأن ملابسي لا تشكّل لها أيّ إعجاب. كأنّ ثقتها بنفسها هذه زعزعت ثقتي. لا بدّ أنّي أبدو أمامها كبيرة السنّ، فاتني قطار الحياة وبأنّ عائلتي فاتها أيضاً كلّ القطارات.

قلت وأنا أستوحي صفة جدّتي، أي أنتقم لنفسي بمجرّد أن أتفلسف على سواي فأقول: «الجفاف والطقس هو الذي ينعش الحشيشة والخشخاش»، «كأنه بعشعش بعروقها سبحان اللّه»...

أسكتني جوابها وجعلني أحيد عن الطريق لأنحني وأقطف خشخاشة بيضاء. وقد فاجأتني كثرة الفراشات والنحل عليها.. ولدهشتي هجمت جهينة تقطف المزيد قائلة: «ولو بتقطفي واحدة! شو بدها تعملك واحدة! بس انتبهي من جدّك واللّه إذا شافها بياكلك بلا ملح».

كأنّ الأفق أصبح قرى أخرى. والدروب تبدّلت. أرى بقعاً سوداء على الأرض وعلى ا لحجارة. لاحظت جهينة أين تسمّر بؤبؤ عيني إذ قالت «أثر من الفدائيين». عندما سألتها عن الأحزاب الأخرى أجابت ضاحكة: «بيروحوا ياكلو بالبيوت أو أهلهم بيجيبو لهم أكل».

عندما أصبحنا بين السهول، متّجهتين إلى الحارات الفوقيّة، أخذت الألوان تنادي. رغم خطوات جهينة العجلة وجدتني أتباطأ، أستأنس بما أراه، حتى لمنظر الدبّابة السورية وفوقها جنودها الذين كانوا مستسلمين للنعاس. أتساءل كيف تمنّيت البارحة لو أعود إلى بيروت بدلاً من أن أكون ممتنّة لأنّي بعيدة عن حزبي اللّه وأمل ولأنّي

استحمّ بالماء الذي يأتي ساخناً من الشمس التي تضرب قسطل الماء، ولأني استنشق الفضاء.

ما ان وجدت نفسي بين ذراعي روحية، حتى عاد وجهك - بيلي هوليدي يبتسم لي. فأنا منذ أن أدمنت عليك اكتشفت أنّك تذكّرينني بروحية. لا بالوجه والأسنان، ولا بالعينين ونظرتهما الموجّهة اللوم دائماً، بل بشخصيتكما، وصوت كلتيكما كأنّكما خُلقتما من بطن التراب، أنت من تربة فيها جذور نبات القطن والشوك، وهي من تربة فيها الحجارة والدبش والرمل الأحمر. وتكوّنتما، أنت من الرطوبة والشمس وهي من الجفاف والشمس. نبتّما من كثرة ما سمعت تربتكما من تهدّج وحزن، من كثرة توقكما للمطر، للماء، لسطح الأرض وإذا انتما تكتشفان حقيقة السطح. عشقتما الرجال من زمان. وأنت تسمعين لهاث المغنّيات يدور ومرّة ثانية في إبرة الأسطوانة السوداء التي تصعد وتهبط وكأنّها تدور كالكرة الأرضية. كأنّها تسبح في البحر المستدير... وهي من أصوات المآذن والألحان والمراثي.

لم تستعينا بالقلم، تكتبان فكريكما في فكريكما. التعامل مع سطح الأرض وكلّ ما فيها يناقض حساسيّتكما، تصدحنا بصوتكما تغنّيات عن الواقع الذي تعيشانه، لا كما تتخيّلانه، يأتي أحياناً صوتك من بيته الذي في الحنجرة، بعد أن ينام كلّ جزء فيك وهو نصف نائم... وصوت روحية؟ لن أكرّر نفسي انه صوتك.

قبل أن تفتح لنا روحية بابها الخشبيّ، الذي شقّقه الزمن، زغردت، وعندما فتحت الباب قبّلتني وزغردت من جديد. أمسكت وجهي، نادتني بحبيبة القلب. بنور العيون. بغزالة الجفون، وجدتني أخجل من هذه العاطفة الصادقة المتدفّقة عليّ. أجبر نفسي حتى أنظر إليها متحدّية خجلي، ورأيت العينين الذكيتين الذابلتين، كأنّ صفحة مياه تغلّفهما، والسمرة الداكنة والشفاه الغليظة والأسنان تبدّكت!! تستدير إليّ جهينة: «شو قلتلك عن اسمي؟ مش قلتلك الدنيا بكفّة وأسمي بكفّة واللّه سلالة سلالتها لم تخلق ولن تخلق مثلها... النّاس بتحكي بعائلتها وأنا بحكي فيها. يا أسمى العيون... شو هالغيبة الطويلة؟

وكأن استقبالها الحارّ لي جعلها تطلب سيكارة. تخرج من عبّها تنكة صغيرة فيها الأوراق الشفّافة والتبغ، تلفّ سيكارة وتشعلها، تنفثها ثم تزفر الدخان قائلة: «خي، مافيش إلاّ طعمة السيكارة. اللّه أخذ لي كلّ شيء وترك السيكارة. بدّك لفّ واحدة؟».

أجيب ضاحكة: «لا. بدي كوز رمّان» تضجّ روحيّة من الضحك: «كانت جميلة مثلك. والآن لم تعد جميلة مثلك أيضاً. أصبحت أسنانها بلون التبغ وقد فقدت بعض أسنانها. شفتاها مازالتا ممتلئتين سمراوين. الشامة الزرقاء الكحيلة وكأنّها شامة غجرية عند الشفة السفلى.. تمجّ السيكارة وتسألني عن أخبار بيروت وأخبار جدّتي وأخبار أمّي. وعن أخبار فضيلة، ثم تصرف هذه كلّها عندما تجدني أتلكّأ في الأجوبة قائلة: «لا بأس.. الجميع بخير الكلام يؤلم الفم.. الجميع بخير، الذي ليس تحت التراب هو في ألف نعمة.. لكن أين حبيب القلب؟». «وقبل أن أبتسم لها لأعلّق على ما قالته تلتفت. موجّهة الحديث إلى جهينة: «أنا عرفت. لما بتجي أسمى، بدّك تبطّلي شايفة حالك وبدّك تسكتي، شفت كيف صرت متل كلب التوتو؟» وتضحك عالياً، وتشهق وتسعل والسيكارة لاتزال بين شفتيها وتكمل ما أن توقفت عن السعال: «معليش ناس بدها تشرب شاي وتاكل بسكوت».

لا أفهم مباشرة ما تقصده رغم أنّي تكهنت بأنّها تلوم جهينة. لكن نبرة صوت جهينة التي كانت أقرب منها إلى الصياح جعلتني أفكّر بأنّ هناك أكثر من اللوم. وقبل أن أستوعب ما حصل أصبحت جهينة عند الباب: تلوم روحية على فظاظة لسانها!.

... لحظات مرّت وكأنّ روحية ندمت خلالها على إغضاب جهينة لتقول لها بتودّد: «لوين رايحة بطقة الشمس»، وعندما لم تتراجع جهينة نهضت روحية تثنيها عن عزمها ونهضت أنا خلفها، لكن جهينة تسرع خارجة. نادتها روحية: «يللا ارجعي فوتي، انت قلبك طيّب. تعي حتى راضيك وتعي حتى ماشيك. يللا. ما الواحد بحب يمزح يا شيخ».

لكن جهينة تختفي، تعلّق روحية وهي تغلق الباب وراءها بأن جهينة سترضى بعد قليل.

هي وجدّي مش هيك؟؟».

تضحك روحية. بدا فمها واسعاً، بانت أسنانها وشرايين حلقها وثغراته التي تشبه الكلل البلورية.

«واللّه أنك انت مثل الخلد، بتشمشمي متل الكلاب - بعيد مِن هون. ضبطيهم يا ملعونة من أوّل نهار!».

أشعر بالحرارة، وكأنّي تحوّلت إلى كرة من عرق وخفقات قلب وارتعاش، تتحدّث روحية بهذه البساطة عن علاقة جدّي وجهينة، وكأنّها واقع. كأنّ جدّتي ليست أمامي الآن وكأنّي لا أحاول أن أرى وقع هذا عليها. أبعد هذه الصورة، أنا أعرف جدّي أكثر ممّا تعرفه روحية وجهينة. ما بين جدّي وجهينة لا شيء، غير اللعب والمزاح. تحاول روحية أن تتذكّر المرّة الأخيرة التي التقينا بها معاً:

«زمان.. واللّه زمان.. أي واللّه زمان... لمّا صار يمزح معك وأنا خانقته لأنه رفع الكلفة معك. فاكرة؟ يا حرام الشوم! كنت عاملة بوليس أي واللّه ولا أتأتورك».

أهزّ برأسي، كنت قد أيقنت وقتها أنّ الغيرة منّي كانت خلف عتابها وجرحها لزوجها عندما أخذ يمازحني ويطلب أن يمسك شعري.

«اللّه عليّ» شو كنت عذبو... اللّه عليّ. وهلّق اللّه عم يعذبني». تقف فجأة ويدها عالية، كأنّها تلوح بها يمنة ويسرة وتبتسم وهي تصدح: «نحنا الأرامل وحزننا جوّانا، نحنا الأرامل وحزننا جوّانا»، أتأثّر لحركتها هذه التي فجأة توقّفت عن الاسترسال بها وكأنّها تجبر نفسها على ذلك، تمسح وجهها بكفّها تبدّل الموضوع: «شو بتشربي وشو بتشربي وشو بتشربي غير ريق قلبي؟»...

أضحك لها. لكنّ صوتها يصيح باكياً:

«ما أنا نزفت كلّ دمي عليه لمّا مات. ولو ما هالسيكارة لكنت

صمت أشهر. واللّه أخذت حبوب حتى ما تجينيش العادة، وما اقطع الصيام. بس هالملعونة بتجي عبالي». وهي تنظر إلى السيكارة تنهض متّجهة إلى الباب وتردّه بالمزلاج الحديدي من الداخل.

«اللّي مجنّني ومطيّر عقلي انه كان حاسس عم بموت. كان كل ما يأخذ حبّة ضد المشروب يقول: «عم تموتيني، عم تقتليني» وعيونه كانوا يصيرو مثل عيون الضفدع».

تبكي. تأخذ وجهها بين كفّيها وتبكي.

«اللي قهرني هو أخوه، ما قبلش يعمل عزاء عنده قال ان ابنه شاب وبالجامعة وبدّوش يصيبه بالعين، حرام على هالعقلية. عملنا العزا هون، يللي قعد بالجنينة ويللي وقف برّه. خلّيها على اللّه. بتعرفي نفسية الناس بالموت أي واللّه.. مش بالحياة: واللّه امي، معها حق.. كانت دايماً بتقول: «متكله على اللّه وعلى الخزانة».. أي، الخزانة فيها أغراض، والأغراض حقها مصاري».

أدمن زوج روحية على الكحول. العرق والبيرة والكونياك والويسكي ثم السبيرتو، ثم الكولونيا.. في المساء. في الفجر، عند الظهر، بعد الظهر، وعند الغروب. إدمانه هذا جعلها تدخل لسانها، تقفل فمها، تقلّص رأسها وتدخله بجسمها كما السلحفاة. لم تطق أن تصبح في بئر معتمة: لم تعد تفجر بصوتها أمام لوعة أهل الموتى، فتستفيض أو تخفّف من أحزانهم في آن. ولم تعد تجد أنّ من حقّها أن تنشد مراثي الحسن والحسين كما كانت، والجميع يعرف بترنّح زوجها. فهي دابت بصوتها المتهدّج الحزين على أن تجدّد مأساة عاشوراء كل عام. تذكر بالظمأ الأبدي. رنّة صوتها باحثاً عن الماء المفقود، المشتهى ليبلّل ريق العطشى. صوتها كان نورها في الحياة. صوتها كان امتداداً للفم الذي اكتشف أنّ وظيفته ما هي الأكل والتداول في تفاصيل الحياة وعلى رأسها القناعة التي تتّصف بها نساء القرية والنساء عامة. صوتها هو الذي كان يميّزها عن كلّ النساء حتى نساء بيروت. فمها كان العورة. هو جنسها.

ومع ذلك كان عليها أن تهمده لأنّه لم يعد حرّاً طليقاً يقتصّ من هذا وذاك. بل اعتلاه شوك يغزّ في لسانها كلّما همّت بالصدح.

اللّه عليّ أنا اللّي خلّيتو يحب الكاس. ما انت عارفه كنت اشرب عرق بالسرّ. من لمّا عرف اني رفضته لاني كنت احب ابن خالتي كان برأسه عقل وطار، وما عادش يحبّ يقرّب منّي.. قلت كاس عرق. بخلّيه يتدودخ ويترخرخ ذهنه ومتى ما ارتاح الذهن نشط الجسم. آخ. آخ، مثلو بعد ما صار ولا بصير ريقه احلى من أطيب من أحلى عصير».

ثم وكأنّها لم تكن تبكي منذ لحظات، يشعّ وجهها من جديد وهي تضحك لي: «اللّه يخرسلي لساني، شو عم بتغزل – باللي تحت التراب وانت قدّام عيوني:

يا اسمى وياسمهان اسمك عاطول دوم علساني
وحبي إلك حب عمياني بصلّيلك انا حسب إيماني
بشوفك قبالي بفستان العروس قبل ماز يت الفانوس ينوس
بإيدي أنا بدي دقّلك وبإيدي أنا بدّي قوصّلك بالكلاشنكوف».

أقول لروحية ضاحكة خجلة أبدّل الموضوع: «انت زرعت حشيشة أو خشخاش؟».

يعود فمها كمغارة واسعة وتتساءل: «عبالك؟ بكره بتكون بانتظارك».

كنت قد حافظت على صداقتي مع روحية رغم فارق السنّ بيننا وكانت تحرّك في جدّتي وزمزم الشعور بالغيرة. بينما صداقتنا هذه كانت تحير أهالي الضيعة. فكانت كلّما زارتني في بيروت، عرفت كل الضيعة استعدادها للمجيء وهي تحضّر لي المشاطيح بالزيت، ثم أكواز الرمّان وخبز المرقوق واللّبنة المكعزلة ومواويلها الجديدة. وأنا بدوري كنت أفرح بها وآخذها معي إلى الجامعة، إلى السينما، إلى المقهى... اجبرها على قضاء اللّيل عندي بدلاً من الذهاب إلى أقربائها حتّى اني عرفتها بحياة وبأصدقاء الجامعة ثم بناصر في

سنوات الحرب. كنت قد تعلّقت بروحية منذ صغري عندما جلست قبالتها أمام طشت الغسيل متمنّية أن أجلس إلى الأبد أمام هذا الطشت وأمام يديها وهما تفركان وتعصران، وهي ترندح بالمواويل. كانت تحاكي كلّ ما أمامها حتى السحلية إذا مرّت. تشرب القهوة بدل الشاي تجلس تحت شجرة الرمّان، بعد أن ترشّ التراب بالماء حتى نشعر بالبرودة».

عاماً بعد عام جعلتني روحية أطلّ على حياتها. وبالتالي لأكتشف من غير أن تدري سرّ انجذابي لها وعمري لم يكن تخطّى العاشرة. كيف حدست هي أنّي أهل لثقتها ولصداقتها رغم سنواتي الصغيرة؟ لا أعرف. كيف مدّت صبر بالها عليّ وأنا آتي إليها كل يوم، رغم مشاغلها، خاصة وأنّ أمّها الصعبة المتطلّبة كانت لم تزل على قيد الحياة.. فتنت بها منذ أن راقبتها وهي تتلو مراثي الحسين وعاشوراء خاصة عندما بكت وهي تمثّل ظمأ سِتّنا زينب. لأجد نفسي أبكي. وقد صدّقت أنّ روحية عطشانة ووددت لو آتي لها بكوب ماء. كأن غبار كربلاء الذي وصفته بات فوق شفتيها وصدغها. لتجعلني أزيد من بكائي لدرجة أنّي اخذت أشهق، والبنات اللواتي كنّ من عمري ظنن أنّي أجهش في الضحك كعادتنا كلّما حشرنا أنفسنا في مجالس التعزية في عاشوراء مع الصبايا والنّساء، إذ كانت هذه المجالس بالنسبة إلينا نزهة ليلية وفيلماً سينمائياً نرى فيه النّساء خاصة العجائز الباكيات وكأنّهن شخصيات كوميدية. فنشهق ضحكاً، مخبئات وجوهنا بأكفّنا، صوتها كان يغصّ من غير أن تبكي، يئنّ، إنّما تسيطر على أوتاره. ولم تفارقني روحية ليلتها. بل إنّها تركت انطباعاً حزيناً أردت أن أتخلّص منه بزيارتي لها في بيتها في اليوم التالي حتى أصدّق بأنها إنسانية كالأخريات، لا تبكي طوال الوقت بل إنّها تأكل عن صدر القش الباذنجان المقلي. لكنّي كنت محقّة، لم تكن كالأخريات، لم تكن تمثّل الحزن. إنها تعذّبت نفسياً، عايشت آلاماً تركت جروحاً على روحها. عندما تزوجت كان قلبها مع ابن خالتها الذي أحبّته. حاولت أن تعارض زواجها بالموّال:

«يا أمي ويا ميمتي، شوفي جفني كيف انتفخ وشريان عيني كيف انسلت كيف بدّك تتركيني وعن بزّك ما قيمتيني

مين بدّو يجرشلك عالطاحونة ويطبخلك معكرونة».

فأجابتها أمّها: لا بدّي اجرش ولا بدّي معكرونة.. تعملي احسن خدمة في.. انك تفلتي عني: بدّي أكل فراكة بلحمة هبرا ومقلية».

صدحت روحية: «بكره بتقولي آخ آخ. وبتردّ عليك الحيطان. بح، بح، الأمّ بتربّي وبتشيخ والبنت بتستوي وبتطير».

حاولت أن تهرب من الزوج، إلى الكروم، إلى الحاووز، إلى بيت عمّها. نجحت في الزوغان لمدّة شهر، إلى أن أوصدت عليها أمّها وزوجة عمّها الباب ذات صباح. لتمسكها بها من يديها وقدميها. رغم قوّة روحية إلاّ أنّها لم تقاومهما طويلاً. لم تكن تصدّق أنّ زوجها سيكبّ فوقها. أمام أمّها وزوجة عمها. لذلك همدت تنتظر معهما. عندما رأته كالكلب الجائع أمام قطعة من العظم شعرت بالفضول وبالشهوة: «وما أن ركب فوقي حتى ما عرفتش شو صار لي وصرت نادي: «شيلوني نار عم تكويني». وامي وزوجة عمّي دايرين وجوههن عالحيط عم يبكو، لأنه مفكرين عم موت من الوجع ومن الرفض. وقد اعتادتا عليّ وأنا أصرخ «لا. لا. لا. لا أريده... من غير سبب». أخذت تصيح أنّ الدبّور يعقصها.. عندما استفهمتها وقتها ماذا تعني بعقصة الدبّور والنار فرقعت روحية من الضحك حتى هرّت دموعها وخاطبت نفسها وهي تضرب فمها بيدها: «لا حول ولا قوّة... لازم حط دبابيس بتمّي. ما انت بعدك ولد، وأنا عم فسّدك، شوفي شو عم خبرك، بس يخزي العين الواحد بينسى انك ولد ولا كأنه عمرك عشرين سنة.

عادت وفرحت بأنّها تزوّجته. اكتشفت أنه يحبّ صوتها، وقوّة لسانها وحجّتها الدائمة وتنهّدها ومزاجها. كان يقول لها بأنّه يفضّل رائحة السكائر المنبعثة منها على الروائح الأخرى: النظافة والوضوء والعطر. وأنه قد أعجب بها لأنها كانت الوحيدة في الضيعة التي تجرّأت على التدخين جهراً. وكانت ترفض فتح بابها

لكل طارقة مدّعية تارة المرض وتارة التعب. مفضلّة الخلوة فتصرفه عن عمله ليبقى إلى جانبها. لكنه بقي يحثّها لتخبره عن رفضها له في البداية... وهي تتدلّع وتكذب وتتهرب إلى أن قالت له مرّة عن السبب الحقيقي، عن حبّها لابن خالتها في بيروت.

عندما كنت أزورها، كانت تشمّني قائلة: «دخيلك دخيلك خلّيني شمّ بيروت وريحة بيروت وأهل بيروت». عندما كنت أسألها إذا كانت تعرف بيروت، كانت تتنهّد قائلة: «ما هي اللي سرقت لي قلبي». عرفت بيروت منذ أن ذهبت إلى بيت خالتها لتساعدها في شغل البيت لقاء مبيتها عندها لتتعلّم فنّ الخياطة لدى خياطةٍ أرادتها أن تفقّي حصوص الثوم أكثر مما علمتها الخياطة. مع ذلك تحمّلت روحيّة لأنّها أصبحت عاشقة لابن خالتها، الذي شعر بمعاناتها من سوء معاملة أهله لها وهمس بأذنها ذات مرّة: «حرام هالجسم، ما يلبس إلاّ من سوق سرسق. وهالاجرين إلاّ من عند باتا. وهالسنان البيض اللي متل اللّولو حرام ما تفرشيهم بالفرشاة والمعجون بدل ما تفركيهم متل امي بالملح والمي». ومداراة لخجلها ولأنّه اصطاد نقطة ضعفها، زادت من بكائها وقالت وهي تنوح وتضرب وجهها: «من وين بجيب ربع ليرة اشتري فرشاة أسنان». ثم وجدته يعطيها منديل جيبه ويقول لها بكلّ حنان: «أنا بعطيك معليش حاج تبكي». وكأنه ندم أو خاف من لهجة صوته، فرفعه قائلاً: «أنا لح جبلك فرشاة أسنان، خلصينا حاج تبكي» وأتى لها بفرشاة أسنان، وبدفتر وبكتاب وبقلم. وأخذ يعلّمها أن تقرأ الوقت في الساعة مبتدئاً بعقربي الساعة الصغير والكبير ثم كيف تضرب أرقام التلفون وأشياء أخرى.

أحبّت ابن خالتها رغم انها تكهّنت وهي تدرس ما كان يمليه عليها بأن هناك ما كان يفصل بينهما: الكتب الضخمة التي يحملها تحت إبطه والتي ينقّب في صفحاتها في الليل. هذه الكتب حملت بعضها ذات يوم وسارت بها قاصدة سوق النورية إلى جانب سطيلة غذاء زوج خالتها. لأن الكتب في حضنها شعرت انها تختلف عن كل من تراهم في الترام، تأكدت من أنّ هذه الكتب ومضرب التنس

والطابات البيضاء والجوارب البيضاء السمكية والتنس شوز الأبيض خاصة هي التي كانت تفصل بينهما. وفي المساء ذاته فتحت سيرة أمنيتها بالالتحاق بمدرسة حوض الولاية القريبة من البيت أمام خالتها وهي ترى نفسها عائدة من المدرسة بالمريول الأسود وحول رقبتها الياقة البيضاء وقد طرّزت فوقها الأرزة الخضراء.

لكن خالتها فاجأتها بأن فتحت موضوعاً آخر، موضوع عودتها إلى الضيعة مستهلّة: «بيروت خراب بيوت... صرت تمسكي المقصّ والإبرة والعرسان ناطرينك» لكن روحية سدّت أذنيها وأكملت أحلامها. وسألت خالتها برجاء أن تسجّلها بالمدرسة الرسمية. تجيبها خالتها: «ما انت عمرك صار سبعة عشر سنة وبالسرتفيكا. كيف بدّك تدرسي مع بنات أصغر منّك، هو البنات شاطرات. بدّك يضحكوا عليك ويقلولك يا كبيرة يا هبيلة ما في غيرك شنتيرة». ولم تيأس روحية بل فكّرت أن ابن خالتها سوف يعدّها لامتحان شهادة السرتفيكا.. لكنّه لم يعد مواظباً على تعليمها، أو شراء الكتب والدفاتر لها. انه يتبدّل، لم يعد ذلك الحنون، ولم يعد ينتهز الفرص للاختلاء بها عندما أخبرته عن ترك أمّه البيت لزيارة قريبة لها كانت تسكن بعيداً، لم يعد إلاّ في المساء. بعد أن جلست تنتظره مع أفكار فار لها دمها. أفكار غير معقولة تتزاحم على العينين والبال. ترى نفسها وقد خلعت ملابسها وتمدّدت أمامه. ورأت نفسها تشدّه إليها وتغتصبه وتحمل منه. ثم ترى الشيخ يقرأ الفاتحة ثم ترى نفسها وهي تجلس في بيتهما وبجانبها تلفون أبيض.

بعد أشهر فاتحتها خالتها بالأمر وهي تبصّر لها في فنجان القهوة، قائلة: اللّي بفكرك منّو بدّو يتزوّج من شقيقة صديقه، وشايفة مكنة سنجر جايبها كميون عالضيعة وشايفة مصاري بجيوبك. واختي عم تشتري لحمة وبتاكل فراكة». لكن روحية هزّت كتفها متصنّعة عدم الاهتمام. غير أنّها شعرت بالاختناق لما ترمي إليه خالتها. وعندما سألتها خالتها: يللا بتروحي عالضيعة يوم الجمعة لروح معك»، أخذت تبكي وتطلب من خالتها أن تقنع ابنها حتى يتزوّج منها. لتشهق خالتها قائلة:

«أحب ما عليّ ياخدك. ما انت متل بنتي لكن لم يعد الجبر ينفع هذه الأيّام».

ولم تدر روحية كيف مضى عامان آخران. كأنّ الانتظار من طوله يبلع الوقت. فهي كان تنتظر دفئه ونظراته. وفي الوقت الذي كانت تشغل نفسها بالخياطة، اشترت لها خالتها مكنة خياطة لتخيط الستائر وبيتاً للراديو وآخر للتلفزيون، ووجوه بيوت جديدة للمقاعد. وأغطية للأسرة وتبانات وقمصاناً لأولاد خالتها... كانت تجد نفسها وهي تهزّ قدميها لتدرز الإبرة فوق القماش كأنّها تدرز جملاً في رأسها، تنتهي كلها على نغم واحد، كلّما قالتها على مسمع من الجارات تسمع ضحكاتهن فتعرف أنّها لم تكن تدرز الكلمات جيّداً خاصّة عندما تصيح بأعلى صوتها.

يا تقبروني طالبة من اللّه صحتكم...

وفي كل أشغالكم ربّي ينجّحكم

بس ليش وافقت وتركت الألف والياء عشانكم

ومفاصلي قاعدة بتنحل كل ما فكّرت بعملتكم

ما فيني قلكم غير الله يسامحكم».

ولم تيأس روحية حتى عندما أنهى علومه وتخرج وعقدت خطوبته ثم زواجه من صبيّة بيروتية. ورقصت في عرسه على أغنية: «دقّوا المزاهر يالله، يا اهل البيت تعالوا». بينما حوّلت الأغنية في رأسها إلى: «دقّوا الحجارة ياالله يا أهل البيت براسي» ومع ذلك فهي لم تتوقّف يوماً عن التفكير بالأشعار والأقاويل. كانت إذا فكّرت بها وتلتها شعرت بأنّها قريبة منه، وبأن حزنها يزداد وهي تقولها. ليهمد بعد ذلك. ولم تعد إلى القرية إلاّ بعد أن ا لتحق ابن خالها بوظيفة عالية الشأن في بلد عربي وسافر إليه. أخذت تتحدّث في الأشهر الأولى عن بيروت وكأنّها كفّها، وواظبت في البداية على هندامها وعلى انتعالها للكعب العالي الذي أخذ يتحفّر بين الحجارة والتراب. وكانت ترضى أن تحقن الابر، وتداوي الجروح مقابل لا شيء. كانت

أوّل ما تقرأه في الجريدة التي واظبت على شرائها بين وقت وآخر كلّما نزلت إلى ساحة الضيعة أخبار البلد العربي حيث ابن خالتها. رافضة كل من يتقدّم بطلب يدها واحداً واحداً. وكان معظم الذين تقدّموا للزواج منها مدرسين يعلمون في القرى المجاورة ومن بينهم رجل بيروتي كان يصادفها في حيّ خالتها. لكن أرادت عريساً كابن خالتها أو من هو في مستوى وظيفته، بعد وقت لم يعد يتقدّم إليها أحد أصبحت هشّة الصوت تصدح بالأشعار والمواويل والمراثي، تلفّ السيكارة، تسعل وتفرز بلغماً كالرجال، غير مهتمّة لمن حولها، تضاحك من هم أصغر منها سنّاً، خاصة ابن خالتها الصغير جواد الذي اكتشف عندما أصبح في سن المراهقة ان ابنة خالته، التي كانت تلبسه مريوله وتبكّل له حذاءه قد تركت عليه أثراً. وأخذ يأتيها في عطلته الصيفيّة ويلازمها مصطحباً أصدقاءه.

وأخذ بيتها يعجّ بالمراهقين، يدمنون على كلامها وزيارتها، تضاحكهم، تؤنّبهم، تنصحهم وأحياناً تجد أصابعها تداعب شعرهم، تغنّي لهم.

«لقيت حالي بالليل بتونس بسراج الليل

شكرت ربّي وحمدتو على اللي بعتو بها الليل

وان كان هو قد اللقمة

بالقليلة بيضوي العتمة

بس لما عطشت واشتهيت بلّ ريقي

قام طرزان ونط عتمّي.

تفتح روحيّة باب الحديقة الخشبي فيدلف النور ويظهر أثاث بيتها كما كان. اتبعها، أخطو على عتبة وأنزل إلى الجنائن المعلّقة كما كانت تطلق عليها «أو فسحة التراب الصغيرة» والتي كان في وسطها شجرة رمّان واحدة تحمل ثمارها حتى على أطراف أغصانها.

«رزق الله يا أسمى، لما كنت تقعدي على العتبة. أنا فقّيلك أكواز الرمّان وانت تاكلي».

عندها ضحكت، مدّت يدها تضعها على ركبتي: «يا ست الحسن ومهجة الفؤاد شوفي مافي؟».. قلت وكأنّي تلميذة مؤدّبة: «ما في شي إلاّ الخير». «ولو، كل هالجمال وهالدلال ومافيش شي»! دار بعقلي سيمون وفلان.. والمراسل الأجنبي حتى ريكاردو. وهززت كتفي: «الكلّ يسأل إلاّ أنت. زواج ومواج، ما في حدا بدو يحبّ أو يتزوّج. يوم بشتغل وعشرة لا. بس بنقع شعري بالزيت. وبغسله بماء البابونج، وبحط طرابيش كوسى على وجهي وبتحمّم بكريمات جوز الهند. لا أكثر ولا أقلّ».

تضحك: «أنا عارفة انت ناطرة جواد ابن خالتي. ليش ما بتسافري لعنده؟ لما بدو يشوف وجهك راح يجنّ، واللّه ما بكون اسمي روحية إذا ما جوّزتكم لبعض».

شعرت بالخجل. كنت أعرف كيف تفكّر روحيّة. وكانت وقتها تنظر إلى صدري.

نسمع جهينة تصيح من الخارج، «شو؟ ممنوع الدخول، خطر الموت؟». ضحكنا على جملتها الفصيحة هذه وهرعت روحيّة فرحة إلى الباب تفتحه قائلة: «واللّه بنت حلال». ودخلت جهينة بكل ثقة تضحك هي الأخرى قائلة: «طبعاً بنت حلال. واللّه كرمال أسمى رجعت، يلاّ بدّي آخذها مشوار. بدّي فرجيها الكوافيرة والقهوة والمطعم هي سألتني الصبح عنهم. مش هيك يا أسمى؟».

في قلب السهل مشينا، بعد أن تركنا الحارات الفوقية. الهواء الساخن يلفح الوجه، استأنس له وأتمنّى أن يزورنا الحرّ الصحراوي. وبدلاً من الطرق الملتوية القاحلة امتدّت الفلل والبنايات والسيّارات الفارهة الواقفة في الشمس. كل هذا في ظرف عامين؟ المقهى له لافتة نيون. لا بدّ أنها تضيء وتطفئ في الليل رائحة شواء اللّحم الشهيّة تنبعث منه إلى الأنف. الدخان يطير على الطاولات والكراسي وعلى حبل غسيل منشور يظهر في الزاوية رغم محاولة

تغطيته بالحشائش المجفّفة والقشّ. أعرض على جهينة أن نجلس على طاولة ونتناول طعام الغذاء. تتردّد قائلة أن روّاده الآن من الرجال أمّا البنات فيأتين في ساعة متأخّرة من بعد الظهر.. ثم ندور حول المقهى حتى باب البيت. نرى سميرة التي كانت تشوي فوق الموقد، لتتأمّل بنا وتقبل جهينة ثم لتقبلّني وتقسم علينا لأن نتناول طعام الغداء معها في الداخل. وعندما لمحت جهينة إلى أنّي أريد أن أجلس في المطعم – المقهى، هزّت سميرة رأسها كأنّها ترفض رفضاً قاطعاً وقالت: «يا عيب الشوم على هالحكي».

ولم أستطع أن أقنعها كيف أنّي الآن لا أصدّق بأن في الضيعة مطعماً ومقهى وبأنّي فضولية لأرى كيف نطلب وكيف يأتينا الطعام. ويبدو أنها كانت الوحيدة في البيت والمطعم معاً. إذ تمنّت عندما سمعنا فرامل سيارة قالت: «أن يكون زوجها حتى يعاونها». لكن تتوقف سيارة كاديلاك سوداء ضخمة، فتهرع جهينة تنادي من يقودها وتطلب منه أن نركب معه بينما تبتسم سميرة قائة وهي تبعد عن وجهها دخان الشواء بأنها بنت حلال اهتمت بجدّي في غيابنا ثم لتسألني: «انتو امبارح وصلتو مش هيك. واللّه واجبي روح سلّم على ستّك».

تعود جهينة قائلة: «يللا شوقي راح يوصلنا عالبيت». ولم تمانع سميرة، كأنّها نسيت دعوتها لنا. لم أبال أيضاً، إذ أردت أن أركب هذه السيّارة التي لا تمت إلى هذه السهول، غير مصدّقة أنّ البنات أصبحن يتجرّأن ويركبن مع الرجال.... أثناء مراهقتي لم يكن هناك سيّارات خصوصية سوى سيارتنا. ثم سيارة العائلة التي لا تسمّى، أوقف نفسي عن هذا التفكير.. كأنّي أكتشف لتوّي أنّي فعلاً قد تركت القرية وغصت في عالم بيروت منذ سنوات طويلة.

يفتح شوقي لنا الباب الخلفي، تدخل جهينة ثم أدخل خلفها. ألقي التحية على الوجه المستدير الذي كان يطفح عرقاً وعافية. ولم أفاجأ بالفوضى التي كانت تعمّ هذه السيّارة الفخمة. من علب بلاستيك وأوراق علب دخان وكوفية. لكن علبة ريش للرسم، استرعت انتباهي لنوعها الجيّد ووجدتني أسأله من هو الرسّام؟

متأكدّة أنّها لا تخصّه، فهذه الابتسامة وهذه الأنفاس الثقيلة لا يمكن أن تكون لرسّام. تتناول جهينة العلبة وتفتحها: «واللّه رسّام الشهداء بيرسم بها الريشة». يردّ شوقي: «شو الواحد بيرسم بالمقشّة». أضحك عالياً لسماعي جوابه هذا، يستأنس هو لضحكتي ويعيد جملته: «يعني شو بدّي جاوبها. شو الواحد بيرسم بالمقشّة». هاها يهتزّ رأسه التخين.

«واللّه رسام الشهداء... نازل بها الرسم فلاحة، بروح عالضيع هون وهون وبيرجع بالصور وبينزل رسم عن أبو جنب، نقشت معه بها الآخرة، بعمره ما عرف يعمل شيء؟ وهلّق صارت لوحاته بكلّ البيوت». استفهم فأعرف أنّ أخاه عبد اللّه هو الرسّام الملقّب برسّام الشهداء. يتعرّف بالشهداء المنتمين إلى حزبي اللّه وأمل قبل موتهم ويرسمهم بعد موتهم. عندما أبديت رغبة في رؤية هذه اللوحات، رحّب الرجل: «أهلاً وسهلاً» بينما تشهق جهينة: «هلّق بطقّة الشمس؟» ليجيب الرجل: «شو راح نقعّدكم برّة؟ صار عندنا أوده مبرّدة».

ثم يسألني الرجل وكان اسمه شوقي عن أحوال جدّتي وجدّي: «اللّه يقوّيه». وجدتني عندها أنتفض غيظاً. كأنهما مريضان أو هزيلان، وتخيّلتهما فجأة كأهالي الضيعة الذين كانوا يجلسون بصمت أمام جدّي وجدّتي عند زيارتهم لهما، للسؤال عن صحتهما أو عن طلب يخصّ العمل في البساتين.

لا بدّ أنّ هذه السيّارة الفخمة، ومسكة المفاتيح الذهبية هذه أمدته بالقوّة والاستعلاء عليّ. لكن غيظي تلاشى وأنا أرى «الأودة المبرّدة» والتي لم تزل عبارة عن طراريح ومساند على الأرض. والأمّ وهي تستقبلني بكل حفاوة وعدم تصديق أني أمسهان وأني ترّجلت من سيارة ابنها ودخلت بيتها بهذه البساطة. فهي دخلت إلى الغرفة الأخرى وسمعتها تقول بأنّي هنا في بيتهم وهي تقسم بالإمام علي، تتهافت على الغرفة ثلاث نساء ورجل صدمني شكله عندما اقترب ومدّ يده مصافحاً تذكّرت أنّه الشاب الذي كنت أطلق عليه رجل الفيل. تمازحه جهينة قائلة: مين مثلك يا رسام الشهداء. النّاس جايه

من بيروت، الست اسمهان أجت امبارح وركضت اليوم حتى تتفرّج على لوحاتك يا مظنطر».

رغم ضيقي من علو صوت جهينة ومحاولة سيطرتها عليّ إلاّ أنّي أظهرت موافقتي. يجيبنا الرسّام «مش تكرم عيونكم» ولو لم أعتد على وجهه لظننت أنّه يهزأ بنا.

تصيح امّه لأن يأتي بالشهداء إلى غرفة الجلوس لا أن يدخلني إلى المزبلة.

يجيبها الرسّام بتأتأة مدافعاً بأن مرسم الرسّام دائماً: «هو فوضى وقايمة هي بتعرف» أشجّعه بنهوضي قائلة «عن إذنكم».

يأخذنا إلى مرسمه وهو يقول: «الستّات... بت... بت»... أجابت امّه عنه: بتأمروا «إنّه مصاب بالتأتأة. نسمع ضجيجاً يأتي من غرفة التنّور، تتوقّف جهينة عند باب التنّور تقول: «اللّه يعطيكم العافية بدو عبد اللّه يفرجينا على الشهداء.» أسمع صوتاً يقول: «أوعى يا عبد اللّه تكون صورة ابن أختي معك»!! يضحك عبد اللّه هازئاً ويقول: «إي هيّاها.. بجيبتي شو يعني أنا عزرائيل قباض الار..ر.. رواح!».

أقف في وسط الغرفة لا أصدّق ما أرى حولي. هل السبب يكمن في ضعف نظره أو عينيه المريضتين اللّتين جعلتاه يضع نظارتين كأنهما كمدتان على عينيه، أم أنّ شلل يده اليسرى كان يؤثّر على اليد اليمنى، أمْ أنّ فمه المائل إلى جهة هو الذي يجعل الكلمات تتعثّر بين فكره ولسانه وهي تتدخّل في كلام اللوحات أيضاً، يبقى فمه مفتوحاً ريثما ينطق بالكلمة الأخرى. يبعد اللوحات عن بعضها، يفردها أمامنا في المزبلة، لا المرسم كما أراد أن يصفه، حتى أنّي أرى صحناً فيه فضلات الطعام ربّما من عام. هل هذه وجوه أم شريكات، هل هذه ألوان، أم أنّها علبة البندورة دلقت عليها خطأ ولفحها الهواء فمال لونها إلى العفن؟ هل هذه خطوط أكمل بقيتها خارج جانبي اللوحة، لأنّه لم يرَ حدودها؟ هل هذه عينا رجل أم أنّها سوسة الخشب؟

لا يجب أن أسترسل في تحليل ما أرى. ولا يجوز أن أضحك

في سرّي. بل أن الخّص أنّ هذه اللوحات تعيسة. وأنّ الرسّام يعاني من عدم وضوح الرؤية ومن الشلل. لذلك جاءت الألوان مائلة حيث تميل العين. وأنّ الرسم هو خلاص عبد الله في هذه الحرب. لماذا لا؟ انه كالذين لم يمسكوا قلماً في حياتهم إلاّ لتسجيل مصاريفهم. أخذوا يدلقون على الورق غضبهم وحزنهم كأنّهم أرادوا محاورة الآخرين من القبر. يبدو أنّ جمودي هذا فسّره عبد الله على النحو التالي: «ما في حدا شاف هاللوحات إلا واتـ سر سر سرسر ربل» وكانت جهينة قد اختفت، اسمع صوتها يأتي من غرفة التنّور.

«الكلّ يقول يا ريتني أوقع شهيد حتى ترسمني. قبل ما الشباب يروحو بمهمّات فدائية بيدقّوا باب البيت بعرف... لكن شو بدّي أعمل، بغالب دموعي وكل حزني، بحصر المي بلطشة، بلطشتين، بجيب الوجه وبحطّ اللّوحة على جنب واللي بيستشهد الأوّل برجع للوحته الأوّل.. وبصير بتأنّي فيها».

أسأله: «إذاً كانوا يرون لوحاتهم قبل استشهادهم؟».

«اي طبعاً في واحد قال لي بدّو شواربه أكبر. وأخذها على البيت وتصوّر حدّها قبل ما يستشهد بيوم، وهلّق يلّي بدّو يعرف إذا ابنه مع الحزب بيجي وبيسأل إذا معي صورته. كأنّي صرت شارلوك هولمز».

لم أعد أتأمّل اللوحات. التفت متصنّعة البحث عن جهينة. وأترك المزبلة التي كانت تونّ أيضاً بالبعوض، ألحق بجهينة التي وقفت عند الباب الخلفي، حيث أم عبد الله وأخرى كانتا تغليان السفرجل لتحدثني المرأة التي لم أتبيّن من هي وكانت تسدّ أنفسها بكفّها من جرّاء البخار المتصاعد من الدست. رغم أنّها كانت ملثّمة بمنديل أبيض إلاّ أنّ كلامها أتى واضحاً: «شو يا ست أسمهان شفت صور المجانين. شفت صغر عقلهم.. اللي ذبحوا قلب اهلهم ذبح. الواحدة بتتعذّب وبتحبل فيهم وبتخلّف، وتقحط خرا البقر كرمالهم وبتربّي واللي بموت ألف موته حتى يدحشلهم بتمهم رغيف خبز وبيشحذلهم حتى يعلّمهم ولما بيطلعلهم شوارب بقولوا بخاطركم صار بدنا

نروح». اكملت جهينة الأغنية: «بخاطركم صار بدنا نروح استروا ما شفتوا عنا».

– «والله صوتك حلو يا ملعونة». بادرتها إحدى النسوة.

صاح الرسّام: خـ.. خـ.. خلصيني انت وحكياتك.

... ونحن لانزال واقفتين سمعنا من ينادي من بعيد: «يا جهينة» ثم ضحكات ثم «يا مظنطرة تعي لنشوفك».. بنات بملابس ملوّنة وقفن في فسحة بيت على تلّة يسألنها: مين معك يا مظنطرة». وكأن دعابهن قد مسّها كالسحر إذ أخذت جهينة تضحك هي الأخرى وتحييهن: «طقّوا موتوا».

ثم سحبتني وهي تودّع الرسّام عبد الله وأمّه التي ما ان رأتنا حتى أقسمت لنبقى ضيوفها لوجبة العشاء. فأجابتها جهينة: «بأنّنا مازلنا بلا غداء، لكن أم الرسّام تتجاهل ردّ جهينة وتطلب منّا انتظار ابنها شوقي ريثما ينهض من قيلولته حتى يصحبنا بسيّارته». يتدخّل الرسّام: «ليش ينطروه منفيه.. منفيه.. منفيقلكم اياه» تشهق امه مدافعة: «لا. لا. حرام نايم وعم يشخّر من كل قلبو... اتركوه».

يمشي الرسّام معنا، وجهينة تأخذ الجهة الأخرى، حيث البنات عند بيت التلّة. أسألها عن هذا البيت، وجهينة تحزر حيرتي:

«اني لم أتعرّف على بيت أبو أحمد لأنّهم قد قاموا زيادة مستودع ومعمل وغرف للعمّال وبأن البيت صار من الجهة الثانية». يشعر الرسّام أخيراً بأنّنا متوجّهتان إلى بيت التلّة فيودعنا قائلاً: «مع السلامة». وكانت البنات لايزلن يداعبن جهينة بالكلام والضحكات، يقلن لها: «امشي عدل يا دلّوعة، حاج تميلي عالجهتين، مفكرة حالك مادونا يا مخلوعة؟» وهي تجيبهن أيضاً بالصياح وبالقهقهات إلى أن وصلنا إليهن... عرفنني للتوّ وقبلنني، بينما اعترفت بيني وبين نفسي اني لا بدّ أعاني من مرض النسيان فأنا لم أكن أعرف أنهنّ كنّ ثلاث بنات.

أقسمن أن يأخذنني إلى بيتهن وهن يحاولن أن ينزعن الكوفية

التي لقفن بها أفواههن. لكن جهينة تعترض: «بأن لا يتركن عملهن وتطلب أي شيء بارد حتى تشربه؟».

تقول إحداهن: «واللّه واجبنا نجي ونقلّكم الحمدللّه عالسلامة. بس الشغل لفوق راسنا هون». ندخل غرفة واسعة فيها نساء وفتيات. تتقدّم إحدى البنات من صندوق عريض، ما إن رفعته حتى هبّت برودة من الثلاجة التي كانت تحفظ قناني ماء وأكياساً وابريقاً من فخّار، فوق ألواح الثلج.

امرأة مسنّة تقترب تقبّلني من كلتا وجنتيّ تسألني عن جدّتي وهي تخبّئ وجهها بمنديل أبيض لا يظهر منها سوى العينين. تقول لها إحداهن: «روحي يا أمي»، لكن الأمّ تصرّ على مساعدتهن وهي تتمتم باسم الله الرحمن الرحيم. تمدّ يدها لكي تتناول رزمات الحشيشة الذابلة من باب صغير يطفح في شجيرات الحشيشة وعيدانها، بينما تبادرها امرأة أخرى كانت تمسك منخلاً تغربل به فتات الحشيشة وكأنها نعناع مجفّف ترشّه فوق سلطة الملفوف، وقد سألت الفلسطينية إذا كان الاجر هو واحد للأمهات وبناتهن.

لم تجبها المرأة المنهمكة بالغربلة للحظات ثم تمتمت: «لا أعرف» وكانت عيني قد اعتادت على العتمة في هذا المستودع، فرأيت صبيّاً متشبّثاً بحديد النافذة من الخارج ينادي أمّه. ثم يقوم بتقليد كل جملة أو كلمة أو زفرة تصدر عن النسوة. يبدو أن أمّه كانت إحدى المرأتين المنهمكتين فوق طاولة شريط المنخل تمسكان خشبة كممحاة اللوح أو كفارة النجارة، تدفعانها بقوّة على الحشيشة لتفرمها إلى قطع صغيرة تنفذ من خروم الشريط إلى الأرض المبلّطة. أمسكت النسوة بالحشيشة لتغربلها أو تنقلها من مكان إلى آخر وهن يتمتمن: «باسم اللّه». والولد يرددن خلفهن مقلّداً.

كن ينقلن الحشيشة المفرومة في الرفش إلى مناخل أخرى يمسكنها بأيديهن وينخلنها، وينقلنها إلى مناخل أخرى أكثر نعومة حتى تتساقط من بين الخروم وكأنّها طحين بنّي أخضر اللون، بينما تتنقّل أم البنات الثلاث من طاولة إلى أخرى، تتفحّص نعومة

الحشيشة أو خشونتها دون أن تنسى أن تبسمل. وكلّما بسملت انتبهت النسوة وبسملن بدورهن حتى خيّل لي أنّي في معبد لطقوس ديانات قديمة.

في ظلّ هذا الغبار والبسملة وصوت سميرة توفيق، تدخل صبيّة وفي يدها طفل يبكي تتناوله منها امرأة كانت تفترش الأرض بثوبها الملوّن وهي تهلّل فرحة: «جا البوبو.. اجا لعند امه...!» تسحب صدرها من فتحة فستانها الذي كان يخبّئه ايشارب أسود.

كانت جهينة تنتقل من امرأة إلى أخرى تضحك لهذه وتغمز تلك وتنظر إليّ من حين إلى آخر. يظل رجل لا يشبه رجال قريتنا، مع أمّ البنات الثلاث مكتفياً بهزّ رأسه يمنة أو يسرة. ثم نادت المرأة التي لم تزل تحمل رضيعها بين أيديها: «وحياة النبي يا جهينة تحملي عني البوبو. خيفانة من شي عقربة. بدّي صلّي صلاة الظهر». ثم توجّه كلامها إلى أمّ البنات: «يللا خلّلي الرجال يروحو بدنا ناخذ راحتنا ونصلّي».

في طريق عودتنا شاهدنا الرجل الذي كان يتحدّث مع أمّ البنات. تلقى جهينة التحية عليه بكلمة «سلام عليكم» فيجيبها «سلام عليكم» أسألها. «إذا كان بيفهم غير كلمة السلام عليكم؟».

«صار يفهم كل شي» وأخذت تخبرني كيف تحوّل إلى مدار الشقفة في الأيّام الأولى لحلوله في الضيعة قادماً من أفغانستان. الكلّ يسأله إذا كان مشتاقاً إلى أهله، وإذا كان يأكل بما فيه الكفاية، وإذا كانت البطانيات كافية».

«من أفغانستان؟ هون مش معقول».

لم تفهم جهينة ما أقصده إذ تجيبني بلؤم: «شو، وإذا من افغانستان؟ عم يجوا من أميركا الجنوبية، والله هنّي علّمونا عالكوكا. ماحدش كان يفهمها. وعم يجوا كمان من نيكاراغوا بدهم يبادلونا بالسلاح، شو ناقصنا، هنّي فكرك أحسن منّا؟ لو بتشوفي ها الأفغانستاني شو بلقوط ويجمع كل شيء، حتى سدادة البيبسي كولا. وتنكات البيرة الفاضية. كلّ الأجانب نتنين. بحاسبو على

القرش». وحكت لي عن الرجل السويسري الذي كان يساعد في معمل الهيروين وكيف يسجّل على بيت فلان حتى أجرة السرفيس ولا يشتري حتى الشاي».

أتحسّس زهور الخشخاش التي ماتت وأصبحت كقطع من قماش الحرير في جيبي. ولم أتكلّم إلاّ عندما وصلت البيت لأطمئن جهينة وهي توجّه إلى نفسها الدعاوي لأنّها تأخّرت في العودة ولم تساعد نعيمة في شغل البيت، أسمع صوت جهينة تخبر جدّي بتفاصيل اليوم وبتعليقها بأنّي أحبّ النّاس.

تجيبها نعيمة: «كلها فهم، لو كانت رجال، كان ما حدش استرجى وأخذ عود من الأرض».

أسرع إلى الغرفة أرتمي على سريري. أسمع صوت جدّي وصوت جهينة تخبره بأنّي تعبة. ثم صوت زمزم، ثم صوت نعيمة. أخيراً يدفع الباب وتدخل جدّتي التي بادرتني: «شو يا حبّي ويا مهجتي. يا قلبي ويا فكري. شو تعبانه. بدّك يسخنولك مي تتحمّمي غابت الشمس» أجيبها بأني أريد أن أغمض عيني قليلاً. حينما بقيت جالسة عرفت أنها تريد أن تقول شيئاً آخر. فأغمضت عيني، تجيء بالمنشفة من على طرف السرير تغطيني بها، وأيقن أنّ كلامها يتململ في صدرها، ومع ذلك بقيت مغمضة العينين. تتنحنح وهي تعود تجلس على السرير، لتسألني إذا كنت ذهبت مع جهينة أزور البكوات». «بكوات. أردّد بسخرية وكلّي شجن، من هي الشخصية المهمّة؟ أخو الرسّام شوقي الذي يسبّح بمسبحته وفضلات الأكل عالقة بين أسنانه أم أنّها تقصد بيت التلّ والحرّاس الذين تفرّقوا هنا وهناك بينما صوت يصدح، يحارج، يتوعّد. ثم يساير ثم يتّفق على الشحنة مع رجلين يركبان السيّارة الفخمة التي يهبط دولابها في حفرة والآخر يرتطم بالربوة.. قيل أن لديهما صلة بالانتربول، لذلك هم يكتشفون كلّ من يأتي للتجسّس على من يروّجون بيعها للخارج. بكوات؟ ابن موسى وحماره؟ المسلّح وبندقيته؟ بائع الكاز وتنكته؟ أغمضت عيني وأنا أفكّر بأن زمن جدّتي قد انضمر، كذلك الأراضي. «شفت الشجر متل عيدان الحطب، وشفت الخشخاش

بدل الثمر! والدنيا كلّها تبدّلت» لم أعلّق على جملتها هذه بل بقيت مغمضة العينين إلى أن سمعتها تسأل عن رأيي بجهينة؟ ملاك أو شيطان»؟ عندها أفتح عيني وأقول متجاهلة ما ترمي إليه: «ما بعرف»، كنت أفكّر بأن أضع أسطوانة وأسمعك يا بيلي هوليدي. كنت أودّ أن الغم سيكارة حشيشة وأقفل الباب عليّ وأصبح في عالم آخر.

أبتسم لك ولروحية. أعرف أكثر من أيّة مرّة لماذا أنتما قريبتان. أنتما تبشران بدين يخصّكما.

عزيزتي جدّتي

أعرف أنّ جهينة وجدّي متواطئان. مجرّد أن أصفهما بالتواطؤ لا بالعشق، معناه أنّ هناك حيرة. فنحن اعتدنا على جدّي أن يقع في الغرام من قبل، ينام في السرير منادياً، شاكياً مادّاً يده إلى قلبه. اعتدنا عليك تطمئنينه مبتسمة بأنّه سيشفى هذه المرّة، تبشّرينه بأنّه لا بدّ أنّه سيقع في حب أخرى ككلّ مرّة. إذ ينتفض القلب كأنّه يرقص يميناً وشمالاً وهو يبحث عن أخرى. عندما كانت تطول مدّة عذابه كنت تواسينه، وكأنّك تهبطين بالسيف على عواطفه الرقيقة، فتلغينها بحركة من كفّك قائلة: «كلّ شيء يتبدّل، هيك سيرة الدنيا، ينضج الثمر. الغصن يصبح مثل العود. ورق الشجر يتساقط ويعود لينبت. الشجر وكلّ شيء يتغيّر». الحيرة الصاعقة هبطت علينا، فاجأتنا بنورها وبهرت أعيننا ولم نعد نعرف ما بين جدّي وجهينة. فهي صغيرة، ومع ذلك راضية ونحن قد اعتدنا على ما نرى على السطح. لحاقه بهن وتمنّعهن، ما نسمعه في الخفاء، ما اكتشفناه بواسطة ألْسِنةِ العجائز الملتوية بأنّ العازبات كنّ يرفضنه فقط من أجل معزّة جدّتي. فالزواج من رجل متزوّج ليس هو بالكارثة ولا هو الزواج المثالي، لكن لا بأس، فجدّي تعزّزه أراضيه الشاسعة وضحكته وسيرة أجداده المحفورة حتى على جبين أيّ مولود.

أذكر أنّي وجّهت لك اللوم بيني وبين نفسي لقبولك بهذا الواقع، وعندما أخذ هذا الشعور يزداد ويطفح فاتحتك بالأمر. وإذا بك تشرحين لي المسألة وتحسمينها بدقائق. لتتركيني أخبط بأرجلي وبكفّي فوق فخذيّ من شدّة الضحك كلّما سمعتك. فرؤيتك للأمور كانت عجيبة. من منظار خاص جداً. من حدقة عين خاصّة. من ذبذبة

طائرة. تدخل رأسك. لا يراها أحد سواك. تقولين لي ووجهك الأبيض الشاحب لا يعكّره سوى شريان أزرق وسط جبينك:

«الطبيعة يا مهجة فؤادي، قاعدة مش بلا شغلة وعملة. هي متربّعة عالعرش، بتناظر وبتدئدس وبتشمّ وبتلمّ وهي عارفة انه أنا لم يعد عندي ولا بزرة بعد بزرة أمّك وبزر اللّي أجهضت. الطبيعة كلّ عمرها تعرف أنّ جدّك عنده بزور بحر. اللي كل ما بشوف ست حلوة حتى تتنشط وتشتهيها ولسان حالها يقول يا ريت منتعرف على بزراتها حتى تنبسط ونصبح «بنابين» صغار، صبيان وبنات بدل ما نحنا محشورين بعتمة هالجسم بين اللحم والشحم والدم والعصب، بس المشكل أنّه في جسم جدّك أيضاً العيون والتمّ والمنخار وأكثر وأكثر، في الفكر كل ما يتمادى جدّك مع ست بينزلوا هؤلاء مواعيظ: «شو عم تعمل؟ ليش في بالدنيا كلّها متل عيون سليمى. وحدا بيحكي مثل سليمى، حدا ريحتو متل ريحة سليمى». حتى العقل اللّي عامل حاله لا علاقة له، كأنّه لابس قميص مبهبط عليه، بيبعد عن صدره كأنّه حرّان. يتدخّل بالموضوع: «أنا ما خصنيش، بدّك تحب وتقوم وتنام مع واحدة إنت حرّ، بس معزّة سليمى عندي معزّة خاصة». وهكذا الحرب متل ما أنت شايفة بين بزر جدّك وبين الفكر والعيون والتمّ والمنخار. هيك كلّ الوقت، وبعدين ما تنسيش يا مهجة القلب أنّه جدّك مسكين، فوق هالبزرات اللي بيتلصصوا كلّ الوقت من الشبّاك، بينغزوه يمين شمال، يدير وجهه ناحيتي... مع الأسف لا يجد عندي ولا نصف بزرة».

كنت أسمعك تستطردين.. ولا أتعجّب، فأنا قد اعتدت على هذه الرؤية الخاصة بك منذ الصغر، منذ أن سألتك يوماً وكنت في التاسعة من عمري «يا ستّي أصلنا من الجناني؟» ولما التقت عيناي بعيني زمزم علقت بسرعة: «يعني أنا وأنت؟». انتبهت إلى نظرتي فركضت كالصاعقة تعانقينني وتعمرينني ثم ناديت بأعلى صوتك: «تعو يا عالم يا هو، اسمعوا اسمهان بتسأل إذا كان أصلنا من الجناني». ظننت أنّي اكتشفت السرّ وانت تفشينه، إذ قربت فمك من وجهي وقلت: «كيف عرفت؟» أجبتك: «نحنا غير العالم». والتفت إلى

زمزم وأضفت: «لكن زمزم أصلها مش جنّية؟» عندها فرقعتِ ضحكة وهتفتِ: «يا عالم يا هو تعوا اسمعوا معلوم معك حق، زمزم أصلها مش من الجناني، عم تتعلّم». وكأنّ هذه الجملة أغضبت زمزم فنهضت قائلة: «بسم الله الرحمن الرحيم، نشكر الله بس والله عم تكفري يا ست» لتجيبها باستعلاء: «فكرها اننا مش من هالدنيا، مش فكرها بالجنّ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». ثم تسألينني بكل جوارك: ليش بتفكري أصلنا جناني؟». فكرت قليلاً إذ كان من الصعب أن أشرح لك لماذا؟ فأنا لم أر قط جدّة مثلك، ووجدتني أقول لك: وماما أصلها مش من الجناني». ضممتني إلى صدرك، وعندها شممت رائحة ماء الورد الذي كنت تمسحين به وجهك ورقبتك وصدرك كل يوم وهمست: «معك حق، بس أنا وإنت». فكّرت أنّي تملّصت من الشرح. لكنّك عدت تلحّين عليّ تريدين الجواب! بسرعة البرق مرّت بخيالي صور لم أستطع عدّها أو اللحاق بها من كثرة ما حوت من تفاصيل. صوتك كان يرافق هذه الصور وأنت تصفينها على هذا الشكل: روحي صارت عبارة عن دخان وغيوم في قلب صندوق في قاع البحر....

كنت أراك في الليل تقتربين من فراشي بقميص نومك الطويل الأبيض، شعرك الأسود المجعّد يحيط بوجهك البيضاوي الأبيض تقتربين على رؤوس أصابعك تغطينني حتى رقبتي وتقبّلينني أينما كان. لكنّي لم أستطع وصف ما شعرت به أو تصوّرته بالكلمات. وعند إلحاحك العظيم أجبتك إنّي لم أعرف جدّة مثلك، ثم انتبهت أنّ كونك جدّة لا يعني لك شيئاً إذ كنت تقولين دائماً: أسمى هي مش بنت بنتي. ولا بنتي أسمها هي أنا وصغيرة». ووجهك لم يزل ينتظر الجواب، وأنا لم أشأ إلاّ أن أبدو خارقة الذهن. ردّدت أذكّرك كيف أبعدتي عنّي المرض بأن قطفت ليمونة حامض مازالت خضراء وقمت بعصرها في الحساء، ثم فركت لي أنفي بفص من الثوم.

وقتها لم أقل لك إنّك تدورين في الليل ولا تنامين وأنا أتقلّب في فراشي ولا أنام، كأنّك تعيشين في الروايات التاريخية التي تقرأينها والتي قرأتها. أهدس بهاليسا مؤسّسة قرطاجة، بشجرة الدرّ، لأنّ

شعرك المجعّد كان أحياناً يشبه شجرة خضراء وارفة. هذا الفستان الطويل الفيروزي كأنّك أخذته من منمنمات فارسية لوناً وشكلاً. أكمام عباءتك كأنّها عباءة فتاة غسّان، أنت الملكة أروى بنت أحمد تسير في أزقّة جبله العالية، عيناها تستنطقان حتى الأحجار مع فارق واحد فقط، أنت تجوبين في السيّارة التي لم تكن تمتّ إليك إلاّ بلون مقعدها النبيذي الباهت، ومع ذلك كأنّك تطيرين من على المقعد، مكانك في تلك الفسحات المظلمة نوعاً ما.

لكنّي وصفت لك وجهك منذ سنوات. كيف لمع كجنّية تحت نار الرّعد وكأنّي أخيراً أبشرك بوجود كنز في شعري، وكان القمل قد غزاه. وقتها قالت زمزم: «يمكن انعديت من بنت الحاجّة نظر، ما انت وياها كنتو بعيد الشرّ مثل الخاطبين «لتجيبيها بتأفّف: «ولو هيك بيحكوا مع بنات المدارس، شو ها المنطق؟»، وعندما أيقنت زمزم اني لا بدّ أمسكت شعري وأنا أتناول الطعام حتّى نهرتها مرّة أخرى، وأنت تحدّثين نفسك بأنّ القمل يقفز من راس لآخر والإنسان سيزور القمر قريباً ولم يفلح في إبادة القمل. عند كُلماتك هذه، لم أعد أخجل بأنّ القمل هو في رأسي بل اقتربت وجلست بين يديك وأنت تقلّبين خصلات شعري، وبعد صمت وهمهمة قلت: «الست عم تتمشّى هويدلك يا هويدالا، مش عم تزيح عن حزّ الشعر، كأنها نفر جيش» وهرعت زمزم تكبّ على رأسي وقالت: «أي والله حاشا الله». وأكملت انت: «لو بتشوفيها يا اسمهان هالقملة ضايعة بين أمواج شعرك، عم تتفيّأ وتظلّل بريحة المستكة والنعومية». وأخذت أتبيّن الفرح الذي يعمّك. لا أفهمه، ثم أخذت تحاولين أن تسحبي الصيبان من شعري، وعندما تململت قلت: «عم بحسب الصيبانات قبل ما يفقسوا ويصير برأسك جيش قمل وياخذوك محل ما بدهم».

«صحيح يا ستّي»؟.

«انت عارفة انه مش صحيح، بس يمكن صحيح شو قولك؟». ثم تستطردين: سبحانه كيف فكّر بالقمل حتى يعيش بالراس ويفقس البيض؟ والقمل بيتغذى من جلدة الراس وحماوتها، ولما بيزهق بنط على رأس ثاني، آمنت بك يا ربي».

أفكر بجملتك وأتخيّل رأسي الآن غابة وفيه المخلوقات، تعتاش وتتزايد. لكن إسعاف تقول: «نسيت الكاز» فقاطعتها صائحة: «بانك تفضلين قطع يدك على صبّ الكاز على رأسي». تساءلت: «مشان الريحة يا ستّي؟» أجبتني وأنت تطقطقين عظام رقبتك:«مظبوط كلامك، مشان الريحة ومشان جلدة راسك الطرية، ما هي مثل الاسفنجة بتمصّ، ربما شرايين راسك شمّت الريحة وداخت وما عادت تشتغل؟».

وجلست كالعادة على طبليّة الحمام هذه المرّة أخفي أسفلي من الشعيرات الصغيرة التي نبتت. كنت أعْرف أنّك تتأمّلين وتحفظين جسمي كلّه. وتشعرين بالفخر كلّما تبدّل شيء ما به. كأنّك أنت التي تقومين بشدّه طولاً وعرضاً. انهضتني من على طبلية الحمّام وطلبت منّي القرفصة في طشت الغسيل، لم أتبيّن علاقة الطشت بالقمل إلاّ عندما أخذت تهتفين: «هيدي» واحدة وتسحبيها من طرف الطشت، «كمان واحدة»، وعندما ينساب الماء من النربيش الذي حكمته في الحنفية لثوان وأنت ترين شيئاً أسود يعوم في الماء أو على ظهري، كنت تهمهمين «يللا، يللا، اطلعوا برّه، عم نحمّم الست اسمهان».

أتأمّل القملات وأعدّها، تسع عشرة، وانت مازلت تهمهمين: «يللا اغرقوا، موتوا، اغرقوا». ولم تتوقّفي إلاّ بعد أن فقدت الأمل في رؤية واحدة. ولم أكن أرى وجهك لكنّي أستطيع تخيّله مركّزاً مهتماً كراعٍ وغنمه أو كحارس وسجينه.

«اختنقوا». ثم كلّما نظرت إلى المشط فرحت وغنّت: «يا صيبان عم تعلق بين الخيط وبين السنّ ومش حتولد إلا قشرة الجن».

دخلت إلى هذا البيت أسمهان ذات اللسان الحائر، الذي لا علاقة له بالأعضاء الأخرى، ينتفض كلاماً ولا يهدأ. كلاماً كاذباً. فهو قد اعتاد على تبرئة نفسه وتبرئة أمّي وأحياناً تبرئة اسعاف.

فهمت انت هذا وحاولت أن تعيدي لساني إلى فمي وتجعليه مطيعاً للأعضاء الأخرى، للأذن وللعين وللعقل وجعلته يهدأ ولا ينتفض.

قدر فرحتي بالاهتمام الذي صبّ عليّ وكأنّي معدن لم يعرف لونه وجنسه قبل أن يدق عليه السوائل لاكتشافه قدر ضيقي منه، بوجوده فقط أخذت تضاء الأنوار، وتستسلم العين للنوم وللراحة. فأنت كنت تبالغين عندما هجمت تصعدين على حائط المصطبة لترمي بنفسك عندما سمعت صراخي وصراخ نعيمة وزمزم ما أن وقعت من على شجرة التين. ولم تكوني تبالغين عندما كنت تطلبين منّي ألا أدخل المرحاض أثناء توعّكي بل تأتين لي بوعاء أبيض إلى الغرفة فأسألك إذا كنت لا تريدين أن يلفحني الهواء إذ كان الهواء هاجسك كذلك الشمس. لكنّك كنت تنتظرينني حتى أفرغ من الوعاء الأبيض وفي يدك عود من غصن شجرة، تفحصين ما فيها حتى تقرّري مدى توعّكي فتنادي الطبيب أو تنتظري يوماً. ثم تفتحين عيني وتقومين بعدّ الشرايين في بياض العين، تفتحين لي فمي وتكشفين عن لساني وتطلبين منّي أن أبصق لتلمّي بمدى قوتي وعافيتي.

فأنت بانتشالك لي من مدرستي السابقة وادخالي مدرسة أخرى علمانية كأنّك قشرت جلدي حتى بان جوهري وأخذت أستوعب القراءة والكتابة بعد أن كدت لا أقرأ ولا أكتب. أخذت أمسك كتبي وعليّ يمسك لي وسادة حتى أجلس عليها خوفاً على مؤخّرتي من قساوة خشب المقاعد المدرسية ثم ينقلني بالسيارة وكأنّي سندريلا ذاهبة إلى بيت الأمير في مريلة نظيفة.

ولم أكن التلميذة الوحيدة التي كانت تقلّها السيّارة الخصوصية بل كثيرات. بينما في مدرستي السابقة كانت هناك تلميذة واحدة لا تأتي مشياً على الأقدام إنما بعربة يجرّها حصان ويقودها جنديّ في ملابس كاكية خضراء تشبه لون عربته. بدلاً من الإسراع إلى البيت لتناول طعّام الغداء الذي لم يكن حاضراً دائماً، بدلاً من سماع شتائم أمّي وإسعاف، أخذت أدخل غرفة طعام المدرسة حيث تجيء زمزم قبل أن يقرع الجرس بقليل وتقوم بتسخين طعامي على بابور كانت تأتي به من البيت وتجلس قبالتي لتتأكد من أني أقبل إنهاء صحني كلّه، وما أن تجمع كل ما أتت به في حقيبة جلدية

كانت تدفع لي بالصابونة الزهرية وبمنشفة صغيرة حتى أغسل يدي وأجفّفهما. هكذا والبنات يتكوّمن حولي مندهشات. وكأني بمدرستي هذه، وبحذائي الجديد وبكل شعري وبكون أمّي تعيش في أمريكا، دهنت عقلي بدهن اللوز فأخذ يتوهّج بتلميعه.

تجلسين في فراشك وأنت تئنّين لتخبّط أفكارك فأنا أكبر وأفلت عن أنظارك وأتوه في بيروت الكبيرة.

أعود إلى البزور التي يبدو أنها في عائلتنا ليست كما هي في كل عائلة، فهي لا تقفز دائماً كحبيبات الذرة. كما في حالة جدّي. بل تدخل في السبات العميق وتشهد الحقيقة في حال أمك التي بعد مضاجعة والدك لها أسرعت لا لتحقن البابور وتغلي الماء وتغتسل كما هي العادة. بل لتضع البزور في مرطبان زجاجي وتأخذها في عتمة الليل إلى تربة شجرة التفاح التي تحيط بالبيت، فتحفر بأصابعها عميقاً وتودّع بها المرطبان الزجاجي وتطمره مطمئنة. حتى إذا حملت أثناء رحلة والدك التي كانت ستبدأ عند الفجر ولأشهر طويله إلى بلاد العراق والنجف نبشت هي عن البرهان وهو مطمور تحت شجرة التفاح.

كانت الطقوس تحوم حول هذه البزور في عائلتنا. وكان كلّ من في البيت يعرف بأنّ عليكما التطهر منها، لكنك كنت تنتظرين في فراشك لربما علقت واحدة منه بواحدة منك وحملت بغير أمي، فتنادين زمزم ما أن يفتح جدّي الباب حتى تقوم بتسخين الماء. وأعتقد أنّك كنت تعتزّين بهذا النداء، حتى يعرف كل من في البيت أنّ جدّي لا يفارق فراشك. حتى زمزم كانت تتواطأ معك، فتقرفص حتى تحقن بابور الكاز بكلّ قوّتها، حتى يهدر بشدّة، كأنّه يودّ أن يصيح على الملأ لماذا هو يقوم بغلي الماء.

حاولت أكثر من مرّة إبعاد جدّي عند جهينة. ولم تكن هذه المرّة الأولى التي أضع بها يدي على شبهي بأمّي بل مرّات كثيرة. لكني كبحت نفسي حباً بك. ولا أقصد هنا صفاتي التي بعضها طبق الأصل من صفات أمّي كضيق الصدر الذي يجعل أمّي تدلق الزيت

في القنينة مباشرة من غير قمع فيذهب بعضه في المجلى وبعضه الآخر على ملابسها... رميها لجميع المفاتيح لأنها لا تستحمل أن تدير المفتاح في الثقب. تركها لأدراج الخزائن مفتوحة... ووقوفها بتململ عندما كانت تطلب منّي ومن إسعاف أن نجر لها سحّاب فستانها وكأنّها في طور النزاع. شدّها لزر تنورتها وإذا كان لا يفك بسرعة قطعته، شدّها بأسنانها شريطة شعري التي أرادت فكّها. وإذا استعصى عليها ذلك قصّتها بالسكين... لم تكن تستعمل المالح بل تحب الغرف بيدها من كيس الملح. نعم كبحت طبعي هذا وقاومته حباً بك. منذ أن أمسكت أنت برأسي مرّة وأنا أضحك ضحكاً متواصلاً أمام زمزم، وشددت عليّ حتى لم أعد أشم سوى رائحة فستانك، ورفعت وجهك إلى الفضاء وصحت بالله: «أنا العبدة المطيعة إلى يوم القيامة. الكبيرة راحت عليها. وهلق الصغيرة افتح عقلها يا رب واعمي قلبها. اربط لها الشريان الذي يجعلها تشتهي الضحك. سدّ أذنيها عن أفكار أمّها ونكات جدّها إلى الأبد».

عندما تزوّجت جدّتي من جدّي وفهمت طباعه أصيبت بالقهر. فهي كانت تكره الضحك والطبع المعشراني. كانت تحكم على من يحمل هذه الطباع كأنه بمرض عضال ميئوس منه. وعندما أيقنت أنها تستطيع إبدال طباعه وباءت كلّ محاولتها بالفشل، وجهت اللوم لنفسها لأنها تزوجت به رغم أنها كانت قد سمعت بأنه عندما مات والده أُتي بجدّته على ظهر الحمارة. خبأت أمه وجهها وأخذت تنتفض. وحين سحبتها النسوة ظناً أنها تتشنّج من شدّة التأثّر، اكتشفن أنها كانت تضحك على منظر أم زوجها الميت.

خافت جدّتي من أن تحمل بمولود كجدّي خفيف الطباع فابتهلت إلى الله أن لا يرزقها بولد، وعندما لم تحمل لمدّة شهر، قرّرت أنّ اللّه استجاب لدعوتها عرف مسبقاً بأنّ الولد الذي سوف تحمله وستلده سوف يغصّ بالضحك ما أن تسحبه القابلة القانونية بدلاً من أن يغشى بصراخ الولادة. ولم تشأ أن تطلب من الله أكثر ممّا طلبته فلم تعد تعاند جدّي، وتنتقد ضحكته ومزاحه. بل أخذت

تتجاهل ما يضايقها به لدرجة أنّها لم تعد تسمعه أو تراه. وعندما حملت جدّتي بأمي غاب عن بالها موضوع المولود والضحك. وأخذت تفكّر بصوت عال كيف سينشأ المولود مالكاً الكون بذكائه وعلمه وكرافاته قاتمة حول قميصه. ستعلمه النطق والمشي منذ الأشهر الأولى. والأرقام والحروف الأبجدية في سنته الأولى. ستعيش معه في بيروت لأنّ القرية رغم وجود المتضلّعين في العلم كانت تنقصهم اللياقة. ابن موسى الذي درس في العراق والنجف والذي يستشار حتى من شيوخ الأزهر في مصر، يمسح أنفه بكم سترته، يكرع كوب الشراب مرّة واحدة.

بعد الانتظار، أتت أمّي رغم أنّ جدّتي أكّدت أنّها كانت تحتفظ بهذه الأحلام لمولودها ذكراً أو أنثى. إلاّ أنّ أمّي أظهرت علامات طبعها الضاحك منذ الصغر. وكرهت العلم وفضلت الضحك، وتدبيل أجفانها. فضلت صحبة الفلاحات والثرثرة معهن. وأرادت الزواج وهي في الخامسة عشرة من الرجل الذي يأتي ويدوّن في دفتره عدد الصناديق التي كان يعبئها رجاله في الشاحنة لأنّه كان يشبه الممثّل أنور وجدي ولأنّه كان يدندن بلحن لعبد الوهاب. كانت تهرب من غرفتها إذ خصّتها جدّتي بغرفة خاصة، وهذا قلّما كان يحدث في ذلك الوقت. لكن أمّي شعرت بأنّها سجينة هذه الغرفة بعيدة عن بنات الضيعة وعن الضحك. كانت جدّتي تريدها أن تجلس وتقرأ سير نساء التاريخ ورواية «بين مدينتين» المترجمة بعد أن يئست من حثّها لتكملة تلقّي العلم، فهي لم تضغط عليها لأن تقرأ مثلها الأدعية والأحاديث الشريفة والقرآن. إذ كانت جدّتي واقعية، تعرف ماذا أنجبت منذ أن ابتدأت أمّي تخطو خطواتها الأولى، وتتكلّم.

لا أذكر أنّي جلست مع أمّي عندما نضجت وكبرت لنتحدّث بل كنت أنصت وهي تروي لي القصص المضحكة التي تحدث لها أو لسواها. لا أذكر أنّها كانت فضولية لأن تعرف عني شيئاً. وإذا أرادت إظهار اهتمامها بي كانت تقول لي: «أوعى هه... انتبهي على.. هو من ذهب»، كانت تشير إلى هناك في أكثر من مناسبة

وتقول: «يقبرني... يسلملي منجم الذهب». ولا أذكر أنّي سمعتها تتكلّم بجدّيّة عن أي شيء يخصّها أو يخصّني. سوى مرّة واحدة، رغم أنّي لم أصدّق أثناءها ما أسمعه عندما عرفتها بناصر أثناء زيارتها لبيروت، كانت تمضغ اللبان كأنّها مراهقة. لم تكن طريقتها في مضغ اللبان تتماشى مع فستانها وطول أظافرها المطلية ولا مع ساعتها الكارتيه الذهبية. ومع ذلك قالت فجأة وكأنّها خطفت لسان جدّتي ورنة صوتها وهدوءها: «اللّه ينوّر على أسمهان ويحط فيها الهدى. مش لح تلاقي مثلك، بس إن شاء اللّه هي تلاقي غيرك. بعرف بدّك تسعدها مرّة وتمرمرها مية مرّة من غير قصد بدّك تنيّمها كل يوم بمحل.. بدها تخاف عليها لأنك عارف بدّك تتركها وهي تخاف عليك حتى ولو كنت قربها. بدو يبطّل عندها أصحاب وأحباب. الكل راح يخاف يزوركم وبدّو يجي يوم بدّك تنفذ بجلدك وتتركها وراك».

نظر ناصر وقتها إليّ نظرة فهمت منها أنّ أمّي هذه هي أخرى، غير التي حدّثته عنها. غير التي وعيت وأنا أضحك على ضحكها حتى قبل أن أفهم الكلام والقصص والمعاني. كنت أراها تخبط على فخذيها وتضحك، تخبّئ فمها وتضحك، تضرب إسعاف على كتفها وتضحك. حتى أيقنت أنّ الضحك صفة تلازم المرء بكلّ ما يقوم به، سواء في أكله أو صلاته أو حتى في حزنه.

عندما اكتشفت أمّي سرقاتي من العائلة التي كانت تسكن في الشارع القريب، أخذت تضحك. كانت تقلب صلاة والدي مشهداً فكاهياً. فتشبك في بيجامته ذيلاً من قماش. وعندما كانت سجدته تطول، كانت تحوم حوله تسأله الأسئلة وهو يتجاهلها بصبر. حتى أنّها حوّلت مجيء الشيخ القارئ عن روح والدي إلى حادثة ضحك ويضحك لها الجميع حتى الآن. فهي كانت تقطع عليه تلاوته ما أن تضجر وتقدّم له الماء. وعندما تقدّم له الطعام تنصحه بأن يتأنّى. وما أن يعود إلى التلاوة حتى تقترح عليه أن يذهب إلى الجامع ربّما تقبل الله الصلاة على روح والدي مع بقيّة المصلّين ونال الثواب الأكبر. وعند رفضه كانت تتوسّل إليه أن يكفّ، فطالما هو يقرأ طالما

فكّرت هي في والدي. ثم لتطلب منّي إثارة الجلبة بينما هي تدخل السرير وتنام إذا لم يكن هناك من معزّيات أو تذهب إلى زيارة فضيلة. وقبل أن تتمّ مدّة الحزن، أقفلت الباب ولم تعد تفتح له بل تمدّ معه حواراً ساخراً عبر الباب تنفي أنّه كان يزور هذا البيت ويقرأ على ميته. وكانت بإقفالها الباب بوجهه، قد فتحت روح بيتنا من جديد وأسرعت تباشر في تبديل معالم البيت حتى لا يعود يحمل في طيّاته حتى ذكرى والدي.

لكن يبدو أنّي أؤمن بخلايا عائلتنا الخاصّة، نحن نساء العائلة. فأنا أتصرّف الآن كما كانت تتصرّف أمّي عندما كانت تأخذ إحدى صديقاتها جدّي مأخذ الجدّ وتبتدئ بالتخطيط ظنّاً منها أنّ السيطرة من أسهل الأمور على من يمزح هذا المزاح ومن يملك ضحكة كهذه ومن عنده بنت مصابة بداء الضحك والمزاح. لم تكن لتعرف الصديقة أنّ أمي كانت كلّها عيونا كالصقر. وها أنا أودّ أن أجد له أنثى أخرى أستطيع السيطرة عليها تماماً كما كانت تفعل أمّي. عليّ أن أفتح عيني جيّداً، عليّ أن استجلب بنات القرية حتى أجد من تملك ولو شيئاً واحداً ممّا تملكه جهينة وهو النضارة.

فقد اعتاد جدّي الآن على النضارة، على رائحة الفم النديّة، لن يرضى كما قبل بأن يقرص لحماً ليس طريّاً. أو يتغزّل بفم فيه سن ذهبيّة أو سن مقلوعة. أعرف أنّ مجرّد أن تحلّ أنثى بين نساء البيت كافٍ لأن يعود يفرح من جديد، حتى ولو رآها تتكلّم وتسير وتعمل فقط. كما كان يطمع قبل جهينة. أن يمازح ويقرص ويلعب لعبة القطّ والفأر. لكن جهينة أفسدت العجوز ولا بدّ أن نعيده إلى اللعبة السليمة، الأمينة.

خلف شعر جهينة وقامة جهينة مخطّط لأن تفرد شعرها في كلّ الغرف وقامتها في كل الشقوق، وصوتها في كلّ الأرجاء حتى يظلّ صداه يرفرف حولنا، ويسري في كلّ شيء بنا، حتى في وسائدنا. فهي تغسل شعرها وتجفّفه تحت أشعّة الشمس فيبدو كشلال عسل. تغسل ملابسها في كل تأنّ، وكأنّها وهي تفرك بها، تذكرنا بأنّها ستكون عليها ما أن تجف تحت الشمس، تنشرها كأنّها تقول

هذه هي ملابسي، هذه أنا معلّقة على هذا الحبل، حرّة تحت الشمس وتحت الهواء حتى يلامسني الرجل العجوز ويشتهيني.

إنها تضغط بخطواتها وبصوتها على رموش أعيننا. مضغها للبان يدوي في آذاننا ويحرقص قلوبنا. تتجرّأ على فتح حنفية الماء حتى آخرها، كمن يقول لنا في تدفّق الماء: «أنا حرّة، لا أسأل عن أحد أو شيء».

أعرف أنّ مهمّتي صعبة. كذلك كانت مهمّة أمي من قبلي التي استطاعت أن تستميل حتى «مرّات المصابحي» لا للتردّد علينا فقط بل لترضى أن تبتسم لجدّي.. وتتركه يتغزّل بها وتقبل هداياه. وأمّي لم تكن لتختار «مرت المصابحي» لو أنّها لم تتأكّد من المنافع الفورية. فجدّي سوف ينسى ليلى التي أرادت أن تجعله ينسى نفسه وعائلته، بينما «مرت المصابحي» كأنها وردة فوق هرم من الشوك، أو وردة بين طيّات الكتب، مدمنه على الارتجاف خوفاً من زوجها الذي أصبح هو اسمها. فأنا حتى الآن لا أعرف اسمها الصغير بل أعرفها باسم «مرت المصابحي».

أعرف أنّ مهمّتي صعبة، لا لأنّها تكمن في اختيار الأنسب. بل العثور على أخرى والسلام. أيّة أخرى لن تكون كجهينة. فجهينة نادرة كندرة لوليتا. لوليتا يا جدّتي طفلة حزرت الرغبة في عيني الرجل وأخذت تلعب بها وكأنّها قطعة لبان مضغتها في فمها ومصّت كل سكّرها ثم نفختها كفقاعة، ثم «طقّتها» لتلصق العلكة بين أصابعها، وتلعب بها وتراقبها وهي تتفتّت بين أصابعها. وجد الرجل نفسه تحت سطوتها ونعل حذائها. وجهينه تريد ذلك من أجل أن تأكل البسكوت كما قالت روحية! البسكوت والأراضي المحتلّة والأراضي غير المحتلّة وقلوبنا.

مهمّتي صعبة لأنّك تعرفين أنّه لم يعد هناك سرب من البنات متهالكات على العمل ينشدن الأغاني كالماضي ليموّهن عن رتابة عملهن مع الأشجار والثمار.

فعندما كنت تسألينهن أن يتركن التراب والثمر ويدخلن البيت

الذي كنّ يرينه من بعيد ليساعدن نعيمة، كن يفرحن متأكّدات من أنّ اللّه معهن. إذ كان البيت يبدو لهن كالقلعة المسحوره فيه الماء المنعش من برودة أبريق الفخّار ورائحة الشواء التي كانت تصل إليهن وهن تحت الشمس، إلى المصطبة الظليلة والمذياع وضحكات الرجل. أمّا الآن إذا لم يجذبهن العمل في الحشيشة والأفيون، جذبهن إليها مستشفى التوليد الذي تديره نساء يعلّمن البنات كيف يصبحن ممرضات. جذبتهن أيضاً المدارس والجمعيات التي أقامتها السفارة الإيرانية، والتي أصبحت توزّع عليهن الدفاتر التي تحمل صورة الإمام الخميني، كذلك التعاونيات والصيدليات الإسلامية وكلّ الأماكن الذي يتولاّها شباب الحزب.

قبل جهينة أيقنتِ قبلنا أن إعجابه بسواك كان دعابة، وإلاّ لما كنت انتقلت إلى بيروت، بعد أن تزوّجت أمي إثر وفاة والدي، واحتضنتني لأقيم معك في بيروت. في بيتك الذي قلّما حواك أكثر من أسبوع في الماضي. شممت بي بزرة الذكاء وعرفت أنّ عدم كوني الأولى في صفّي كان يكمن في جوّ البيت غير الطبيعي. كانا جوّين يشدّان بعضهما الآخر وأنا في الوسط، مصلاة والدي من جهة، وغناء أمّي من جهة أخرى. وإذا اتّفقا معاً على فعل البكاء اختلفا لأسبابه. بكاء والدي كان مخافة من اللّه كلّما جثم فوق المصلاة وبكاء أمّي كان لأنّ الفيلم لم يكن عادلاً. كان يجب على محمد عبد الوهاب أن يسامح رجاء عبده بدلاً من أين يبكي مغنّياً: «ياما شكيت وبكيت».

لا أحد يعرف إذا كان انتقالك إلى بيروت كان من أجلي أم من أجلك أيضاً. أخذت أفهم مع الأيّام لماذا أخذت إقامتك في بيروت تطول من غير أن تزوري القرية. فأنت اعتدت وأحببت العيش في بيروت. كنت تعيشين في بيروت وكأنّ كلّ ما تفعلينه يبدو من كثرة نعومته وكأنّه مغلّف بشاشة من البخار. فتنهضين متلذّذة بسريرك الذي كأنّك لم تنامي فيه، بينما سرير جدّي كان يبدو وكأنّ المعارك تحدث به أثناء الليل. حتى وسادتك كانت نظيفة لم تمسّ رأسك ووجهك. تتوضّئين وتصلّين وتتناولين الشاي قبل أن أنهض

فاستغرب من الهدوء الذي يلفّ البيت والذي إذا رمينا على أرضه إبرة، لسمعنا وقعها.

تنهضين متلذّذة في الصباح، فأسمعك تخاطبين الشمس أو الغيوم من نافذتك. ثم تحدّقين في المرآة وتتمتمين لنفسك: «ربّما لم أنم جيّداً. أجفاني منتفخة». تأتين بقنينة ماء الورد تصبّين منها على شاشه نظيفة ثم تضعينها على كلتا عينيك وتتمدّدين وأنت تبسملين: «اللّهم صلّ على روح النبي وآل النبي، ماء الورد كرائحة الجنات». ثم تدورين في البيت كأنّك تسيرين فوق البيض، بل كأنّك تتمايلين.، تنصتين إلى الأخبار وإلى الأغاني التي تروق لك. تقرأين الكتب المترجمة أو الأحاديث الشيقة، تتمشّين بعد ظهر كلّ يوم في الحديقة. تستقبلين النساء الوافدات من القرية أو من اللواتي يسكن بيروت. بعد وقت تشعرين وكأنّهن عطّلن عليك خلوتك فأنت قدر ما تستمتعين بكل إصغاء قدر ما كنت تصابين بالضجر. إذا كانت الأحاديث عاديّة. تفضّلين حديثك وأحاديث الذين لم يزالوا يتلقّون العلم أو من أنهوا تخصّصهم من الشباب. تفضلين الأكل وحيدة معلّلة مرّة: «حاشا الذي يراني أمضغ الطعام كالبقرة». تجلسين كأنّك تترفّعين عن الصحن. تمدّين يدك بتأن حتى إلى أكلتك المفضله تمضغين بصمت وبشرود كأنّك توهمين الذي يراك أنّك لا تأكلين بل تفكّرين بمسائل في غاية الأهميّة. تختارين الوقت الذي ينشغل به الجميع لتدخلي إلى المرحاض إذا لم نكن نسمع حتى صوت السيفون. فقط عندما كنت تتوضّئين كنت تستشهدين وتبسملين في صوت عال. تستعدّين لليل. لفراشك المرتّب من جديد، فتقومين بقطف فلّةٍ أو غصن عويشقة وتضعينها في فنجان قهوة فوق الطاوله الصغيرة قرب سريرك. تنادين زمزم لتغلي الشاي الأخضر. فترشفين منه كأنّه اكسير الحياه متمتمة: «رائحته فرح القلب...» ثم تبدّلين فستانك الأبيض الطويل بقميص نوم، وتجلسين في غرفتك تنصتين إلى المذياع بعد أن تتركي التلفزيون لزمزم في غرفة الجلوس. فضجيجه كان لا يتماشى مع ذبذبات هدوئك حتى وإن خفضت الصوت. كان شكل النّاس لا ينال رضاك، كنت تطلقين على

المذيعة الكثيرة التبرّج: شو مفكّرة حالها علاّقة ثياب» والرجل صاحب البرنامج الترفيهي: «يا ويلاه على ثقل دمه».

وإذا جئت من المدرسة ورأيتك معصوبة الرأس عرفت أنّ رأسك يؤلمك. كنت تعصبينه بخرقة حمراء، قائلة: «كأنها الدم الذي يسيل في شرايين الرأس». وإذا ناديتني لأنام قربك مقتنعة بأن الك سوف يختفي ما ان أصبح قربك، كنت تضعين شاشة على الوسادة، حتى لا تمسّ أنفاسك عيني كنت تحتضينني. وأنت تقولين: «يا حبيبتي، قلبي، بيوجعني قد ما بحبّك».

وكان الفضول يأخذني لأفتح صندوقك الصغير، رغم أنّ كلّ الذي أراه لا يتبدّل، لا يزيد ولا ينقص» دبابيس شعر دبقة، تلمع في علبة صغيرة. صور مكحلة. أعشاب يابسه في كيس من ورق، ورقة في قلب ورقة. في قلب ظرف صغير، ثم خاتم كحلي من حوله فصوص ألماسية. آخذ الصندوق إلى غرفتي وأجلس متربّعه مثلك أكبّ عل الصندوق بانحنائي إلى الأمام كما تفعلين وأتناول المكحلة. محاولة أن أقلّدك كنت تكحلين عينيك وأنت تنظرين في مرآة صندوقك الصغير. دون أن تغمزي بالعين الأخرى كما كانت تفعل أمّي أو زمزم. حدقة عينك كبيرة ثابتة. ثم أتناول علبة البودرة، أفتح الغطاء الذي رسم عليه امرأة كنساء الرومان والقياصرة، ما هو لون هذه البودرة كيف لم أره قطّ داخل هذه العلب التي حفظتها من كثرة ما تأمّلتها، والتي وعيت على وجودها على طاولة زينة أمّي وفضيلة؟ سألتك عن هذا اللون الغريب الذي لا يوجد في الأقلام الملوّنة، ابتسمت وبكلّ فخر، أفهمتني أنّك لست كالغنم تنصاعين لكل ما يفرض عليك، علمتني كيف تخلطين ثلاثه أجناس من البودرة، حتى تأتي بهذا اللون. وعندما سألتك كيف اخترعته، أجبتني: «عالربيع بفرجيك».

ونظرت في عينيك وقتها. في البؤبؤ الواسع الكبير البنّي والزيتي اللون، والذي من وساعته يكاد يطغى على بياض العين والذي كان بياضه الناصع أقرب إلى اللون الأزرق. ثم تأملت أصابعك النحيلة

الطويلة، وأظافرك القصيرة وأكمام فستانك التي تتدلّى، تكاد تغطّي رسغك النحيل، وكأنّك ملكة تميلين وتقطفين وردة.

وكان الربيع قد أتى. وقلت للبرعم: «ما تاخذني يا صغير» ثم فتحت وريقاتها، وقبل أن تصلي إلى الزرّ، أشرت إلى لون البودرة، الزهري والرمّاني والدرّاقي حتى والأبيض. وأذكر أنّك أريتني نبتة «المستحية» وقلت لي أن لا أدع أحداً يرى هذا السرّ وإلاّ قصفوا لها ظهرها كلّ لحظة، وكانت «المستحية» خجولة ما أن تلمسها اليد حتى تنشل شروشها وتلتصق بالتراب، تضربينها برفق وكأنك تداعيبينها قائلة: يللا استحي» بعد قليل تنتصب كما كانت. فتعلّقين: «بأن المرأة عليها أن تخجل عند اللزوم». ألم أقل لك إني لم أرك قط تخجلين بل رأيتك تخشعين وأنت تقرأين في كتاب الأدعية وتصلّين وتبتهلين دائماً.

تعيشين في بيروت بلا جدّي الذي إذا تغنّى بالمرأة غنّى:

«دخل كيلوتك الأحمر

اللي شراشيبو مش منه

مش قاهرني وموّتني

إلا إللي... منو..

والذي إذا جاع استشاط غضباً حين لا يجد الطعام بانتظاره. والذي يودّ أن يخبر نكاته أو يزعجه أو ما يراه في أحلامه في أيّ وقت، ولو كان في منتصف الليل. أنتقدك الجميع على عيشك بين بيروت والضيعة، وعلى عدم التصاقك بجدّي، ولم يحزر أحد أنّك أكثر سعاده وأنت وحيدة في بيروت فأنت قد حزرت أنّ العيش مع الرجل يشبه الملابس في خزانة عليها أن تخرج بين وحين، لكي تتنفس الشمس والهواء. وكنت أحدس أنّك لست راضيه عن أشياء كثيرة تخصّ أمّي وإسعاف وبيتنا، رغم أنه عند سماع اسمك فقط كانت أمّي تصغي للحديث جدّياً وتتوقف عن ضحكاتها وقفشاتها كانت تخاف منك. تودّ التأكّد دائماً أنك لا تلمّين بكل أخبارها وبأنّك

راضية عنها. يبدو أنّي أردت التأكّد أيضاً من ردة فعلك أزاء ما كنت أراه يحدث في بيتنا فأقول لك الأخبار التي كنت أعرف أنها يجب أن تكون محرّمة أمامك، حتى إني كنت أنا سبب قطيعتك الأخيرة مع أمّي عندما حضنتني تسألينني إذا كنت أحبّك وطلبت منّي أن أصف لك حبّي، فأجبتك: «بحب نام عندك» ممهّدة لسؤالك الثاني: «ليش يا تقبريني؟» أجبتك وكلّي معرفة أنّي سوف أندم على ما سوف أتفوّه به، لكنّي قلت ودقّات قلبي تسرع. «لأن الماما وإسعاف بيتخانقوا مشانك ومشان جدّي، مشان صاحبات أمّي وجدّي».

وإذا بك توجّهين نصحيتك بصوت أرقّ من النسيم بأنّك خائفة عليّ من سلوكها، وأن بنتاً مثلي حرام أن تعيش في «خان طومين». أمسكت بيدي من غير أن تدخلي في الموضوع، واتجهت بي إلى الباب وأنا أنظر إلى الخلف، إلى أمّي وإلى إسعاف. وكلّي شجن لأنّي تسببت في قهرهما ولم تتركاني أسير معك. انقضّتا عليك لتشدّا بي غير آبهتين بالحدود التي كنت قد وضعتها بينك وبينهما، لتتركيني فجأة وذقنك يهتزّ مقسمة بأن لا تطأ قدماك هذا الخان، أبداً مدى الحياة، ثم استدركت مضيفة: «إلا عند المرض أو الموت». صاحت أمي بك انك تودّين أن يحلّ الفأل على هذا البيت وبأنّك تتمنّين هلاكنا وبأنّك لم تحبّيها قط.

وتوقفت عن زيارتنا منذ ذلك الوقت بينما واظب جدّي على زيارتنا رغم ذلك اليوم الذي كنت أتحاشى استعادته حتى بيني وبين نفسي، حتى إنّي ردمت فضولي لمدّة طويلة لمعرفة ما هو خان طومين، إذ كنت خائفة أن أستعيد مشاعري الشريرة، إلى أن عرفت بعد وقت طويل بأنّه المكان الذي يرتاح به الفلاّحون من عناء السفر، ويريحون دوابهم بعد أن يدفعوا تذكرة قرشين ثمن الدخول، فيرفعون أكياس المؤن عن الحمير حتى ترتاح في الليل، بينما يتمدّد المسافرون على بطانيات أينما كان».

إلى الآن لم أخبرك بتفاصيل ما كان يجري كلّما زارنا جدّي. كنت ولاأزال خائفة أن تتهميني بخيانتك. وكنت أخونك فعلاً، رغم صغر سنّي.. كانت أمّي تهلّل فرحة بجدّي كلّما أطلّ، تفرح

بالخيرات التي كان يأتي بها وتحوم حول علي وهو ينزلها من السيّارة كأنّها نحلة وجدت الرحيق بينما يقول لها جدّي: «يابا. حاج تبيني على حالك فرحانة بالسمنة والدقيق! اتقلي شوي. ما انت متجوزة لأكبر التجّار». تجيبه أمّي بالضحكات وهي تهرع إلى العلب والأكياس خوفاً من أن تخبئها إسعاف في مكان لن تحزره.

وجدي يحاول أن يفهمها بطريقة المزاح بأن ليس كل ما أتى به هو لها بل للتي تدلّعه، للتي تظهر له الاهتمام والعاطفة. وكان الدور ينتقل من ليلى إلى «مرت المصابحي». وكان هناك سبب لكلّ ما يأتيهن به. فيقدّم لهنّ كيس الجنارك الأخضر واللوز قائلاً: «مشان أضراسكن تصرصر متل صرير أسناني كل ما شوفكم. وبدّي اتغزّل فيكم قد ما في هالكيس من غزل البنات» حتى أنّه قال لأمي أن من كانت تملك الصدر الأكبر كانت تنال الحصة الأكبر، وكان يضع قطعة اللحم أمامهن قائلاً: «بتتاكل نيّة بلا ملح ولا بهار متلكن. والله لحتى عضوضكم ونجوركن مثل عظام هالموزات». وهن يقهقهن ويضحكن ويداعبنه بضرب كتفه أو يده إلى أن تأتي إسعاف فتنشلها منه وتخبطها على البلاطة تدقّها.

كن يترقبن إطلالته بفارغ الصبر، ويتناوبن على قراءة الفاتحة لصاحب الأمر المستعجل حتى يصطحبهن إلى المصايف، ويدعوهن للسهر وتناول العشاء في مطاعم مشهورة كثيرة الطاولات، فيفرحن بأنّهن كالنساء الجميلات الثريّات اللواتي كنّ يتصدرن الطاولات، وصفحات الأخبار في الجرائد، يجلسن وقد لففن حول أعناقهن المكتنزة عقود الياسمين. كانت صحون المازة العديدة أمامهن تجعلهن في سعادة غامرة، لا لأنّهن كن يشتهين الأكل بل لأنّ الجلوس في المطعم وتدخين السيكارة أو النرجيلة، بينما هناك من يضع أمامهن الصحون هو متعة عظيمة يمدّهن بشعور الأهمية.

هل كان جدّي يطمر وجهه في صدر جهينة، أم انه يكتفي باللمس، أم انه يطلب منها أن تتعرى أمامه فتعمّه السعادة وهو يتمعّن بما أمامه بعد أن يكون قد رسم في عقله كيف هي هذه الأجزاء؟ أم أنّه يحبّ طق الحنك، ويستمدّ من الكلام العاطفي،:

وأحياناً الكلام الصريح، الشعور بالرجولة. وماذا عن الرغبة؟ لم أكن أتصوّر جدّي إلاّ وهو يطبع قبلة على الوجنتين ويمدّ يده إلى الكتف وإلى الفخذ، وإذا مدّها إلى الصدر ليعلّق: «اسم الله، عافيتك جايه اسم الله عليك».

تحوّلت زمزم ونعيمة إلى لبؤتين تودّان الاقتناص من جهينة، كانتا خائفتين من أن يتكوّر بطن جهينة وتلحق الفضيحة بعائلتنا ويجبر جدّي على الزواج بها دون أن يخطر ببالهما أنه لربما لم تعد البزور في حوزة جدّي إذ كانتا متأكدتين أنّ الرجل في القرى لا يشيخ إلا إذا مرض واقترب من الموت. وكان فضول زمزم عظيماً لأن تبقى مستيقظة حتى الساعات الأولى من الفجر حتى تضبطهما في خلوتهما. لكنّي رفضت أن أتّحد معها رغم فضولي، وجدتني أبعد هذه الفكرة. لا بدّ أنّه يظن أن تعلّقه بجهينة هو من حقّه. الإنسان مسيّر لا مخيّر، وإذا حدث وسألناه: «وعمرها؟» لربما أجاب، بأنه لم يجبرها وبأنها أكبر منه سناً.

لا أخفي عليك شعوراً بعدم الاهتمام بما بين جدّي وجهينة قد حطّ عليّ بعد أيام. لكن وأنا أرى جدّي سعيداً من حين إلى آخر وجدتني أبارك علاقتهما، وأنا أرى جدّي المتورّد الخدين، الأشقر الشعر، يعشق من جديد وينسى الألم ولو مؤقّتاً، والذي لا بدّ أنّه كان يخزه كأنّه مناشير صغيرة تنشر في لحمه كلّما التفت برأسه ورأى البساتين. إلى أن وجدتني أستمع إليها كأن في الليل تصبح الأحاديث حقيقة. وهي في قميص نومها، وفمها بلا علكة، وشعرها بلا الشريطة الزرقاء من العين الحسودة إذ حاولت أختها المحجّبة قصّه لها أثناء نومها.. ولدهشتي بدت لي بريئة حالة استندت بكوعها على سريري ولم أجد في وجهها سوى سذاجة صغار القرويين، وهي تسألني إذا كنت أحبّ مرافق ياسر عرفات..

لا بدّ أنّها فتحت سيرة حبيبي الفلسطيني حتى تتحدّث عن جدّي. لكنّها لا تتحدّث. إنّها تفتح صدرها لي، تفك أزرار قميص نومها ولا أعرف ماذا تودّ أن تريني. حمّالتها، وأخذت تخلع قميص

نومها بسرعة، ثم حمالتها، وأنا لم أزل تحت صدمة تصرّفها، أرى كدمات بنفسجية أحدثتها أصابع أو أسنان؟ جدّي؟ كانت حلمتاها كبيرتين كقمرين في عزّ استدارتهما. أتخيّل يدي جدّي عليهما وأسنانه عليهما وأرتجف، غير مصدّقة. أطرق إلى الأرض. أحسب ولأوّل مرّة عمر جدّي وكان في السبعين. ووجدتني لا أفكر لماذا يحدث بينهما هذا، بل أشعر بالامتعاض لا بالشفقة كما تودّ هي. فأنا لم أزل مصعوقة أمام ما أرى وأمام نفسي التي لم تستطع أن تتخيّل ما يجري بينهما. هل قمت بتشجيعها من غير أن أدري أم أن سكوتي كان علامة الموافقة؟

كأنه لم يبال أن تبقى علاقتهما بالخفاء. أفكّر والكدمات الزرقاء تكبر وتتوسّع أمام ناظري بأنّه ربما كان ينوي الزواج بها إذ أصبح كلّ ما حوله جافاً، يتزوّج من الصبيّة ويعود شاباً. ويقلب صفحة جديدة. يطمرك تحتها ويمطرني أيضاً. يطمر الأراضي ويطمر الماضي.

أفكّر بكلمات روحية وهي تثنيني عن اتّخاذ جهينة رفيقة لي لأنّها تعدّ مخطّطاً، تريد أن تصبح أميرة على الأراضي، خاصّة إذا ما رزقت لجدّي بولد.. ما ان يموت العجوز حتى تسافر إلى بليغ حمدي بالفراء وبالألماس وحتى يقوم بتلحين أغنية لها وتصبح متل وردة الجزائرية وعفاف راضي، ومن شرب الشاي والبسكوت بصير إلى شرب النسكافيه وأكل الكاتوه. ثم تنهي روحية تحذيها قائلة: اسمعي يا أسمى يا حبيبة القلب. كل واحد بدو شي من التاني. النملة بدها حبة قمح. وحبة قمح بدها التراب. كلمة «ليش» مش مهمّة. المهم شو بدّو الواحد. أنا كان بدّي جوزي يحبني من غير ما يكون مطوطح، هو راد المشروب. والموت كان رايده شو بعرفّني!».

أنظر إلى جهينة أحدّق بها: هل هي في منتهى الذكاء لأنّها اختارت جدّي؟ مهما كان السبب. اختيارها له، إنما هو اختيار الماضي الذي يبرهن عن أصالته إذا ما قورن بالرؤوس واللحى والأصوات المتنافرة وقوّة السلاح.

تتنهّد جهينة، وكأنّها تفهم صمتي فتقول: «مش عارفة شو بدّي أعمل، إذا تركت جدّك والله بموت».

ثم صمتت رغماً عنها، إذ كان في صمتها كلام أيضاً. وأخذت تحكم ربط حمّالة نهديها وتعاود ارتداء قميص نومها من جديد، لكن، كيف حدث هذا؟ جدّي كان يبدو مريضاً كالطفل بين يديك، ينظر إليك بعينين، ضائعتين دامعتين متوسلتين: «الله يميتني بحياتك. وأنت تضعين له لبخات الخلّ الساخنة على رأسه، لعلّ حرارته تسقط، تقرئين له في كتاب الأدعية. تستشهدين بالأئمة واحداً واحداً. هل كان يترك كدمات زرقاء على جسمك أم أنه لم يكن يجرؤ؟ لا أتصوّر أنّك تستطيعين إغماض عينيك إمّا خجلاً وإمّا نشوة وأنت معه في سرير واحد. أعرف أنك مجبولة الأفكار والأحاسيس ولم تستسلمي لعناقه قط.

لا أعرف لماذا تريني جهينة هذه الكدمات الزرقاء. ولا أعرف بم أجيبها، ثم بلمحة بصر أجدني أصبح أنت وأجيبها برياء بعد أن ثرت على نفسي فجأة لضياعي هذا وقلت: «أنت صغيرة، وهو قد جدّك، ما تفكري إذا عاش أو مات. فكري بحالك. المهم انت».

«أنا أحبّه، مش لح تصدقي بس احبه. هو مثل ولد الصغير. لا أكبر منّي ولا قد جدّي. أحبّه من قلبي».

أنظر إليها مليّاً، إلى شعرها الذي بدا فاتحاً تحت أشعة الشمس، أتساءل لماذا تريد جدّي، وهي تحمل على رأسها هذا الشعر الذي يتوق إلى الحياة؟ لماذا تفكر بأن تكون سيدة هذا البيت وهذه الحقول؟ تدع يد جدّي العجوز، وأسنانه الاصطناعية فوق لحمها وتترك خشونة قمصانه وسراويله التحتية تحكّ جسمها. أم أنّ هذه المشاعر هي للذين يملكون، أمّا الذين يفتقرون لأيّ تملّك يخوضون سهول العطش من غير أن يشعروا سوى بما يرونه من بعيد من نقطة ماء. أعرف أنّ الجميع يريد النجاة إذ أخذ الفقر يدبّ على الأبواب. ماذا تتوقّع وهي تريني هذه الكدمات الزرقاء وهذا الكلام: أن أطلب يدها له؟ تفشّي سرها لي بعد أن لازمتني كظلّي.

تريدني أن أكون شاهدة على حبّهما وأباركه؟ لا بدّ أنّها أخبرته بأنّي حدست بما بينهما ومع ذلك لم أقاطعها، وبأن عدم تعليقي معناه موافقتي. وها هي تنتظر الإشارة منّي حتّى تخبره بأنّ عائلته لا تمانع ظنّاً من أنّك أنا وأنا أنت.

أعرف أنّها تلهيه ولو قليلاً عن التفكير بالأراضي. تشبكه بأخبارها الصغيرة والكبيرة التي هي سرّهما. أصبح عالماً يخصّهما، يسلّيهما. كيف نظرت زمزم إليها؟ ماذا علقت أنت وهل أحسست بهذه العلاقة أم لا؟ حتى أصبح عالمها أيضاً درعاً أمام الآخرين.

أخذت أتصنّع النوم كلّما دخلت جهينة غرفتي في الليل وأتصنّع التعب كلّما دخلتها في النهار. أرفض نزهاتي معها. أرفض التحدّث معها. أرفض حتى النظر في وجهها. لا بدّ أنّها أخذت تشعر كم أنّ أحلامها التي حاكتها ونحن بعيدان عن جدّي والتي تراءى لها آنذاك بأنّها قابلة للتحقيق بالصبر والحيلة، انهارت ما أن جئنا إلى الضيعة.

فاتحتني في الأمر مرّة أخرى. وجدتني أنظر في وجهها وأقول لها وأنا أختار كلماتك: بأنّي أحبها ولذلك أتعذّب من جرّاء علاقتها مع جدّي، وإلا هدمت مستقبلك، فهو يقارب الموت وهي في عزّ الشباب.

وإذا بها تصيح بي: بأنّنا بلا قلب، نترك جدّي للعذاب وهو يرى أراضيه محتلّة أمام عينيه، بينما نحن نسعد في بيروت، وبأنّه علينا توجيه شكرنا لها لأنّها ردّت عنه خطر المحتلّين.

ولم يكن صراخها هذا النهاية، بل كأنّه أشعل من طباعها. فأخذت تصيح في زمزم، تضرب الأرض، تصيح في جدّي، تدخل غرفتي رغم تصنّعي النوم ولا تفارقها إلاّ عندما أفتح عيني وأستمع إليها. توجّه اللوم لأن الشعور قد تبدّل من ناحيتها. شعور الجميع، وأنّها ليست مذنبة ولا تحبّ هذه الضغينه، تتراءى لي عبئاً كمحتلّي الأرض، فلم أجد نفسي أشفق عليها حتى وأنا أراها تبكي بل أفكّر

بأن الأمور فعلاً تبدّلت في الحرب، وأنّ عليّ أن أبعدها عن بيتنا، تماماً كالقطّة توضع في كيس وتؤخذ إلى البورة فإذا بها تعود إلى البيت قبل صاحبه وتستقبله بالمواء وكأنّها تسأله أين كان ولماذا تأخّر؟ كيف أنشل جدّي من أظافر هذه القطّة. إذا لم أجد له قطّة أخرى من غير أظافر؟ أين أجد هذه القطّة، والبنات يتمشين زرافات ووحدانا يتضاحكن ويتسامرن أمام أعين المسلّحين المسلّطة على أوراكهن. بساتين جدّي لم تعد تجمع وأنفاس البنات اللاهثة من الشمس ومن توقهن إلى الشباب والزواج والأمومة؟ أين هن؟ البنات اللواتي كن يهجمن إلى الحقل بعد الحصاد حتى يجمعن حبيبات القمح في أحراجهن، والتي كنت أسأل جدّتي ماذا يفعلن بها. تقول: يدقّونها ويأكلونها مع السكّر، خاصة في خميس البيض، أوّل الربيع بعد شباط الذي كان يلبط برياحه الأشجار، والسماد. كنت أذهب معهن نبحث عن الزهور والورود البريّة والمزروعة.

أرى نفسي أعدو بين الحقول ننادي للفطر الأبيض: «يا فطروس يلا قوم تعرّم قدامي متل الطربوش». ونحن نبحث عن زهرة البيسان حتى يصبح وجهي أكثر بياضاً وتتوسّع عيناي.. وتضع زمزم كل ما التقطناه في وعاء على المصطبة. وفي اليوم التالي نتسلّل إلى يمامه وخديجة. توقظانني بهدوء، لنغسل أعيننا بما أغدقته السماء على زهور الوعاء المنقوعه بالقليل من الماء، قبل أن تجد الأفعى طريقها إليها قبلنا.

أخذت جهينة تختفي وهي ظاهرة، كطير جميل دخل كوّة وترك طرف ذيله ظاهراً للعيان. إلى أن جاء الليل ذات مرّة، واختفى الطير وذيله وانتظرها جدّي. كرع البابونج والقهوة والشاي وأحدث أصواتاً عاليه. دخن السيكارة وضرب الحجارة على خيام المحتلّين. غشي من الضحك. وقال: «كان لازم اتعلّم لعب الورق والباصرة. اتعلّم شرب المحرم. افحص الأرض. افحص اللحم، أركض على حصاني اتصيّد واما اقع طريدة عيون السود والزرق. والآن ولّت الأرض. ولم يَبْقَ سوى مقصوفة الرقبة.. ومقصوفة الرقبة اختفت اللّه يخفيني عن الوجود».

ولم ينتظرها جدّي فقط بل جميعنا، خاصّة زمزم التي أيقنت أنّ جهينة لا بدّ أنها تعدّ عدّتها للانتقام منّا. وأخذت تبحث عن رفيقة حتى تزور معها ضريح ستنا زينب لتبعد عنا الشرّ والسّوء. بينما اتهمتها جدّتي بأنّها قد اخترعت هذه الهلوسات لأنّها تودّ الذهاب إلى الشام وتشتري القماش المذهب وتأكل الحلو الشامي وتأتي بالمستكة، وعندما أصرّت زمزم على أنّ جدّتي مخطئة، تتذكّر جدّتي كيف كانت تعود من تلك الزيارات.

كانت أمّي تنذر النذور لستنا زينب: الليرات والحلق الذهبي بين أيديها وهي تبتهل وتصلّي وقبل أن تدفعها إلى الصندوق. كانت تتراجع وهي تهمس: «يا ستنا زينب أنت فاهمة قدّيش أنا محتاجة بدّي ألبس هالحلقات شوي وانت ما شاء الله عندك الكثير. خلّليني اتدين هالنذر هالمرّة. ومرّة الجاية بوعدك بحطّلك النذر نذرين».

عندما أصبح جدّي كالمدمن، أو كالمحتجز الذي ينتظر إصدار الحكم عليه وهو يمشي في الزنزانة، يدور حول نفسه، أطلّت جهينه وهي تماطل، وقد أسدلت شعرها وشدّت الحزام إيّاه على خصرها، وتركت زراً من أزرار بلوزتها مفتوحاً. متصنّعة البساطة: «والله انشغلت».

يحاول جدّي أن يكون ساخراً فتتحوّل سخريته إلى حقد. ثم حاقداً فتستدر كلماته الشفقه من كثرة ما يوجّه لها اللوم والعتاب، مقسماً بأن لا يدعها تغادر هذا البيت، إلى أن علا صياحهما وهما عند المصطبة وهو يمنعها من الذهاب صارخاً شاتماً منادياً، صوته يذكر بالعجائز الذين فقدوا الذاكرة تماماً وكأنّنا سقطنا نحن أيضاً من ذاكرته. خاصّة أنت فقد سقطت مكانتك علناً. ووجدتني أخاف عليك حتى من أفكارك. لا بدّ أن شعورك بالضعف أمام نساء البيت وأمام جدرانه لم يزل يعذّبك. وأصبحنا كأنّنا نحل اعتصم في قفيره بعد أن اكتشف أنّ هواء البراري مسموم. ونحن لم نعد نجرؤ على تخطّي عتبة غرفنا، إذ صوتها ملأ حنجرتها، وملأ المصطبة: «روح اسأل بنت بنتك تريد اكلي بلا ملح...» «يللا شوف شو بدّك تعمل، يللي بدو الواحد بيتصرّف.. شوف شو بدّك تعمل.. ما بدّيش حكي. بدّي فعل».

كان لا بدّ من حدوث هذه الزوبعة، حتى يعمّ الهدوء من جديد. عادت زوبعة من نوع آخر. دائماً الحركة من غير بداية أو نهاية، جدّي الطفل الصغير أخذ يرفض طعامه أو ينتقده وكان يودّ لو يرفض طعامه دائماً لكن حبّه للأكل لم يكن يسمح له بذلك. وأخذت تتعالى الصيحة حينما أخذ يدخل المطبخ ويحرّك ما على النار ويذوق المرق ويحرق لسانه وينادي، يذبح دجاجة رغم أنّ الأكل يطهى فوق النار ويدخل بها والدماء تقطر منها نقطة نقطة. أصبح صياحه بالمحتلّين متواصلاً بدلاً من أن يكون متقطّعاً متوقّفاً على وجود جهينه أو عدمه. يصيح بهم متوّعداً يتمنى لو تنطفئ العين التي ترى الكميونات تنقل الحشيش وأن تصاب الأذن بالصمم وهي تسمع ضجيجهم. أحاول أخذه معي لزيارة روحية متحجّجة بأسباب كثيرة وكان يرافقني ليقول لها «اطلعيلنا بشي موّال بس دخيلك لا عن الموت الله يموتك، ولا عن عاشوراء الله يعطشك، ولا عن ابن عمّك. كيف الله رمّلك». ثم يسألها على شيء. فجهينة هي البزاقة التي تركت خلفها السائل اللزج حتى يتزحلق فوقه جدّي. شدّته إلى الفكرة بأنّ المرأة موجودة كتلك الشجرة، يستطيع أن يمسك بها ويتحسّسها بعد أن كانت كالقمر بعيدة. وأفكّر ببديلة لجهينة ليلاً ونهاراً. كنت أتوهّم أنّي وجدتها في الليل لكن ما أن كنت أنهض في الصباح حتى يبتدئ بحثي من جديد.

هكذا بدأت رسالتي إليك. أفكّر بما ورثته عنك وعن أمّي وهذا يمدّني بالنشاط لأخوض مهمّتي. فكأنّي لا درست ولا قرأت كتب الفلسفة والمنطق. بل كأنّي أعود إلى كتبك وأوراقك التي لم تزل محفوظة في العقل. ما أراه الآن، فتاة، امرأة على المصطبة وعند حبل الغسيل وفي المطبخ وفي يدها ركوة البابونج وجدّي مسرور بدفء خطواتها وأنس وجودها.

عزيزي جواد

أرى روحية بين الفرش والملاحق وتلّة من قطن وسادة أفرغتها في صدر القشّ حتى تتشمّس: «يابا يابا أوف، جاي حبيب الروح، يابا يابا ويلي، جاي الصغير ابن خالتي... حبيب قلبي». تنادي في فسحة الجنينة الصغيرة القاحلة فتسمعها شجرة الرمّان التي لا بدّ انها كانت بذرة طمرت في الأرض صدفة وكبرت صدفة.

«مش مبارح حكى جواد لعند العايلة اللي ما بتنذكر وقلتللو يعني هيك أخذتك منا فرنسا وبطلت تفكّر بروحيّة بس تبعتلي روايح وايشاربات حرير، شو بدّي أعمل فيهم. يعني فكرك هول بيغنوني عن شوفتك؟» والعكروت سألني: «شو بدّك يأني أعمل يعني، بدّك إجي لعندك». قلت له: «دخيل إجريك تعى»! قال: «إيمتى بجي»، قلت له: «هلّق قبل بكره». وأكبر العكاريت قال: «معليش أعذريني لح اتأخّر عليك وأوصل لعندك بعد بعد بكره».

لم أعرف بماذا أعلّق. غير أنّ الدفء اعتلاني فجأة. وشعرت كأنّي معنية بالأمر، وكأنّك ستجيء من أجلي وبأن انظار روحية عليّ. وبأن عليّ أن أحترس من أن لا تظهر حمرة وجنتي، أو ارتباك عيني. لكن روحيه كانت منغمسة في صراعها مع النمل تضرب الفرش بالعصاة متسائلة: «لماذا يخلق الله النمل؟».

أضحك لجملتها هذه. وأخبّئ في ضحكتي هذه لهفتي إليك، أنت الذي لم أرك قط في حياتي. بل رأيت كتابك بالفرنسية يتصدّر «خزانة القزاز» بين استكانات الشاي الزجاجية وعلب الأعراس التي كانت تجمعها. عندما كانت روحية تنهمك عنّي في قلي الباذنجان

والكوسى، كنت أحاول الالتهاء في تأمّل الأشياء من حولي، ومن بينها هذا الكتاب، مكتفية بتقليبه بين يدي، إذ لم أكن أتقن اللّغة الفرنسية. أمّا الآن فتقليبي للكتاب لا يبعد عني ضجري في بيت روحية المعتم، بل يحرّك فيّ مشاعر عاطفية وكأنّي في حضرة رجل نبت فجأة من أوروبا وحلّ هنا في هذه الغرفة.

أردّ هذا الشعور إلى الوحدة التي بدأت أعاني منها. هنا بعيدة عن بيروت التي أتخيّلها الآن وكراً يعجّ بالأخبار وبالحياة.

تمنّيت أن تأخذني روحية معها لاستقبالك، فأنا إلى جانب فضولي للتعرّف بك أردت أن أرى المطار، ولو مطار دمشق. من زمان، لم ألتق بأحد يفد من الخارج. من زمان، لم أر المطارات. لم أسمع ضجيج الطائرات ولهفة المسافرين القادمين ومعهم الحقائب.

لكن روحية لم تفهم إشارتي، رغم أنّها قرأت لي الفنجان وأشارت إلى المال والرسائل والأشخاص، ثم لتجيب نفسها بأنّ هذه الإشارة لا بدّ أنّها تحويلة من أمّي، والأشخاص ما هم إلا محتلّو الأراضي... ثم أخذت تعيد قصّة الطبيب الذي سمعك عبر الإذاعة الإنكليزية: «وقال عنك بأنك نابغة وتوصى بالفحصية. فحصني من فوق لتحت وعطاني أدوية ببلاش» أجدني لا أناقش لهفتي إليك إلا وأنا في طريقي إلى البيت مخترقة السهل القاحل والمزدحم بألوان الخشخاش التي كانت تتمايل في الهواء الساخن. أخبط قدمي فوق الحجارة، أبعد ذبابة عن أنفي، بينما بدت الجبال الصامته وكأنّها تسترق النظر إلى السهل. لهفتي تريني نفسي بين يديك ثم أفكّر في طعم شفتيك وإذا كنت تعرف ما هي القبلة وإذا كان من يمت إلى هذه القرى يعرف أنّ الفم هو مفتاح العشق أو الشهوة لا للأكل والصراخ ووجع الأضراس، أحاول أن أوقف نفس عند هذه اللهفة معلّلة بأنّ الضجر هو الذي يجعلني أعدو وراء الحدث الجديد في القرية.

ثم أحاول أن أضع اللوم على روحية التي كانت تأتي على ذكرك طوال الوقت، والتي جعلتني أشعر بأنّي أعرفك من زمان وبأنّي أتوق

إليك ثم وكـأنّ المنطق أرسل إليّ رسـولاً ظهـر عليّ في هذا المناخ الجاف ليريني الحقيقة بأنّي امرأة متلهّفة للرجل، أي رجل، وأنا أرى رجلاً جذّاباً أشقر الشعر يسير برفقة مسلّح. أراه يلتفت ويتأمّلني ويبتسم لي. أفرك عيني قبل أن أحدّق في عينيه وأبتسم له أيضاً. هل معقول في هذه الطبيعة الجغرافية، التي وكأنّها مصبوغة باللون الأحمر، تجعلني ألتقي برجل أشقر الشعر، جذاب. أفهم من نظرته لي بأنّه هو أيضاً مدهوش لرؤيتي هنا على هذه الطرق غير المعبدة، رغم أنّ كلاً منّا استأنف سيره، بعد أن أفرز ذبذباته وأوصلها إلى الآخر. كلّما سرنا، التفت كلّ منّا إلى الوراء، إلى أن أتّخذ هو طريقاً أخرى باتّجاه التلّة حيث البنات صديقات جهينة. وأيقنت أنه الكيمائي الأجنبي الذي يشرف على مختبر الأفيون.

أدقّ باب روحية. وقلبي يضرب بشدّة لدرجة أنّي نظرت إلى بلوزتي حتى أرى إذا كانت دقّات قلبي تظهر عبرها. «هش.. هش» بادرتني روحية وهي تفتح الباب بهدوء. «بعدو حبيب قلبي. نايم» لم أتوقّع حقيبة سفر في بيت روحية والتي بدّلت بوجودها البيت، فبدا كأنّه غرفة فندق في أفغانستان. ثم رأيت أشياء غيّرت مجرى أفكاري: تنس شوز، وكلسات سميكة بيضاء موضوعة داخل فتحته. ثمّ مجلاّت أجنبية كثيرة فوقها نظارات شمسية.

لأوّل مرّة أفكّر بعيداً عن هنا، عن بيروت. أفكّر بحياة فيها جامعات، أشخاص يركضون جوكينغ عند الشواطئ وعلى أرصفة المدن الواسعة. تمسكني روحية من يدي وتجرّني إلى المطبخ وتهمس لي: «حبيبي هالصبي شو هو كلّه عاطفه، حتى جايب معه قهوة وشاي ومرطّبات حليب مثل النيدو، ومعلّبات... قال: «الناس بلبنان جوعانه». وأمسكت بمرطبان «قهوة لا يشبه المراطبين التي نشتريها. أهزّ رأسي بالإيجاب عندما تسألني عمّا إذا كنت أرغب في فنجان قهوة، أشعر بترقّب وسعادة لم أشعر بهما منذ مدّة طويلة.

أجلس معها تنتظر نهوضك وأنا أحاول إشغال نفسي بإخبار روحية عن جهينة. لكن روحية لم تكن معي هذا اليوم. كأنّ قدومك قد زلزل كيانها. تترك اللوبياء تغلي على النّار وتسحبني من جديد

إلى الفسحة وتوشوشني: «قلتلو يكتب قصّة حياتي مع أخيه النجس، قال لي في حدا كتب هالموضوع وعمل فيلم سينما... أي واللّه كأنّها قصة حياتي.. عن واحدة حبّت واحد وهو المفروض حبّها، بس هي ما كانت تقرأ وتكتب مثله وصار يخجل فيها أمام أصحابه، وهي تضايقت ولمّا تركها جنّت ودخلت المصحّ للأعصاب وصارت تشتغل دانتيل بالصنّارة وعقلها شارد. لما شافها بالحالة صار يبكي، اكتشف قدّيش هو حمار. ما عرف قيمة ما كان بين ايديه. نفس طاهرة شريفة حلوة، الحبّ اللي اعطته له...

أوقفها عن الاسترسال بأنّ الجمل الأخيرة لا بدّ أنّها من حبك أفكارها. تمر ساعتان، وترقبي لك يزيدني عصبية، أتصنّع النهوض ولدهشتي لم تمانع روحية ولا تصرّ عليّ لأنْ أشاركها طعام الغداء كالعادة. لكنّي لم أشأ المغادرة. أحاول أن أصطاد الأخبار الدسمة فأخبرها عن خوفي على ريكاردو لأنّ السوريين يلقون القبض على المنتمين إلى حزب اللّه في بيروت وكأني بتّ المسؤولة الوحيدة عنه، أرفع صوتي قليلاً رغم تذكيرها لي لأن أخفضه. أشعر أنها لم تعد معي أبداً. أنهض عن الطبلية وأحدث صريراً. تلتفت روحية تجاه غرفتها، وإذا بك تنتصب أمامنا في شورت وقميص من القطن، حافي القدمين، تفرك عينيك كأنك نزلت من كوّة السقف بلا صوت. أسرعت روحية تضع يدها على كتفك وتبادرك «يا حبيب القلب هيدي بيجامتك أو كلسونك؟» ضحكت أنا مداراة لخجلي، بينما أنت لاتزال تفرك عينيك تنظر إليّ مستغرباً وجودي: «انه شورت لا بيجامة ولا كلسون» أجدني أضحك مداراة لإحراجي لأنّها لم تعرّفني بك، «مش إسمهان» دهشتي تعقد لساني. تسألك باستهجان كيف عرفتني ثم لتتدارك هي بأنك لا بد عرفتني من كثرة ما تحدّثك عني. لكنّك تقول: «ولو ما كانت دايماً تجي لعندك، ومرّة اجا الصبي شو كان اسمه يا جواد... ابن المنجد، اسمه كان عبد الله، اجا وراي عالقهوة هو والستّ أسمهان ماشية معه وقال لي بنت خالتك روحية بدها اياك. وأنا قمت وسألته: شو بدها؟ حططت نظرك عليّ للحظة وأكملت»: «وحضرتك سألتيني: صحيح بتعيش ببيروت؟ وصحيح

بتروح عمدرسة اللي بالجامعة، وصحيح عندك سيّارة؟ وأنا جاوبت مضبوط بعيش ببيروت، وبروح عمدرسة حد الجامعة. وأبوي عنده سيّارة» وقلتيلي: «طيّب مازالك هيك روحية بدها ياك تتجوزّني».

أضحك بخجل رغم سعادتي بما تقوله. ثم أشعر بالقليل من الحزن وخيبة الأمل. صراحتك في الكلام وهذه الراحة بينك وبين نفسك تدل على أنّك تأخذني كروحية، كأي قريبة لا تمت إلى دنياك. لا كفتاة وجدت نفسك قد جذبت إليها، وتكمل: بأنك داعبتني وقتها قائلاً بأني قد وجدت العريس لتسألني بدورك من أكون وعندما أجبتك باسمي جدّتي وجدّي تمتمت: «ما هذه الورطة؟» بينما أخذت أبكي وأهرب راكضة رغم نداء روحية.

تضرب روحية كفّاً على كف صائحة: «ولك يا سعدان السعادين ولك تقبرني أنا وطيبة وتبحشلي وتطمني، والله أنا مش دايرة بالي. انت داير بالك؟ يا اسمهان. بسم الله الرحمن الرحيم، ولك بعدو بيتذكّر الكسر اللي بالطاولة مش سألني عنها، قال لازم يتأكد إذا هو عم يحلم بالكسر وهو حقيقة».

لا أذكر، ما أسمعه هو جديد على ذاكرتي. أحاول. الآن، أحاول وأرى نفسي أمام الباذنجان والكوسى والقرنبيط المقلي. اسمع روحية تكلم أمّها بحنان تارة وبضيق تارة والعجوز الأمّ تطلب اللحمة. إلى أن صاحت بها روحية: «شو بقطعلك لحمة من فخذي وبدقها كبة، اليوم ما فيش لحمة بالسوق». ودنت من الصحن تتناوله من أمامها مهدّدة: «بدّي طعميه للقطط» وأخذت تنوء نو نو نو تعو كلو، أمي شبعانة» تعود أنت إلى التمطّي بينما أشعر بالارتباك لأنّكما نسيتما وجودي، افكّر بالتشاغل ثم بالانسحاب. أودّ لو أعلّق على ما يتحدثان لكنّي لم أستطع أن أفكّر بكلمة واحدة أقولها. تعود أنت إلى التثاؤب. وأشعر من جديد بأنّ هذه الراحة بينك وبين نفسك إنما تستمدّها من شعورك بأنّي عانس. أو أني كروحيّة أصدح بالمواويل وأقلي الباذنجان وأندب زوجي وأفرد الفرش تحت الشمس. ترى هل تعرف أنّي مهندسة في فنّ العمار؟

لم أتوقّف طوال الطريق عن تسديد اللوم إلى نفسي من جرّاء ارتباكي أزاء كل حركة قمت بها، إزاء كل كلمة، حتى إزاء صمتي وكيفيّة جلوسي. وكيف أنّي حاولت التسلّل إليك عن قرب بقولي: «الظاهر قيّمتك من النوم». كأني أردت أن أوحي لك بأنّي كنت معك في غرفتك، قريبة من شعر فخذيك، أوقظك. أجدني أتمنى ذلك، أهزّ رأيي وأكمل سيري وأهمس لنفسي بصوت أسمعه: «يا بنت انت مش طبيعية». أفكّر إذا كنت سأزور روحية في الغدّ وأتردّد. رغم أنّي اعتدت على زيارتها كلّ يوم. أقرّر بأنّي لن أغادر البيت في الغد، أعرف أنّي أدخل الاطمئنان إلى نفسي وأنا أفكّر وكلّي يقين بأن الضجر ورتابة الحياة في القرية ستجد طريقها إليك في القريب العاجل ولا بدّ أن تقصدني مع روحية لكن اهتماماتي أخذت طريقاً آخر منذ أن صحوت على هتاف زمزم.. هيدا يحي.. ريكاردو اي والله ابن أخي فضيلة.. «غير معقول» قلت في نفسي إذ كنت أفكّر بمّا حلّ به وبعمّته فضيلة وأنا أسمع الأخبار بأنّهم يقبضون على كلّ منتم إلى حزب الله. يبدو أنّ هدسي بهما كان قويّاً، حقيقياً، حتى وجد ريكاردو نفسه مسيّراً إلى بيتنا القابع بين الأشجار الواقفة الميتة، وبين الغرسات المزدهرة باللون القرمزي.

«ريكاردو، ريكاردو» قلت لنفسي وأنا أهبّ من فراشي، وألبس الجينز والقميص فوق قميص نومي. ريكاردو يقف حائراً على مصطبتنا وبقربه مسلم، بينما نعيمة تنهال على حفيدها بالأسئلة: «ليش وين كان عم يسأل؟ عن أي طريق جاء». ثم تسأل ريكاردو باللهجة نفسها «عمتك ببيروت؟ ومين الكسبان أمل؟، وانت قطعت عند المسيحية». وكأنّ ريكاردو لم يكن يتوقّع رؤيتي، أو لعلّه يطلب حمايتي من هذه الأفواه، إذ أخذ ينظر إليّ بعيني مصعوقتين. يجلس ريكاردو على حافة المصطبة كمعظم الزائرين سواء كانوا من الشباب أم الرجال، يجلس ببساطة وهو لايزال ممسكاً بحقيبة سفر تشبه حقائب البائعين المتجوّلين، أو حقيبة ارتسمت فوق جلدها البنّي خربشات وكأنّها تعكس جروح من يحملها. اختصر ريكاردو كلامه كالعادة قائلاً إنّه جاء عن طريق عرمون وانه استقلّ سيّارة

أجرة. أشفقت على يحيى، ريكاردو، الجالس على حافة المصطبة الحارقة كمذنب في قفص الاتهام أو كطفل ينتظر أن يتعرّف عليه أهله. ببنطلونه العتيق وقميصه البالي. طريقته المنحنية في الجلوس لم تساعده في جلب نظرة أخرى من نعيمة. كنت أنظر إليه والشوق لأن أضمّه إليّ يزداد، لكنّ هذه المرّة بطريقة مختلفة عن المرّة الأولى التي ضمّني بها إليه ذات ليلة. عندما وقف كالطفل عند باب حديقتنا الحديدي والمطر يهطل فوقنا. خواطر متدافعة تدفّقت على فكري وأنا أمدّ يدي أتناول منه الورق الملفوف الثقيل. هل هي قنابل، رصاص، مسدّس، مال؟ وعندما أخذت وقتاً لأفتح الكيس، سمعته يقول: «إن شاء الله تعجبك، بقولوا الماما عطتني اياها وأنا صغير». وضعت يدي في الكيس وأخرجت شيئاً كأنّه من معدن. وكانت العتمة تخيّم علينا لذلك أشعل ريكاردو عود ثقاب وأدناه من هذا الشيء الذي كنت أحدّق به وأنا أحاول أن أتبيّنه في العتمة. كان رجلاً صغيراً من معدن ذهبي يمسك عصا حمراء بيد وترسا باليد الأخرى، فمه عبارة عن كهف مفتوح وقامته صغيرة ثم رجلاً آخر وآخر وكوخاً مكوّناً من رأس إنسان.

أشعل ريكاردو وقتها عود ثقاب ثم آخر وآخر وأنا كالمخدّرة، أتساءل إذا كنت في حلم. فأنا لم أعد أرى شيئاً جديداً كهذا في بيروت. إذا قامت الدكاكين باستيراد الجديد فهي الأشياء البراقة والستانليس ستيل التي ينقصها الذوق. فالمشتري الذي كان يفرض ذوقه على البائع لم يعد موجوداً، والجملة الشائعة «زورونا تجدوا ما يسرّكم» اختفت عن زجاج الدكاكين. لقد انهمكنا بحربنا وبشقائنا لدرجة أنّنا لم نعد نتنبّه إلى وجود بلاد أخرى في العالم، وها هي التماثيل أو أحجار الشطرنج الأفريقية تبشر بوجود بلاد أخرى، حضارات أخرى وبالأمل بالهجرة والعيش فيها. فرحتي بهذه التماثيل كانت لا توصف، أسأل ريكاردو أنا أعيدها إلى الكيس، إذا كان باستطاعتي الاحتفاظ بها إلى الغد، حتى أراها في وضح النهار من غير أن يغرب عن بالي التساؤل كيف خطر بباله أن يأتيني بها، لكنه أجابني «هذه لك»، علت وجهي السخونة وأنا

أرفض قائلة «بأنّها ذكرى من أمك» أجابني لدهشتي: «معك بطمئن عليهم أكثر، عمّتي ترميهم أو تعطيهم لأحد». كنت أشعر بأنّ زياراته لنا لم تكن فقط من أجل شكواه لعمّته ولا من أجل استشارتي في حياته فقط. كنت ألاحظ إرتباكي أمام عينيه اللتين كانتا تنتقلان من وجهي إلى صدري إلى يدي. ألاحظ نبض شريان رقبته الذي كان يودّ أن يفرّ منه بين لحظة وأخرى. ومع ذلك أُحكم لفّ العباءة عليّ أو أبدّلها بارتداء ملابسي. النور الذي أتى من عود الثقاب جعلني أرى جمال وجهه الحنطي وعينيه اللتين كانتا تشبهان اللوزة وأسنانه الناصعة البياض، مع ذلك لم تكن هي الدافع لأن أتركه يعانقني. بل دوافع كثيرة ساهمت بقبولي: خاصة. شهوته لي التي جعلته يرتعش ما أن لامس جسمه صدري. تظاهرت بأنّي لم أفهم ما جرى له. رغم أنّه لبث جامداً، خائفاً خجلاً بأنفاسه التي انتظرتها حتى هدأت لأنسحب من ثقل رأسه وصدره وأنا أفكر لو حدث هذا في الحلم لم أكن لأصدّقه.

وما ان ابتسمت له سائلة: شو يا ريكاردو؟ رغم أنّ القلق تملّكني من أن يكون قد لجأ إلينا حتى تروق الأحوال.. إذ بلدتنا لم تعد كما من قبل تستقبل الغرباء، حتى اندلقت كلماته التي لا بد أنها كانت محبوسه طويلاً في داخله والتي أخذت تتنافس مع غيرها على شفتيه.. عن الذين رأهم يدخلون البيوت، يبحثون عن المنتمين إلى الحزب، أينما كان، تحت الأسرّة، فوق السطوح، في التنخيته. وكانت عمّته قد حبسته كما كانت تحبس أخاها المجنون، ولم يتململ ريكاردو في حبسه، بل تمنّى لو تخفيه، لو تهرب به إلى أيّ مكان، ما عدا الوقوع في أيديهم. فقد ألقوا القبض على كاظم وعلى الشيخ الوسيم ولا بد أن دوره آت. فبسّام، الذي كان يلازمهم من حين إلى آخر ظهر على حقيقته «مخبراً» ولا بد أنه سوف يشي به. لاحظت العصبية التي طغت على تقاسيم ريكاردو حتى وهو يشدّ على الكلمات وقد أطرق إلى الأرض قبل أن يخفض صوته: «صارت عمّتي تجن بدها تسفّرني، وصارت تفتّش على حق التذكرة، وأنا وعدتها ببعتلها إيّاها لما جمّع كم قرش، بس أنا ما فكّرت إلا الحقكم».

ثم مدّ يده إلى جيب قميصه وأخرج ورقة قدّمها لي بتردّد قائلاً: «هيدي من عمّتي. قرأت خطّ فضيلة: «دخيلك يا أسمى، سفّريه بأيّ طريقة لن أنسى فضلك وأتعابك. عندي مبرومتين ذهب عيار ٢٢ وفهمك كفاية».

أطوي الرسالة والمبرومتان تعودان إلى فكري. تحيطان برسغها المتلئ الأبيض. الذهبيتان اللتان وعدتني فضيلة بهما إذا تزوجت. وعدت زوجة خالها لأن تبيعها وتجعل أشهر الأطبّاء يكشفون عليها، وعدت ابن خالتها بها، وعدت بها الطبيب في مستشفى الأمراض العقلية حيث أمّها. وفيما البيت كله متحلّق حول ريكاردو جاءت امرأة بمرسال من بيت الثلاث بنات فوق الربوة، تسأل إذا كان الأفغانستاني الذي يزورنا إنما جاء إلى القرية من أجلهم وضلّ طريقه، ضحكنا جميعاً فلون بشرة ريكاردو هي التي اختلطت على أهالي القريه. وبقي ريكاردو عندنا يومين قبل أن تصحبه زمزم إلى مطار دمشق وفي يده بطاقة سفر ذهاب من غير إياب إلى أفريقيا.. وبحوزته قمصان قديمة كانت لجدّي وقمصان قطنية خاصتي ومبلغ من الدولارات. ورسالة من الضابط المسؤول عن منطقتنا في بيروت يطلب من الأجهزة السورية تسهيل أمر المدعو، يحي ريكاردو، المعروف لديه شخصياً وألا يختلط عليهم لكنته غير العربية، وبأنّه وعائلته من الموالين المخلصين.

وأنا أراه يسير فوق التراب ببنطلونه القديم، بحذائه القديم، وبحقيبته ذات الجروح، أعرف أني سأمرّ في خياله عندما يختلي بامرأة. لن يخبرها عنّي، بل لن يفتح فمه. سيفكّر ان فتحه لعينيه كافٍ فهو قد أغمضهما طويلاً. لن يتحدّث إليها إلاّ بفكره. هل سيعبر عن نفسه وهو في سورية أو أنّه سيلوذ بالصمت. أني أحمل همّه كأنّه جبل. لم أستطع إلاّ أن أفكّر بأنّه يسحب منّي العضل الذي كان يجعلني أقف على قدميّ مع كل خطوة كان يخطوها ويبتعد بها... كأنه يسحب منّي الطمأنينة التي أحاطني بها من غير أن يدري.. فهو قد أعادني داخل الأحداث التي كنت قد أصبحت خارجها برحيل ناصر. وبترك سيمون للغربيّة. ريكاردو الذي أتى

من أفريقيا، يعيد أسمهان في بيروت إلى قلب بيروت، ويدخلها من باب آخر يختلف عن الباب الذي أدخلني منه ناصر، فالأحداث كأنّها في مكان يشبه ثمرة الجوزة، فيها غرف متشابكة، مجوّفة، منفصلة في آن. كنت كلّما دخلت الأحداث وجدت نفسي أنتعش حيّة من جديد مهتمّة بالاتّصال بالنّاس والطرقات وبلب المدينة. ولم أستطع إلا أن أهزّ رأسي أسفاً وأنا أفكّر أنّه جاء يحارب بين صفوف الشيعة وإذا بهم يحاربون بعضهم بعضاً. وبأنّه يرحل.. وبرحيله يجعلني أطوي صفحة.

اكتشفت أني كنت مخطئة حيالك فأنت لم تشعر بالضجر بل كنت تتمنى لو أنّ النهار يحمل الساعات الأطول. ولم يكن الليل محسوباً لديك، الليل كان لتكتب في مفكرتك بجلدتها البنيّة وقلمك الحبر الأسود التخين. تجلس وتفكّر بمن التقيت. جملة فلان. جملة فلانة. الطريق الفرعية التي بحثت عنها طويلاً ولم تصدّق أنّه شُيّدت مكانها هذه الفيلا ذات الحجر القبيح. حتى أنك جملتني أنا أيضاً، وأطلقت عليّ عروستي الصغيرة اسمهان التي أصبحت تدخن السيكارة وتشرب القهوة مرّة وتحب النبيذ، والكتب أيضاً. وأنّ أسمهان التي كانت مرتّبة مهندمة في الصغر عندما جاءت تطلب يدك أصبحت غجرية، ربما لم تمرّ المياه على شعرها، منذ أشهر، فساتينها تذكر بلفظة الكيمونو باللوحات الإيطالية، وكتبت عن روحية، بأنّ روحها لم تزل مدلوقه حتى على بلاطة الكبّة. روحها تهيمن حتى على كوب الشاي: فاجأتك بأسنانها المتآكلة وكأن طير «ناقر الخشب» قد قضم لها أسنانها وهي نائمة. وحالة أسنان روحية قد هانت أمام أسنان الآخرين التي كلّها بلون التبغ وبلون الصدأ والتي كأنها أقلام بُريت حتى وصلت إلى كعبها. هذه الأسنان هي التي تدلّ على حالة البلد الاقتصادية والنفسية اكثر من الدراسات والإحصاءات الاجتماعية ثم ليضيف بأنّك قد عزمت على إصلاح أسنان روحية عند طبيب أسنان برجيبت باردو الخاص.

نتحلّق حولك وأعيننا تكاد تلامس القلم التخين، بينما روحية تشعر بالفخر وكأنّها تنجز عملاً سيساعد البشرية لقرون منذ الآن.

وكأنّها تساهم في حياتك الأدبية مساهمة فعلية. أفرح للطريقة التي وصفتني بها وأشعر بالرغبة لألتصق بك لكن حماسك لكلّ شيء في الماضي جعلني أنتقد أحاسيسك الساذجة وأنتقد بل أكره حملك لآلة التصوير وتصويب عدستها إلى كلّ شيء وأنا أشعر بأننا تحوّلنا جميعنا فجأة إلى عيّنات تحت مجهرك تدرسنا. ووجدتني أنهض وكلّي ندم لأنّي تحلّقت حولك فرحة وأنت تكتب في مفكرتك المرتّبة وبقلمك التخين.

لم يدم هذا النفور أكثر من يوم وليلة. منذ ابتعادي عن بيت روحية. إذ لم أتمنّ في اليوم التالي إلاّ أن أكون في عتمة بيتها، أتحلّق حولك مستمتعة بحديثك إذ بتّ في حضرتك مترقّبة ومتلهّفة لجملة منك تخصّني باهتمام متمنّية لو تلمس كفّك أي جزء منّي. حتى فستاني. كنت أفكّر وأنا أرى أسنانك وأنت تضحك. الا يحتاج هذا الفمّ ليطبق على فمي؟ وهذان الفخذان ليحفّا على فخذي، أم أنك لم تفكّر بأنّي ما زلت عذراء؟ أني كروحية أحببت شخصاً ولم أزل أعيش على ذكراه؟ أم أنّك لا ترى سوى الشعيرات البيضاء القليلة بين خصلات شعري. والتجاعيد عند جبهتي؟ أم أنك تلاحظ عروق كفّي الظاهرة، رغم أنّي بت أحرص على رفعها وكأنّي امرأة هندية أو غيشا يابانية، حتى ترتاح العروق.

إنها بيلي هوليدي، عليّ أن أمتنع عن سماعها، أنها تؤجّج عاطفتي بصوتها المجروح وبندائها للرجل، وكأنّها قطّة في شهر نيسان. ثم أجدني أوجّه اللوم إلى اللّهب الجاف الذي يتصاعد من الأرض ويدخل حتى في أوردة الأشجار. ويجعلني ملتصقة بهذه البلاد. أطلق عليها «بلاداً» لأنّها ممتدّة بلا أفق. الجبال عالية والسهول منخفضة والسماء تكاد تلصق بأرضها. كأنه لا يوجد بيروت؟ وأنا في صفوفي الثانوية والجامعية، والشمس قد لوّحت لي شعري؟

أتمدّد في السرير وأتي بمرآة لأرى ما سوف ترى وأنت إلى جانبي أو إذا اعتليتني: هل سترى هذا الشريان عند صدغي، أو الشعيرات عند منتصف حاجبي أو الاحتقان عند جانبي أنفي. كلّما

حاولت أن أوقف من سيل خيالي تزداد رغبتي لأن أكون معك. أسير وأجلس وأنا أسترجع صوتك، أسمع ما أودّ سماعه منك وهكذا إلى أن أطللت مع روحية بعد هذا الظهر. وإذ بهوسي بك يتحوّل إلى شعوري الأوّل! الضيق بك وأنا أراك تنزل مع جدّي من المصطبة إلى الأراضي وتستمع إليه بكلّ اهتمام. يدك تقطف زهرة الخشخاش واحدة ثم ثانية تدنيها من فمك وتلتفت إلى حيث جدّي يشير. أسمع ضحكتك أشعر بالنفور أيضاً من روحية التي تبدو مختلفة اليوم، جميلة بشعرها الذي صبغته في الحنّاء. وبالكحل العربي الذي يحيط بعينيها، وبالحمرة الزهرية الخفيفة فوق شفتيها وبتايورها القديم الموضة إنما الأنيق.. وكأني أشعر بأن اهتمامها بشكلها هذا قد أبعد عاطفتها عني أيضاً.

وأكتشف بسرعة أني لم أكن وراء زيارتكما لبيتنا منذ أن مدّت روحية يدها تحيطني، بل من أجل جدّي ورسّام الشهداء ومجلس تعزية عن روح الشهيد ابن كوثر. تهمس بأذني أنها تخاف أن تفصح عن المجلس لك، فتصرّ على اصطحابها خاصة أن المجلس مقصور على النّساء وهي لا تريدك أن تفكر بحيلة أو بأخرى لتدخل وتسمعها. تخاف من الضحك إذا لمحت أحداً من عائلتها.

لكني أجد نفسي أجيبها بلؤم: «مهندسة حالك هالتهندس وانت رايحة عالعزاء؟

«حلفت أمه على الكلّ لايجي بالأسود ولا أحد يبكي. قالت شهيد عمره تحت العشرين رايح عالجنّة». أندم على فظاظتي لأداعبها قائلة بأنها تبدو صغيرة وجميلة على غير عادة!

أجابتني وهي تقبّلني على خدّي: ولك تسلميلي يا حبيبة القلب. الهندمة بدها وقت وَجَلَد. ولين بدّي هندم حالي: للذبان؟ انت عندك بيروت وناس وأصحاب وأحباب».

أراك تلتفت صوب الخادمة الجديدة «صوما» كيفما تحرّكت. كانت كعادتها تسير ببطء شديد وكأنّها تخاف من التزحلق إذا هي عجلت الخطى، وهي تنحني تجمع غصناً جافاً، أوراق شجرة،

ورأس الحبقة المزهر من أجل تمثال البوذا الذي صدرته في غرفتها. ولم تكن تنسى أن تشك في ضفيرتها أي لون، خاصة أطباق وردة الجنّ الصفراء، والتي كانت تغلق نفسها في الليل. لا بدّ أنك ترى اسمرارها عجيباً بالنسبة إلى سحنتنا الفاتحة اللون، خاصة أنّ لهجتها أصبحت لهجة أهالي الضيعة.

صوما هي المرأة التي حلّت في بيتنا وأصبحت من حصّة جدّي في اللمس والقرص والعض، ولا بدّ في أشياء أخرى. محت جهينة وشعر جهينة، إذ كان شعرها الطويل يصل إلى ما تحت الخصر. مضت أيام قبل أن يعتاد الكلّ على اسمها. صوفا، صومنا، صوبيا لتشغل البيت كلّه بأخبارها منذ أن اختارت العراء لأخذ حمامها في المرّة الأولى قرب قسطل الحنفية الذي يمتدّ كثعبان من الحاووز إلى طرف المصطبة، لم تغط جسمها برغوة الصابونة التي أعطتها إياها زمزم بل بزيت الطبخ وبحجر التقطته ودقّته حتى أصبح جسمها ينادي من التماعه، تكوّمت نساء البيت يزغطن وكأنهن دجاجات متعجبة أمام عريها إلا من سروالها التحتي. ربّما لأنّها تعبد بوذا لم يهرعن إليها يخبرنها عن الحرام والحلال. بل أخذن يراقبنها وكأنهن أمام فيلم سينمائي وهي تستحم ثم وهي تجفف نفسها وتسرّح شعرها وتعيد تبخيخه بالزيت الذي أفرغته في قنينة الدواء.

لم تكن تمانع لمسات جدّي مهما كانت غير بريئة لكنها كانت تستفظع القرص والعضّ، وهي تتساءل لماذا يؤذي اللحم المستسلم الذي هو طوعه، كما هو طوع العمل والجدّ الاسترخاء ويعكّر صفاء لونه؟ كأن تسلية جدّي أصبحت من روتين عمله، فما أن تفرغ من تناول طعام الغداء حتى تدخل غرفته بعد أن يسبقها إليها، حاملة فنجان الزهورات، بكل هدوء وبثقة وكأنّها لا تريد أن تخفي ما تفعله عن الجميع حتى أمام جدّتي. وفي المساء أيضاً، كانت تنتظره حتى يناديها، فتبتسم لنا وهي تنهض وكأنّ ساعة عملها قد حانت. من يدري ربّما كانت ابتسامتها توحي بأنّ ملامسة صاحب البيت لها يعزّز طموحها بأنّها امرأة كادحة وهي ترى نفسها في فراشه.

أحزر أن روحية قد أخبرتك عن جدّي إذ أخذت تنتقل بعينيك بين

جدّي وصوما. تلدغني عدائيتي كعقرب، فأحاول بدوري لدغ روحية فاقول باستهزاء وكأني جهينة: «شو مبيّن جواد عم يستنطق جدّي يمكن يفكّر بيكتب شي كتاب عن بيتنا وعن الضيعة».

«راح يجنّ ليروح عند بيت رسام الشهداء، أنا قلت بتروحي معه لعندهم!».

عدت الدغها: «آخذه معي؟ حتى ينشر أخبارنا على صنوبر بيروت».

تجفل روحية من لدغة العقرب هذه ثم وكأنّها تداوي ألمها لا بالصراخ بل بالانتقام «فتخبرني بأنّها قد لاحظت جفافي تجاهك بل مضايقتي ولو انها لا تعرفني جيّداً لكانت أيقنت أنّ عدم وقوعك في حبّي هو السبب، مضيفة أنّ أيّ مجلّة تستحوذ على اهتمامي أكثر من كتبك..

لم تكن لدغتها انتقاماً أو فشّة خلق. إنّها تحاول أن تصل إلى صميمي. كأنّها تحاول أن تكمش من غير أن تدري ما يكويني من عقد وأحاسيس وتفكير. كأنها تعرف أن من المفروض أن مستقبلاً باهراً كان في انتظاري، سواء في العمل أو الزواج أو الجمال. فأنا قد تخّرجت بدرجة امتياز جامعية في فنّ هندسة العمار وكانت مشاريعي تكاد لا تعدّ من كثرتها، تمتد من أجمل البقع في أراضينا إلى بيروت، كانت روحية شاهدة على حماسي أمام ما كنت الاحظه وأدوّنه من فنّ هندسة فطرية في بيوت البلدة.. وعلى أوراق هندسية كان مصيرها الاصفرار والتشتّت. وماذا كانت النتيجة؟ غير سكائر وقهوة ونوم وصمت وضحك وفشّات خلق. لم يكن يجب أن أكشف نفسي أمامها، أزورها كل يوم وأجلس الساعات معها. بل أعتكف في البيت أوحي لها بأنّي جد منشغلة بأمر مهم أو ربّما كان عليّ زيارتها وأنا أرتدي ما هو غال وجميل بمفهومها، تماماً كما رأيتني وأنا صغيرة، لا بملابسي «الأسمال» هذه كما تصفها جدتي ودائماً هي المحقّة، على الإنسان أن يغلف نفسه دائماً بغلاف ملوّن، جذّاب، شهي للفتح وللفضول. أتركها على المصطبة، أدخل البيت وأكتشف

بعد ثوان أني لست متضايقة من روحية بل اني قد سببت لها الألم عن قصد. أخرج من جديد إليها ضاحكة وأضمّها إليّ وأبكي ولا أتوقّف عند سماعي خطواتك على المصطبة بل أزيد منه كلّما خطر ببالي أنك تفكر الآن بأني واحدة من شقيقات تشكيوف الثلاث خاصة أني أحطت نفس بشال جدّتي الأزرق الحريري المطرّز. لأوّل مرّة أجد روحية تتصرّف من غير صوتها فلا تجيب استفسار جدّي بل تدخلني الردهة حيث المغسلة، تغسل لي وجهي وتمسح لي شعري بالقليل من الماء، أجدني أستسلم لأصابعها الخشنة وأجهش في الضحك. أنظر إليها وأضحك، تبادلني الضحك من غير أن تنسى أن تلعن الشيطان، لكنها تريد الانفلات من القصّة بسرعة وتقول: «يللا خلليني فوت سلّم على جدّتك».

– «وأنا بعمل الشاي».

أخرج بصينية الشاي وكلّي ثقة بهذا الشعور الجديد. أتحاشى النظر إليك ولا أعيرك أدنى اهتمام. أجلس أستمع إلى مياه الحاووز. وأراقب الصناديق المتراصّة وكميون الشحن والطرق البعيدة المتعرّجة. وأستحضر ما يجري في بيروت، وأضغط على عقلي حتى يئن قلقاً على ريكاردو ويتساءل عما يحدث له، ويناقش أمر المحتلّين، وأمر الغلاء والأحزاب. أسمعك ما أفكّر به عند سؤالك لي بماذا أفكّر، لأعود ألوذ بالصمت وأحدّق بعيداً وأنت توجّه لي كلامك، عندما تشعر ببرودي تنتقل إلى الاهتمام بجدّي، تسأله عن حكاية الأراضي وتستفهم منه عن التفاصيل، لِتُسمع بكل شغف وتلتقط ما تصطاده بالطعم الذي كنت ترميه في البحر الواسع.

اكتشفت وأنا أسير معك متّجهة إلى بيت رسّام الشهداء بأنّي أسير على كتل من اللحم طريّة لدرجة أنّها كادت توقعني أيضاً. إنك تزعزع ثقتي بنفسي. منذ أن أستيقظت ووقفت تفرك عينيك وتتثاءب، انه شعوري بالفشل. بعدم تحقيق النفس.. لكن من أين لك أن تعرف أنّي لم أحقّق نفسي. أجد نفسي الآن أتحاشى حتى أن يصدر عني نفس واحد أو زفرة أخرى. رغم أنّ كلّ من يدبّ فوق هذه الطرق المحفّرة لا بدّ أن يلهث. وكانت الضيعة تنغل كأنّها مدينة. بنات

يتمشين على حدّة ومسلّحون في سيّارات الجيب أو على بوطات سميكة، يتأملون البنات.. أو يتسامرون فيما بينهم، تعلّق أنت: «شوفي شوفي التغيير من زمان كان المشوار عالعين! عالصحراء! هلّق عالقهوة... هالله هالله يا دنيا». استغربت أنك لم تزل تستعمل هذه التعابير وهذه اللهجة القروية كأنّك لم تعش حتى في بيروت. فلهجتك المدنية تبدو مصطنعة، كزمزم عندما تضع مجهوداً للاندماج بأجواء بيروت. أتساءل الآن ماذا يحدث لي، كأنّي لم أسر من قبل مع شاب، صديق. أو حتى عشيق، إذ أسير وجزء بسيط منّي فقط يسير في الحياة ويرى الطريق والمارّة وما تلمحه العين، بينما الاحظ أنّ خطواتي تتبع كلامي المتعثّر وأفكاري حين أفكّر لماذا اصطحبك إذا كان تحرّك بي شعور الضيق هذا؟ نقترب من الطريق الفرعية التي تؤدّي إلى بيت البنات عند التلّة وحيث مختبر المخدّرات. أتمنى لو أرى الشاب الأجنبي الأشقر حتى ينظر إليّ وأنظر إليه. ثم يلوح قميص الرسّام مشهوراً على حبل بين شجرتين. وكان الباب خالياً من السيّارة الفخمة السوداء التي اعتادت أن تسدّ مدخله.

ما أن أطللت عليهم حتى تأهّل بي الجميع. وهذا التأهّل زاد من ثقتي أمامك لكن وأنا أهمّ بسؤال أمّ الرسّام عن ابنها شهقت وهي تتعرف عليك. كان التأهيل بك يفوق التأهيل بي حتى في المرّة الأولى التي قصدت بيت الرسّام. كل ما كان مخبّأ من حلوى ومخلوطة وضع أمامنا وبالأحرى أمامك.

ويبدو أن الرسّام لم يكن موجوداً إذ صاحت أمّه: «يللا لابعت لك وراه» تميل إليّ «يا ريت بفرنسا إذا حدا إجا يشوفني وما كنت بالبيت بيبعتو وراي»... أجيب بلؤم: «ولو حتى بيروت ما عاد حدا بيبعت ورا حدا» ثم استدرك قائلة: إن هذه العادات انقرضت، لكنك شخصية مهمّة..

عندما سئلت عن فرنسا لم أستطع التكهّن إذا كانت أجوبتك حقيقة. ثم ولأوّل مرّة منذ زمان استحضر الشعور بأنّي من عائلة تملك هذا التراب وبأنّها كانت تتدخّل غصباً عنها في شقوق هذه البيوت ومسام هذه الأجسام فتمدّها بالأوكسجين أو تسدّه عنها.

أرى نفسي الآن وحيدة. لقد نسوا من أنا. إنّهم يضمونني إلى شقوقهم. أجلس معهم وكأنّي أنظر معهم بإعجاب إليك.

أجدني أمتعض من هذا الشعور، الذي يذكّرني بجدّتي والذي أعاني منه الآن رغم انتقادي الدائم لها في الماضي. كانت جدّتي قد عاتبتني لأنّي صعدت في سيارة أخي الرسّام الذي وصل الآن والذي لم يفلت يده من يدك إذ سألتني وقتها استهزاء: «شو بالله عرفت بيت أبو شوقي كم صار عندهم دجاجة وبقرة وسيارة؟» تمنيت لو أجيبها بأنّ الأيّام الماضية لن تعود وبأنّ اللواتي يزرنها الآن إنما يزرن الماضي الذي ربّما ذكراه تسعدهن إذا ما قورن بالأيّام الحاضرة. فهي أصبحت للسلوى المؤقّتة، «كزيارة القبور عندما تضيق الصدور» وبأنّها قد أصبحت مثلهم وبأنّها لا حول ولا قوّة لها.

أنظر في وجوههم من جديد، غير مصدّقة أنّ عائلتي قد انطمرت أمامهم الآن. رغم أنّ الحرب أفرزت عائلات أخرى. لكن يجب أن تظلّ الذكرى تهيمن على كل ما هو جديد. أتمنى لو أذكرهم واحداً واحداً بعائلتي، لكنّي أتوقّف، بل أجلس وابتسامة تشفّ على وجهي، وأنا أفكّر بالماضي استجلب الصور والمشاهد، فتمنحني قوّة.. أفكّر كيف كانت الأقدام في الماضي تكاد تهرس جميع هؤلاء الشباب وهم صغار يلحقون بالصخب الذي خلفته عائلتي سواء إبان احتفالها بالمناسبات الدينية أم الانتخابات السياسية إذ وعائلتي تحتفل بالمرشّح الفائز: كانت البساتي والأراضي وكلّ شقّ عليه التراب يتحوّل إلى ساحة للأكل. تذبح الخرفان بعد أن تسمع نداءاتها الأخيرة من بعيد عند الفجر، فأسرع لأرى الرجال وهم يسلخون جلدها بينما الأيدي والأعين على فروها الصوفي، رغم أنّ القرار كان يعود إلى جدّتي بما سوف تفعل بها ولمن تعطيها. لتنتشر نساء القرية في الساحة وهن يوقدن المواقد ويقمن بحقن البوابير وشيّ اللحوم، ويطردن القطط والكلاب من حولهن، كذلك الذباب والأطفال، هكذا ولساعات، إلى أن تجمع كل البوابير الساخنة والتي يبدو عليها التعب إذ كانت نارها تنوص ثم تطفئ

المواقد، بعد أن تدلق الماء عليها لتحدث صوتاً أشبه بالهمس: وش وش ثم تصفّ القدور كلّها في الساحة عند المطبخ، تنتظر نعيمة وزمزم حتى تضعا الأرز في صدور من القشّ، تمهّدانه بيديهما وهما تختلسان سفّ الأرز بين حين وآخر. عندما تبدو جميع الصدور كأحواض ملح أو كبقع ثلجية ناصعة البياض، يحين دور جدّتي التي كانت تقترب وهي بكامل زينتها ترفع نظرها إلى السماء، تبتهل قبل أن ترفع كمّ فستانها الطويل وتحكم إدخاله ببعضه فيبدو زندها الأبيض الجميل، تنحني وهي تبسمل وتغمض عينيها ثم تبتدئ بوضع يدها في قدور اللحم التي لا بدّ أنّها أصبحت دافئة. وكانت تصفّ اللحم فوق الأرز في تأنّ وهي تمسكها كأنّها من زجاج. تبدّل رأيها في النهاية فتأخذ واحدة من هذا الصدر وتضعها على الآخر. في هذه الأثناء تكون البوسطات قد بدأت بالوصول. كل واحدة تحمل بيرق ضيعتها. وسرعان ما كانت تخلي النساء المكان وتتجمّع قرب ساحة المطبخ فوق صدور الطعام بينما يكبّ الرجال في أرجاء الساحة فوق الصدور الأخرى ولا ينهضون عنها إلاّ وهي فارغة. يتقدّم عندها المرشّح الفائز فيخطب بهم. هكذا إلى أن يسمع النفير ويرفرف البيرق في يد الخيّال، عندها يلتمّ الرجال والنساء ليغادروا تاركين أمكنتهم لركّاب البوسطات الأخرى من القرى الأخرى لتحتفل بالمرشّح الفائز. فتتقدّمهم موسيقى النوبة بطبولها وبالصيادج ويؤتى بالصواني والطعام من جديد.

النفير يعلو والبيرق يرفرف في يد الخيّال، وبدلاً من أن يرفع الفائز على الأكتاف كانوا يرفعون جدّي وهو يحاول التملّص منهم مع أنّ السعادة لا بدّ أنّا كانت تستخفّه كلّما ارتفع عن الأرض. في المساء كان يستعيد وجدّتي وقائع النهار فينتقد المرشّح الفائز ويستهزئان به، كيف سار كف ارتبك كيف وقف معتزّاً بجديّة وهو يتلو خطاباً، كيف أتى له أبو مصطفى. بناء على طلب جدّي بالكسملة الخشبية حتى يقف ويظهر بين الجموع. ثم كيف صدق والده أنّ ابنه شخصية، بينما انحنت أمّه تقبّل يد جدّتي.

يدخل الرسّام فجأة وكأنّه زوبعة. يصافحك ويشدّ على يدك

ويحييني قائلاً: أهلاً «ستنا». لكن الكلمات علقت بين اللسان والفكر وهو يسألنا يا... ب. ب تشربوا زهورات أو. أو. أو. كا.. كا.. كازوز».

ثم يأتي باللوحات إلى الغرفة. أطرق إلى الأرض، خائفة من الضحك أمام تعابير وجهك الجدّية، بينما تبعد أم الرسّام صينية من قشّ فوق خبز يابس وقد رشّته بالماء حتى يصبح طرياً. «صرنا نبعد كلّ شيء عن طريقه، يوم العزّ يوم اللي يهجر الرسم والصبغة، لأنّ كل قمصانه قد تلطّخت. بينما يحاول الرسّام أن ينطق بالجملة التي ربّما كانت على طرف لسانه أمام اللوحات التي هي أقلّ جمالاً حتى من أغطية علب الشوكولا». يعني بفرررنسا ما... ما... ما بيعم... لـ... لـ.... لوا معرض عن الكفاح؟ عن الأب... الأب.. الأبطال... أو عن الفنّ الإس... الإسلامي؟» تهزّ رأسك مهدّئاً: «..ممكن. كل شي ممكن، وعند جملتك هذه صاح أخوك: «عم يطلعلك يا مقصوف. بكره بيعملولك معرض على الخازوق ايفيل يا مقزوع الرقبة». الرسّام يضحك مسرور وأنا أنتفض غيظاً من غرور الرسّام ومن دهائك.

منذ أن غادرنا بيت الرسّام والشعور المختلط يؤرجحني، التوق للتقرّب منك وللصراخ بك لكن الإحساس الأوّل كأنّه طغى على الآخر. فالنهار يعدّ نفسه ليصبح ليلاً والغروب يهيمن على السهول من حولنا. زهرات الخشخاش البيضاء والحمراء ساكنة قرب اللوبياء والبندورة الحاملة. فسحات من رمل هنا وهناك. الكلاب تعي. انها تجتمع معاً حتى تطوف تحت ضوء القمر وتعوي. من عامود الكهرباء تمتد أشرطة كثيرة مسروقة.

استنشق دخان البلان والأشواك التي كانت تحرق وأجد أنّ هذه الرائحة تدغدغ رأسي وخيالي الآن. أضحك على الرسّام لأنّه يودّ أن تعرض أعماله في الخارج.

– «أنا الحقيقة معجب فيه معجب فيه كثير.. تارك العالم من حواليه، مخدّرات ومخدّرات وعمولات وهو قاعد بيرسم الشهداء..

وجدتني أقلّد تأتأة الرسّام وأقول: «مخدّرات، عمولات: الله يساعد اللي بدّو يأخذ ويعطي معه بالشيفرة. أو يتعامل معه بالسرّ». ويبدو أنّي قمت بتقليد الرسّام جيّداً لأنك انفجرت ضاحكاً.

أخذت رائحتك تنفذ إليّ، رغم سيرنا في الهواء الطلق، ومن جديد شعرت بالدفء لأنّي قريبة منك ونحن نسير فوق هذه الأرض. مع ذلك فنحن غرباء عنها لذلك نتحد معاً ولو قليلاً رغم تباعد عالمينا. أشرت إلى لافتة الكوافورة، وكانت تهجئة كليوباطرا في الفرنسية خاطئة. أجبتني: «حلو.. حلو كتير جملتك هذه كانت محطّ الكلام إذ لم تزل تنظر إلى السماء، إلى السيّارات المسرعة، تلتفت إلى جانبي السهل وتكتفي بالزفير وكأنّك تدخّن سيكارة كأنّك ابتعدت عن الليل وعن وقع خطواتنا. أفكّر بحزن كم أن الإنسان بالنهاية لنفسه مهما حاول أن يلتصق أو يمنح نفسه للآخرين. زفيرك يزداد إلى أن تتوقف فجأة وتمسك بكفي وتقول بصوت يشبه الهمس: «شوفي شو عاملين بهالسهل، شوفي كيف كل شي ساكن هادئ على السطح وهو بيغلي من جوّا بالكومبينات والمخدّرات والتهريب والأحزاب».

تكمل وأنا أستمع إليك ولا أتأثّر بما أسمعه. لقد جئت متأخّراً أنت ونظرياتك، لا بأس من الحماس القليل، هنا وهناك من وقت إلى آخر، لأنّك سرعان ما سوف تنسى وتبتعد عن واقعنا والحياة الأوروبيّة تغرقك بتفاصيلها. لا بدّ أن مفكّرتك مزدحمة بالمواعيد. دور نشر، ومجلات ودعوات عشاء وحفلات وإذاعات. كلّها مكتوبة بخطك المتأنّق الواضح. كأنّك تسنّ القوانين على بلد طبيعي، على مواطنين مازالوا يترعرعون بهذه التسمية وبكل ما تحمله. من السهل عليك بالتالي أن تبث هذه النظريات، فأنت لم تختبئ في الملجأ. لم تذهب لتشتري الخبز من جراء قذيفة وأنت تنتظر دورك. وإذا لم تمت وعدت إلى بيتك في البناية التي تسكنها ووجدتها قد اختفت تأخذك وهلة قبل أن تكتشف أنك تدرس عن حجارتها ورمالها.

كان جدّي على المصطبة يتناول الطعّام. بينما وقفت صوما إلى جانبه تنتظر منه إشارة لتعرف إذا كان بحاجة إليها. عندما رأى

جدّي من بصحبتي انفرجت أساريره. وأقسم عليك حتى تقاسمه طعامه.

وما أن نادى زمزم حتى، ولدهشتي، أطلّت جهينة من خلفها. لأوّل وهلة ظننت أنّها كالقطّة التي عرفت أن لا طعام لها في هذا البيت، لكنّها لم تزل تحن إلى رائحته.. ولدهشتي أيضاً تبادرها أنت:

«شو يا جهينة غيرت اسمك لاسم حلا؟ حتى نقولك يا هلا يا هلا من وين لك هالحلا؟» أتأكد من أنّه لا بدّ أنّك التقيت بها عند روحية، ليوجّه لها اللوم جدّي لاختفائها ومحاشاتها له حتى وهي في بيته، ثم يشرق اللبن محدثاً صوتاً فيتلوّث شارباه وذقنه.

تهجم عليّ جهينة تقبلّني، تحيطني بذراعيها وأنا أحاول التملّص منها. تمسك شعري قائلة: «يا الله أوّل مرّة بشوف طعجات على شعرك. رحت عند الكوافيرة...؟».

أدخل المطبخ أضع لك الطعام في الصحن وكلي ترقّب لأرى وجهي في المرآة ثم أخرج بالصحن وأضعه أمامك. أفهم أن جهينة تكاد تطير فرحاً بل أفهم لماذا فتر شعورها بالاقتصاص حتى من الأرض ومن الهواء الذي يحيط بنا عندما عرفت أنّي أتيت بصوما من مكتب الخدم في البلدة المجاورة رغم أنّها أرسلت تهديداً في اليوم التالي بأنّ خطيب أختها الإيراني سوف يتدخّل في القضية.

لم أرها في الماضي كمثل هذه الليلة. ضحكتها عالية وكأنّها لا تمتّ إلى التي كانت تنخر بي وبأهل البيت منذ أيام. أومئ برأسي حتى تتبعني إلى الداخل. بعد أن تمنّيت لو أنادي على الملأ بأن عليّ أن أدفع ما تبقّى لها من المال حتى أذكرها بموقعها. لكنّ الشجاعة لم تتملّكني وهي تدنو تحيطني بذراعيها وتسأل: «بشرفكم مش أنا وأسمى متل الأخوات».

ينهض جدّي ويقترب من جهينة ويمسكها من شعرها يشدّها إليه بكلّ قوّة: «خلص.. ما فيش بيننا خبز وملح.

– «اتركني... والله جدّي أصغر منك يعني انت بعمر جدّ جدّي».

جوابها هذا هو انسحاب، نفي لقصّتها معه أم استعادة لكبريائها؟ بل هو انسحاب إذ أشرق وجهها الذي منحته لك طوال الوقت، غير آبهة، ملغيةً كلّ من حولها. تلوح بشعرها. تنظر في عينيك ولا تحيدهما عنك وإن علقت نظرك على الآخرين. كأن بينكما سراً. نظراتكما معاً كانت حول صوما. وضحككما فيه تواطؤ. لا بدّ ان جهينة أرتك كمدات صدرها، أدخلتك في تفاصيل جدّي وروت لك حربي معها ووحشيّتي.

تقف خلف المغسلة في الردهة، وأنا أخرج من المطبخ بعد أن أدخلت الصحون برفقة صوما وزمزم، تشير إلى الجدران قبالتك وتسألني عن الصورة الوحيدة المعلّقة عليه.

صورة جدّي، الصبيّ الذي في يده بندقية، رغم أنّه لم يزل في حضن والده الممتطي جواداً أسود. وعلى خاصرته سيف. كان وجهه يقطر هيبة تزيدها الكوفية والعقال على رأسه وشاربه الضخم، والهيبة التي كانت تقطر من سراج الحصان وشراشيبه السوداء.

كانت السترة التي يلبسها والده مشغولة بخيط القصب. وقد التفّ حولهما الرجال متأهّبين بالسيوف والبنادق، ورغم عبوس وجه جدّي الصغير كانت استدارة وجهه سمحة، أسنانه بيضاء كبيرة كأنّها أسنان صبيّ أجنبي.

«لو بتعرفي شو عم حس هلّق... يا ريت بتحكيلي مع ستّك وجدّك حتى يخبروني حياتهم. من الأوّل. من أوّل ما فتحوا عيونهم لهلّق».

أجدني أبدّل طريقة حديثي معك. ربما عليّ أن أكون كجهينة فأجيبك ضاحكة: «احكي إنت معهم، يمكن ينبسطو خليهم يفشّوا خلقهم». وكما حسبت سابقاً، تطلّ جهينة وفي يدها وريقات من الحبق تدنيها من أنفك: بشرفك، شمّ شمّ.

– «والله ريحة إيدك أحلا».

أخرج، أتركها خلفي. وقبل أن تبدأ هواجسي عملها، تلحق بي جهينة: «والله يا ريت، بروح على فرنسا وبتعلّم أخصائية تجميل.» ولعلّها لم تجدني متحمّسة إذ عادت تقول: «طيّب بركي بساعد جواد بالبيت. بطبخ وبكوي وبغسل وبرتّب، وبعدين بروح عمدرسة التجميل شي كم ساعة».

يعود جدّي إليك من جديد، وكأن ما دار بينه وبين جهينة لا يدعو إلى التوقّف عندّه لحظة أخرى. ما يهمّه الآن هو التحدّث عن أولاد الحرام والسياسة المحليّة والعالمية. يريد منك أن تساعده في كتابة رسالة موجّهة إلى بلاد العالم. لتنشر في أكثر المجلات مبيعاً. يشكو بها ظروفه وأراضيه وأنت تراقب الجميع خاصة زمزم التي وقفت في قميص النوم، والتي كانت سعيدة بأنّ أحداً غيرنا يراها في القميص الجديد، لقد تحقّقت أمنيتها التي كانت تطمح لأن يراها الغرباء في قميص النوم الجديد، بدلاً من الفراش والوسادة.

تحاول من جديد أن تجعل جدّي يتحدّث عن نفسه وجدّي يزيد من غضبه تجاه المحتلّين، تجاه العائلات التي لا بدّ أنّها مشتركة بطريقة خفيّة بهذا الاحتلال، هي التي تسوق وتتاجر بغلّة هذه الأراضي، يصيح، يريدك أن تُفهِم العالم.. ولم يسكت جدّي إلاّ عندما سمعنا صوت جدّتي يناديه وينادي زمزم، وما أن فرغت المصطبة حتى غمزتني جهينة وهي تحضنني بذراعها.

«جهينة بدها تسألك إذا كنت محتاج لحدا يدير باله عليك بفرنسا، إذا بتعطيها غرفة».

تبتسم لها: «أنا لازم أكويلك وأطبخلك وأغليلك القهوة». ثم تضيف بجديّة أنّك تعيش في بيت صغير، تأكل في الخارج، وترتدي قمصانك من غير كي، وتقوم بغسلها من غير أن تضيف أقراص النيل.. وهنا تسألني إذا كانت زمزم لاتزال تستعمل أقراص النيل، فأجيبك بلامبالاة أن تسألها.

تنهض فرحاً لأنك ستدخل إلى غرفنا.. لكنّي أطلب منك مناداتها من الخارج لأنّ جدّتي لا بدّ أنّها تستعد للنوم.

يعود صوت جدّي يرتفع قبل أن يظهر على المصطبة. نطلب منه أن يصمت، كما هي العادة كلّما عاد صوته محاولاً إغاظة المحتلّين.

تستدير إليّ تلمع عيناك كأنك نسيت أمراً مهماً وتسألني إذا كنت قد تحدّثت مع محتلّي الأراضي، وعندما نعتّك بالجنون لفكرتك هذه، دافعت عنها: «تصوّري القصة انت بتحبي واحد من المحتلّين!..».

يغلي دمي حتى يصل رأسي ومنه إلى لساني فأنفر بك... شو رأيك لو أنت تجرّب تحب واحد منهم؟».

يطغى الصمت على الجلسة رغم كلام زمزم الذي لم يتوقّف ومسايرتك لها ثم ضحكات جهينة، رغم المذياع وصوته الذي يأتي من الغرفة التي كانت تجلس فيها جدّتي، رغم صوت بيلي هوليدي الذي انزويت معه في آخر المصطبة. ظننت أنّي وحيدة إلى أن سمعتك تدندن معها. وكأن فجوة انفتحت بيني وبينك. اتهمتك بالخبث وكأنّك بمعرفتك لبيلي هوليدي سحبت مني حتى تفرّدي بها. تقول ما أن تركنا للحظات مع صوتها، بينما تفرّق الجميع عنّا سواء بأجسامهم أو بأفكارهم: «بتعرفي بيلي هوليدي. وبتلبسي مثل أخوات شيكوف الثلاث. وبتضحكي لأنو جدّك شاب وما تاب ولما بحبّ عن جدّ بتطرديها.. وبتفتشيلو على واحدة تشيل همّه وبالوقت نفسه بتزعلي من ولا شيء، يمكن بعقلك في طبقة ثانية يا ريت بتخلليني أوصل إلها».

أحاول أن أصيح لكن قلت بهدوء غير مهتمّة لاقتراب جهينة وجلوسها إلى جانبك: «لأنّك أناني. نحنا عندك مواد لكتبك... تستهزئ بالشعور بدّك ياني أوقع بحب المسلّح اللي احتلّ بساتين أهلي.. حتى يكون هالحبّ أوريجنال.. حتى لما ترجع تخبرهم عن الفلكلور وعن البنت اللي حبّت عدوّها».

عندما تنهض، تتركني وأنا أرتعش والكلمات ترتعش في فمي. تلحق بك جهينة، ويختفي وقع خطواتكما بينما يعلو صوت بيلي هوليدي وحيداً... فأسمع أحد المسلحين يصيح: «خلصينا من هاللي

بتنوح ليل نهار. حطيلنا فيروز». تتركني مع نفسي ولم أشأ أن أترك معها. أطفئ النور، وأجلس في سريري.

هدوء تام قبل أن يعلو صوت جدّي منادياً: «يا صوما ايمتى بدّك تصومي؟» الخّص ضيقي منك بأنّك تعاملنا بعين الأجنبي. أهزّ كتفي بلامبالاة، أطرد نبضي الذي لم يزل مع وقع قدميك على المصطبة، ترانا فولكلور، لا تشعر بما نعانيه، لا ترى طموحنا، حدود قدرتنا، لحظات وأتراجع عن تفكيري هذا. هل عدم استمالتك لي هو لبّ الموضوع؟ هل أشعر بالغيرة من جهينة وصغر سنّها؟ أمّ أنّ الغائب عن هنا، البعيد عن هنا يحمل في ذهنه الوطن الجميل وأنا لا أراه إلاّ مشوّهاً؟ هل يضايقني أن مخيّلتك مزروعة بالسهول الآمنه، بذرة بذرة، ترويها وتشذبها وتقطف ثمارها، بينما لم يعد في مخيّلتي شيء، لا بدّ أنّ الماضي يعيد الروح إلى النفس ويطيل عمرها وإلاّ لماذا أنت مرتاح، بينما أجد نفسي معلّقة بخيط دخان في الهواء؟ أغمض عيني وأرى نفسي متمدّدة على العشب في أيّام الربيع فأردّد: «تمدّدت مرّة على العشب الأخضر أنظر إلى الفضاء الأزرق. همست لنفسي: لماذا أنا خائفة من النجاح في البكالوريا وكل ما يحطّ نظري عليه هو لي؟ حتى السحاب الخفيف، والفراشه الدائخة التي وكأنّها. عرفت أنّها تعيش ليوم واحد. كل شيء لي. حتى هذه النجوم المنطفئة».

لكن هذه الصورة لم تمدّ نفسها إلى وجهي حتى تلين ملامحه أو تدخل حلقي وتقوم بتخدير شعيرات داخله لم تزل متيقّظة تشكّل حشرجة. أشتهي كأساً من الجنّ لكن لا أطمح أن أجد إلاّ عرقاً.

أنهض إلى «خزانة القزاز» أفتح درفتي الخشب حيث يخبّأ تحت الرفوف والواجهة الزجاجية ما هو غال وما هو محرّم للطوارئ. الكحول لوجع الأضراس والعادة الشهرية. ولوجع قلب جدّي على أنثى. كأن العرق جفّ في القنينة. أفتح كيساً من ورق فأرى قناني صغيرة فارغة أمسك بواحدة وأبتسم، أعود بها مع زجاجة العرق إلى غرفتي. أمسكها بين يدي وأبكي.

أتبسّم لهذه الذكرى، وأجدني أصبح خفيفة أرتفع عن سريري. وأغمض عيني وأبتسم لك، أضمّك بين ذراعيّ وأحاول النوم. كيف أنام ومئات الخواطر تونّ في أذني؟ لكن نتيجتها تصبّ في مكان واحد، في سؤال واحد: ما أريده منك؟ ماذا أريد منك غير أن تأخذني بين ذراعيك وتعصر بشفتيك شفتي، تعصرني مؤكّداً لي بأنّك تهتمّ بي. مجنونة؟ محرومة؟ كعصفور يتمرّغ بالرمل عندما يشعر بالحاجة إليها غير مبالٍ إذا كانت حبيبات التراب لامعة تحت الشمس المتلبّدة. رغم أني شطبت على علاقات كثيرة في الآونة الأخيرة منذ أن رأيت نفسي عارية ذات صباح وصُعِقت! فأنا لم أرَ جسمي مدعوكاً هكذا من قبل، وكانت التجاعيد قد ظهرت على البياض الذي بدا شاحباً، شعيرات قليلة على الفخذين، بينما بهت لون طلاء الأظافر، وانقشر بعضه. والذي زاد من شعوري الحزين هذا، الشراشف التي كانت غير نظيفة والتي لونها يذكر بالاهتراء. شعرة واحدة من رأسي على الوسادة ملتوية كالثعبان، جعلتني انتفض، لا أعرف ماذا كانت الوسادة محشوّة، لكنّها بدت وكأنّ جيشاً بكامله قد أراح رأسه فوقها. مددت يدي آتي بملابسي من على الأرض، من على جانب الفراش، وأنهض بسرعة. الأصوات التي كانت تأتي من الخارج هي التي أيقظتني ولسعتني. مع الأصوات رأيت الحياة تضج عبر الباب الذي كان بلا ستارة. عائلة تتصايح، أولاد يلعبون، ضجيج في الفضاء حتى شجرة البلح الطويلة لم تبد ساكنة. كان السوس ينخرها والأصوات تلصق بها.

أعود بعيني وبفكري إلى الغرفة، إلى حيث الرجل الذي كان نائماً، أتمعّن برأسه، بصلعته الصغيرة التي بانت الآن رغم أنّه يواظب على تغطيتها، يحذف شعره إلى الجهة الأخرى. وتساءلت: هل أعرف هذا الرجل، هل أحبّ أستاذ المدرسة هذا؟ الذي أودّ أن أهرب منه ومن ذكرى ليلة الأمس، رغم أنّي استمعت إليه بكلّ جوارحي وهو يخبرني كيف يتمنّى أن يعلّم الحساب والفيزياء، بدل التاريخ والجغرافية. لم يعد يطيق النفاق، الذي يبدأ حالما يلمح الكتب، لا يستطيع أن يشرح عن محافظات لبنان ولا ما حلّ بها، لا

يمكن له أن يسترسل عن الجبال المكلّلة بالثلوج وعن أماكن التزلّج، بينما يقف المسلّحون عن أوّل التلسياج حتى لا يتعدّى المتزلجون على أدوار بعضهم.

كنا نسبح يومها في السان جورج، والأطلال السوداء للفنادق تلاحق أعيننا كلّما مسحناها من ملوحة المياه. بينما كان دويّ المدافع من الجهة الشرقية يحدث زلزالاً في الماء ذي الرائحة الكريهة بسبب انصباب المجارير فيه. ونحن نتمازح ونسمك بالأيدي. ومع ذلك وددت في الصباح أن أهرب منه ومن ليلة الأمس. لأنّ ضوضاء الشارع تتدخّل بأفكاري. وتريني كيف أنّ الحرب فتحت مسامي. أرى غرفتي بعينيك الثاقبتين. والسرير يئن من الوحدة. كأنّك تفهم أخيراً لماذا لم تزل اسمهان هذه بلا زواج. إنّها حادّة الطبع، استمدّت غرورها من كون عائلتها تكاد تملك كل الضيعة. لا بدّ أنّها تعالت على من أحبّوها، حتى نبذت، وها هي تنام فوق هذا السرير وحيدة. وها هي الكتب أينما كانت، فنيّة، سياسيّة، قصص، روايات، مجلاّت تافهة. كأنك تقترب وتمسك كتاباً وتتصفّحه وتقول: «غريب، لم أكن أتصوّر أنّها قد رأت أفلام هذا المخرج. فكيف تسمع بهذا الكتاب أو بهذه الرواية، لا بدّ أنّها لم تقصد أن تأتي بغطاء سريرها هذا، لا بدّ أنّها لا تعرف قيمته الآن في أوروبا وهذا البساطُ الملوّن... وإذا تخرجت اسمهان من الجامعة فلتحمل الشهادة فقط..

كأني أراك الآن تهزّ رأسك وأنت تقلب كتبي، لا أحب تصرّفك هذا كأنّك خيّاطة كلّما شاهدت فستاناً لم تخطه، فكّرت أنّه من الواجب عليها أن تتحسّسه وتبدي رأيها بخياطته. أفكّر أني أقسو عليك لكن كل ما هناك أنّي أشعر بأنّ عقلك ينبض أكثر من عقلي. شعرت بذلك وأنا أمام كتبك، وأمام الأشياء التي التقطتها أنت أمام بلوطة صغيرة. غصن يابس. نبتة سوداء كوز تين مجفّف، فكّرت لماذا لم أشعر بالحنين إليها ولم أفكّر بالاحتفاظ بها، وأنا أراها ليلاً نهاراً ولا أراها؟ أجدني أسأل الأحلام أن تأخذني إلى دنياها، عندما أنهض في الصباح التالي أجد نفسي لاأزال أكتب لك هذه الرسالة في رأسي.

إلى الحرب

لن أطلق عليك عزيزتي، إذ أني لا أفهمك.

كأنك تسحبين خيوط سجادة عجمية من تحت قدميّ خيطاً خيطاً لتعيدي حياكتها بين لحظة وأخرى. أجدني أتدفأ بجوّك، جوّ السكون المخيّم حتى على السماء في أوقات الهدنة، أو في الأوقات التي كان يخلد إليها زعماء الحرب في انتظار تكتيك ما. كل روح، حتى عواميد الكهرباء، تبدو ساكنة أثناء هذه الأوقات، حتى أكوام النفايات كانت تخلو من طنين الذباب ومن البرغش. الطرقات ملكٌ للذي يتجرّأ ويدبّ فوقها سواء سيراً كالبرق أو في سيّارة تنهب الأرض كما الصواعق. عندما تعودين إلى مسرح العنف، نقترب نحن سكّان بيروت من بعضنا، نلتفّ حتى تصبح أنفاسنا واحدة، ولا نعود نفكّر بعيداً عن حلقتنا.

أنت لست عزيزتي، ومع ذلك عندما كانت تركد الحالة كالمستنقع، وعندما كان يدبّ الشعور بالانقشاع ويبتدئ تدفّق سيل الذين هاجروا أو اختبأوا، وتعود الأضواء معهم إلى هذا المكان ترافقه ضحكاتهم، يتبدّل مناخك. ألاحظ تبدّله حتى في المقهى – المطعم الذي وكأنّه بقدومهم لم يعد واحة في الخراب والعتمة، وإذا بحلقتنا توقّف عن التلذّذ حتى بإمساك كوب الماء ونحن حول مقاعده إذ يصبح مكاناً للطعام ولعرض الملابس الجميلة.

أجدني أتردّد الآن، لماذا لا أطلق عليك عزيزتي رغم أني أتحدّث عنك بهذه الحرارة. لا بدّ أني خائفة من أن أفلت هذا الشعور الذي لن يستوعبه أحد غير القليلين، كناصر الذي لا بدّ أنّ علاقتي معه

حاكت نفسها من جرّاء مناخات الحروب. في حرب ٦٧ فاحت رائحة الحرية من أرجاء بيته، لدرجة أنّي كنت أراها وكأنّها خيمة من شاش تكوّمنا تحتها وكأنّنا محاطون بحديد صلب يردّ عنّا هجمات المجتمع أو رواسبه.

لكن في هذه الأيام. وبعد هذه السنوات الطويلة تبدّلت لهجتي إزاءك. فأنا أصبحت أسألك وأسأل نفسي ماذا أفعل؟ ماذا يجري؟ هل هذه هي الحياة التي خلقت من أجلها؟ أم أنّ هناك درباً آخر، عليّ أن أسلكه حتى أصل إلى حياة أخرى؟ كنت أوجّه اللوم إليك بأنّك السبب. تضعينني في الحالة المتأرجحة هذه. تتركينني كأرض يباس ولا تدعين المستقبل يطلّ. ولقد ساهمت في تحطيم كل أفكاري التي كانت تدور حول ابتكار طريقة هندسية تتيح للمرء العيش في انسجام بين فكره وجسمه. لقد حطّمت أفكاري منذ أن جعلتني أرى الأخشاب وصفائح الصفيح تبنى على الأبنية المتهالكة وسمعت ضحكتك إزاء أفكاري التي بدت أكثر من مرّة سريالية في هذه الأجواء.

كنت أعتاد على هذا الإحباط، إلى أن تغيبي، عندها كنت أرحّب كما يرحّب الجميع بالحالة الأمنية. أهرع قاصدة الشواطئ والجبال، لكن، بدلاً من الشعور بالسعادة، كنت ألحق بعينيّ اللتين انكمشتا في زاوية السيّارة... بدلاً من أن تلحقا بما يدور في الخارج. ذلك الخارج الذي يجعلني أشعر كم أنا كسولة وهو يعرض حياة البناء وهي ماتزال تزدهر رغم قباحتها. كان تأنيب الضمير ينهشني، يجعلني أهزّ رأسي أسفاً أمام لافتات مكاتب الهندسة وأسماء المهندسين. وسط ورشات الإعمار.

عندما حاولت أن أعمل أستاذة جامعية لم يغب عن بالي لحظة بأنّ كلّ كلمة أتفوّه بها هي كالهباء المتناثر. وبأنّ كل ما هو منتصب في الخارج إنما هو مهدّد حتى غرفة هذا الصف هي أيضاً مهدّدة. كنت والتلاميذ الذين يشاركونني شعوري هنا ننظر إلى بيوت الأسكيمو وأكواخ الإفريقيين المبنية من القشّ ونفكّر بأنّه ربّما كان علينا أن نخترع مادّة جديدة للبناء، أو ربّما كان علينا أن نكتفي بهندسة الملاجئ.

تركت التعليم وانضممت إلى جمعية تودّ المحافظة على الأبنية القديمة في بيروت ذات القرميد الأحمر والطاقة الزجاجية المستديرة والواجهات الزجاجية الملوّنة والسقوف العالية وسلالم إفريزها من حديد أسود مخرّم. كان علينا تصويرها قبل أن تخرّ على الأرض أو تتشوّه بشظية كبيرة تأخذ قلبها أو أطرافها. تعرقل العمل من الغربية واللجنة في الشرقية من جرّاء المواصلات والاتصالات والحالة التي حدّت من إقامة الاجتماعات، ثم ليهاجر معظم المنتمين إليها إلى خارج لبنان.

أخذت أتبع نصيحة الآخرين. لا نصيحة نفسي. لم أترك عملاً إلاّ ودخلته.

كأنّي أمام خزانة من الصين فيها مئات الأدراج. أفتح درجاً وأدخله وأخرج منه وأدخل درجاً آخر وأخرج منه وأنا أشبه نفسي بقريب والدي. محمود الساعاتي، فهو قد دخل في مشاريع كثيرة: استيراد الساعات كوالده ثم استيراد الدجاج والعلف وافتتاح مطعم واستيراد فرش من الاسفنج و و.... ثم لا شيء. كان الإحباط يزورني كل يوم ببذلة جديدة، فيجلس على الكرسيّ قبالتي ويوافقني وأنا أصف له وقع الحياة اليومية في بيروت الذي أصبح بطيئاً لا يحمل أيّ حماس لأيّ شيء يخرج عن نطاق تأمين الحاجات اليومية، لكنّه أخذ يتجرّأ ويعارضني. يذكرني بأيّام السلم الطويلة وبيروت التي تنغل كما في الماضي وبالأشخاص الذين يعملون وينتجون، فأعود إلى النشاط وأنا جالسة فوق الكرسي فقط. أتصوّر نفسي أفتح مكتباً لفنّ العمارة أو نادياً للأطفال أو أنشئ حديقة للحيوانات. ثم أجدني أتصالح مع إحباطي. أقنعه بأنّ مجرّد تواجدي في بيروت طوال سنينك هذه معناه أني أعمل ليلاً ونهاراً. فالاعتياد عليك يأخذ جهداً، كذلك رؤيتي لبيروت وهي تنتقل من أياد إلى أخرى وهي تشطر إلى شطرين وإلى أقسام كثيرة. جهدي، للتأقلم للجديد، ومحاولة نسيان القديم. القبول بالموجود ولو كان قبيحاً. انتظار الأمل ولو كان أحياناً سراباً ثم إلغاء الانتظار والتعلّق باللاشيء.

هل تحدّثت عن هذا الشعور في رسائلي السابقة؟ لم أعد أذكر. ويبدو أن أحاسيسي هذه الغريبة نوعاً ما تنبع من أنّك حرب عجيبة. تختلفين عن كلّ الحروب، كأنّ لديك عينين تريحين واحدة وتنظرين بأخرى.

كنت أنهض في الصباح تحت وطأة الأحلام البعيدة عمّا يجري في الحياة، أتمطّى سعيدة بالنور. بلحن موسيقى، بلون تنّورة، بموعد ما، لم يكن هذا الشعور يخطف منّي إلاّ بعد يوم أو يومين على تجدّد المعارك، فيمحو كل آثار الانتعاش السابق إلى أن ينظف الزجاج الذي هرّ على الأرض، ويصفّق الناس أكفّهم قائلين بحزن: «خسارة من مات». حتى أعود فأتمطى سعيدة بالنور. بلحن موسيقى، بموعد ما، حتى بلون بلوزة.

هذا الصباح صحوت على أغنية «عهدير البوسطة» تنبعث من زمور سيّارة وبعدها على صوت علي وأصوات كثيرة وزعيق وضحكات. ثم سؤال زمزم لعلي لأن يعطيها علكة. وهي تمازحه قائلة «العلكه بتمك قدّ الجمل». علي هنا؟ استطاع أن يخترق ما نسمعه عبر المذياع عن المعارك والسوريين والطرقات والمستقبل والمحادثات والمناوشات، ويصبح بيننا. أم لأني ابتعدت عن المعمعة. نسيت كيف هي الحياة تتأرجح في ظلّك وكيف أخرجنا علي من جحورنا وكأنّنا حلازين لم تعرف أنّ الربيع قد أتى وهرول بنا إلى المصفحة، لنخوض بعدها رحلة العذاب إلى القرية ريثما يعود الهدوء إلى بيروت. يعلو صوت جدّي وهو يتنحنح: «متى تركت بيروت يا علي كأنّك طرت طيران؟».

«امبارح والله خفت أتأخّر عالطريق، بتعرف مع انه عندي أربع تصاريح. لكل حاجز أحمل تصريح، بس الواحد لا يضمن ثقال الدم. وقلت يللا منسهر بمطاعم البردوني، ومن دغشة الصبح بكون عند الستّ أسمى، والله سهرة من العمر، يمكن انت سمعت ما انا تجوّزت مرّة ثانية». يضحك جدّي: «إذا خجلان لدرجة وعامل حالك أبو اسرار ليش حتى تتجوّز مرّة ثالثة أو رابعة؟ بطّلنا نعرف نعدّ».

«هالمرّة عن جدّ. أولادها، بدلّوني وطوّلوا روحي».

يمازحه جدّي: «كنت أدعي أنه ما يطلّ وجهك. والله مبسوط بأسمى قد الدنيا. انت آخذتها عبيروت».

أخرج بكامل ملابسي فرحة برؤية علي، أحييه بكل حرارة، والتفت إلى جدّي قائلة: «يللا يا جدّو انزل معنا. جواد وروحية نازلين كمان معنا».ولم يدعني علي أهرب بجملتي هذه، إذ أسرع يعاتبني وهو يصفّق كفاً على كف: «شو عاملّك يا ست أسمى هلّق بدك تحطّي فأل عالسيّارة! مراثي وقهر وشحار وكمان سواكير وريحة...».

أعود أبدّل الموضوع فأقول لجدّي بلهفة: «شو قلت جدّو، نازل معنا؟».

«والأرضيات بتركها لسبحانه؟» ثم ضاحكاً: «ما أنا تاركها تحت بصره. شو يا علي إن شاء الله ركبت باب حديد لبيت بيروت؟».

أنادي حفيد نعيمة مسلم: «أركض عبيت روحية خلّيها تحضّر حالها عبيروت وخبّرها نحنا مارقين خلليهم يعجلوا. وانت عجّل، طير مثل الطيّارة».

يبدو أن علي لم يشف بعد، منذ أن أوقعت عليه صاعقة روحية، إذ طلب من حفيد نعيمة أن يتمهّل ريثما يسألني «شو يا ست أسمى أنا بعرضك».

أجيبه ضاحكة: «ولو! قلبك كبير، روحية محلفتني ألف يمين حتى تنزل معي، خيفانة على جواد ببيروت وبدها تشوف حالها إنه عندها بيت ببيروت طويل عريض».

تدخل نعيمة: «طبعاً بدها تشوف حالها قدام ابن خالتها، قال.. بيتهم صار خربة، وين بدّو ينزل؟ بالاوتيل؟».

«وشو خصّني أنا؟ ما هي مثل عزرائيل بتبشّر بالموت، حتى أسنانها صايرين سود، قال العالم مستغربة كيف مات جوزها وهو بعده شاب؟ ما هو كان عايش مع عزرائيل، كل يوم بتندب بمحلّ وبتشحّر حالها».

يسرع حفيد نعيمة في الركض وأنا أصيح به: «مثل الطيارة».

تفوح رائحة البيض المقلي من المصطبة، حيث نعيمة تعدّ الفطور، بينما أجدني أعدّ أنفاسي حتى أزيل اضطرابي، لكن صوت علي المرتفع يمازح زمزم ويمازح نعيمة وينادي. وما أن اقترب منه حتى يهمس: «شو وين جهينة؟».

تسمعه نعيمة فتقول له ساخرة: «فوت شوف مين في جوّا، لا جهينة ولا ما يحزنون، الكلّ صار مظنطر بس اللي جوّا لا بتشكي ولا بتنعي هي مثل القطّة اللي أكلت لسانها».

«فكركم أنا أهبل عم اسأل عن جدّ؟ عم أمزح، الأخبار وصلت انطاكية، فكرت حالها ست البيت وصارت تتدخّل بالصغيرة وبالكبيرة. وصارت بدها توسّط وتأخذ وتعطي مع المسلّحين، وقالت انه جدّك كاتب كتابه عليها. لما سمعت هالكلام قالت هيدي كذبة نيسان، شو معقول جدّك يجنّ؟».

أعود إلى غرفتي رغم تركيزي على تحضير نفسي، إلاّ أن تفكيري بأنّ روحية وجواد ربما عدلا عن المجيء معي أخذ يقلقني. أتعجّب للعواطف التي هي كالمطاطة، فأنا توقفت عن الهدس به منذ أن أتى وروحية يطلبان منّي النزول معي إلى بيروت.

بسرعة أدخل غرفة جدّتي التي لم تزل في الأجواء التي عهدتها بها. لا شيء يتبدّل فيها وكأنّ الظروف لم تتبدّل حولها. حصوص الرمّان التي اعتادت على مضغها وقذفها في صحن إلى جانبها حرصت على أن تغطّيه بقطعة من قماش الشاش الناصعة البياض. الروايات والترانزستور، الصندوق الذي يحوي المساحيق، المسبحة، بروش امها، خصله من شعري وأنا صغيرة واقصوصة من قماش لم تزل تبحث عن لونه وزجاج عطر فارغة صغيرة، قديمة، لم تزل تحتفظ بها وتسأل كل دكان في بيروت عنها وتسأل كل من يسافر أن يجد لها مثلها. أهرع إليها الآن وكلّي ندم لأنّي لم أسرع إليها لحظة ما أخذت أعدّ نفسي للذهاب إلى بيروت. وكانت هي تعدّ في آلاف الليرات. تغرق يدها في قفطانها من جديد. تخرج حبّة من

علكة المسك من علبة جميلة صغيرة كانت لبودرة وجهها: «وهيدي حبّة مسك» انحني أضمّها إلى صدري. بل أضمّ نفسي إليها، من يفكّر بحبّة المسك هذه غير جدّتي؟ كأني أعي لماذا بلغت هذا العمر ولم أزل في هذه الأجواء. كيف أغادرها وأنا لا أرى شبيهاً لها. تقوم بتوصيتي قائلة: «اعملي من قيمتنا مش تتركي النملية والبراد فاضيين».

اعتدنا أن يصبح بيتنا في الحرب كالملجأ. ولم يعد هناك فرق بين الضيوف رجالاً أو نساء. الكلّ ينام في غرفة جدّي. ثم تزيد وهي تتصنع اللامبالاة: «قال جواد عنده واحدة يعاشرها ويتعاشره بالحرام من سنين».

لم أجبها. المني الشعور بأنّها قلقة على مستقبلي وبأن ذباباتي قد وصلت إليها رغم ادعائي العكس. حزرت هي أن تلهّفي للرجل أخذت تشوبه العصبية والشعور بأني أريد أن أضع يدي على خشبة الانقاذ، لأن ماء العوانس لم تعد تغمر قدمي فقط. بل غطّت حتى منتصف رقبتي وبقي رأسي في الهواء. أحدّق ببياض وجهها وبكفيها اللذين لايزالان بلا شرايين بارزة، كأنّهما كفّاً شابّة تنتظر أصابعها خواتم الخطوبة والزواج. تزيح صحن حبيبات الرمّان وأنا أودّ لو أسألها أن تحبّ أمي من جديد. لأنها تفطن إلى أنّها وحيدتها.

زمزم وعلي يتحدّثان. يخبرها عن صوت زوجته: «والله العظيم واحد من استديو الفن سمعها وهي تغني بمطعم أبوها وترجاها لتغني باستديو الفن لكن هي رفضت». ثم وهو يرى مسلم يبدّل الموضوع: «ولك يا مسلم بشرني بالخير، أن شاء الله روحية كسرت رجلها ومش جاية». لكن مسلم يصيح لاهثاً: «جايين روحية وابن خالتها. جايين. قال أوعى تروحوا من غيرهم وهو بعت هالغرض للست اسمهان معي».

أخرج بسرعة أتناول منه شنطة جواد الجلدية، أسرع بها إلى غرفتي وأقرّبها من صدري، من فمي وأنا أفكّر بخوف كيف أنّ شعور يتبدّل بين لحظة وأخرى وهأنا قد عدت متلهّفة له.

صوت علي ينادي: «يا مسكين يا علي كيف بدك تستحمل روحية. دايماً أتذكّر لما حرقت أختي صفيّة حالها والكل صار مش بس يبكي عالمقبرة الكل صار يرمي حاله وراها... صبيّة وحرقت حالها والست روحية صارت تنعيها بقولها ساعة، بدك تاكلي، وساعة بدهم يطمّوك وساعة بدك تشربي».

ثم عند تساؤلات الجميع يخبرنا عما حدث بعد أن تركنا بيروت عن الضحايا والخراب، الحرب بين أميركا وإيران، بين أمل وحزب الله يعني سورية وإيران؟ مش معقول، بين أميركا وإيران. يخبرنا عن ابنه زوج فضيلة التي أحبها شاب في الملجأ وتزوّجها في الليلة ذاتها: «جابوا المأذون اللي صار ياكل الكلمات أكل مشان يهرب». انهمك من جديد بوجهي، بمظهري، أضع الكريم والفون دوتان والبودرة ثم أدني المرآة من الشبّاك وعندما أبدو وكأنّني لم أضع شيئاً، ابتسم. كانت جهينة تتلصّص عليّ، وهي تلاحظ التبدّل الذي يطرأ عليّ بين لحظة استيقاظي وعندما أجهّز نفسي للخروج، فتبدو بشرتي كالعاج رغم انّه لا يبدو عليها الألوان أو المساحيق. هذا هو سرّي أن أبدو طبيعية وكأني غسلت وجهي للتوّ بالماء والصابون.

أسمع صوت جواد وروحية، وبدلاً من أن أركض إليهما. أفكّر بأن عليّ أن أبقي مسافة بيني وبينه فالساعات ستكون طويلة وأنا أملك بيروت. تتبخّر افكاري هذه وأنا ألحق بصراخ روحية: «مش أولاد الحرام هجموا بالليل علينا قال بدهم ياخذوا جواد مشان يستنطقوه؟».

تنادي الأصوات: «مين، مين، مين؟» تشيح روحية بيدها: «من غيرهم؟ أولاد الأوادم. والله هجمت عليهم بالسكّين وبفردة قبقابي وقلت... يللا قربوا يا شباب الشاطر يقرب. والسيد جواد صار يصرخ ويقول حيدي عن الطريق ويدفشني، قال بدو يتفاهم معهم! ليش بدك نتفاهم معهم! ما في سبب إلا انهم حاطّين عينهم على ساعته أو الباسبور أو تذكرة السفر. الله أعلم مين بيعرف! ولكم خرسوا لما قلتلهم ليش بدكم تستنطقوا جواد؟ صاروا يعووا أجلكم مثل الكلاب. واحد يقول شو بدّو يكتب ونحنا ضيعتنا هلّق حساسة

بالنسبة للكوكا. والثاني صار بدّو يقلّلو شو يكتب. كلاب وقلتانة، طردتهم وقلتلهم روحوا اعتمدوا وارجعوا لنا. منيح اللي كنّا متواعدن مع أسمهان وإلاّ فكّروا إنه هربنا والله مش راح يهرب شي فيهم منّي.. بكرة بفرجيهم».

يتنفّس جواد كأنّه هو الذي قص قصّته بهذا الانفعال والصراخ ثم يتنهّد عميقاً قبل أن يقول: «بسيطة».

تعودين أنت أيّتها الحرب، وأنت تلبسين حلّة تناسب القرية وتدخلين أبوابنا، وتؤكّدين لنا بأنّك طبعاً موجودة. رغم الشعور بأنّ القرى تبدو مستأنسة بنفسها، منفردة كأنّها أحاطت نفسها بسياج لا دخل للحرب بها. كلّ شيء هادئ بها سواء غصن شجرة أو حفرة عميقة حفرها جرذ الحقول. حتى أنّنا اعتدنا على فكرة أراضي جدّي المحتلّة وقد بدا هذا الواقع وكأنّه من جرّاء ثأر قديم أو عين حسود لا دخل لك بها. لكنّك امتددت إلى جذور بيت روحية الذي كان يحمل قبل دمعتك الزيت المقلي والطمأنينة الماضية وصدى أشعارها التي حملت القهر والحبّ. لحظات وبدّلت أنت تاريخ هذا البيت. فوجئت بعقله الساكن وجعلته يفطن فجأة إلى أن جسده أصبح يعيش تحت رحمة عقول شابة لا تجارب لها سوى العنف.

حتى جواد أصبح آخر هذا الصباح من جرائك، يجلس على حافة حائط المصطبه. أشعر بأنّه أصبح منّا. إنّه فلان وابن فلان. مرّت عليه قساوة الحرب والحياة وجاء يستأنس بمؤازرتنا له. بمواساتنا، رغم انّه يبدو وكأنّه ينتمي إلى أجواء أخرى بهذا القميص السبور والجوارب المخطّطة. أشعر بالطمأنينة لما حصل له. انه يضعه في أتون التردّد هذا. في حكاية إبريق الزيت، في آلة المغناطيس التي أخذت تجذب إليها كل شيء حتى النسيم. الذي خاضه جواد مساء البارحة يعوضني عن شرحي له حالة التردّد التي تنتج عنك. رؤيته لروحية وبيدها السكين وفردة الحذاء تقاومهم بينما لهجتها هي لهجتهم سوف تجعل كتاباته في مفكّرته كتابات أخرى.

علّقت زمزم مازحة: «يللا الحمد لله عالسلامة، الله يسامحك يا روحية ويسامح لسانك، انت كنت تنتقدي فلان وفلان، لأنّهم مازاروك وهنّوك بوصول جواد بالسلامة، شفت حتى الأغراب سمعوا بأنّه جواد صار عندك».

لم يضحك أحد لكلمات زمزم التي لم ترد بها إلاّ أن تطرد القلق عن بال روحية وجواد. لم يحاول جدّي أو جدّتي ثنيي عن عزمي للعودة إلى بيروت. كأنا يعرفان كم أنّي عنيدة وكم أنّ هذه القصص تجذبني إليها، وكالعادة وجد علي الفرصة ليبرهن أنّ لديه اتّصالات على مستوى عال وبأن الأضواء تسطع عليه من جديد، بينما ما حدث جعلني أعترف بأنّنا جميعاً مرهونون، مهما أطلّت تباشير السكون والسلام.

«يللا نهرب من الضيعة مثل شيل الشعرة من العجين». تحثّ روحية علي. بينما تأخذ جدّتي مسبحتها لتستشير «الخيرة» تستشيرها كالماضي: إذا كان لا بأس على زمزم أن تأخذني إلى السينما رغم سعالي. أم أنّ تتوّجه إلى القرية رغم المطر. علي هو الأشدّ واقعية بيننا يقول: «هلّق يمكن يكونوا ناطرين لازم نفكر بطريق لا يفكّر فيه إلاّ الجن بسم الله الرحمن الرحيم».

بينما تلمّح جدّتي بأنه ربما كان علينا البقاء لمعرفة من هؤلاء. لكن صيحة روحية تعارض وتشدّد للذهاب إلى بيروت وسفر جواد عن طريق المطار.

الكلّ في لغط لاستعدادنا للذهاب، تطلّ إمرأة لا أتعرّف عليها حتى عندما اقتربت من المصطبة إذ بدت وكأنّها قد فرّت من مصحّ عقلي وهي تصيح: «صحيح رايحين عبيروت؟» ولم تهتمّ للمنديل الذي سقط على كتفها وأظهر شعرها الأشيب: «دخيل اجريكم، مين رايح؟ أولاد بنتي عم بيحاربو وقال واحد منهم مجروح، بروح معكم؟». يتولى علي الموضوع بسرعة: «لا، لا شو بدك تعملي انت ببيروت؟ خلّلي القصّة عليّ». وهو يعدها بأن يبحث عن أولاد ابنتها مؤكّداً أنّه سيتّصل الليلة بالضيعة بواسطة الألكترون.

أرى جواد يهمس شيئاً في أذن زمزم ثم يسألها: «هيدي انت ياقوت القلوب. آخ شو كويتي قلوب. ولك شو صاير فيك؟». تنظر إليه المرأة ولا تفهم ما يقوله. كانت قد شاخت وخف سمعها. يفهم الجميع ما قصده. فهي كانت تأخذ الليرة وتعيدها اثنتين خاصّة من النّساء والأرامل وكلّما زدن الليرات كلّما زادت لهن ريحهن، ثم لتنكر بعد وقت قصير أنّها تسلّمت منهن شيئاً.

ولم يرض أن تفوته الفرصة فيسألها مازحاً: «صحيح عندك زنار محشي بالذهب؟».

تهزّ رأسها قائلة: «الله يصبحك بالخير يا حبيبي».

يأخذنا علي عبر طريق الجنّ ينفذ بنا بين السهول والحشيش والملفوف بين أشجار التفّاح والحنبليس. يستغرب جواد لألوان الحجارة قائلاً إنّها لم تكن هكذا في المخيّلة. وروحية تحاول إسكاته من كثرة عصبيّتها وهي تصفه ببرودة الدم، بينما أشعر بدمه الدافئ يدخل دمي، وأنا لا أجد سوى الهدوء على وجهه، وفي نفسه. ما يشغل باله الآن هو لون الحجارة في الذاكرة، بدلاً من أن يعاني ولو القليل من الاضطراب. عيناه الزائغتان كانتا على ما يرى فقط، لقد كنت شاهدة على كثير من الوجوه التي تبعثرت تكاوينها وارتبكت حواسها من جرّاء الخوف الذي فرضته ظروفك. فالفم الذي يرى والأعين التي تولول والشرايين التي تشمّ الذعر. كنت أفهم هذه الحالة عند زمزم والآخرين في حيّنا. خاصة الأمّهات المتشبّثات بأطفالهن، المنتظرات أتوبيس المدرسة، ولم أكن أشعر سوى بالاشمئزاز إزاء الذين فقدوا توازنهم ومحوا ما آمنوا به على مدى سنوات لحظة ما واجهوا بها الخطر، وأخذوا يسفّون المهدّئات ويمزّقون الأوراق التي تثبت شخصيتهم. وصورهم.

يبدّل علي الموضوع كأنّه يجده تافهاً وهو يخبرني عند مفاجأة لقائي بزوجته للتوّ.

عرفنا أنّ طريق الجنّ الذي اختاره علي هو طريق قرية زوجته. التقت عيني بعين روحية وتبادلنا الابتسام لتسأله روحية: «صحيح مرتك بدوية؟».

«شو قصدك يعني، أي نعم بدوية مش نورية!».

يسأله جواد بجديّة عنها وعلي يجيبه باختصار: «أهلها بيجوا بيشتغلوا بالسهول، بعدهم أرخص وأحسن من الباكستانية والأفغانية والفلسطينية والأكراد... بيعطوهم بيت ومنافعه والأجرة بوفروها لأنّهم أكلين شاربين».

كلّما توغّلنا في هدوء الدروب كلّما أخذت تقومين بحلّ عقدك، عقدة، عقدة، وتختفين شيئاً فشيئاً، الحجارة وأشكالها تسرع لطمر أيّ أثر لك. بدت الطرق وكأنّها لم يكن يعكّر صفوها شيء سوى اسفلتها والتواء أكواعها وكأنه لا يمكن أن يعشعش فيها سوى الطمأنينة التي تمتد إلى دواليب السيارة ومنها إلى داخلها لتصلنا. فتهدهدني كأنّي طفلة أنعم بدفء أنفاس الكبار. فيداهمني النعاس من حركة السيّارة. أبتسم لنفسي لأنّي لم أعد تحت سطوة جواد بل كأنّي عدت أفكّر وأستمتع وأتضايق وكأنّه ليس موجوداً. كأن رؤيتي للسهل الذي بدا من وساعته كالأفق أخفى حادثة جواد والمسلحين ومحا بألوانه البديعة العنف. لم يعد الشعور يلحق إلا بألوان السهل ومن على جانبيه الجبال الجرداء التي أقيمت على سفوحها أبنية من صفيح لزرع الخضار والأزهار. نساء يكببن على غرسات الحشيشة، بملابسهن الملوّنة يغطين رؤوسهن بالكوفيات والمناديل.

عند رؤيتي لجبل باللون الأسود أجدني محقّة لأنّي لم أطلق عليك عزيزتي فأنت دمار، وجوّك قد فرض نفسه علي، أوهمني أنّ مناخك دافئ لتتطاير حرية العلاقات في فضائك وسحرك يكمن في ضمّك للأنفاس والأرواح والأجسام فلا يجد المرء نفسه وحيداً، لكنه سحر كاذب يعي اللحظة فقط أنه المخدّر.

لكني أعود أشرق بالسعادة وبعد لحظات بالحبّ لأنّي أرى الأشجار التي أفلتت من يدك. أشجار عالية، خضراء وارفة تعشعش فيها أصوات صراصير الغابات فوق الجبال الخضراء التي تبدو هادئة وكأنّها مجموعة نسّاك، سئمت الحياة الصاخبة، والتفت بأغطية تتلوّن مع تبدّل الشمس وتستمدّ من الغسق ألوانه.

يأخذ علي طريقاً فرعياً تكاد تكون واقفة. لا أعتقد أنّها طريق عمومية، ومع ذلك فقد وصلنا وكأنّنا دخلنا في مصعد يوصلنا بالسماء، ما أن ترجلنا عند الفسحة. حتى بدا السهل كأنّه حرام من صوف ذي مربّعات ملوّنة، الأصفر والأحمر والأخضر، الطريق كأنّها سحّاب فستان طويل من غير حواجز أو عوائق. مساحات كأنّها خالية من البشر أمامها. اختفيت أنت من الذاكرة ولم تعودي حتى شبحاً وكأن الاستقرار لم يفارق الفكر مطلقاً وكأنه لم يلمح رياحاً سوداء من قبل. ما ان توقفت السيارة وهدأت فراملها حتى انتبهنا إلى ضجيج وتدفّق الأولاد من البناء الوحيد الذي لم تزل حجارته الأسمنتية على حالها، نساء صغيرات يحطن بعلي غير آبهات بنا يمازحنه وهو يمازحهن رغم انشغاله بنا، ولم يفرح بكلّ هذا سوى جواد الذي هلّل وجهه بكل ما حولنا، بينما انتابني أنا وروحيه الشعور بالتململ، فلا القهوة ستكون ذكية ولا الفناجين ستكون نظيفة، ولا الخبز سيكون شهيّاً.

يدخلنا علي إلى غرفة الجلوس ثم ليختفي لحظات ويعود ويقدّم لنا زوجته التي كانت باهرة الجمال. استغربت صغر سنّها لمعرفتي أنّها كانت متزوّجة قبلاً من ابن عمّها الذي مات وخلف لها ولدين.

الحرّ في هذه الغرفة العارية إلاّ من الطراريح كان مخيفاً، يزيده قماش الطراريح الخشنة الذي يحفّ تنّورتي. ويصل إلى لحمي فأشعر بأنّ حشرات تنهشني. زوجة علي تزيح الستائر التي كانت مسدلة وتفتح الشبابيك وهي تقول: «والله افتراء. علي يمنعنا من انه نفتح شيء».

يعلّق جواد: «اللي بمثل جمالك لازم يخبّوه بالصندوق، أنا شايف انه علي معه حق».

ضحكت الزوجة وخبّأت فمها بيدها، وتركت الحمرة تعلو وجهها: «يا حسرة كنّا حلوين، هلّق الشغل عم يهدّنا هدّ».

ما أن ينهض جواد مستأذناً للخروج حتى ألوم نفسي. فأنا تجاهلت الحرّ الذي كأنّه يتصاعد من جسم مريض ويحطّ عليّ لأن

جـواد كـان يـجلس قـبـالتي. أتمنّى لو أنهض مـثله لكن زوجـة علي لاتزال تغدق عليّ عاطفتها ومودّتها وهي تردّد أنّي كابنتها لأني بمثابة ابنة عليّ. فرحت لما سمعته إذ كانت تصغرني. وأجبرت نفسي لأريح كل عضلاتي، وبتّ كأنّي أجلس على فقرات ظهري. يبدو أنّي بالغت في هذا الاسترخاء إذ سألتني ما بي لأجيبها كاذبة بأنّي دائمة الشعور بالغثيان من جراء ركوبي السيّارة نتيجة ضغطي المنخفض، تنهض إلى الشبّاك وتصيح بأعلى صوتها: «كباية مي للست أسمهان»، ثم تسألني كنت أريد حبّة اسبرو.

تتدخّل روحية: «كم دقيقة وبترجع كلّها حيوية ونشاط».

عندما طال قدوم كوب الماء نهضت زوجة علي مستأذنة، لتلتفت إليّ روحية مؤنّبة: «يللا شدّي حالك. شو يعني مين بدو يسليني؟ في غير هالدبانات اللي عم تونّ بأذني كأنّها تولد الولد خلف الآخر».

أضحك لتشبيهها هذا وأطمئنها: «راح سلّيك، بعدك بتتذكري كيف ندبت على أخت علي؟ دخلك شو كان اسمها؟

– صفيّة، الله يرحمها ويرحم أمواتنا...». «هيك بدك تسلّيني بتنكشي سيرة الأموات؟...».

«بعدك متذكرة كيف ندبتيها حتى علي بعده متضايق إلى اليوم؟».

«ليش أنا بنسى؟ كلّه مكتوب بالدفتر الفوقاني بخطّ نظيف على السطر، الله وكيلك».

«طيّب، يللا سمعيني»:

«هون يا مشحرة يا روحية؟ هلق بقولو عم جيب فال عليهم، مش شايفة قديش علي بيكرهني، بدّك يقوم يخنقني».

تغمض عينها ثم تعود فتفتحهما وتهمس: «مش عارف ليش هو فهم غلط ولك شفتي الحر والشجر؟ والله الشجر والحجر بكي لما رثيتها».

تغمض عينها من جديد وبصوت منخفض تغني:

«يا حبيبتي لا ترمشي بعينيك مرتين».

«يا حبيبتي مش راح تشربي مي بهالشفتين».

«يا حبيبتي مش راح تاكلي وتحمدي الله مرتين».

«يا حبيبتي خللي إيديك براه الشرشفين».

«لا نو بدهن يطمّوك تحت التراب بعد دقيقتين».

وكأنها لم تكن في جو آخر، تبدّل صوتها وتغني:

يا أسمى ويا أسمهان اسمك عطول دوم علساني

وحبي لك حبي عمياني شوفك قبالي بفستان أزرق سماوي

أتدخل قائلة:

«ما بحبّش اللون الأزرق. «شو مبيّن قفزت من الحزن للفرح؟».

«الاتنين مثل بعض يا ست الفهم. للدنيا منضحك ومنبكي.. للآخرة منضحك ومنبكي».

من غير أن تستشير إحدانا الأخرى نقف لنغادر هذا الأتون، لنرى زوجة علي تنتظر في الفسحة المغبرة من أرسلته ليأتي بليمونة حامضة. التفتّ حولي أبحث عن جواد فلا أجد له أثراً. ثم أيقنت أنّه ذهب مع علي الذي اختفت سيارته ليأتيا بالفراريج المشويّة من البلدة المجاورة، إذ سمعت كلمة فرارية تتردّد بين علي وزوجته حالما وصلنا.

أسأل زوجة علي عنه فتُجيب سوف يعود للتوّ، وأتمنّى لو أملك الجرأة لأسألها عن جواد. لكن صيحة واحدة تتعالى من البناء وزوجة علي تقول:

«الأستاذ عم يصوّر بالمعمل والكلّ مفكّر عم يعمل سحر».

تشير إلى البناء الأبيض ذي النوافذ البنية الذي سطحه من صفيح، وقد ركّز عليه جذع شجرة وبعض الحجارة لتقويته.

أقول لروحية: «يللا نفوت شوي».

تعترضني زوجة علي: «إذا بعدك تعبانة ما تفوتيش عالمعمل. هلّق الريحة بتقتلكم قتل».

«ريحة شو؟».

«اليوم عم يحضروا زيت الحشيشة».

«أنا صرت كتير منيحه. بطلت دايخة لا تتعذّبي.. بالليمون الحامض».

كان جواد يأخذ صوراً بآلة التصوير «البولارويد» لأمّ زوجة علي التي كانت في سنّي والنساء الكثيرات والأولاد. ما أن يلمحنا جواد حتى يستعيد منهم بعض الصور مستأذناً: «بس لحظة حتى فرجيها لأسمهان». وبحماس يقترب مني والصور بين أنامله العشرة: «شوفي بشرفك زرّ الكهرباء شو مودرن... وشوفي ثيابهم».

كانت الصيحات والقهقهات والكلام يتعالى وسط الغرفة الكبيرة التي تغصّ بالنساء، بالشابات وبالعجائز اللواتي لم يكن يظهر من وجوههن سوى أعينهن، يمسكن بكرات الحشيشة السوداء، يفركنها بأيديهن. أخريات يحركنها وهي تغلي فوق النار. هناك من يقوم بوزنها، من يتفحّص لزاجتها، لونها.. بينما تناثر الغبار على علب الصفيح، على قساطل مضخّات الحشيشة، التي كانت تصدر الأصوات.

ابتسامة جواد تظهر أسنانه التي كأنّها لا تعلك الطعام. بل كأنّها خلقت للابتسام، تضحك النساء سعيدة به لتبادره إحداهن: «شو بدك تصوّر يا حبيبي، ما انت صوّرت الكل من عداي، وأنا ختيارة كركوبة. إذا بدك يعني تصوّر صوّر بنت بنتي ابتسام، صوّر».

سيارة شحن «تراكتور» تتوقف خارج هذا البناء تكاد تطفح بالحشيشة، المزدحمة فوق بعضها تحت غطاء من نايلون إلى جانب السائق يظهر رجل آخر يكاد يجلس على الدولاب، تتوقّف سيّارة خلف هذا الشحن ويترجّل منها ثلاثة رجال مدجّجين بالسلاح، لا بدّ أنّهم حرّاس الشاحنة، يفرغ رجال الشاحنة الحشيشة

ويضعونها في الناحية الأخرى من البقعة المسيّجة. صيحات الأطفال المعلنة مجيء علي ورؤية الرجال في شتّى الملابس وابتساماتهم وسكائرهم المتدليّة من أفواههم جعل الشكّ يخيّم عليّ من جديد ويقنعني بأنّ ما حدث في بيت روحية مساء البارحة لا بدّ انه كان من نسج الخيال، لا يمكن في هذه البلاد إلاّ أن يكون الرجال فيها أما يتبادلون الضحك. وإنما يكدّهم العرق وإما يقودون السيّارات فخورين بها بينما سلاحهم الظاهر هذا يبدو وكأنه تقليعة، كموضة الظفر الطويل. المفروض أنّهم ينتمون إلى أحزاب متعدّدة، يحملون السلاح لإبادة بعضهم بعضاً أو لسيطرة أحدهم على الآخر. لكن في هذا السهل يوجّهون فوهات أسلحتهم لحماية بعضهم. فكلّ حزب هنا كان بحاجة إلى الحزب الآخر، وكل مذهب إلى المذهب الآخر. من يصرف أكياس الحشيشة هذه غير المسيحيين لاتصالاتهم مع الخارج حيث طرق العالم مفتوحة أمامهم. ومن يزرعها ويرويها، ويحصدها غير أيادي الشيعة؟ ومن يهتم بأمر الكوكاكيين غير الدروز. ليعلّق جواد: «شو بدّك يا علوش الوحدة الوطنية هي الجيبة! من الجواسيس إلى جنود اللّه إلى إسرائيل في السماء».

تدخل زوجة علي ببطء وفي يديها كوب من عصير الليمون وهي تحذّر من أن لا يقترب منها أحد.

أسرع إليها وأتناول منها الكوب وأنا أشكرها وأشربه ببطء، إذ كمية الملح التي كانت فيه طغت على حموضته.

نعود إلى الغرفة الخانقة بالحرّ ومع ذلك نفتك بالفراريج التي أتى بها علي فتكاً ونحن نغمس بصحن الثوم. وزوجة علي تدعو للمشاركة كل وجه تراه يسترق إلينا من النافذ، خاصة الأولاد. عندما لم يجرؤ أحد على دخول الغرفة عدا ابنها تحزر روحية السبب: «كيف بدهم يفوتوا؟ خيفانين نآكلهم؟ شوفو يا ويلاه ماخليناش من الفراريج إلاّ العظام الكبيرة».

نضحك جيمعاً ويبدو أنّ رائحة الثوم قد علقت في كلّ منّا إذ

أخذت أشمّ الثوم ينبعث حتى من الماء الذي أشربه بينما يفرد جواد الصور أمامنا وهو يحاول أن يختار بعضها. ليحتفظ بها بعد أن يفرّق البقية على أصحابها. يكتفي علي برؤية الصور من بعيد بين أيدي الجميع ويطلب من جواد أن يأخذ له صورة مع زوجته ثم ليأخذ الصورة بين يديه معلقاً على جمال زوجته. نتركها وهي تعدني بزيارتي ما أن تلحق بعلي في بيروت بعد انتهاء الموسم.

يدبّ النعاس بي وبروحية من جديد بينما أجّجت الزيارة الحماس في جواد وأخذت أسئلته وأشواقه وسروره لهذا الغذاء يتواكب مع حديثه الموجّه إلى علي.

توقّفت السيّارة عند حاجز. نسمع بين اليقظة والنوم: «الأخ جواد تفضّل شرّف معنا». برمشة عين عادت روحك تسيطر وتلغي عدمها. يلتفت علي إلينا، ووجه رجل الحاجز داخل السيارة يتأمّلنا ويده تطبق على جواز سفر جواد وأوراق سيّارة علي. رجل آخر يحشر نفسه أيضاً وينظر إلينا: «السيد جواد تفضّل معنا». تصيح روحية وهي تمسك بذراع جواد غير مصدّقة: «يا شحاري نحنا جينا من طريق ما بيعرفها إلاّ الجنّ، كيف عرفونا كيف ناطرينا على الدعسة؟ ليسكتها علي صائحاً بها. لا بدّ أنّها تشكّ بعلي، أنا الآن أشكّ بعلي أيضاً. بينما يهدئها جواد. وكأنّ بسماعنا لصوته زعزع منبت عقلها وعقلي. وأخذنا نصيح بالرجلين صياحاً فاجراً رغم صراخ علي بنا لأن نسكت قبل أن يستأذن الرجل قائلاً: «عن إذنك بدّي انزل من السيّارة وأحكي معك كلمتين». يجيب الرجل ووجهه لم يزل عندنا: «تفضّل انزل».

يفتح علي باب السيّارة وقبل أن يترجّل يتلفت إلينا قائلاً: «لا تخافوا». يأخذ الرجل من ذراعه ويسير معه، بينما يقترب آخر ويمدّ رأسه هنيهة ثم يعود يقف ويده على السيّارة. نطلّ برؤوسنا، كأنّما رؤيتنا لعلي والسيكارة لم تزل في يده وهو يتحدّث جعلتنا نأخذ نفساً لأوّل مرّة. عندما سحب علي من السيكارة أخذنا نفساً آخر، لكن عندما اقترب من النافذة ببطء عرفنا أنه لم يستطع أن يسيطر

على الموقف. وحدست أنّ في الأمر خطورة فعلاً وهو يقول بصوت مستسلم: «أستاذ جواد الهيئة بدهم يحكوا معك الشباب».

ينزل جواد بصعوبة من جرّاء روحية وصراخها وتشبّثها بخصره. رغم أنّ علي فتح الباب وأخذ يبعدها عنه وجواد يحاول أن يحضنها بذراعه مهدّئاً، لكنّها لم تتوقّف عن الولولة: «خذوني أنا اقتلوني اعملوا شو ما بدكم فيّ. ما هو من دينكم مع انه عايش برّه».

أترجّل من السيّارة بدوري. وألحق بهما وكان أحد المسلّحين يحاول أن يتحدّث معها ولما ازداد هيجانها صرخ بها: ولك اسمعي، كلمة واحدة بدنا نسقيه فنجان قهوة بالمكتب وبيرجع».

أنصتت روحية للحظة لتعود تولول وتصرخ وتلحق بجواد. تشدّ به وهو يطمئنها ويربت يده فوق كتفها. ولم تقتنع، إلاّ عندما اقترب أحدهم منّي وأقسم لها بأنّهم سيعيدونه بعد قليل، طالبا منّي تهدئتها.

ولم يدخلاه إلى الغرفة الصغيرة الملاصقة للحاجز. بل ساروا به إلى جيب عسكري لتعود عندها روحية إلى الصياح: «ولك يا اسمهان عم يخطفوه ولك خطفوه ونحنا عم نتفرّج. ولك خطفوه مفكرينه أجنبي جاسوس». لكنّ الرجل الذي لم نستطع الإفلات منه أخذ يطمئنها: «لا مخطوف ولا ما يحزنون، يرجع بعد خمس دقائق».

نرى علي يدخل بسيارة الجيب قبل جواد لنصيح عالياً رغم أنّ المسلّح لم يزل يؤكّد لي ولروحية: «لا تخافوا انا معكم هلّق بيرجعوا». أصواتنا وأفكاره تشابكت في رأسي، وامتدّت إلى رأس روحية. ومنه إليّ، حتى أصبحنا أكمة أشجار لم تعد تعرف كلّ شجرة أين أغصانها وثمارها.

«تفضّلوا عالسيّارة أحسن ما تنتظروا عالطريق».

وكأنّ كلمة المسلّح هذه أشعلت النّار التي نحاول إخمادها. فأصرخ بروحية لأن تصعد السيّارة ما أن لمحت مفاتيحها مازالت

داخلها حتى لحقت بالجيب الذي لم يزل تحت أنظارنا، وروحية التي تتلوى كغرسة عطشى، دبّت الحياة في عروقها فجأة. وأخذت تحمّسني، وأنا أطير في السيّارة دون أن أرفع يدي عن البوق إلى أن حانت من ركّاب الجيب التفاتة. وأخذ علي يصدر لنا الإشارات. رؤيتنا لرأس جواد من الخلف منحتنا الطمأنينة، تمنّيت لو أنّ الدنيا بألف خير. ونحن نلحق بالسيّارة التي ستأخذنا إلى نبع جديد لا نعرفه لنفرد التبولّة ونضع البطيخة في النبع حتى تبرد. لأجدني أصيح واشتم. أصيح وأبكي وأضحك. أنا مجنونة أعيش بين هؤلاء المجانين الذين يدفعهم عقمهم لإحداث ضوضاء وحركة كهذه. ماذا سوف ينتج تحقيقهم مع جواد غير اللاشئ؟ أعود أصيح وأشتم وأصيح، وأبكي، نحن في الحرب نعم، نحن في حرب مدافع، حرب عصابات، حرب أديان، حرب سياسة، حرب أموال.

التمس كم أن لحيرتي صوتاً وكم هي تنز الماء يكاد يخنق الحنجرة. سرعتي أصبحت كخيط يلتفّ على نول. كنت أقود آلة لا أعرف نتائج ضغطي على قطعتها تلك وتلك. أخاف على روحية من ردّة فعلي هذه، ولدهشتي أجدها تستأنس بجنوني هذا وتزيد على صياحي وتزيد على بكائي وتشنّجي.

وما أن أصبحنا في بلدة حيث الناس والسيارات والدكاكين حتى أزيلت عنا وحشة السهل وصمت الطبيعة، وأخذت الطمأنينة تسري في كياننا، وما أن توقّف الجيب عند إحدى البنايات المتعدّدة الطوابق حتى ازداد تفاؤلنا.

يترجّلون من السيّارة واحداً واحداً وكأنّهم أصدقاء. ينظر إلينا علي ويشير بيده مبتسماً. يفعل مثله جواد. ليدخلوا جميعاً البناية التي عند جهة من مدخلها تقبع صيدلية وإلى الجهة الأخرى جزّار، وفي الطابق الأوّل مكاتب لبنك كبير. يظهر المسلّح الذي تركناه في السهل، يطلّ وجهه من نافذة سيّارتنا حتى يكاد يلاصق وجهي ويوجه إلينا العتاب لهروبنا منه، ثم يسألنا إذا أردنا أن نشرب البارد معه.

أتمنّع أنا بينما تجيبه روحية: بسرعة دخيلك. شي قازوزة تبرد لي قلبي، الله يرد عنّك».

يهزّ رأسه ويحدجني بنظرة كلّها معنى. ما أن ابتعد حتى تلتفت إلي روحية تقول بعصبية: «خليه يصير بيننا وبينهم خبز وملح. دخيلك لن أرضى أن أسمع كلمة لا من الآن حتى يرجع حبيب القلب».

«هالزلمة محشّش».

«يا ريت فوق يكونوا محشّشين يا رب دخيلك».

يرجع الشاب بالمشروب البارد ويبقيها في يده يسألني من أين أتيت بلون عيني.

يمدّ يده بالزجاجة الباردة وأنا آخذها منه يشدّ على يدي التي شدّت بدورها على القنينة. وأخذت البرودة تسري في كفّي.

تقول روحية وكأنّنا ولدان صغيران: «يلا يا سندي، شربة ماء. راح موت عطش».

أفلت يدي وأدنى القنينة منها. يقول المسلّح كلاماً غير موزون يردّد الاسطوانة ذاتها: «الجهاد والبطولة والرقي والنصر».

وروحية تجيبه باستهزاء احذره: «اي يا روحي الله ينصركم، وينصر أمّة محمد وعلي يا رب». ثم تقاطعه متصنّعة الحب والاهتمام به سائلة: «مين بدو يحقّق معه يا حبيبي». ثم: «فوت يا حبيبي عالسيارة أحسن ما تضربك الشمس. شو قلت، مين بدّو يحقّق معه يا سندي».

يجيبها: «الشباب فوق».

«منعرف شباب مش عجايز، مين أي جهة الشباب؟ نحنا لنا علاقة بفلان، وفلان..» لتضيف بعصبيّة: «والله فلان يمكن يعلّق المشانق إذا حدا لمس شعرة من جواد. شو مفكرين هو اياً كان؟».

يجب: «ما تخافوا! ولو نحنا! وحوش؟».

تخاف روحية لأن تكون قد أهانته فتتراجع: «بعيد من هون... حاشا قيمتك تقبرني... أطلع فوق وشوف شو عم يصير.. أرجوك خبّرنا».

يرضخ لكلامها وهو يتمتم: «طيّب».

يسير بتثاقل إلى داخل البناية. عيناي على المدخل وكذلك عينا روحية التي وكأنّها تقزّزت فجأة، فهي لم تعد ترمش أو تتنفّس، تسمّر وجهها. وحدقة عينيها، مدّة اتململ. أنظر إليها وهي لا تأبه بي. بل تقطّب ما بين حاجبيها بين حين وآخر. ألوح كفّي أمام وجهها. ومع ذلك فهي تتجاهلني بل لا تراني. ألاحظ أن حدقة عينيها توسّعت لدرجة الانفجار في لحظة. ثم وكأن أنفاسنا وصلت إلى حيث يجتمعون لنرى علي ينزل وحيداً.

يقاطع علي روحية ما أن فتحت فمها: «جواد نازل، نازل».

وتنفرج ابتسامته لي عن أسنان صفراء وذقن كأنّها جبّ شوك. لكن روحية تصيح به: «دخيلك ارجع له.. أنا عارفه انه نازل».

«شو يا ست أسمى، عندك معجبين، في شاب جاي يخطبك منّي قلتللو مخطوبة».

تصيح روحية معاتبة: «ليش تقول مخطوبة. دخيلك قللو أهلاً وسهلاً منعطيك ياها، وبعدين لما يصير جواد معنا منمدلهم اجرينا ولسانا ومنقول: هيدا عشاكم وهيدا غداكم».

أضحك بينما يهزّ علي رأسه يميناً وشمالاً: «والله انك مجنونة».

«لا مجنونة ولا شيء. أنا نزلتك من فوق. خليت أفكاري تسيطر عليهم.. لما صار راسي يطن ويرنّ قلت الذي أريده وصل. ولو كنت وحدي من غير السعدانه أسمى ومن غير الضجّة لكنت جبرتك تنزل قبل بكثير».

«والله انت مجنونة عن حق وحقيق».

وما أن نلمح جواد حتى نهبّ بالنزول من السيّارة، راكضين إلى جواد الذي أخذ يصافح كلّ من هم في رفقته... واحداً واحداً، بينما

يشدّه علي وهو يلقي التحية على المسلّحين قائلا «كتّر خيركم يا شباب».

تهجم روحيّة على جواد ثم تجرّة حتى يجلس قربها لكنه يجلس قرب علي وما أن ابتعدت السيّارة نوعاً ما، حتى انفجرت روحية باكية: «الله لا يعطيهم العافية ولا القوّة».

ثم احتضنت رأس جواد من الخلف وأخذت تجهش بالبكاء، كأنها لم تع جيّداً قضيّة اختطافه إلاّ الآن. ولم يبعدها عنه بل أراح رأسه على يديها. ثم التفت إليها وأخذ يتحسّس بيده على غطاء شعرها مواسياً.

ولم يعلّق شيئاً حتى عندما تماسكت روحية وسألته عن سبب تحقيقهم معه. وعندما حان دور علي لسؤال جواد تتدخّل روحية: «يعني عامل حالك مش عارف يا سيد علي».

ليترك علي يداً واحدة على المقود ويتّجه بالأخرى وبرأسه إلى الخلف: «لا والله، خصيمي محمد والإمام علي، اسألي الأستاذ جواد حطوني برّة. والله وقفت حد الباب وما رضيت حيّد حتى شعرة مع أن المسؤول عن المكتب وعدني أنه الأستاذ جواد بأمان».

لا يريد جواد التحدّث عما جرى. لا بدّ أنّهم هدّدوه. كأنّ وقتاً طويلاً قد مَضى قبل أن يعود كلّ منّا إلى طبيعته. تأمّلنا عبر النوافذ ساعدنا جميعاً على أن نأخذ من جديد خيط الهدوء كما قبل هذه الحادثة.

لم نزل بين شريكاتك ولم نزل تحت وطأتك رغم ما نراه الآن من جبال هادئة وصخور هادئة وعيدان حطب متجمّعة هادئة. قطيع غنم وراع في عمر دون العاشرة، عندما التقت عيناي بعينه، رفع خروفاً ذا أذنين سوداوين يحييني به، بائعة تبيع البطيخ الأصفر. افتح عيني كما فتحتهما روحية وأحدّق في كلّ شيء. ثم أغلقهما حتى ينتظم الصوت وعندما يصبح رتيباً أفكّر بما حدث خطوة خطوة وأصل إلى السؤال والجواب اللذين هما موجودان بيننا، ومع ذلك لم نكن لنعيرهما أي اهتمام من قبل:

لماذا تكملين ايتها الحرب عملك رغم اكتشافك للموت وللدمار ورغم استنتاجك أنّ السياسة ليست فريقاً بل رمز. أعرف الجواب: لأن الرجل بحاجة ماسة للدخول في أي صراع يعتاد ويصبح معروفاً لديه، حتى لا يعود يبحث هنا أو هناك عن صراعات وأسرار الحياة والموت وما تنتج عنها من نظريات فلسفة لذلك يدع صراعك أيتها الحرب يأخذه كيفما شاء بكلّ قوّته. كأنّه رغم خطورته يجد الرجل نفسه قد توقّف عن البحث والتردّد. انك رغم خطورتك تضعينه في حالة اطمئنان، فيكشف هذا الاكتشاف الثمين ويمضي في لعبتك.

ماذا أفعل أزاء هذه الأفكار؟ أبعث بها إلى النور فيصطادها جواد، وينشرها للملأ أم أناقش بها كاظم والشيخ المودرن وريكاردو؟ رحت أستعيد نظرات الشهوة في أعين الشباب، ريكاردو وأخو كاظم وآخرون ممن هم دون العشرين وهم يحلمون ويتأمّلون السلاح ويتباحثون حول الذي بين أيديهم. وكأنّه ليس آلة الموت. بل شيء يرغبه ويتمنّاه كلّ من في سنّهم. كأنّها امرأة شعروا بالرغبة تجاهها منذ أن ولدوا وها هم في حضرتها وإن لم يعانقوها جميعهم.

اعترف بأنّي أعيش حياة قلقة في مدينة قلقة من جرائك. لكن ألم تبرزي الجوهر إلى العيان وتعزّزي هذا الجوهر الذي كان من الصعب إيجاده والبلد يدور حول نفسه متباهياً بغزل قشرة برّاقة حوله؟

لكن ها أنا من جديد أصفك وكأنّك ماء كرّر نفسه حتى أصبح صافياً رغم الجراثيم التي استقرّت في القعر. كيف أقارن بين وصولي إلى جوهر الأشياء من جرائك وهمسات صديقتي زوجة الرسّام وقولها لي وأنا أتأمّل رسوم زوجها: «كلّه كذب». ولم أفهم سرّ جملتها هذه إلاّ بعد أن قصّت عليّ كيف أنّ بعض المسلّحين أخذوا يعتدون على جارهم صاحب برّاد الفراء بالرصاص وكيف شقّت زوجته نفسها إلى شقين وأخرجت صوتاً ارتعدت له البناية، وهي تستغيث بالجيران، انزوت صديقتي وزوجها الرسّام خلف

الباب بعد أن أسرعا إلى إطفاء الأنوار. صوت الزوجة ينهش لحمها كذلك الرغبة في الحفاظ على سلامتهما يردّهما عن التحرّك والمساعدة.

يتكلّم جواد بوجهه الذي كاد يطير عبر نافذة السيّارة. أرى نبض رقبته الأسمر. لم أشعر بذلك القرب منه كما أشعر الآن. سيظلّ يجهل ما يحدث رغم أنّه سمع، وقرأ عنك وحاول أن يعاني مع الذين يعانون منك لكن مخيّلته لم تستطع أن تحوي الخرائب والأماكن المهجورة التي يراها الآن. يبدو أنه بلغ جملته التي كانت تقول: «طالما في ناس ما في خراب».

انه يشهق كما نشهق جميعنا الآن. ونحن نرى بيوتاً بلا أبواب، بلا نوافذ. فالأصوات في النهاية تتلاشى كفقاعات مهما كبرت وحوت مرآتها الشفّافة من ألوان وصور. أتساءل الآن بندم: كيف ألهتنا المصّاصة - مصاصتك - عمّا يدور في الدنيا، وجملتنا نرصد أخبارك من يوم إلى آخر. ننتظر ريثما تجمعين حوائجك وترحلين عنا..

عزيزتي بيروت

انتبهت أنّ لديك سماءين لأني أخذت أراك بعيني جواد. سماء من أشرطة الهاتف والكهرباء الممتدّة من كلّ صوب، كأنّها خيمة من خيوط العناكب. وسماء أخرى عالية فيها النجوم متلألئة. لا أذكر أنّنا كنّا نرى نجوماً كهذه في سمائك. هل لأنّ الرطوبة بها قد تلاشت أم أنّها العتمة التي تخفي تجاعيد الوجه في الليل وتظهر النجوم الباهرة؟ والقمر الذي بدا أكثر وساعة واستدارة وكأنّه يلتحق بوظيفته لأوّل مرّة عندنا فيحيد عن البحر وينير الطرقات. أرى البنايات معتمة، عدا ضوء هنا وهناك يقول جواد: «كان يا ما كان في... وشاف الشاطر حسن نور من بعيد»... كأن العتمة أخفضت من أصوات النّاس، فخفَتْ ضجّة التلفزيونات. دخلنا إلى المطعم الإيطالي ليرى جواد إذا كان الغرسون صاحب اليدين الطويلتين اللتين تكادان تصلان أعلى قدميه بقليل، لايزال هناك. وفعلاً وجدناه في المطعم الذي كان بقربه كوم الزبالة. يشير جواد إلى النساء وهو مستغرب أنهنّ يمسكن بحقائب اليد، بدلاً من غالونات الماء التي أصبحت من معالم بيروت. ولم نعلق على الموائد الأخرى التي من قلّة عددها بدت كأنها غير موجودة. لنسير بعدها عند كورنيش البحر ونجلس على كرسيين تابعين لمقهى نقّال يقدّم صاحبه الشاي والقهوة والسندوتشات في سيّارة ستيشن. جلسنا مواجهين لجونيه وللجبال التي كانت تبدو مطفأة. بينا طغى صوت أمواج البحر على ضجيج الموتور الذي أصبحت استأنس لوجوده أو حتى لسماع اسمه. إذ كان يَعِدُ بالنور وبدوران غسّالة الملابس وبأنّ الثلاجة لا تزال تمدّ البرودة للماء وللطعام. نشرب الشاي ونراقب

الضباب الذي امتدّ من الأفق وصعد من البحر وزحف علينا. يمسك جواد بالحديد الرمادي المزنجر. يزداد الضباب لدرجة وكأنّه يودّ أخذنا في طريق إلى قلبك ليشعر جواد بأنّه لم يغادرك قطّ قائلاً إنّ المدن لا تموت. الطبيعة فقط هي التي كانت توحي بما يقوله. يجلس شارداً وبعيداً عن رغبتي فيه. هذا الليل يقرّبني منه ولا أعرف إذا كان يقربه منّي، فجوّ العتمة قد تسلّل إلى السيّارة والأبنية والترقّب عند الحواجز وإلى فراغ الشوارع من السيّارات والناس. حتى من القطط والكلاب، التي لا أعرف من أين كان يأتي عواؤها ومواؤها خاصة عند الفجر الذي ما إن تعتادهما الأذن، حتى تعود الحواس فتستيقظ على أصوات الشباب الجنود في تمارينهم الصباحية في الثكنة القريبة من بيتنا. أفكّر أنّ هذا الليل لن يعد بشيء. فجواد يجلس صامتاً شارداً، ليعتذر بأنّه يريد النوم باكراً. يحيّرني بين مرافقته في تجواله في الغد أو بين أخذه تاكسيّاً.

يستقلّ تاكسيّاً، كأنّه يقصد شاطئ البحر أو مقاهي الجبل؟ أضحك وأهزّ رأسي ولا أخبره عن سبب ضحكي. أخذته إلى «البلد» الكلمة التي لم تكن تفارق لسان جواد إلى أن رأى الأطلال وحبس أنفاسه خوفاً من أن يفقد أيّاً من أجزائه، ونظر إلى السماء ربما ليتأكّد من أنّ هناك حياة. أصدم أنا الأخرى بما أراه رغم أنّي زرت الأسواق والخراب منذ سنوات عندما اصطحبت حياة. أسير وجواد والصمت يخيّم على الحشائش والنباتات العالية التي لو أنها كانت أشجاراً ذات جذور تخينة وعلى حدة لما استغربت لها العين إذ هي حول وفي قلب أرض وجدران المحلاّت التجارية التي أصبحت سقوفاً تئنّ من الوحدة.

يغمض جواد عينيه يريد أن يفكّر بأنّ الدنيا لم تزل كما هي وأنّه مصاب بالصمم وباهتزاز الرؤية. في ذلك الطابق العالي حيث هو الآن بلا جدران، كانت عيادة طبيب العيون حيث أرته أمّه على حائط العيادة صورتين لجدّته قبل وبعد إجراء عمليّة حول عينها اليمنى. التفتت جدّته التي كانت تزور بيروت للمرّة الأولى، وهي تدخل المصعد للمرّة الأولى تسأل أمّه بكل لوم: «دخلك شو طعميتني حتى

جاي تقبنيني بالقبان». «بالوما» مزين الشعر الذي وضع باروكة على شعر أمّي يحمّسها لشرائها قائلاً إنّ «نجاح سلام» اشترت واحدة. تعبق رائحة السبراي ورائحة البيرة التي كان يستعملها حتى يصبح الشعر واقفاً كالورق. وهناك في ذلك الزاروب حيث كنت أحلم أنّ نهايتي ستكون حتماً في إحدى هذه الغرف منذ أن كنت ممسكة بيد زمزم عندما توقّف السرفيس في زقاق، بالقرب من مرآب وفرن ومحطة لسيّارات الأجرة. وعلا صوت زمزم محتجّاً لدى السائق الذي أصرّ وأنزلنا هناك بدلاً من ساحة البرج حيث طلبت. وقتها أمسكت زمزم بيدي وهي تقول: «شو هالمصيبة يا ربّي». ثم سألتني أن لا أنظر يميناً أو شمالاً، وهي تكاد تصل بالأشارب حتى عينيها وتصرخ بي: «عجّلي» لأنّي كنت أركض وألتفت حولي لربّما اكتشفت سرّ خوفها. لكني لم أكن أرى سوى عمّال المرآب وكأنّهم غطّسوا في براميل سوداء. أسألها: «ليش شو في هون؟» ورائحة الخبز تنفذ إلى أنفي. «سوق الأوادم». لم أفهم أنّها تقصد العكس إلاّ بعد أن سمعتها تقصّ الخبر على جدّتي وهي ترتجف قائلة متوسّلة إلى سقف الغرفة: «إن شاء الله ما شافني حدا يا ربّ». لتردّ جدّتي باستهزاء: «ولو؟ ما معك امي..! شوها القصص؟»

عندما تفتحت على وجود الجنس الآخر، وعلى كلمة الحب، أخذت، بدلاً أن أحلم بشاب من عمري أو بممثل، أخذت الكوابيس تزورني بأنّي في غرفة في سوق البغاء وبأنّي لم أكن أجرؤ على مغادرتها خوفاً من أن يذبحني أحد رجال العائلة... الحلم يتكرّر يزيدني خوفاً من أن أسير في ساحة البرج من ناحية السوق.

لا بدّ أنّ جواد فهم سر ضحكي البارحة عندما خيّرني بين اصطحابه وبين أخذ تاكسي. فهذه الأطلال لا بد أن تصدم، وعلى المرء أن يكون مستعداً: عليه أن يكون في صحبة وجه يعرفه وصوت قد اعتاد عليه. انها دائماً صادمة، مهما ظنّ المرء أنّه اعتاد على وحشيّتها. عندما اصطحبت حياة للطواف بها شهقت وقتها كما شهقت اليوم للنباتات التي علت حتى أصبحت كأنّها غابة. «لوما يافطة بوظة ستيك وليامس، لما حزرنا أين نحن». أذكر وحياة تشهق

وتزفر أمام الأطلال كيف نهض مسلّح من خلف طاولة، في هذا الفراغ وسألنا إذا كنّا نريد فنجان قهوة. تردّدت حياة بينما رحبتُ وأنا أهزّ رأسي بالإيجاب، أمام عينيه الطيّبتين والموحشتين في هذا الدمار. وحولي الغرسات الطويلة التي كانت تفرض جوّاً غامضاً وكئيباً والتي جعلتني أسأله إذا كان يشعر بالخوف في الليل. ضحك وهو يخبط على بندقيّته: «معقول؟» ثم وليهمس في أذني ما أن وقفنا نغادر، أنّه يخاف من البوم إذ كان طير البوم في العشرات، ثم وكمن يودّ أن يكون صريحاً لدرجة أضاف: «ومن الكلاب الهائشة». ثم ولدهشتي سألني أن يأخذ خصلة من شعري وأنا أفكّر بأنّه ربما لم يرَ امرأة منذ مدّة طويلة أو لا بدّ أنّه تحت تأثير مخدّر سحب سكينة سويسرية فيها مقصّ يكاد يكون كالظفر من صغره. مددت يدي حتى آخذها منه لكنّه يقترب منّي ويقصّ خصلة من طرف شعري ثم يمزّق طرف جريدة قديمة كانت تحت صحن وزجاجة بيرة فارغة. ويضع الخصلة داخلها في كل تأنّ ليودعها في جيب قميصه.. لم أستطع محو هذا المشهد من فكري لأيام وأخذت تتراءى لي الخصلة في أقصوصة الجريدة مخبّأة في ظلام جيبه كلّما لمست شعري، هناك في ظلام الحجرة الواسعة والعالية السقف حيث المسلّح يخاف من نعيق البوم.

أشعر الآن بالتعب والضجر من هذه الأطلال. لكنّي لم أشأ أن أحث جواد على تركها. فما حولنا لم يكن يستوعبه العقل، ولا تألفه العين. مهما كانت المخيّلة عقيمة، مغبّشة فإنّها لا بدّ أن تستحضر الأيّام الماضية ولو لثوان، فتضجّ الأطلال بالحياة، بأشجار النخيل الإفرنجية، بالمهرولين، بالزمامير بالرائحة. هذا ما حدث لي في المرّة الأولى لنزولي الأسواق منذ سنوات بعد أن صحوت في صباح يوم في شقّة المصوّر الصحافي الجذّاب، فتحت عيني عليه وهو يسرع في انتشال ملابسه عن الأرض ويرتديها. قبّلني على جبيني وسألني أن أنتظره أو أن أراه في الفندق بعد الظهر، وكنّا قد تجرأنا لمحادثة بعضنا البارحة فقط، بعد أن كنّا نتبادل النظرات، ونحن على معرفة تماماً بما سوف يحدث بيننا. رغم النبيذ الذي كان قد خدّر عقلي

وجسمي فقد وجدتني أنهض بدوري أسرع في ارتداء ملابسي، حتى أرافقه إلى ساحة البرج التي بين ليلة وضحاها أصبحت مرضاً خبيثاً يمتدّ بالخاطر. حيث انكمشت الطرق على نفسها وأصبحت تدعى بالمنافذ. كان انبهاري وحماسي عظيماً إلى أن رأيت كوزاً من التين الأسود وحيداً تحمله شجرة تين منحنية كأنّها تئن من التعب، تفرد أوراقها العريضة الصامتة المتعثّرة بالغبار. شعرت بأنّها تنظر لي بحزن من غير اتّهام. لكنّي فهمت أنّي خائنة لأنّي لا أنفر من الحرب، بل لأنّها أيقظت حواسي، ولأنّي جئت للتفرّج عليها.

ومن على سطحها رأيت بيروت تتهاوى تماماً كالدومينو المصفوف الذي يتهاوى حجراً حجراً من جراء ضربة واحدة. بينما الصامد منها وكأنّه ينتظر دوره وهو يتأمّل المتهاوى الجميل. كأنّ الصامد لم يزل يحمل بين أضلاعه ذكر الماضي في لون الدهان والبلاط وأشرطة الكهرباء واللافتات. ذكرى المدينة حيّة يوم كانت تبلع الأضواء وتنفثها كدراغون – إعلان عن فيلم سينمائي لم يزل. بقايا سهم من نيون يشير إلى بن عازار، البنايات المتهاوية كأنّها نمور مرقّطة، ألوان غريبة لا يعرف اللسان ماذا يطلق عليها. إذ تراها العين لأوّل مرّة فيقف المتفرّج مبهوراً أمام ما يرى من أشلاء كانت تكوّن الحياة اليومية. وأجدني أفكّر في بيتنا هل سيصبح يوماً ما هكذا؟ ثم اندفعت مع سيمون إلى قلب الموت، أتناول شاندويتشاً مع ثلاثة قنّاصين وطرف من البحر الأزرق يظهر خلفنا شديد الزرقة. أراد سيمون إفهامي أن القنص هو تكتيك عسكري عملاق في قلب السماء، طعامه يتكوّن من كلّ متحرّك على الأرض.

كانوا ثلاثة، أحدهم يكبّ على المكبّر محدّقاً في العدسة يبحث عن طريدة، يراها. يقول للآخر بهدوء: «شايف حبل الغسيل، هالمرا اللي عم تسكب القهوة... ولك لا... حد البناية اللي شبابيكها خضر، اي هونيك» يجيبه الآخر: «اي اي قول من الأوّل فوق يافطة الببسي كولا». يجيب الأوّل: مضبوط المرا بالفستان المعرّق» «وانا اتعجّب لسكوتهما المفاجئ. أرى نتعة البندقية ترتدّ إلى الخلف في يد

أحدهم فجأة، ثم ليريحها على الأرض وهو يقول: «كانت المرا بالفستان الأزرق».

ما رأيته مع سيمون جعلني أفكّر في الحرب بطريقة تختلف تماماً عن الذين كانوا لا يفارقون منازلهم وإنّما يستمدّون ما يجري من الإذاعات والجرائد ورعب المعارك. لم أعتد على فكرة الحرب فقط بل أن فكرة الحياة والموت أصبحت راسخة أمام عيني، عند حنجرتي. بعد أن أوحى لي بها سيمون الذي أصبح شخصين: شخص مطمئن إلى أنّه محميّ من الموت لأنّه في قلب الأحداث وشخص آخر يعاني من الخوف. لم يكن خوفاً يستطيع طرده، إنّما خوف متأصّل به يبتدئ ما أن يطلّ الليل ليشعر بأنّه قد دخل لتوّه غرفة السونا. يغطس في عرق بارد، دافئ. رغم أنّه كان يشعل أكبر عدد ممكن من الشموع إلاّ أنها كانت تزيده وحشة، خيالها كان يولّد أشباحاً تجعله يشعر بأنّه مراقب. وما أن يطفئ هذه الشموع حتى كانت تهبّ أفكاره المتشابكة والمريضة بحيث يصبح الليل آلة تضغط على صفحة سواده وبالتالي، يتسلّل إلى حيث هو ويضغط على صدره فيصبح تنفّسه صعباً وكأنّه يعاني من مرض صدري، يحاول أن يرفع هذا الثقل عنه ولا يستطيع، إذ كلّ ما يتنفّسه في البيت هو ذرات من حديد ثقيل. لا بدّ أن تستقرّ الآن رصاصة في رأسه بعد أن تنفذ من الشبّاك الخشبي، شظيّة ستنفجر في وسط الدار بعد أن تخرق الحائط - يذهب إلى السرير لكنّه لا ينام، يريد عاطفة ما. يريد الجنس الآخر. يريد أن ينسى العنف. لكن حتى هذا الشعور الجنسي لم يكن ليمحو شعوره بالخوف المتأصّل والذي أصبح مرادفاً لروحه، الذي لم يكن يفارقه سوى عند الصباح، عندما كان ينهض والنور يعمّ الغرفة. فيرى أنّ ملابسه والأثاث وكل ما حوله مألوف لديه، يذكّره برتابة الحياة. عندما يصبح في الشارع يجد نفسه يستأنس لقرص الشمس الأحمر ثم الأصفر الذي كان يدخل أنسجة قلقه ويمدّها بدفء باهر ينسيه حتى وجود الليل ويحمّسه للبدء في النّهار من جديد. واقع الحرب يعود يثبت نفسه شيئاً فشيئاً فيعدو هو وعدسته حول رقبته. يسجّل خوفه المرجأ حتى الليل.

أصبح سيمون القوّة التي استمدّ منها ما يكفي يومي. أصبح نشرة الأخبار التي مهما كان فيها من سموم فإنّها كانت واضحة تشغل العقل، تجعلني أقرب من الأحداث، ألمسها. لكن سيمون قرّر الهجرة رغم الشمس وعدسته. لم أهتم لقراره هذا في البداية لأنّ هذه الجملة كانت تتردّد على لسانه طوال الوقت. فهو أخبرني منذ لقائنا الأوّل كيف أنّه قرّر الهجرة إبان مجزرة الكرنتينا عندما أيقن أنّه سوف يقتل. في الكرنتينا رأى الجثث كوّمت في زاوية تماماً كما تكوّم النفايات بعد كنس وتنظيف الأمكنة. الجثث كأنّها هرم. إنما هرم ملوّن، غير متساوي الزوايا من جرّاء قدم أو رأس أو كفّ أو صدر ما أن تبيّن حارسها الذي كان يقف قربها ولا يدع المصوّرين يقتربون منها حتى أيقن أنّ الحظّ يقف إلى جانبه. وكان الحارس النجّار «أبو الزوز» الذي كان نجّار العائلة، يقوم بصنع كل ما تحتاجه من أثاث خشبي. يخبرني سيمون: «بدّي آخذ صورة؟» قلت لأبو الزوز الذي عمّه الفرح لأنّي أراه في هذا المركز المهم فأجابني: «على راسي. صَوِّرْ كل شي ما عدا هالكوم؛ أجبته بلامبالاة من غير أن أنظر إلى هرم البشر: «ولو؟ أنا أصلاً مش ممكن صوّرها. ما حدا بينشرها» لكني قمت بتلك الصورة عند تقديمه لي كأساً من شمبانيا وهو يسألني عن الأهل. ونشرت الصورة بالصحف العالمية. رغم أنّ اسمي لم ينشر تحتها، لكنّ خوفي من أبو الزوز فاق الوصف. لم أدع أحداً من العائلة يقطع خطوط التماس لمدّة طويلة. فقط عندما راقت الحالة عاد أبو الزوز إلى سابق مهنته. دعته أمّي إلى بيتنا حتى تتأكّد من حسن نيّته تجاهي وكانت تعبئ صحنه كلما أجهز عليه حتى لا تسمع منه كلمة واحدة عني».

لكن سيمون بكى عازماً على الرحيل. اكتشف كم كان واهماً عندما ظنّ أنّ كونه مسيحيّاً لن يقف بينه وبين علاقته الحميمة مع المقاتلين سواء من الفلسطينيين أو الشيوعيين أو الشيعة أو الدروز. لم يصدّق أنّ اسمه وقف بينه وبين الحياة والموت في يوم كان الانتقام يشحن نفسه ويتضخّم بعد معارك وخطف من كلتا الجهتين. ذلك اليوم أيقن سيمون كالعادة أنّ اسمه ودينه هما صدفة

لا علاقة له بها. وأنّه سيبقى صدفة رغم هذه الحرب التي هي كالساقية في بستان يجعلها الفلاّح تتشعّب وتتعرّج كما يشاء.

ولم تنقذه التصاريح التي كان يحملها ولا ذكره لأسماء في المقاومة، إذ كان المسلّح قد باع عقله للجنون وللعدم. ولم ينقذه من الموت المؤكّد سوى عزم المسؤول على استنطاقه بعد أن تحسّس صدر سيمون واكتشف سترة مانعة للرصاص كان يرتديها، فأيقن أنّه قد عثر على جاسوس.. لا على مصوّر كما يدعي. لم أستطع إلاّ أن أتساءل وهو يخبرني بقراره.. كيف سيعيش بعيداً عن الحرب التي أصبحت عنده وظيفة؟ مكتبه الخنادق والمتاريس والبنايات المهجورة. الأمن والذخائر والمسلحون. شعرت وقتها بأنّي لا أعرفه ولا أعرف طعم شفتيه ووقع جسمه فوق جسمي. رغم اكتفائنا أحياناً بإمساك أيادينا في العتمة التي كانت أحياناً بقوّتها ونعومتها تطغى على صوت المتفجّرات. كنا نبثّ الدفء والحنان لسماع أنفاس أحدنا في الآخر كعجوزين التزما أن يكونا معاً، لأنهما يشاركان بعضهما بوجبة أسنان اصطناعية. ووجدتني وأنا أودّعه أضمّه إلى صدري رغم وضوح النهار في بهو الفندق واعدة بأنّي سوف أزوره في الشرقية وبأني من وقت إلى آخر سأقيم معه أيّاماً، وبأنّي... لكن ما إن غادرت عتبة الفندق، حتى غاب سيمون عن بالي تماماً لأعود أفكّر به بين حين وحين، كلّما أردت شيئاً من العاطفة، شيئاً من الالتصاق لأقطع الغربية والشرقية وكأنّي أمشي على حبل، أتأرجح بين رغبتي بأن أكون معه وبين عدمها. إلى أن تفتت الخيط الذي كان بيننا. وأصبح اتصالنا معاً نادراً من جرّاء انفصال مدينتينا.

بعد السوق الحرّة وجدران الحجر الجميل والأطلال والغابات أخذ وجواد طريقاً يقودنا إلى نسوة ملتفّات بقمطات الرأس السوداء. كان في كفّ إحدى النساء شمعة. لا بدّ أنها تواظب على زيارة أطلال هذه الكنيسة... اختفيت من يد والدي ودخلت ذات مرّة هذه الكنيسة الصغيرة المفعمة برائحة الشموع والبخور، المضاءة بثريات تلتمع وبوجه مريم العذراء المحاط بأساور الذهب والفضّة خلف الزجاج الذي كان يحفظه والتي كلّما لصقت صفحته أرباع

الليرة تأكّد من أهداها للقدّيسة أن أمنيته وصلاته سوف تتحقق. أذكر أنّه ما أن خرجت أعدو إلى والدي حيث كان يشتري الخضار حتى مثلت الجوع والغثيان. لربما أعطاني ربع ليرة ألصقها على زجاج الكنيسة السحري، لربّما بدلت القديسة المتوهّجة بالذهب والدي بآخر. لكنه لم يعطني ربع الليرة، بل أدخلني إلى سوق آخر وآخر وآخر. إلى أن وصلنا مكاناً صغيراً دخلناه من قنطرة ضيّقة تذكر بظلمة جحر الفأر ومنها إلى فسحة طويلة كأنّها سوق آخر تنبعث منه رائحة اللحم المشوي حيث جلسنا بين رجال على الطاولات الخشبية. عندما سمعت أحدهم يطلب ثلاثة جمال. سألت والدي إذا كنت سآكل جملاً بكامله؟

لم يكن محلّ والدي بعيداً عن هذه الأسواق وقد اضطرّ عمّي إلى بيعه لأنّ خسارته أصبحت لا تعوّض منذ أن قرّر والدي أن يعمل لله، ويبيع الأجواخ بالسعر الذي يشتريه من المعامل، مبرّراً أنّه لن يربح قرشاً واحداً رغم أن أخاه وبعض أفراد العائلة اصطحبوه لاستشارة رجل الدين الذي حثّه على أن يعود إلى البيع والشراء كالسابق حاصراً أرباحه حسب الشرع. لكن والدي كان قد زهد في كلّ شيء. أخذ يبيع سجّاد بيتنا العجمي، ومصاغ أمي بالخفاء، ليتبرّع بها إلى جوامع في العراق غير مبال بصراخها وولولتها إذ كانت أمّي فخورة بأن محل والدي كان في منطقة المحلات التجارية وعلى لسان الكثير. حاولت أن تعيده إلى ما كان عليه، تارة بالتهديد بتركه، وتارة بحياكة الحيل حوله لكن والدي كان قد انتقل إلى عالم خاص به بعيداً عن الحياة اليومية العادية، وودّ لو باستطاعته منع إسعاف وأمي حتى من التحدّث عن الأشياء الحياتية بدلاً من صرف الوقت والطاقة على الصلاة والأدعية. أخذ يهمل حلق ذقنه. ولم يعد يرتدي سوى طقم واحد وحذاء واحد وعاد يعتمر الطربوش الأحمر. وأخذ يحلق حتى شعر رأسه لكي يزداد نظافة وطهارة. أخذت زيارات أقربائه لنا تنقرض شيئاً فشيئاً إذ أحاديثه معهم لم تتعد سوى يوم القيامة والتوبة، ينصح قريباً له بأن لا يسجّل ابنه في كلية الطب لأنّ الطبيب هو الله وأن عليه إرساله إلى العراق حتى يدرس

الفقه والشريعة... هكذا لنجد أنفسنا قد توقّفنا عن انتظاره حتى لتناول الطعام معنا. بل أصبح تواجده معنا عبئاً علينا. فأخذت أمّي تحول البيت إلى وكر نمل يعجّ بالحركة كلّما ابتدأ بأداء صلاته متمنية أن يذهب إلى الجامع ليبقى هناك حتى صلاة العشاء.

انتقل مع جواد من المنطقة الحرّة وأسواق سوق سرسق إلى رائحة الكتب في العازارية. كان والده يصرّ على أنْ يأتيه بالكتب المستعملة وخاصة من مكتبة تخصّ عائلة قريبه، ولم يكن يقتنع بشراء كتاب جديد مهما كان رخيصاً. بينما أفكّر بفندق الكابيتول وعمر الشريف. أخبره أنّي دخلته مع عايدة التي كانت في الثالثة عشرة من عمرها تأخذ وجبة غداء لوالدها الذي يعمل في سوق القماش عندما رأت عمر الشريف يدخل باباً، لحقت به وإذا بها في صالة. عرفت أنها في فندق وأسرعت تخبره عن المعجبات به في مدرستها. واستظرف عمر الشريف هذه الفتاة الصغيرة الذكية التي سألته إذا كان يودّ أن يأكل من غذاء والدها وقال لها مازحاً «حاسبي على غدا والدك يا شاطرة وخلينا نشوفك يا بطة». لتعود عائدة في عصر اليوم نفسه تزوره وقد اصطحبت معها ثلاث بنات جميلات من الصفوف العالية وقادتهن إلى غرفته، ففتح عمر الشريف الباب خجلاً إذ كان قد كبس شعره المجعّد بشبكة.

وبدلاً من أن يبادلني جواد مناخ هذه الذكريات إذا به يخبرني عن تجربة بعيدة كلّ البعد عن تجربتي. ما كان يجري في البلاد العربية وفي لبنان لم يكن يتدخّل بأفكاره التي كانت تدور حول كلمات كانت تعلق في ذهنه. وأحاسيس تلحّ عليه لأنْ ترى نفسها على الورق. كتب روايته الأولى وطاف بها دور النشر التي سألته إذا كان مستعداً لدفع تكاليف نشرها. ولم يعد يكتب بل وضع كل طاقته لترك لبنان إلى الخارج وهو يكتب للقنصليات الأجنبية ويشرح لهم وضع حياته في منزل لا يستوعب سوى الضجيج لا العلم والأدب.

لذلك لم يشاركنا غضبنا على إسرائيل الذي أصبح بالنسبة لنا عملاً روتينياً. كشعارات: إزالة حرب العدوان. لم يصل مثلنا طرقاً مفترقة ليأخذ بعضنا الدرب الثوري الالتزامي والبعض الآخر درب

الحماس فقط الذي وكأنّه قد وصم الجبين بعلامة دائمه تبهت تارة وتشتدّ ألوانها تارة أخرى. أما أنا فقد انتشلت نفسي شيئاً فشيئاً من الأوراق والأقاصيص والترجمات. مفضّلة الذهاب إلى دور السينما.. والجلوس في المقاهي، في رحاب الجامعة، الطواف بين الدرجات، يدي في يد زميل، نختلس قبلة خلف شجرة الصنوبر أو أزور زميلاتي في غرفهن وأستاذاً في مكتبه الواسع.

أجلس مع جواد في مطعم يطلّ على البحر. خلفنا بيروت المتهدّمة. نسمع هسهسة الأمواج الناعمة تضرب برفق خشب أساس المقهى وكأنّها تقول إنّ كل شيء لم يزل على ما هو. أجلس وكأنّي لم أفارق هذا الكرسي منذ سنوات يوم كنت أجلس بين مجموعة من طلاب الجامعة وكأنّنا خيوط متشابكة من الأفكار والمطامح. أمحو من ذهني الآن رؤيتي لنفسي عارية بين ذراعيه. أشكر الظروف التي حالت بيني وبين تحقيق ذلك الهاجس. وإذا بهذا الشعور يمدّني بالقوّة ثم يتحوّل إلى سعادة تجعلني أطير فوق طاولة هذا المطعم مستأنسة بنفسي وكأنّها عادت إليّ بعد غياب طويل. أتأمّل أصابعي وكفّي التي أصبحت كما كانت في الماضي ذات أهمية. ما أن قرّرنا النهوض حتى عاد الخراب أمامنا رغم البحر، رغم السماء والشمس، رغم أوراق الشجر رغم الطيور البعيدة، لم تكن العين ترتاح بعيداً عن رؤية الحرب ونفايات الحرب، حتى منظر الجنود سواء كانوا من السوريين أو اللبنانيين هنا وهناك كان لا يستدر سوى العطف.

حتى أنت تقولين «شرقية وغربية».

الشرقية والغربية. كيف امحت الأسماء القديمة التي ولدت مع الذاكرة. جونيه، جبيل، الدورة، وحلّت محلّها الأسماء الجديدة: طريق الفرنسيسكان، السوديكو، والمتحف، الوحل والسيول، رائحة البول ومنظر العابرين، وهم يحملون الأسى على وجودهم والثقل بين أيديهم والكبت الذي سوف يتعالى إذا ما أقفلت هذه الدرب بغتة. بات المرء يحتار بين طريق السوديكو حيث القنص. أو طريق المتحف، الطريق الأصعب التي تتطلّب التحضير والإجراءات المسبقة.

وجه جواد من جديد على الطرقات التي لا بدّ أن يتبيّنها. يحاكيني صمته أو تنهيدته، أفكاره تلسع جبهتي. تحدث فجوة. تدخل عقلي مباشرة إلى خلايا الذاكرة تعبث بها. أنا أنظر إلى شارع محمد الحوت وهو يصيح: «هيدا السبق دخيلك يا علي هيدي بوّابة السبق». «السبق. كيف غاب عن بالي طوال هذه السنين؟». البوّابة الحديدية السوداء التي انشقّ حديدها وانتشرت عليها بقع الصدأ وكأنّها مرض البرص متفشّياً عند الدوائر الذهبية التي كانت منتشرة في أعلاها. ندخل السبق تحت إصرار جواد. وكانت النّاس تنحني تدخل كوة في الجدار كأنّهم يفلتون من فسحات خضراء بين الأشجار والوحل كأنّها واحة رغم المستنقع الذي لم تجفّ مياهه بعد، ورغم رائحة البول الشديدة يتدفّق النّاس بالعشرات، بالمئات، يمشون صامتين. لا بدّ أنّهم يحاكون أفكارهم، كما نفعل الآن. كل منهم يودّ أن تمرّ هذه الدقائق حتى يصل إلى الشقّ الآخر من غير أن يسمع إطلاق الرصاص، لذلك يسيرون وكأنّهم في مهمة.

يفكّر جواد: «ما داموا قد سمحوا بهذا المعبر لماذا لا يفتحون كل الطرق». وأفكر: لو يعود الماضي كما كان». لا بدّ أن هؤلاء النّاس يفكّرون إذا كانوا سيجدون من يقلّهم عند وصولهم إلى الجهة الشرقية.

الناس تهرول بين شقيّ مدينة. إلى أين يسرعون؟ كأنّهم يفلتون من بين أيدي ملوك الجان. هل يقدّمون التهنئة بفوزهم بمعركة حطين. أم أنّهم قبائل عطشى عرفت بوجود واحة فيها عشب وماء؟.

أضحك لتشابيه جواد الفصحى رغم ضيقي به، لأنّه لايزال يرى كل شيء وكأنّه عمل أدبي.

يتّجه البعض إلى أعمالهم في الشق الآخر حاملين أوراقهم وطعامهم. سيّدة أنيقة تنحني وتغطّي حذاءها بجرابين من البلاستيك لوقايتهما. لا بدّ أنها أتت بهما من أوروبا. فتاتان تتبختران غير آبهتين، بكعوب أحذيتهما العالية التي كانت تغطس في الوحل. إنهما على موعد غرامي. واحدة تزيد من أحمر شفاهها وأخرى تسرح شعرها.

كان جواد يقصد السبق مع العائلة ويلعب في حدائقها الواسعة وكانت حديقة السبق لا مثيل لرائحتها: الصنوبر يختلط مع البابونج والورود البرية. يذكر أن روحية أخذته مرّة وأشعلت النّار في أعواد الصنوبر الرفيعة والتي كانت تشبه الإبر ومكحلة العين، يغرزها بيده بينما تقرّبها روحية من وجهه حتى يستنشق دخانها لأنّه كان يعاني من السعال الديكي.

عليّ أن أخطف أنظاري حتى أرى أوّل شارع محمد الحوت حيث ولدت والذي هو متفرّع من شارع السبق هذا. أنظر إليه، إلى شارع هيروشيما وأرى صورتي وأنا أسير على رصيفه، حيث المطعم وأنا ألحق بوالدي، صورتي وأنا أثب السلالم حيث البنت وأمّها. وأرى أمّي ترتدي ربطة شعر كالقبعة في العشرينات بعيدة عن عينيها. أرى عينين واسعتين تضحكان. وأرى أمي تشهق وتقول لعمّي صحيح هيك قالتلها البصّارة». وهو يقرأ لها سيرة المطربة أسمهان «ولدت في الماء وفي الماء تموتين».

أرى أمّي ولا أرى نفسي. فأنا أسمهان وأسمى. أرى أمي المرأة الجميلة والفتاة الصغيرة والتي فجأة التفتت ورأتني موجودة في الحياة وفي البيت. أناديها «ماما» فتتذكّر أنّي لست المطربة الصغيرة اسمهان بل ابنتها وبالتالي ابنة الرجل الذي لا يمكنه أن يكون زوجها أو حبيبها. فهو لا يشبه أنور وجدي ولا محسن سرحان. لا يدندن بأغنية، لا يغازل، لا ينتمي إلى عصرها. لذلك عندما تمدّد بلا حراك، لعلعت إسعاف، هجمت أمّي تريد إحراق ذكراه حتى تعود هي إلى عصرها كاملة. أسمهان. ينادي صوتها الآن. أسمهان. أسمى. وأرى نفسي في ذلك الشارع عند اليمين والسيارة كانت تكاد تخطف دواليبها استعداداً للقطع إلى المنطقة الشرقية. الشارع الذي يبدو الآن وكأنّه أقيم من أجل لقطة واحدة في فيلم سينمائي. لذلك شيّدت واجهاته بأرخص الحجارة والأخشاب بينما خلعت يافطات دكاكينه أو تآكلت. أكاد لا أتبيّن الفرن وخمارة الموز والكواء. بناية والدي محتلّة عدا شقّتنا حيث كنت أقف قبالة «البورت شابو» ويدي على برودة رخامها أنظر في

المرآة وأردّد: «أنا نادين، ابنة الممثلة المشهورة». أقف عند الرصيف المقابل أراقب والدي وهو يكبّ فوق الكوم ثم وهو في طريقه إلى المطعم، بينما اشترى لوحاً من الشوكولا وأقف أمصّه ببطء حتى لا تذوب الشوكولا في حلقي بسرعة. أسمع من في المطعم ينادي والدي: «أهلاً بالحاج مصطفى». اشتري لوحاً آخر وأقف أمصّه ريثما يخرج والدي من المطعم ومع ذلك لم أكن ألحق وأتوسّل إليه كما يظنّ الجميع. كنت أردّد بيني وبين نفسي: «انت؟ أنا لا أعرفك».

امرأة وابنتها تنظران إليّ، تهمسان، تهمّان بالتحدّث إليّ، لا بدّ أنهما تعرفان أني ابنة هذا الرجل الذي يمسك بتلك الخرق البالية. حضرت حجّتي بلمح البصر. الحاجّ هو جار لنا وقد أرسلتني زوجته لإعادته إلى البيت. وإذا ناداني بكلمة يا بابا، سوف أغمزهما، قائلة بأنّه ينادي الجميع بكلمة «بابا» لكن سؤال البنت بغتني: «عم نقول شو بتشبهي الممثلة... كأنك اختها». وبسرعة طار الجواب لا من لساني بل من قلبي: «انا ابنتها» شعّ وجه البنت بالفرح وصاحت: «يا لله، صحيح، أنا قلت للماما. الشبه غريب» وتتدخّل أمّها باستغراب: «تسألني إذا كنت من سكان هذا الحي؟» قرأت تفكيرها بسرعة: «هذه الأحياء لا يسكن فيها الممثّلون أو المخرجون»، أجبت بصوت واثق وبلهجة غريبة حتى عن أذني: أنا؟ لا، بالحمراء، آتي هنا من أجل دروس خصوصيّة بالعربيّة عند معلّمة. وأشرت إلى بناية عند مفترق الطرق.

نتمشى في السبق. آثار الحياة لم تزل وكأنّها شجرة لوّحتها العاصفة واقتلعت معظم جذورها. ومع ذلك فإن ثمرها لم يزل ينضج ويتلوّن، من الأصفر إلى الأحمر. أشجار الصنوبر ميتة ومحترقة. نرى المُضمِّر في قبّعة آل كابون جالساً كالباشا، خلف موقد من خشب يحترق وفوقه ركوة قهوة تغلي.

المضمر يدخن سيكاره. يعرف أنّ جواد ينظر إليه، فيتحاشاه. لكنّ جواد يقترب منه ليتحدّث معه عن السبق ويخبره كم أنّه سعيد لرؤيته إذ كان وجود المضمّر. ينفي الحرب. وكأنّ حياة السباق لم تزل كما هي. الأحصنه تمدّ رؤوسها من اسطبلاتها. مدرّب الخيل

يجلس قرب المضمّر، ببنطلون وقميص قصير الأكمام يرشف القهوة. لايزال الجميع يعامل المضمر، كأنّه ملك السباق. في يده كلّ شيء. إنّه يحتسي القهوة، والبخار يتصاعد من كوبه. يتأمّل الأحصنة التي تسرح بشعرها الطويل وتتمهّل في الفسحه المسيّجة بلا سائس.

عدنا إلى السيّارة إلى شارع فؤاد الأوّل. يعلق نظري به ممتداً ليغيب عنّي بسرعة البرق. نقف من جديد عند حاجز الجيش الرسمي. قال رجل الحاجز إن أسماءنا غير موجودة وهو ينظر في الورقة، يترجّل علي من السيّارة مستطلعاً الخبر، رغم قلقنا لعدم العبور أخذنا نتأمّل في البيوت والفلل المهشّمه والأشجار من على الجهتين. وأوراقها كالدنتلا خضراء تحمل لوناً برتقاليّاً في فصل الربيع والصيف.

ثوان وتوقّفنا حيث الحاجز الأخير. وأصبحنا أمام المتحف وجهاً لوجه. كان يقف كما من زمان، يقف هادئاً، بهدوء القبور فيه والتماثيل، وكان يوحي بالبرودة دائماً، وبأنّه منسيّ، قبالة مستشفى الأطفال والأولاد، الذي لم يعد يظهر من اسمه سوى حرفين.

يقول جواد إنّه كلما مرّ بالبوسطة وهو صغير كان يفكّر لماذا لم يكتفوا باسم الأطفال فقط. وكان يتمنّى لو يكون مريضاً في سرير هذا المستشفى. حوله الألعاب ثم أخذ يبحث عن البناية التوأم، يلتفت حوله ويزفر، يضع يده فوق جبهته إلى أن رآها مهجورة. أرى دموعاً تعكّر عينيه ولون أنفه وأفكّر بأني لم أر رجلاً من قبل يذرف دموعاً.

ودّعنا علي وأنا أصرّ عليه أن لا ينسى انتظار مكالمتي، وأن لا يفقد الورقة التي دوّنت بها أرقام الأصدقاء في الشقّ الآخر. عينا جواد تسبقان ذاكرته. تمدّانها بالأوكسجين. ونحن نمرّ مشياً من درك السيّارة. حيث البناء بلون الرمل، ولباس الدرك بلون الرمل، كان يأتي في آخر كل شهر مع جدّته لرؤية عمّه الدركي الذي كان يظهر بعد دقائق من طلبهما له، ومعه دواء أمّه إذ كان يأتي به

مخفضاً. عينا جواد لا تفارقان ربطة عنق عمّه، والتي هي جزء من اللباس الرسمي ليتمعّن بها ويقول لعمّه: أعطني هذه الربطة.

انتبه إلى أنّي لم أعد أتوق لزيارة المنطقة الشرقية كما من قبل. ولم يعد يدقّ قلبي وكأنّه سماء تبرق وترعد ولا تهدأ إلاّ عندما ألمح من كان ينتظرني. وأتأكد من أنّي أرى السيّارة إلى جانبه حتى أشعر بالأمان. رغم حملي لأرقام التلفونات وعناوين المساكن، فإن خواطر كثيرة كانت تتناقلني. خاصة الخاطر المتسائل دائماً: «وإذا بدأ القتال فجأة؟ ونسي الشخص موعد قدومي ولقائي؟. أو أنّ رجل الحاجز قد قرّر منعي من المرور؟ كأنّي ما ان اقترب بأنفي من وردة تبعد يدٌ هذه الوردة عنّي.

كانت هناك الحواجز المنظّمة والحواجز التلقائية، وكان العبور أحياناً يعتمد على مزاج من هم عند الحاجز. أو وجهة نظر الميليشيا أو على السياسة التي كانت تختلف من يوم إلى آخر.

سألني رجل الحاجز مرّة ماذا أريد من زيارتي للشقّ الآخر؟ لماذا أريد العبور إليه؟

عندما تسلّحت بكذبة وسمح لي، سألني الحاجز الآخر عن سبب مجيئي وهو ينظر في هويتي وبيني وبين الطرقات التي لم أعد أتبيّنها كالسابق، خطوات.

أجبته مازحة: «مشتاقة لبحر جونيه». «إذا مشتاقة ليش ما انت عايشة هون وبتفرجي عاطفتك. وبتفرجيهم قدّيش هنّي غلطانين، بيروت الغربية صارت للإيرانية». ولم أجبه سوى بابتسامة ولدهشتي منعني من العبور.

رغم أنّه منعني من العبور، وسحب الوردة قبل أن تصل أنفي لم أسحب ابتسامتي. إنه في ضيق لهذا الانقسام كضيقي. انه يودّ ان يظهر ضيقه. لا بأس هو شاب وأنا شابة. يريد التحاور وأنا أيضاً لكن حوارنا لن يجدي. اقترب سائق التاكسي منّي وهو يراني أتراجع، فتح لي الباب، وهو يشتمهم، وقد أخذ على عاتقه أن يجعلني أمرّ إلى الجهة الشرقية مهما يكن السبب.

عندما ألمّ بالسبب زاد شتمه لهم. قال لي إنّهم تصرّفوا مع ابنه التصرّف نفسه عندما أصرّ بأنّ عبوره إلى الغربية هو من أشد الضرورة وهم يرفضون طلبه حتى اعتراه اليأس وهمّ بالرجوع، حدث في هذه الأثناء أن انهالت زخّات رصاص مفاجئ من الجهة الغربية. عندها ناداه رجل الحاجز وقال له مبتسماً «إذا عايز تقطع تفضّل». أسأل السائق: «هل قطع؟». أجاب: «المجنون قطع نكاية فيهم». زاد السائق من سرعته وأخذ يدخل في طرق ملتوية إلى شوارع مزدحمة حتى وصل إلى أرض يباب مهجورة. يطلب منّي النزول والسير حتى آخرها موصياً «لما تشوفي علامة البيبسي كولا يعني صرت عندهم» وهونيك حد البورة في تاكسيات كثيرة بياخدوك أي مكان».

ولم أكن خائفة عندما تركني السائق في البورة القاحلة. إذ رؤيتي لشمس النهار ولعمارة بعيدة الغسيل المنشور فوقها شجّعني. سرت في البورة قدماي في الرمل تارة وفوق الأرض اليابسة تارة أخرى. استأنس لرؤية بضعة شجرات زيتون ذات جذوع على شكل وجوه قاست الحرب. رغم أنّ الطريق المعبّدة بدت قريبة فقد وجدت نفسي أسير وأسير. هل هذا يحدث لي حقيقة؟ هل أسير في الكرم لألتقي بإسعاف وبجدّتي أو بزمزم وهن يفترشن العشب في نزهة أم أنّي في بيروت والدنيا حرب، لذلك أحاول العبور حتى ألتقي مع أصدقائي الذين يجب أن يكونوا في متناول اليد، يسيرون الآن معي، نتحدّث معاً عمّا أمرّ به هذه اللحظات لا أن أرويها لهم.

وعندما ظهرت لافتة البيبسي كولا شعرت بأنّه بيني وبينها علاقة خاصة، كأنّها تقول لي: «عليك الأمان لقد وصلت».

هل سأجد أصدقائي وأعانقهم ؟ أم أنّ غوصي في التراب المجبول بالبول واللاشيء سوف يذهب سدى؟ مجرّد تفكيري بأني وحدي في هذا الشقّ كان يزيدني حزناً يخالطه عدم الراحة. فهذا هو بلدي الذي بدأت أنسى معالمه، رغم شكل البيوت والأصوات التي لم تزل توحي بالألفة. نمت وقتها ليلة واحدة في جونية في

غرفة تطلّ على البحر. زارني البرغش رغم قرص الكاتول الذي انطفأ من غير سبب. نهضت باكراً. أخرج إلى الشرفة أمسك بحديدها الأسود.

أقف قبالة الجبال البعيدة التي كان لها أذنان تسمعان وعينان تبصران. فكّرت لماذا لا أعيش هنا رغم أنّ الشعور تسلّل إليّ بأنّ أصدقائي غرباء حتى في شقّهم هذا لم يعوا على أسفلت طريقها، ولا على أشجارها وصياح ديوكها.

إنهم مهجّرون، يعيشون مع مهجّرين من مناطق أخرى رأوا ويلات الحرب، وقاسوا وتشرّدوا، فتغبّشت رؤيتهم وإنسانيتهم فأخذوا ينقضون على فرص العمل ويزاحمون سكانها الأصليين. دخلت عائدة إلى غرفة الجلوس. رؤيتي لأطباق فارغة جعلتني أغصّ. ذكرتني بعشاء البارحة عندما جمعت صديقتي من كانوا معنا في الجامعة وقد انتقل معظمهم إلى هذه المناطق إبان الأشهر الأخيرة، بعد أن بات عيشهم في المنطقة الغربية مستحيلاً. أعاتب أحدهم كان قد وعد بزيارتي في الغربية «هل قطعت المصران؟».

«أعوذ بالله، لكن.. انتظار ومشقّة.. الواحد لازم يعتاد على حياته في هذا الشقّ».

كنت قد اتّصلت بهم واحداً واحداً والحزن يعمني لأنّ عناوينهم أصبحت جسر نهر الكلب وبين الضبيّة وسد البوشرية، ثم انتبهت إلى أنّ أماكننا تبدّلت أسماؤها أيضاً أصبحت: الضاحية، الحاجز... المبرة.. مع ذلك بقي الاتصال الهاتفي جارياً وكان شيئاً لم يكن في شقّي المدينتين. اتّصلت بجدّتي وأتى صوتها بعيداً، لا رنّة صوتها فقط بل كيانها. سألتني هل الشرقية حقّاً جوهرة تلمع في المطاعم والملاهي، درت أنظر بوجوه أصدقائي الباردة الملامح وأجبتها: «جواهر بعدين بخبرك» لا بدّ أنّ وجودي معهم ذكرهم بالواقع الذي يتناسونه. فنحن كمن اقتلعنا بعيداً عن تربتنا وعلينا العيش مع الذين لا يعنون لنا شيئاً سوى بوجودهم حولنا.

كل شيء جديد: عناوين وظائفهم، بيوتهم ما عدا سياراتهم، اعترف أصدقائي هنا بحقيقة ما يجري في لبنان. لذلك اتّخذوا هذه

البيوت الجديدة وهذه الأحياء التي لا تعني لهم شيئاً وحتى وأن نشأوا فيها. إذ قلب بيروت كان في ساحة البرج وشارع الحمراء. بين طنطنة الترام في الذاكرة، وصوت جارتهم البريوتيه وكركعة نرجيلتها وتفتّح شجرة الفتنة بين ليلة وأخرى. حاولوا البقاء حيثما كانوا، تشبّثوا بأظافرهم خوفاً من أن ينفذ ويفلت الصبر لكن الضغوط عليهم كانت كبيرة من الجهتين. عادوا ليرتموا في حظيرة العائلة. يستمدّون منها روح الأمان. إذ بات المرء لا يشعر بالراحة إلاّ مع محيطه. معهم لا يراقب المرء كلامه، لا يعتذر، ولا يبرّر ما ارتكبه أفراد طائفته أو العكس.

لم يزل أصدقائي يلمّون ويهتمون بما يأتي إليهم من الشقّ الآخر، وعندما كانت تأتي إليهم الأخبار التاعسة فقط كانوا يذهبون بخيالهم وبحدسهم إلى أنّ الذي عرفوه وتركوه خلفهم لم يزل على ما كان عليه. لا كما تأتي به الأخبار بأن الطرقات تغصّ بالرجال ذوي اللحي والنساء الملتفّات بالعباءات السوداء وبأن بيروت أصبحت تعجّ بالإيرانيين وبالجوامع وتراتيل القرآن تنبعث من كلّ مكان وبأنّ الشوارع أصبحت كلّها أزقّه، حظائر للأغنام وأقناناً للدجاج. عند كل منعطف في كلّ مرآب بناية، سجن للأجانب وللمسيحيين، وبأن أيّ مسيحي يدخل المنطقة ينقضّ عليه رجلان كشياطين سليمان، ينغزانه بشوكة جهنم. وبأن كلّ طائرة تحطّ إنما لتفرغ المقاتلين والأسلحة. الهوة تزداد بين الشقّين، لا في سدّ المنافذ بالردم وبالحديد، بل لأنّ كلّ شقّ اختار طريقه وابتعد به عن الآخر.

وفي الشقّ الذي أُسكن فيه كانوا يفكّرون بأنّ المنطقة الشرقية جوهرة معلّقه بين السماء والأرض، تربطها جسور بيضاء جميلة حيث الفخامة في كلّ شيء. المطاعم، المسابح، الدكاكين. يشيرون بأصابعهم وبكلماتهم الفرنسية على الغربية كما يشيرون إلى حيوان مخيف ومقرف. أرزة الكتائب على كلّ الصدور. البنادق على كلّ الأكتاف، سيارات السبور أو الدبابات تسرع على الأسفلت، السفن تفرغ في المرافئ ذهبا وأسلحة. أسوار عالية تحيط البحر والجبال والشوارع حتى السماء.

يلفت جواد نظري إلى الغاردينيا البيضاء، والتي هي في كلّ مكان حتى في أيدي بائعي العلكة. في أيدي المستعطين على طاولة صغيرة تتوسّط الرصيف حيث الرجال يلعبون بطاولة النرد على بعد أمتار من أكوام الزبالة. هي عند مرآة السائق ترتجف ما أن يزعق بالزمور. هي فوق عربات الباعة. هي في أيدي المتجمّعين الذين أطلق عليهم جواد كلمة المأتم. المأتم الأوّل كان من الرجال الذين التفوا بأنفاسهم. ودخان سكائرهم وكانوا كلّهم غرباء عن بيروت. يبيعون ويشترون كأنّهم في سوق الدلالة. يتكئون على المحلات التي كانت أنيقة والتي لا يظهر من أناقتهم شيء سوى ذكراها. المأتم الآخر كان حول مجلات وكتب قديمه وجديدة. المأتم الثالث كان بوقوفهم حول تنكات البنزين يعبّئونها من محطة نقالة أرخص ثمناً من المحطّات الثابتة وإذا هناك المأتم الرابع وهم يقفون عند باب إحدى دور السينما.

أشير بيدي الآن إلى البحر المفتوح، والسماء التي لا مثيل لها، وأتحسّر على ارتفاع البنايات التي هي من الاسمنت والتي سدّت منظر البحر، ليبحث جواد عن البيوت القديمة ذات القرميد الأحمر والشبابيك الخشبية الخضراء، والحمراء. يفكّر لماذا يقع الاختيار دائماً على هذين اللونين. ثم يصرخ: «يا ويلاه أسنان غولة أكلت قطعة من البحر. يا ويلاه، أسنان غولة بلعت من الجبال كدشة كبيرة» اضحك للهجة جواد القروية، ومن تشبيهه حيث هو كتشابيه جدّتي. بألفه وبحب تجاهه وأتمنّى لو يلقي برأسه عند فخذي.

كأنّ الحرب لم تقع، لكنها سبقت سنواتها، سبقت زيادة سكانها، دور السينما العديدة. الأكل السريع، الفيديو. موسيقى الروك، ومراكز التسويق، محلات بيع السبور. لافتات من كل حجم ولون. واسمنت وحديد باطون، ينزل من الجبل إلى البحر «يا صباح الشوم.. قال عاملين ريفيرا... شواطئ ريفيرا. يا صباح الشوم. وهونيك خالقين كريلاء. هيدا بيفرجي انو الاثنين هني واحد. بشقّ واحد والدنيا بشق ثاني. الاثنين يعانوا الشيء ذاته. يناقشوا أو لا يناقشوا الحرب. بيركضوا ليؤمّنوا الطحين والغاز والدواء والاثنين

ماسكين سلاح. والاثنين عم يضيّعوا وقتهم وأعصابهم في عدم الاستقرار ومعمعة الحرب. شوفي. شوفي كيف سياراتهم صارت معدن عم يطرطق. المهجّرين هونيك ناقمين وهون ناقمين».

أبتسم وأنا الحق بما يطوف في عقلي. تجاعيدهم واحدة. تعابير وجوههم واحدة. الصغار كصغارنا يتحسسون آثار لبنان في صور كتب الجغرافية فقط. وعوا على أكياس الرمل والبنادق الخشبية. يبرّرون للسارق وللمجرم فعلته. يلصقونها بالفقر والحاجة بينما يتحسّر العجائز على الأيّام الماضيه. كأنّ ما يحدث الآن هو لإذلالهم.

في طريقنا إلى الأرز نمر بالبحر، أجدني أنظر إلى جهة الشمال وأقول لجواد إني أبحث عن مطعم «تزيغان» ولم يسألني لماذا ولم يستغرب أنّ عدواه قد انتقلت إلي. بل كأنّه مدّ لي بصور واضحة كانت قد حفظت في صندوق ورق الألبوم لم يأخذ بريقها. أو يسدّ عنها منفذ الهواء لذلك بقيت بألوانها، بلمعانها. كأنّ سنوات الحرب هذه لم تدفن الماضي بركامه. وكأنّ الحاضر يتقبّل جروحها ويداويها حتى يستطيع تحمل الجروح الأخرى.

تلحق عيناي بالملاحات، حيث السباحة فيها كانت تجعل لوننا برونزياً في يوم واحد وكان الملح فيها يجعلني أعود من غير مجهود. يتساءل جواد كما في الطفولة عن نواطيرها؟ هل هي دواليب عملاقة؟ يسألني جواد عن جسر البربارة حيث المفروض أن يلاقينا سيمون، عند حاجز الجيش.

يجلس سيمون خلف عجلة القيادة. أفكاري تلحق بالمروج الخضراء والهضاب الشاحبة الجرداء. هل مشت البوسطة من هنا ونحن نصرخ: عجّل عجّل يا شوفير. موتيرك أحسن موتير. أدعس على الخمسين ونحن بنات الشاطرين». عندما كنت أستعدّ للرحلة وزمزم تسلق لي البيض والبطاطا، كانت الحاجة «نظر» تزور جدّتي الضجرة من هذه الزيارة. خاصة عندما صاحت الحاجة «نظر» أوعى تخلي بنت بنتك تروح عالثلج.. انه يطمر البني آدميين. أجابتها

جدّتي بانفراج صدر: «ولو يا حاجة نظر، اسمهان بتذوب الثلج حتى قبل ما يهر عليها. هي بمدرسة كلّها بنات عائلات، فيها بنات سرسق». لم أرض أن آخذ ما سلقته زمزم من البيض الغريب اللون لسلقها له مع البطاطا. بل انصاعت لرغبتي عادت تسلّق لي البيض من جديد وهي تخبط الوعاء وتشتمّه.

هطل الغروب ونحن لم نزل نقصد الأرز. عندما توقفنا عند الحاجز السوري. انقبضت، رغم أنّي فهمت من سيمون أنّنا سنلحق بسيّارة أوفدها قريبه ذو الرتبة العالية في الجيش وفعلاً أخذت سيّارة سيمون طريقاً غير طريق السيّارات المنتظرة لتتوقف عند الحاجز. أطلّ الجندي السوري لينظر باتّجاهنا ثم يشير لنا بالمرور. بعد مدّة لاحظنا أنّ في كلّ قرية بيوتاً مضاءة قليلة وبيوتاً مطفأة أو مهدّمة. صوت المطربة صباح ينبعث من بلكون من بين ضحكات وأحاديث. يخبرنا سيمون أنّ البيت المضيء يعني سياسته مع الوضع والبيت المطفأ وعلى الأرض هو الوضع.

يهبط الليل على هذه القرى التي أخذنا من أنوارها نميّز ميول أهاليها. قرى هادئة كانت في الماضي. نزعاتها بسيطة ربما لمنافسة على عين أو شجرة.

أشعر بغبطة لأنّي هنا أنظر إلى جواد، أعرف أنّي أرى كلّ شيء بعينيه، أشكره بيني وبين نفسي، لأنّه انتشلني من الصدأ. رغم أنّي لم أحسم بيني وبين نفسي من سوف أشاركه غرفته الليلة. قبل أن تهبط العتمة بقليل وصلنا «بشرّي».

نشرب العرق ونأكل ونضحك، أجدني أميل إلى جواد وأميل إلى سيمون، أشعر بأنّي أستطيع أن أكون بين صدريهما وبين أنفاسهما، وأنا في حالة سعادة. تبدو الأرزات من بعيد رغم العتمة التي هبطت وغلفت كلّ شيء. أفكّر بها قليلاً وأعود بها إلى نفسي. وأنا في حالة سعادة. ندخل الديسكو، الذي كان اسمه الستريو. رغم انه يكاد يكون فارغاً إلاّ أنّ جوّه يذكر بحياة السلم. سرعان ما تتلاشى الفكرة هذه عند رؤيتي لرجال في ركنه يتحدّثون في

السياسة ثم أحياناً يتهامسون ويتناقشون. يقرّبون رؤوسهم من بعضهم، أحدهم صرخ حتى يعبر عن رأيه. كانوا حرّاس شجر الأرز ومصاعد الثلج. تلفت نظري في بهو الفندق: صورة لشاه إيران وثريا أثناء زيارتهما للأرز. رغم وحدتي هذه نمت ونهضت في اليوم التالي وكلي سعادة. نسير إلى الأرزات التي بانت من بعيد وكأنّهما كقطيع يحبّ بعضه. يلتصق ببعضه.. يحافظ كلّ منه على الآخر. كلما اقتربنا منها كلما تراءى لنا السياج الذي نصب حولها. لماذا هذا السياج، هل الخوف من أن يقتلعها أحد بعد اختفاء بعض آثار القلاع القديمة وأحجار مغارة قاديشا؟

«سوسة ضاربة بالخشب وعم يعالجوها»

«سوسة؟ هل هي ضرس؟» لكنّ الأشجار تموت واقفة، تصاب بالمرض ولا أحد يكتشف مرضها في البداية. شجرتنا البلوط التي مرضت أخذت تنز دبقاً على الغسيل المنشور تحتها، ولطالما هي شغلت بال جدّتي وجدّي، فكانا يتحدّثان عنها وكأنّها بنو آدم.

«لست شجرة الأرز وأنا صغيرة حتى الآن لا أعرف ماذا تسمّى أغصانه فهو ليس ورقاً ولا كإبر الصنوبر».

«هناك من يريد أن يسمّم الأرز أن لا يعود الأرز رمز لبنان» ثم كأنّما تبنّى جواد الفكرة بعد أن كانت خاطراً فيكمل نظريته: «والله مش بعيدة، يريدوا يمحو قلب لبنان؟».

يهزّ سيمون رأسه مستنكراً ثم ضاحكاً: «لا تروح بعيد... كثير نحنا منفكّر العالم اذكياء ويفكروا لبعيد وعندهم مخطّط، انهم مثلنا كلّ شي عالسريع وعالعمياني». عند سفح الجبل غرسات خضراء كأنّها توأم أقول إنّها تشبه «أم قليبانه خضراء وملانه» يضحك سيمون على كلمتي هذه، يحيطني بذراعيه: «بدك نظارات يا حبيبتي. من وين انت جايه؟ وما انت جايه من بلادها. هيدي حشيشة؟. «بس كمان هون؟» ليش مش هون؟ البقاع وهون وكل مكان. شفتي أصحابنا شاطرين بها الشيء مش بالسوس وبالأرز».

نتحدّث بحزن عمّا نرى ثم مستفظعين ما يجري، حتى يعلّق

سيمون: «عندنا أهوال شو رايح عليكم، انتو بالغربية ما تبعرفوا شي «زورونا أكثر».. اجيب ضاحكة: «نحنا من غيركم ما فينا نعيش.. كل شي عندكم بالغربية. القمح والطحين والمازوت وقطع غيار الغسّالات والثلاجات. نحنا منموت اقتصادياً من غيركم».

يعلق جواد: «ونسيت يا سيمون أهمّ شغلة، اسمهان؟ ما في اسمهان إلاّ في الغربية».

أفهم لماذا يعلق جواد هذا، لا بدّ من مناداة سيمون لي بحبيبتي وإحاطته لي بذراعيه من حين لآخر. انظر إلى سيمون، لم يعد بيننا أيّ شعور. انظر إلى جواد لبرهة وأعود فأحيد بنظري عنه وأحطّه على شجيرات الأرز الساكنة ثم على سفح الجبل. إلى جانب شعوري بأنّ الرغبات والعواطف تتبدّل. نعود إلى بيروت الغربية تاركين خلفنا الحواجز الأخرى والجبال والنسيم، لحظات وكأنّنا لم نكن سوى في هذه الرطوبة، كأنّنا بعودتنا يعود جواد إلى كنفي وعالمي. فأتساءل هو هو كالباقين، ما أن يحلّوا على بيروت حتى أصبح أنا بيروتهم ليتعلّقوا حتى بالطريقة التي أرمش بها عيني وليستمدّوا منها مسحة أمان واطمئنان. وأمّا القلق خاصّة إذا توتّر الجوّ فجأة، وطغت الإشاعات على صفو الأيّام وكأنّها مستعارة من الوقت. طلقات هنا وهناك، وروحية تتصرّف وكأنّنا كنا في غيبة طويلة ونجهل واقع الحياة هنا. لذلك فهي تمسك بيد جواد تماماً كما أفعل مع زائري بيروت وتصيح: «يللا يا حبيبي سافر هلّق قبل بكرة، وبكره قبل بعد بكرة، بدها تعلق عن قريب».

يجيبها جواد وهو يحاول أن يكون غير مبال: «بسيطة». لكن قلقه يفضحه. يسألني: «شو يا ست أسمى؟ منسمع كلمة بنت خالتي المرعوبة؟».

أعرف أني دائماً أصدم بالزائرين. لكن هذه الأيّام التي قرّبتنا من بعضنا جعلته ينفي الواقع بأنّه زائر. لكن ها هو الآن يتعامل مع حياته وكأنّها أغلى من أيّ حياة أخرى تعيش في لبنان. ربّما لديه ولدى الذين تركوا هنا كامل الحق. لذلك هم فرّوا من هنا ليدافعوا

ويخافوا على الحياة الغالية بينما يروننا ندبّ على أرض مليئة بالألغام. أتمنّى لو أقول له: «انت خايف أكثر منها»، لكني أجبته: «القرار راجع لك».

ندخل المقهى الذي يكاد يكون وحيداً لاستيعاب من هم مثلنا. نلاحظ الوجوه المتسائلة وهي تراقب فتاتين جلستا معاً. هل هما سهلتان؟ لماذا تجلسان وحيدتين تضحكان تدخنان تشربان الجين والتونيك؟

أتحسّر على ماهي أيّام زمان وضجيجها عندما كنت أنظر في وجه من يحادثني ولا أسمع ما يقوله. كانت الحريّة آنذاك ترفرف حتى على البخار المتصاعد من آلة إعداد القهوة، ولم يكن هناك وقت لابتلاع كل ما يجري. حتى نساء ورجال البلاد العربية كانوا يجلسون معاً عند مقاهي الأرصفة بعباءاتهن وبراقعهن. جو هذا المقهى لم يكن يوافق شعوري وجواد بالألفة، نعدو عنه وكأنّنا بخروجنا منه سوف نلتمّ معاً. ونلقي أنفسنا في بحر من الدفء والشوق، خلاف ما كانت تعكسه الطرقات والشوارع.

أسير أنا وجواد غير آبهين بأنّنا نمسك بأيدي بعضنا، كنا خائفين من أن يفلت أحدنا من الآخر، رغم أن الشوارع ذاتها لم تعد تتقبّل حتى الوجوه الجميلة البسيطة. ولا الملابس الخارجة عن المألوف، إلاّ إذا كانت قبيحة، النظرات من الجنسين تحدّق بنا. ممّا جعلني أشدّ على يده أكثر. لا أعرف كيف أمر الآن في ذكره. بل أعرف أنّي أتمنّى لو أنه لا يسافر إذ التعود على وقع الحياة هنا من غيره سيكون قاسيا. نتمنّى أن نجلس معاً في مكان هادئ. نقصد بار فندق قريب ونجلس مع سوانا من الذين لجأوا إلى العتمة الخفيفة في وضوح النهار.

– «السفر قريب، وقلبك صار قريب مني».

اضحك مجيبة:

– «ما تسافر».

يتجاهل ضحكتي ويردّ: بدّي آخدك معي. بدّي اجبرك تسافري معي». أسأله بلهفة: «بدّك ترجع تزورنا؟» يرد وفي صوته رنّة حزن: «بعد كم سنة». أجد نفسي أمسك بكفّه فجأة وأخفض رأسي حتى تصل شفتاي إليها وأقبلها ثم أمسكها بين يدي ثم أعصر وجهي عليها. ثم أقبلها من جديد ثم أحبّها وأتمنّى لو أضعها على شعري وعلى رقبتي وأتمنى لو أتهاوى حتى يربت بها علي تماما كما يفعل مع روحية.

أرفع رأسي قليلاً. كيف سأتحاشى نظراته لي بعد الآن، وأنظار من في البار، لا بدّ أنّه كان ينظر في وجهي. إذ ما إن رفعته، حتى لمسني بوجهه وأحاط كتفي بيديه وشدّ على شفتي حتى كاد يقتلعهما مني. لم نتوقّف إلاّ لنأخذ نفساً ضئيلاً كسابحين ماهرين.

أتململ وأحدّق في الطاولة قبل أن أرفع نظري إلى من حولي. وكنا نجلس في ركن بينما الغرسون وراء البار يلمّع الأقداح.

تطغى الحيرة على سعادتي بهذه القبلات التي حرّكت بي الشعور الآخر. لكن هذه المرّة أعرف أنه امتداد لعاطفتي، امتداد حتى لصوته ولكلماته، لكنّي كنت خائفة من أن يركّز الشعور الغريزي نفسه بي. هل أترك نفسي طوع شعوري وأفكّر باللحظة ولا شيء سواها.. وأتساءل لماذا عليّ عدم الاسترسال وراء رغبتي، هل لأنّ الحرب لم تعد بالمعارك النارية، بل بمخلّفاتها، وأنّ في حالة الانتظار هذه لا يجب أن يحثّنا الشعور للمضي إلى آخر الحدود. أم أن علي أن أطرد الأفكار واستأنس بشعوري هذا ولو كانت علاقتنا مؤقتة؟

أجلس في سيّارتي بينما يجلس هو في مقعد القيادة. كان الغروب قد ابتدأ يحلّ على بيروت تاركاً على أطراف السماء شفقاً أحمر، وكأنه حزّ بطيخ. أتلفت حولي وأتساءل والضجيج لم يزل يكتنف المدينة. لماذا هؤلاء البشر ليسوا مثلي ومثله؟

أشير إليه لأن يتّجه حيث صنوبرة أخرى عالية. تظلّل شرفة بناية قديمة. طلبت منه التوقّف لننزل ونصعد الدرجات وهو يتساءل: «إلى

أين».

أصعد به إلى سطح بيت صديقتي اللتين اكتفيت بأن ألفظ أسميهما أمام كل منهما. عجلته خلفي رغم مناداة صديقتي لي: «درجات وأصبحنا في واحة من سطوح لا يستطيع إزاءها المرء إلاّ أن يفكّر بالأيّام الماضية وبالسلم. وبالحياة اليومية الطبيعية حيث حبال الغسيل، والملاقط المتساقط بعضها على الأرض، وخزّان المياه الذي كان يبني على سطوح البنايات، تبدو بيروت مسالمة قريبة للقلب، فيها روح وطفولة، فيها مساء ونهار وغروب وفجر: لم تزل مدينتنا.

بدت بيروت متماسكة. قام لون الغروب بتغطية دمارها وجعلها مستأنسة بأصوات أهاليها الخافتة الآتية من بعيد، وكأنّ الحرب لم تخدشها قطّ.

يمسك بيدي ويدنيها إلى فمه ثم يضعها في جيبه. «أنا عارف ليش جبتيني لهون، بدك ياني ابقى هون». أقول كاذبة: «أعوذ بالله. إذا زرتنا بصير افراح لما تزورنا مثل ما كنت أفرح أنا وصغيرة بالعيد».

يشدّ على يدي: «بدّي كون معك لوحدي».

رغم توقي لأشدّه إليّ وأترك رأسي على صدره، إلاّ أنّي أردّ مازحة: «ومين مانعك؟».

نصبح آلة من مغناطيس متشابكي الأيدي واللهفة والرغبة «مين يمنعني؟ الست روحية والست ستك ورسام الشهداء وفضيلة، وشو بدّي عدّ تعدّ»

«وانت»؟

«في واحدة، بس شعوري أقوى منّي».

«لمحت صورتها مع روحية».

ننزل السلالم وندخل بيت صديقتي التي كانت تحاول الاتصال بمكتبها في نيويورك عن طريق قبرص، وقد تجمّعت حولها صناديق

الكتب العربية والاكسسوارات الشرقية التي أخذت تتاجر بها. بصياحها عبر الهاتف عن الأرقام الجمركية التي أرسلتها مع الأغراض ألغت الشعور الطائر الذي شعرنا به ونحن على السطح وأعادتنا إلى واقع بيروت التي أصبحت صلة وصل فقط. الجمال فيها يُصَدّر. أتمنى ونحن في طريقنا إلى البيت أن أجد روحية حتى لا أنفرد به. عندما سمعت صوتها ما إن صعدنا الدرج حتى تمنيت العكس. أسرعت تفرد قفطاناً أتت به من الضاحية لصديقة جواد التي سبق وأهدت روحية زجاجة عطر. «شوف هاللون لح تجنّ. فيه قولك مقاسها؟!».

لا، لم أنتفض غيرة. هي قبلي ولم تزل قبلي. عليّ أن أكون سعيدة. ما يضايقني هو اعتراف روحية بها. خياطة القفطان كانت سيّئة لدرجة كان عقل من خاطته لم يعط الأوامر للعينين ولليدين، قماشه الرخيص ولونه لم يشفعا به أيضاً.

«أقول وقد عزمت على أن أبقي علاقتنا هكذا. حتى لا يفارقني الشعور بالرضا. فالتوق إلى الغائب يسيطر عليه الخيال ويلتبس على الآخر ويظنّه عشقاً» أنا عندي قفطان بستغني عنه».

أسرع إلى غرفتي قبل أن أبدّل رأيي أو يلحظا ارتباكي، أفتح الخزانة وآتي بقفطان من بين القفاطين الكثيرة التي اشتريتها سواء كانت جديدة أو قديمة، فموضة القفطان انتشرت في أواخر الستينات. قفاطين مشغولة باليد، قديمة بالية جديدة ومشغولة على المكنات، يتأمّله جواد ويثني على جماله.

تقول روحية والندم والخيبة على وجهها: «يا حرام المصاري».

«لا حرام ولا حلال أنا بدفع ثمنه».

ثم يلتفت لي ويقول: «مش راح آخذ قفطانك فوتي قيسي. خللينا نشوف جان دارك لبنان بها القفطان».

أكملت عنه: «اسمهان رئيسة الشعبة السياحية. اسمهان المضيفة الدليلة الترجمان...» أدخل غرفتي، أضع القفطان عليّ ولا

أشبك الصدر بالبروش كما كنت أفعل. أفكّر كم كنت عاقلة لأنّي لم أكن أظهر أعلى صدري كالآن. أو أن الموضة آنذاك كانت إخفاء الصدر؟ يفارقني ارتباكي، ربّما لأنّي قرّرت أنّ علاقتنا ستبقى على حالتها هذه، وأنا أُمني نفسي برسائل منه. هذا ما أحتاجه في هذا البلد. أن تصلني رسائل، أن أجلس وأكتب الرسائل وأتلقّاها، بدلاً من أن أكتب رسائل في مخيّلتي. أحدّثه فيها كبطلات الروايات عما يحدث في جوّ الحرب والهدنة. كأنّي شهيدة أو شاهدة. معه حقّ بأن أطلق عليّ جان دارك لبنان.

أنطلق خارجه كأنّ الحرّ يكاد يميتني، أفتح الشبّاك وأمدّ صدري ووجهي للهواء. لم يعلق وهو يراني مرتدية القفطان بينما تعالى صوت روحية «إن شاء الله بتلبسي كل يوم قفطان جديد. ما تعطيش لحدا..».

ثم لتردف «انتو ناضجين، دخلكم ليش ما تتجوزو بعض. مش احسن يا جواد؟ ما أنت عارف المثل: تاخذ من غير ملتك توقع بعلّة غير علتك؟».

أجبتها بمزاح: «يعني عم تفكري فيه مش في مصلحته». لا والله، فيك بجديّة تصيح: «عم يحزّ قلبي كل ما بشوفك وبتأمّل بجمالك وبتعرف على أخلاقك أكثر وأكثر وقول مين هالغشيم اللي ما قطف بعد هالوردة».

«اسمهان ما بدّها تتزوجني، اسأليها يللا، ترجّيها.

رددته عنها بكل ضيق صدر: «يللا روح من هون، حاج تحكي، الرجال بحبّو الواحدة تتحركش فيهم وما فيش غير الأجنبيات اللي بنادوا على بضاعتهن، معنا صحون معنا كبايات». تلتقي نظراتنا ونضحك على الذي طاف بخيال كلينا. كيف أمسكت بيديه قبل ساعات ودفنت بهما وجهي ومصصت شفتيه بشراسة وتركت قدمه تحفّ قدمي. ويده عندي وهو يقود السيّارة بيد واحدة.

تدق روحية الكبه النية وتبقى في جلستها هذه خلف البلاطة تنتظر فضيلة حتى تأتي لها بالمردكوش والحبق، إذ كانت هذه قد

يبست كلّها في الأصاصي أثناء غيابنا، وهي تصدح بأشعارها المضحكة» خذني يا جواد بالشنطة خذني وبرمش عيونك يا جواد لفني». فيجيبها: «الشنطة ضيّقة..» لكنه يطلب منّي الذهاب إلى البحر: «منطلّ عالبحر ومنشتري نبيذ».

نطلّ على البحر؟ يودّ أن يرى البحر، يودّ أن يغرف منه قبل أن يولي، إذ السائحون فقط هم الذين يشعرون بتأنيب الضمير إن لم يروا كل شيء إذا لم يسمح لهم الوقت بإلقاء حتى نظرة واحدة على الأماكن التي لم يروها.

كانت الوسائد الفلسطينية المطرّزة بالأبرة على لائحة جواد. لم يكن التطريز الجميل والألوان هي الحافز لنقصدها له بل الجنون الذي رآه المخيّم إبان مجزرته. لاتزال الدكانة الموجوده عند مدخله حيث تباع هذه الوسائد. عندما دخلناها كانت رائحة القهوة المغلية تفوح منه والمسؤولة ترشف من الفنجان، وتنفض سيكارتها وهي تفرش الوسائد وتساعد في الاختيار، وصوت جورج وسوف يتعالى من أحد الأكواخ.

كنت قد ظننت أنّ هذه المدّة التي قضاها في بيروت. محت كونه زائراً بعد أن كان يتمنّى لو يسجّل حتى ذبذبات البرغش وهو في الضيعة. لكن يبدو أنّي كنت مخطئة، فهو لم يزل يسجل: «أهل بيروت محاصرين ما عندهم خيار إلاّ البحر». لا بدّ أن الذي أوحى أنّ الذي أوحى له بهذا الخاطر خمسة أولاد كانوا يرتكزون على سور البحر، وأعينهم على الأمواج، ينظرون إليها بحسرة. لا أعتقد أنّهم كانوا يرونها في العتمة إنما كأنهم أداروا وجوههم عن الحقيقة التي بانتظارهم.

«بتعرف هالنّاس عن الغولف كلوب؟».

وكنت قد أخذته إلى قمّة التناقض في بيروت. إلى نادي الغولف كلوب، المكان الثاني بعد الجامعة الأميركية الذي يتساءل عنده المرء: هل هو فعلاً في بيروت؟ العصافير الكثيرة تزقزق، تنتقل من شجرة إلى أخرى من صحنٍ إلى آخر. من الأرض إلى الطاولة تلحق بفتات

الطعام. ولتؤكد أنّ وجودها طليقة في بيروت هو معجزة بينما تظهر الأشجار الخضراء، السماء أشد ازرقاقاً، رغم أنّنا سمعنا من حين إلى آخر صوت مدفع أو رنّة رصاصة ترتطم أينما كان، إلاّ أنّ الجوّ لم يتعكّر سوى مدّة قليلة، لهبوب الأمّهات المستلقيات اللواتي أسرعن يلملمن أطفالهن، ولاعبو الغولف يعودون بحقائبهم ويجلسون في المقهى ينتظرون حتى يعمّ السكون من جديد في النادي الذي لم يكن ليوحي لأحد بأنّه من الممكن حدوث المعارك من حوله. ينتظر الجميع في الممرات الداخلية، حتى تعود الحياة إلى الملاعب وإلى بركة السباحة شيئاً فشيئاً. وعندما عادت العصافير عاد الجميع وعاد المتفرّجون من الجنود السوريين يراقبون اللاعبين باستهجان.

نعود إلى السيّارة نبحث عن دكّان يبيع النبيذ، ونجده في واجهة فيها كلّ ما يتمنّاه الحلق من مشروبات روحية. في شارع ضيّق على رصيف نصفه متآكل تظلّله الأوساخ وبقايا الأشجار، وجدنا أنفسنا وحيدين إلاّ من رغبة أحدنا في الآخر، لنجد أنفسنا نعانق بعضنا بشدّة، كأنّ مقياس العاطفة هو من يشدّ ويؤلم الآخر، حتى نصل إلى روح كلينا.

ولم نتوقّف إلاّ عندما سمعنا صوت محرّك سيارة خلفنا. لأدير مفتاح السيّارة متمنّيةً لو أرفع يدي عن مقودها وأتركها تسير بنا على هواها. لا أعرف كيف وصلنا إلى البيت من غير أن نرتطم بأيّ عمود كهربائي، حيث أصبح شبحاً لا يضيء، أو بجدار أو بأكوام الزبالة، أو بحاجز إذ أصابعنا أصبحت كأنّها عقد تشابكت به خيوطه.

دخلنا الجنينة، وما أن رأيت تنكات الماء مصفوفة حتى صحت من الفرح. أدخل إلى الحمّام سعيدة بالماء الذي اشتراه لنا علي. أدلق على نفسي الماء، كلّما دلقت عاودتني الرغبة لأن أكون مع جواد ولأن يراني عارية. أسمع صوته في الردهة بين الغرف، حيث رفوف الكتب، أفرح لأنّه سوف يراني والمنشفة تلفّ جسمي، ومنشفة أخرى تلفّ شعري، أركض مندفعة إلى غرفتي وأنا أفكّر إذا كان

ينتظرني، أو أنّه يقلب الكتب عن حماسة حقيقية. أنادي من غرفتي: «بدّك تهديني كتبك؟».

«والله، معك الواحد ما بيعرف كيف يتصرف، يمكن ما بتحبي كتبي؟».

أسمع صوت روحية يتعالى «في شاب يسأل عنك».

هل أُطلق سراح كاظم؟ وأجدني لا أهتم لمن جاء يسأل عنّي بل أضع القفطان عليّ بينما أترك نقاط الماء تتساقط من شعري. أدور على نفسي من السعادة ومن الترقّب. الامس المرآة وأتفوّه بكلمة. أبتعد عنها وأتأمّل نفسي. أجمع شعري إلى جهة واحدة. وأتنهّد كأنّ جواد يراقبني من عدسة خفيّة. وكان أخو كاظم الذي أصبح ممرّضاً لدى العجائز والأثرياء ينتظرني. أبادره بالسؤال عن كاظم فيطمئنني: «كم يوم والسورية بيتركوه. معقول يتكلّفوا على الأكل والشرب والحراسة أكثر من شهر؟».

جاء يطلب معونتي. يريد من صديقتي حياة أن ترسل له خمسين صوصاً. أضحك وأنا أحاول أن أفهم النكتة أو القصد وراء هذا الطلب. لكن كان أخو كاظم في منتهى الجديّة، وهو يفلش أمامي مجلة الكتاكيت والديوك الأوروبية حتى الأميركية، ووجدتني أفتح صفحات هذه المجلّة وأرى ديوكاً ودجاجاً بألوان وأشكال غريبة لا تخطر إلا على بال رسام الشهداء. ويبدو أن تصفحي الطويل لهذه الديكة العجيبة وحماس روحية لأن تشتري أيضاً منها فسره أخو كاظم بأني موافقة إذ يقول سعيداً: «أنا قلت فيك تساعديني. صارت البيضة بتفقس بالإيد. قشرتها مثل ورقة السيكارة. خبريني، كيف بدّو يطلع صوص من هيك بيضة؟ وبدو يصير دجاجة أو ديك أو بني آدم؟».

لا أضحك. لا أريد أن أقع في فخّه. أجدني أستجمع شجاعتي وأطرد الموضوع:

«ما بعرف إمتى حياة جاية وعلى كلّ حال غير معقول أطلب منها

تحمل صيصان».

لأستدرك وأصيح ضاحكة: «ولك جنّيت؟ بدكم تحمّلوها صيصان؟».

عندما يكتشف تصميمي على الرفض، يصرف موضوع طلبه مداعباً» «أنا ما جنّيت بعد. بس الرجل اللي حمل معه خمسين صوص جنّ من الصوت. كلّ الطريق، من لندن لبيروت. الركاب فكروا انو براغي الطيّارة عم تتفكك وتعمل هالصوت. وبعدين فوق الصوت طلعت الريحة... كم صوص عطاك عمره عالطريق».

كم كنت أجلس في هذا المطبخ ومطبخ البيت الذي ولدت فيه، أستأنس لهذه الأحاديث، التي كان يتخلّلها الصراخ والضحك والغضب. ها هو المطبخ كما هو، عدا حيطانه المتشقّقة وروحه التي فارقته. لم يعد لديه ذراعان تلفانني كأنّه إسعاف أو جدّتي. بل أصبح وجوده الآن لشدّة الضرورة وإعداد الطعام، وسبباً للمعاناة التي تبتدئ بالحنفية التي لم تعد تنساب منها المياه بحنان بل تحدث صفيراً من فراغها، أصبحت بعد أن توقفت عن تمثيل دورها كأنها عرف ديك بشع. وليس ملك. ذو تاج. فرن الغاز الكبير أيضاً. والذي كان مفخرة المطبخ. بعد أن أصرّت زمزم على شرائه أسوة بابنة الجيران البيروتية التي كانت تحضر قوالب الكاتوه. يقف الآن ساكناً حسب توفّر الغاز. وإذا فتحناه يتعالى صريره وتظهر قذارته إذ لم تعد زمزم تشتري المسحوق الخاص الغالي لتنظيفه. بينما وفي زاوية المطبخ تركنا ثقباً خلّفته قذيفة ونافذة هرّ زجاجها فسددناه بالنايلون، بعد أن ينسنا من إصلاحه أكثر من مرّة. لم يعد المطبخ واسعاً، مفرود البلاط، عالي الجدران لا تصل أغصان الملوخية الخضراء إلى نصف جداره مهما علت كومها. فيجلس الجميع ما عدا جدّتي. بين أوراقها الخضراء نفرطها عن الأغصان ونكوّمها فوق شرشف فستقي اللون، لم يعد مطبخنا يلحق بالشمس التي كانت تضرب زجاج شباكه في الشتاء بينما نجلس على مقاعد منخفضة، قبالتنا حديد الشبّاك تدلّت منه قشور البرتقال التي دأبت زمزم على تجفيفها لتضيفها الجمر في الشتاء. رغم أنّ الثلاّجة

احتلت دور النملية لحفظ الطعام قبل الحرب، عادت النملية تمثّل دورها كما في الماضي، أجدني الآن أودّ أن أكون كما في الماضي. لذلك كنت أستمع إلى روحية وفضيلة وكأنهما بصوتيهما تضفيان شعوراً منعشاً يمدّني بالطمأنينة، بينما رائحة الكبّة تملأ أنفي والبيت كلّه».

شعرك مبلّل، هلّق بيلفحك الهواء. تبادرني روحية: «وين الست زمزم مخبية الزيت؟» اندفعت بكلّ قوّة إلى النملية فأنا لم أزل تحت وطأة رغبتي بجواد وتمثيلي العكس، اتصرف وكأنّه أسند إليّ مهمّة مستعصية. إذ أجدني أركع على ركبتي أفتح باب النملية السفلى ولا أجد إلاّ قنينة زيت فارغة، ولأنّ النملية كانت مكتظة، أخذت أخرج بعض الأكياس والمراطبين حتى أفرج من عتمتها. ولم أعرف أني كنت أفشي سرّاً بفعلي هذا. فتصيح فضيلة وكانت تتحدّث مع جواد تخبره عن زوجها الشيخ وتسرع تمسك بما أخرجته للتوّ: «زمزم كذّابة. حلفت يمين إنّها لم تستلم من الإعاشة التي فرقوها الإيرانية».

«ربّما يمكن خافت من ستّي؟».

«ليش تخاف، شو هي إيران جهنّم سوداء».

«أفظع من جهنم السوداء».

تنبري فضيلة: «وليش يا حبيبة القلب، بالقليلة صار عندنا مستشفى للتوليد، يا عين يا ليل، قدّيش نظيفة، الواحد بيلحس أرضها لحس، وصار فيها دكاترة نسوان... مش أي دكتور بينزل نكش ذراعه بالمرآة:

«هيك يا ست فضيلة الدكاترة بينزلوا نكش وزراعة فيكم؟».

نضحك جميعنا لتعليق جواد وأتصنّع بأني لا أتمالك نفسي من الضحك، بينما كنت أتصوّر نفسي حاملاً منه وهو يأخذني إلى الدكتور.

«هذا إفتراء على الإيرانية، ونحنا ما شفنا منهم شي».

«ولو شوفي كيف، حزب الله عمل بريكاردو، أو نسيت؟».

«شو عملوا بريكاردو؟ هو بدّو يعمل بحالو هيك. أجا طيّار من أفريقيا. بالعكس، حزب الله، مع العلم فتحوا مدارس وعم يعلموا».

«مدارس عظيمة!! بيعطوا الأولاد دفاتر وكتب عليها صور الخميني».

«ليش لا. الحكومة مش عم تطلع بحدا».

يدخل جواد طرفاً بيني وبين فضيلة.

«الله يساعد الحكومة بعدكم بتسموها حكومة؟».

«والله شباب الإيرانية سألوني إذا عايزه مصاري مشان إمي، قلت متشكرة بس إدفعوا قسط مدرسة إبن الجيران... والشباب أيضاً عم يصلحوا البيوت».

ولم تهتم روحية بحوارنا. كانت منهمكة بجبل الفراكة، تذوقها بطرف لسانها «نائصها مردكوش وحبق». لتعلّق فضيلة: «لو سلموني المفتاح، الله يسامحهم كنت غليت الميّ وبردّتها وبعدين سقيت المساكب».

يبدو الاشمئزاز على وجه روحية فبانت تجاعيد وجهها أكثر: «يعني عم نأكل فراكة فيها مية بحر وقرف وجيه». تشهق فضيلة: «ليش تاركة وجهك يا روحية بلا كريمات، صار جبينك مثل جلد السحلية مثل ما كان جبيني بالأوّل، اسألي أسمى كيف كان وكيف صار بعد الكريمات». كأنّه ليلة القدر. استغفر اللّه. مشت عليه حتى كلّ التجاعيد اختفت. يضحك جواد وكأنّه أصبح هو نفسه امتداداً لفضيلة وروحية. رغم ملابسه التي كانت تظهره اوروبيا يكتشف في فضيلة كائناً يبحث عنه في اختباراته. يستأنس لشخصية كهذه وأحاديث كهذه. تنتقل فضيلة بالحديث عن حناجر الكريمات إلى مستشفى المجانين حيث امها وأخوها الذي حسد امّه لأنّها دخلت المستشفى إذ لا بدّ أنّها تأكل زبدة ومربى وخبزاً فرنجيّاً.

ثم تخبرنا عن الجندي السوري الذي أحبّها رغم صغر سنّه

والذي تمّ نقله من جرّاء ذلك. تقاطعها روحية: «طبعاً حبّك لأنّه حب الكوسى باللبن».

– كذب ونفاق.. الكوسى كان للحاجز كلّه.. على كل أيّ ساعة السهرة الليلة؟

تخاف فضيلة من أن تفسد ليلتها عندما اقترح أن يصحبنا وتعارض روحية. وكنت أعرف أنها تودّ أن يأخذنا جواد لأنّه سوف يدفع عنّا جميعاً فزوّار بيروت لا يعدون نقودهم. أحاول إقناع روحية بأننا سنشعر بالراحة والاطمئنان إذا كان علي معنا، دون فائدة بينما يشتدّ خوف فضيلة من أن أفسد لها سهرتها الليلة، فتوجّه حديثها إلى جواد: «الليل ببيروت لا يوصف. شمّ هواء ورقص وفقش. وجواد ينظر إليّ كأنّه يستشيرني بما علينا عمله فتمنعه فضيلة قائلة: «ما تطلعش بأسمى، أسمى آخر شخص لازم تطلع عليه، هي ضدّ شمّ الهوا. إذا لحقت بأفكارها بنقعد بالأودة... يللا. مناخد موسى معنا، وموسى مسالم.

«موسى؟ اللي عشقانتيه؟» تبادرها روحية. لم تجبها فضيلة بل أخرجت حنجراً من كيس البلاستيك الذي كان معها تضعه أمام روحية وتقول بالفصحى: «التجربة أكبر برهان» ثم ترقص حول نفسها وتمسك جواد من وجنتيه: «ولك تقبرني، تقبرني على هالوجه وعلى هالجسم، بالليل بدّي أرقصلك وغنّيلك». تعلق روحية ما أن تختفي دعسات فضيلة: «مجنونة يا حرام الهيئة لاحقة أمها، وامها لحقت ستها». بينما علقت أنا وأخوها: «عالطريق» وتمتمت روحية لنفسها: «وأخوها عالطريق».

وكان المفروض أن تعود إلينا فضيلة بعد أن تبدّل ملابسها لنذهب معاً إلى النوادي الليلية. وعندما تأخّرت اقترح جواد أن نقصدها في بيتها. استقبلتنا وكل ما بها يحدث خشخشة، من السلاسل الذهبية حول عنقها والتي تتدلّى حول خصرها فترتطم بالحزام الذهبي إلى حلقاتها الطويلة التي تكاد تصل رقبتها القصيرة. كأنها كانت تتوقّع قدومنا رغم لفافات الشعر التي كانت

تلفّ بها غرّتها. فهي لم تعتذر عن تأخّرها. بل رحّبت بنا، خاصّة بجواد وأسرعت تنادي أخاها حسّون ليشتري سفن آب. أتانا صوته: «أنا عارف عم تتحايلي عليّ حتّى تروحوا تتركوني بالبيت».

يعلو صوتها وهي تشتمه ثم لتقسم له بأنّها ترسله من أجل جواد الذي يحب السفن آب وهو سوف يأخذه معه إلى فرنسا ويزوّجه من عروس فرنسية.

يقترح جواد أن نأخذه معنا هذه الليلة قبل أن يصحبه معه إلى فرنسا. نضحك على نصيحة جواد حتى فضيلة تغصّ في الضحك، رغم أنّها شهقت مستبعدة فكرة جواد: «مش معقول نأخذه معنا».

يأتينا صوت أخيها الذي يبدو أنّه لم يغادر ليشتري السفن آب بعد: «عم تقولي مش معقول، شو أنا ديك عالمشحرة؟».

وكنا ننتظر موسى الذي تناديه فضيلة بابنها وهو يناديها بالماما أخبرنا عنه ريكاردو عندما كان على المصطبة الحارقة وزمزم تتأسّف على فضيلة وتقول مشفقة «يا حرام ما عندهاش فضيلة هلّق إلاّ أخوها المجنون».

تتجاهل فضيلة إصرار حسّون، فتختفي في الداخل ثم تطلّ من غرفتها وهي تحمل صورتها مع ريغان التي تخبّئها مع جواز سفرها في شنطة يدها، لتحملها ومعطفها الشتوي كلّما ابتدأت المعارك. تفشي لجواد سرّ هذه الصورة التي أخذتها مع صورة لريغان أثناء زيارتهما لأمّي في أمريكا منذ سنوات، وخوفها من أن يراها السوريون أو حزب الله ويظنّوها صورة حقيقية ويتهموها بالجاسوسية». يسألها جواد لماذا تحتفظ بها إذن: «ما أنا بفرجيها لخفاف العقل وبيصدقوني ويقولولي إحكيلنا صاحبك ريغان مشان الفيزا». ووجدتني أتأمّل بيت فضيلة الذي لم يعد كما كان رغم أنّ البلاط والكنبات والطاولات والعمودين الخشبيين وكل شيء لم يزل موجوداً عدا غياب صور الممثّلين من تحت زجاج الطاولات. كذلك غياب أمها وأمّي. والضحكات ورائحة القهوة والحنين إلى سيرة الرجال الذين كانوا يشبهون الممثّلين.

يدخل موسى، طويلاً عريضاً كثيف الشاربين، يقف وفضيلة إلى جانبه وهي تكاد تصل إلى خصره. إذ حضنته كأم سمعت صرير معدته بدلاً من دقّات قلبه. بقي واقفاً بعد أن صافح كلاً منا ليسألها إذا هي بحاجة إلى شيء، فشهقت: «مش جاي معنا مين بدّو يوصلنا ليش؟».

يقترح بأنّه سيرافقنا حتى ندخل ليعود فيأتي بنا بعد انتهاء السهرة. لكن فضيلة تصرّ على اصطحابه لنا، كذلك يصرّ جواد، ليعود موسى فيرضى، ولم تأخذه أكثر من ثوان ليشعر بأنّه فعلاً هو ابن فضيلة، وفضيلة هي في منزلة أمّي. فإذا أنا في منزلة أخته. إذ يقول: «لا مؤاخذة ست اسمهان، انت مثل أختي وأعزّ، بس بدّك تسهري بهالثوب، لح يفكروك بدوية». أجيبه ضاحكة: «وما بها البدوية؟».

يسأله جواد لماذا اتّخذ من فضيلة أمّه ليجيبه «سبحان الله، الدم حنّ».

أشكر فضيلة بيني وبين نفسي لفكرة اتيانها بموسى، فهو كان يلمّ بكل الأماكن، بمغنيها وراقصيها وكم هي تكلفة العشاء على موائدها. ابتداء بالفندق الواقع على البحر الذي كان فارغاً ينّ من الوحدة رغم أعضاء الفرقة الموسيقية الذين كانوا يعتمرون القبعات الاسبانية.

قيل لنا إن المكان يزدحم بعد الساعة الواحدة. وعندما أراد موسى التأكد خاف المدير من تحمّل المسؤولية وقال وهو ينظر إلى موسى الطويل، العريض «أحسن ارجعوا ليلة السبت». ثم لنتوقّف عند ملهى آخر وكان مقفلاً، أما الثالث فكانت قد حجزته عائلة تنتسب إلى أحد زعماء الحرب. كانت هذه الملاهي بعيدة عن بعضها لذلك اقترح جواد أن يدفع لموسى ثمن البنزين، لكن موسى يتراجع: «بأن سيارته مؤمنة التكاليف» ولم يفهم جواد ما يقصده موسى بهذه الجملة.

لا بدّ أنّ موسى كان مسلّحاً يحمي الأغنياء من جرذان الليل، لا

الجرذان التي كانت تلهو وتقفز عند أكوام النفايات كلّما سمعت ضجة السيارات. بل الجرذان اللاطية عند مدخل نوادي الليل وعند المنعطفات. هو يطمع أن يكون كعلي حارساً وحامياً للشخصيات. لا ليأكل جيّداً وليشرب جيّداً. فلبنان لم يكن على درب المجاعة كما يُصوّر. بل من أجل النفوذ. فهذه الظروف تلائم الشطّار. أن تكون مرافقاً أي أن تفتح لك الدروب والأبواب. أي أن تشقّ بسيارتك وبسلاحك غمام السحب. انت المسؤول، أنت الأهمّ حتى من الذي تحرسه إذ يصبح هو خاتماً في اصبعك. مصيره يتعلّق بقوّتك وذكائك ثم تتعرّف من خلال هذا المركز على مفاتيح المال، الأشخاص، من هم أسياد المعارك، كأسياد المال، وسرعان ما تحمل أنت هذه المفاتيح وتبتدئ الرشوات والعمولات، إلى أن تنفرج الأمور وتصبح أنت في مركز قوّة تستقدم الحاشيه حولك حتى ومن يقوم بحراستك. فهذا ظرف استثماري يجب الانقضاض عليه. هذا ما يطمح إليه موسى، أن يصبح مرافقاً قبضايا لشخصية مهمّة. لا للمهاجر الغني النكرة الذي أوكله لحمايته من السارقين. ويبدو أنّ فضيله عظّمت من شأن معارفي، عدا أنّ موسى لا بدّ أنّه يفكّر إذا وصل إلى علي من خلالي فإن علي سوف يسند إليه المهمّات عندما لا يسمح له وقته بالقيام بها.

دخلنا الملهى الرابع حيث الهيصة والأغاني الفرنكو عربيّة، والنساء يصدحن والرجال يتمايلون من خلف الطاولات، دقائق مرّت لتصبح طاولتنا كالطاولات الأخرى: رقص وفقش وغناء. فضيلة وموسى وروحية يتمايلون على أنغام الطقاطيق. بينما أجلس وجواد مبهورين بما نراه حولنا. من يفكّر أنّ الدنيا مقلوبة في لبنان، وأنّ النّاس خائفة؟

يدلّنا موسى على الرجل الذي كان يرقص ويعلّق بأنّه كان نكرة قبل ارتفاع الدولار، الساهرون خلف الطاولات يأكلون، يرقصون، يغنّون مع المغنّين الشباب وأسماؤهم الجديدة تدلّ على أنّها من القرى الجنوبية يمحون أسطورة الليل في بيروت والذي أثناءه يتثبّ الأمن أو عدمه. الرجل صاحب أكياس الورق المحشوّة بآلاف

الدولارات يرقص، ويهزّ بطنه أمام زوجته المتحجّبة وهي تتمايل ويميل معها حلق أذنيها الذهبي. هي تبعد كؤوس الخمر عن عدسة الكاميرا حالما يلتقط المصوّر لطاولتهما صورة بينما تجلس فضيلة سعيدة قرب موسى، تشدّ الإيشارب المفضض الملتمع كلّما هبط عن رأسها تنظر بإعجاب وحرقصة إلى ساهرة تصعد على الطاولة لترقص فوقها بعد أن أزيحت الأطباق والكؤوس على حدة.

لماذا الديكور؟ لماذا هذه العناقيد الاصطناعية؟ ألوان هذه الجدران وأيدي هذه المقاعد؟ إنّ عيني متّصلة بعصب الغضب وبكلمة «لماذا». ما علاقة الذوق وعدمه بالحرب؟ لماذا تلعلع الأغاني التي لا معنى لها، التي لا بدّ أنّ ألحانها أتت من جراء دندنة في الحمّام.

لا يصنع المدينة إلاّ ناسها وهؤلاء غرباء عن بيروت. رغم تفرّقهم هنا وهناك، لا أرى إلاّ زوايا فارغة.

شعرت وجواد بأنّنا على اتّصال دائم بما نفكّر به دون أن نتكلّم في هذه المعمعة، هؤلاء الرجال الذين يرقصون وينادون ويعربدون بعضهم يعمل من منازلهم. فتحوا محلات تجارية ووضعوا فيها ما سرقوه من أموال البنوك والتحف الثمينة من البيوت والمتاجر. بعضهم اختلط مع الشخصيات ذات الأدوار الفعّالة في الأحزاب، والتجّار القدماء الذين وجدوا منفذاً دينياً لاستباحة الربا كما يريدون. انتشر بينهم تجّار المخدّرات.. المهاجرون قبل الحرب العائدون بالأموال الطامعون بالجاه والشهرة، بعد أن خلت الساحة من الذين يستحقونها. يدلّ موسى من جديد على رجل يشتغل واسطة بين جهات كثيرة وأهالي المخطوفين «حياته على كفة». خلف بعض الطاولات، أشخاص مثلي ومثل جواد جاؤوا ليروا ماذا حلّ بالنّاس وبيروت. وأشخاص مثل روحية وفضيلة تودّان أن تنتسبا إلى عالم الأغنياء ولو لليلة.

بعد وقت قليل شعرنا معاً أنّنا نودّ لو نعود إلى البيت، فما نراه ونسمعه لا يسعدنا ولا يضحكنا، بل أنه يصيبنا بالتعاسة، الوصف الصادق عن ليل بيروت كان جملة جواد: جزادين وبودرة. شعرنا

بالاتكال على موسى ليعيدنا إلى البيت فبيروت لم تعد تعطينا حريّتنا من غير مقابل. ومع ذلك ننهض ونترك روحية وفضيلة على أن يعود موسى إليهما. لم تفهما لماذا نودّ المغادرة «والدنيا قايمة وقاعدة».

منذ أن وقفنا في باحة الجنينة تساءلنا ماذا سوف يحدث بيننا حالما نصعد الدرجات؟ كانت أنفاسنا ذات وقع واحد. لا بدّ أنّ كلاً منا سمع الآخر. ويبدو أنّ الشعور بالحاجة إلى الاقتراب والالتصاق في جو بيروت، تسرب إلى كلينا الآن. نحن جزيرة ومن حولنا البحر الهائج المليء بالتماسيح وبالمفاجآت على شاكلة التماسيح، الكهرباء مقطوعة والدنيا ظلام. التفكير يُشل في جو كهذا كأني ساحرة ساقت الولد البريء إلى قصرها واللعبة السحرية التي أجرتها عليه هي أن تركته وحيداً لأيّام طويلة، فيشعر الغريب بأنّه بحاجة إلى الالتصاق بمن شروشه ممتدّة في الأرض.

أغرقه الفضول واستجلاب الماضي، فأغمض عينيه لمدّة ليعود يفتحهما على الحاضر فيرى الطرقات المظلمة وقمامات الزبالة، وصوت الموتورات تنفذ إلى صبره وإلى صدره بضجتها وبجوّها القاتم. وأخذ يتابع الأخبار، ويجد نفسه كأنّما يتابع لغزاً. حتى التلفزيون بدأ يزعجه، سواء بما يلبسه المذيعون أو بأفكار البرامج ورخص كلمات الأغنيات وألحانها. ولم تعد الجرائد مصيدة لنكاته وسخريته بل كأنّها أخذت تفقأ عينيه بلا معقولية ما يجري: «تتذكري اسمهان لما خبرتك عن البنت اللي كنت بحبّها وقتها مسكت بشعرها بالقلعة، والكلمات علساني: ما تنتظريني، ما بدّي اوقف بطريقك لما ارجع منشوف إذا كنت بعدك بتحبيني». ويمسك شعري وهو يقول: كمشت شعرها وحطيت تمي على تمها وشديت عليها يمكن خنقتها».

يلمس بشفتيه شفتي ويشدّ عليّ ولم يخنقني. أبادله قبلته هذه.

نقف عند البركة في الحديقة نستنشق رائحة المازوت التي كانت تأتي من المحرّكات قبل أن يسألني لماذا ردمناها بالحجارة؟ وجدتني

أفكّر كيف كنت لا أخلد إلى النوم إلاّ وأنا أسمع صوت الماء وهو ينساب من حنفيّتها الصغيرة، أستعيد شكل الحنفية التي خلعها ابن الجيران بهيج الذي لم يكن يتعدّى الثانية عشرة بعد أن أصبح الحديد حياته وأمله. يخلع الحديد من أيّ مكان يراه حتى يبيعه، حتى أصبح لقبه بهيج الحديد. يحيطني بذراعه وأنا أخبره عن البركة وبهيج الحديد. يشدّ على كتفي كأني كنت أنتظر هذه الإحاطة. أشعر بأنّي أريد أن أرتمي عليه، لا يهم أين؟ فقط أرتمي بكلّ ثقلي عليه. لكنّي لبثت جامدة رغم أنّ شعوري الآن جديد لا يشابه شعوري لأيّ أحد من قبل ما عدا المراهق الذي رقصت معه أوّل مرّة.

لكنه سيسافر بعد يومين، لماذا على العلاقات أن تكتمل بالوجود اللمسي، لماذا لا تكتمل ونحن بعيدان؟ أتصوّر نفسي أكتب الرسائل وأنتظر الرسائل، حالما أفكّر بماذا أكتب، أكاد لا أجد شيئاً. فهو قد حفظ الأيّام هنا. وحفظ امتداد السهل، عرائش العنب واللون الأسود والقمم. عرف التنافض عندما وقف أمام المركز البريدي في الضيعة المجاورة ليطلب صديقته في فرنسا. لم يصدق أنّ في تلك الأرض الخربة على تلك القمّة قد شيّد مركز للبريد فيه المكاتب والموظّفون. بينما لم يكن يجرؤ أحد على الاقتراب من علوّه خوفاً من قفير النحل الذي دأب على اختيار هذه الخربة ليحيك قرصاً من الشهد. فقط أبو العقيص هو الذي كان يربط نفسه بالحبال ويصل القرص من حيث لا ينتظره النحل.

أسحب شفتي من بين شفتيه وأدخل غرفتي من غير أن أقول له شيئاً وأرتمي فوق سريري وأنا أمسك بمرآة كانت مطروحة على السرير قد أتيت بها قبل العشاء أحاول أن أرى ما يرى في وجهي. أما الآن فالأمر لا يهمّني فالكهرباء مقطوعة وأنا لن أُشغل المحرّك الذي لا أطيق ضجيجه خاصة وأنّي الآن كالخلد أستمع إلى أيّ حركة تصدر عن جواد. وكانت محرّكات الحيّ قد خفّت بتقدّم الساعة رغم أن أصوات صخب الملهى لم تزل في أذني. ووجدتني أطرد مشاهد الملهى وأعود إلى اللامبالاة تجاه ما رأيته وأنا أقول

بصوت أسمعه: «الناس بدها تعيش». ربما أنا لا أفرح في الرقص والفقش وهذه مشكلتي وحدي. لكن لم أكن أفكّر بالملهى بل بسؤالي لنفسي: هل يهبّ جسمي من الحب أم النبيذ؟ ولماذا لا يدقّ هو باب غرفتي، لماذا لا تصدر عنه أيّ جلبة سواء من المطبخ أو من غرفة الجلوس؟ أجدني فجأة أقفز كأنّي كنت على موعد معه ونسيته، وما إن أفتح باب غرفتي حتى يجيء صوته من غرفة الجلوس يسألني أين الكهرباء. التفكير بأن روحية لا بدّ أن تعود في أيّ دقيقة طار ما أن اقترب منّي حتى دخلنا العتمة واختفينا كالأشياء التي من حولنا والتي تظهر فقط خطوطها العامّة. أو أنّها موجودة لأنّنا اعتدنا عليها، لكننا فعلاً لا نراها. وشعرت فجأة بفقداني لنفسي وللخيط الذي يربطني بالحياة. فارتخائي كان طائراً. وامتدّ حديثنا جريئاً وكأنّه هلوسة، كأنّي لا أسمعه ولا يسمعني، لأنّنا في العتمة. واقتحم جسمي نفسه كالعادة وبدأت أشعر به ينبض وأبتسم لأنّ جواد لا يرى ما يحدث لي. ليصبح كلّ منّا أشدّ جرأة، وأنفاسنا كأنّها النور الذي أضيء فجأة، وكشفت عن كلّ ما هو في العتمة، يمدّ أصابعه يتحسّس بها وجهي، وكأني كنت كلّ هذه السنوات أنتظر لمس هذه الأصابع التي أطفأت كلّ فلاشات من التفكير إلى صدى الموسيقى والصخب والمساحيق والأفواه المليئة بالطعام والبطون المهتزّة. وكأنه لم يعد في الحياة سوى هذه اللمسات، وهذا الحنان. ثم ليبتعد عنّي حالماً أصبحنا معاً ووجدنا أنفسنا نلحق طريق اللمسات والحنان هذا، ليسألني بهمس إن أمكن الاسترسال؟ وماذا عن حالتي. أحببت هذا التردّد الذي لم ألمسه من الآخرين وهذه الحيطة وقوّة الإرادة. وشعرت أنّ الحرب هنا وعيشه في أوروبا لم يجعلاه يشعر بأنّ كلّ شيء مباح منهار. وأجدني أشعر بأن استلقائي هذا، لا علاقة له بالحرب أو بالانهيارات. بل اني أصبحت بعيدة عن أرض غرفة الجلوس وعن الكهرباء ا لمطفأة وعن بيت جدّي. وعن بيروت الغربية. الرغبة في الالتصاق به لم تكن كالمخدّر، وبأنّ الحياة لم تزل تمارس نفسها في غرفة ما سواء بالولادة أو الموت أو المضاجعة، وبالتالي لم يكن تنفّساً منّا لشعور بالوحدة. أتمدّد فوق الأرض التي

لعبت فوق مربعات سجادتها والتي ركضت فوقها في مراهقتي، لأذهب إلى المدرسة أو لاستقبال صديق. أمارس لأوّل مرّة ما هو امتداد لعاطفتي ولفكري في بيتي. لا كما في السابق عندما كنت أقطع أو أحول شعور العاطفة والحب ما أن أدخل إلى البيت إلى أحلام اليقظة.

أعرف الآن أنّ الحبّ ليس بالسهولة التي كنت أمارسه بها. أنا الآن بعيدة رغم توقي إليه، أنتظر أكثر من هذه القبلات وهذه اللمسات وهذا الالتصاق. اكمش أفكاري الكثيرة وكأنّها طير ثقيل الحجم أخذ ينتقل بسرعة على أحجار البيانو السوداء والبيضاء لتصدر عنها نوتات متفاوته. أشعر أنّ هذا الاقتراب قد أدخل فقاعة في شراييني فأخذت تزيح نقطة الدم المتجمّدة التي كانت تعوق من سير الدماء والتنفّس. الاقتراب يعود بي إلى الحياة التي كنت أعيشها عن تصميم لا بتلقائية غريزية. رغم توقي إلى شفتيه ويديّ المتشبّثتين بكتفيه، رغم أنّ صدره فوق صدري ووجهه الذي يغرق في وجهي إلاّ أنّها لم تكن مضاجعة بل كانت الطريق للوصول إلى السلام الداخلي. وكأنّ الكون قد وقف على قدم واحدة واستحوذ أخيراً على نقطة ارتكازه. يركّز جواد عينيه بعيداً ثم عليّ. وأنا أشدّه إليّ وأنا أكاد أصرخ: «بحبك بحبك» وهو يتساءل بينه وبين نفسه، لماذا إذن لا أرتجف لذّة؟ ما الذي يعوقني حتى أصل إليها إذا كنت أحبّه كما أنادي. هل كان ما بي مسدوداً عقيماً كعملي، كمستقبلي، كمحرّك سيارتي الذي ينطفئ ما أن أدير المفتاح في الثقب؟ هل أنفاسي هي أنفاس عانس؟ هل جسمي جسم عانس جافّ؟ رغم أنّي أشعر بأنّ ملمسي زلق كأني دلقت في داخله الرطوبة؟ طبعاً كنت أحاوره وأنا ألحق بالطير الذي يقفز فوق أحجار البيانو متنقّلاً من الحجر الأسود إلى الأبيض، أحاوره بنفسي بينما هو لايزال مكبّاً فوقي يعانقني مستغرباً أنّه رغم كلّ هذا الدفء الذي يمدّه بي ومع كلّ الحرارة التي أنفثها فأنا لا أنسجم معه. وتمنيت لو أقول له إني أشعر به كثيراً. لا في داخلي فحسب بل إلى نهاية جسمي وما حوله لكنّي أريد أكثر من هذا الالتحام، وإذا بي أتمتم «أكثر أكثر، أكثر أكثر» لينهض عندها ويتمشى وبعد صمت طويل أقول: «تصوّر لو

تيجي الكهرباء هلّق وبتشوفك روحيّة؟» وإذ أتصنع العادية في لهجتي يقول: «يا ريت فيني أفهم سرّك». كنت أعرف أني سأندلق على جواد كالحبر على شرشف أبيض، أمتدّ وأتشعّب حتى أصبح من النسيج، لكن ماذا يحدث لي؟ هل ما رأيته في النادي الليلي وما سمعته هذا الليل جعلني أذبل كغصن انقصف، رغم أنّ الوردة لم تزل متفتّحة في آخره، بعد أن رأت الحياة تتلاشى لتنبذ مكانها الكائنات المرعبة التي كانت ترقص؟

ولم نستطع أن نقيم حواراً، وكأن الشرح صعب إذ لا أعرف ماذا يحدث لي. لكنه عاد يمسك وجهي بحنان، كذلك شعري، يسألني إن كنت أرضى أن يرفعني ويحملني إلى سريري.

أمسكت برقبته وهو يرفعني ويكاد يوقعني أرضاً، أتذكّر آلام ظهر ناصر. ثم أبعد الصورة كعادتي كلّما فكرت بناصر، بل ابتسمت وأنا أسمع جواد يردّد: «يا لطيف شو ثقيلة، مثل الباطون».

لأسأله مداعبة: «هي ثقيلة مثلي».

«.....».

«... قريب بدك تحملها».

يرميني على السرير، شعرت بالرفاص الحديدي يقذفني عالياً، تغمرني السعادة، سريري هذا يتبدّل. إنّه يضحك وهو يتلقّاني مع الذي أحبّ. إنّنا في البيت الذي يظنّ أنّ عليه أن يؤدّي جميع وظائفه ما عدا وظيفة الحبّ. أن يشهد الولادة، الزواج والموت والانتقال منه وإليه ما عدا الحب. لم يعتد أن يضمّ العاشقين في غرفة الطفولة والمراهقة. بل بعيداً عنها وعن البيت كلّه، حتى يترك العاشقان شفاههما وجسمهما على سجيتها.

عند أفكاري هذه أشعر بأنّ البيت يعانقني فجأة، يبثّ دفئه بي. يعانقني الأثاث، يتمعّن، يهلّل بسعادة للالتحام الذي يراه، كأنّ له أنفاساً تحيطني بنعومة. أفكّر أنّ هذه الراحة لم أشعر بها مع أيّ رجل من قبل. كانت لقاءاتي المتنقّلة مع ناصر تكاد لا تثبت العلاقة بيننا فلا سرير نعتاد عليه ولا كنبة يعلق لونها في الذاكرة ولا صدى كلمات تنزل في الغرفة. بل كان الرعب ينتظر في مؤخّرة بالي

وعند طرف شفتي لربما انقضّ علينا أعداؤه في هذه اللحظات الحميمة.

يدا جواد تتحسّسان شفتي من جديد ثم تمتدان إلى ذراعي ثم إلى الأفكار والصور المتدفّقة فيريحني منها ويجعلها تنام.

أجد نفسي ألحق به بعد أن غادر إلى فراشه وكان ينتظرني. إذ أفسح لي مكاناً ما إن سمع خطواتي وأحاط خصري بيده وسألني: «هون البنات بيتركوا حالهم عالطبيعة أو بياخذوا شي». ولم أجبه سوى بضحكة، وعندما أخذت أنفاسه تنتظم، عرفت أنّه نام. وجدتني أتمعّن في وجهه، وأفكّر هل أنا صغيرة أنام في سرير جدّي؟ وهذا جدّي الذي يتنفّس في طيبة واطمئنان. وأنّ كلّ شيء على ما يرام. وأن الثقب الذي تركته المتفجرة عند النافذة العالية التي تساقط زجاجها ما هي إلاّ نقيّفة أولاد الحيّ الشياطين. ثم أسمع صوته وكأنّه يأتي من حلم. يخبرني أنّي أشبه أمّي كثيراً، لذلك تعرف عليّ رغم السنوات الطويلة.

كان صغيراً عندما زارتهم أمّي في بيروت. وعلى كتفها فرو ثعلب، وتنورتها مكسّرة طويلة بنية وحمرة شفاهها نبيذية. تدخن سيكارة وتخفيها كلّما سمعت دعسات. تضحك عالياً وتغنّي وتضحك. صورتها هذه لم تفارق خياله لوقت طويل.

يحضنني بذراعيه يهمس لي «مش معقول، أنا مع بنتها، الظاهر كل شيء مكتوب». لبثت بلا حراك. رغم أنّي تمنيت لو أتقلّب من جهة إلى أخرى كعادتي لكني خفت أن أقلق نومه، ويبدو أني نمت أخيراً. إذ استيقظت والنور قد تسلّل إلى الغرفة ووقع خطوات روحية في المطبخ. يداهمني شعور بالحزن ما أن رأيت حقيبته. أحاول أن انتشل نفسي من بين ذراعيه وفخذه لكنه شدّ علي وهو مغمض العين «ممنوع»، قلت أتصنّع الارتباك «روحية»؟.

«خليها تشوفنا مع بعض حتى تألّف كم بيت شعر..».

أتردّد وأنا أحاول النهوض في أن أسأله سؤالاً لكن أجدني أتجرّأ وأنا أرى تشابكنا تحت الغطاء فأتعجّب كيف أخجل من أن أسأله: إن كان يحبّني؟

الرسالة الأخيرة

عزيزتي حياة....

رغم هذه الأيام الطويلة التي أصبحت بحراً بيني وبينك، إلاّ أنّك مازلت صديقتي حياة، الحائط الذي أرمي عليه بالطابات، السعيدة والمؤلمة، حتى الفاجرة منها. ومع ذلك لا ألمح في وجهك الازدراء! لا أعتقد. أرى الحبّ فقط. كم كنت مخطئة وأنا أقنع نفسي بأنّ كلاً منا قد سلك طريقاً موازياً وبأن هذين الخطّين لن يلتقيا أبداً. فمجرّد أن يتململ الشعور في داخلي ولا ينصرف إلاّ بتحليلي لظروفك ولظروفي معناه أنّك موجودة، أنت معي حتى الآن في صالة الانتظار في مطار بيروت الدولي، هل تذكرين كلمة الدولي. التي كانت ضخمة وباللون الأسود على جدرانه؟ المهمّ أنّي أحاول استشارتك، لكنّك تغيبين عني كلّما هممت أن أسمع جواباً. أو أنّي لا أريد سماعه. أنا جالسة الآن وكأنّي كتلة من التخبّط، حائرة بين جواد ونفسي والغرسون والمسافرين. أراك تدفعين الجميع جانباً وتقتربين منّي. غريب! أنت البعيدة تحتلّين أفكاري الآن لا الذين تركتهم، قبل قليل والذين لا بدّ أنّهم مازالوا في مكان ما حول المطار، ينتظرون إقلاع طائرتي. هل لأنّ المطار والسفر والطائرة ارتبطت جميعها بك. فأنا إذا أتيت إلى المطار فلاستقبالك أو لتوديعك. وكأنّ كل المسافرين الذين يغادرون هنا إنما ليحملوا أشياء لك..عدا أنّك لم تتركي أيّة مناسبة إلا وحثثتني لأرحل أنا الأخرى. أسمع صوتك وأقرأ رسائلك وتلغرافاتك، كأنّك مديرة مدرسة تُرغّبين التلميذات بمدرستك فتعرضين خدماتك الشخصية، بحاسة تصل أحياناً إلى اللجوج، فأشعر أني ملاحقة منك، ولم أكن لأتساءل لماذا هذا

الالحاح. أعرف أنك لا تستوعبين بقائي في السنة النّار بينما الهدوء والأمان حيث تقيمين لا يترك حتى صدى للأصوات. أعرف أنّك خائفة عليّ لكن لا بدّ أن تأنيب الضمير كان يرافق هذا الخوف، كأن السنة النّار تمتدّ حتى تقيم جداراً كثيفاً بين الذين بقوا والذين غادروا. لا بدّ أنّ هذا الشعور كان يقلق أقامتك فتتمنين لو كنت بعيدة عن الصخب، حتى تنعمي بالهدوء حيث أنت من غير أن يعكّره سوى صوت الرعد والتماع البرق. حتى في الأيام التي كانت تنعم فيها بيروت بالأمان وتزداد زرقة السماء، كنت تلمّحين لي بتركها. عندها كنت أفهم من رنة الصوت أنّك لست خائفة عليّ من الموت، ولا من أن تمرّ الأعوام وتتركني بلا زواج وبلا مستقبل مادمت أعيش في بيروت. بل إنّك خائفة على نفسك إذ لم يدخل خطّ السير لحياتك من قبل في سراديب ومتاهات. فإنّك ولدت في عائلة منظّمة، مثالية. وعيت على أنّ الملعقة التي كانوا يطعمونك بها هي من الفضّة وبأنّها كانت لأمّك من قبل، وبأنّ عليك أن تحافظي عليها، لأنّها ستصبح يوماً ما لأولادك. لذلك كانت مواعيدك مع الشباب الذين لا مستقبل لهم هي للمنافسة بين البنات، لمعرفة ما إذا كان وجهك جميلاً، جسمك شهيّاً. لا للزواج. حتى العلم لم يكن من أجل المعرفة بل فقط للالتحاق بوظيفة تخوّلك مكانة عالية في المجتمع. فأنت كنت قد آمنت بأن الدنيا مكوّنة من السماء والأرض، يعيش البشر في المنازل الجميلة. يجملّونها إذا كانت عادية ثم يتكاثرون ويتكاثرون إلى الأبد. إذ الموت لن يتجرّأ بالدخول على متانة بيت عائلتك ونظامه حتى جماله. لذا ما إن اشتعلت الحرب حتى شددت رحالك من غير أن تتوقّفي لحظة وتسألي ماذا يحدث؟ من يُفجّر هذا العنف؟ بل كان همّك أنّه بات الصخب أينما كان وبراميل الغاز أصبحت نادرة، ولربّما نسف المطار. الآن يا عزيزتي يمزج أهل بيروت الرماد بالماء، لأنّ الصابون أصبح غالي الثمن، الماء الذي كنت أغافل به زمزم وأغسل به شعري يوماً بعد آخر رغم توصيتها لي لأن أدلقه على جسمي فقط. لأتحجّج قائلة عندما يفضحني شعري المبتلّ، بأني تلقفت المياه التي رميتها على جسمي وأسرعت بها أرميها على

شعري. كنت أستمع إليك وأنت تجيبين بأنّك جدّ سعيدة، كذلك أطفالك ثم تكثرين من دعوتي لزيارتك. عندما كنت أحاول أن أستفهم منك كيف تعيشين حقيقة كانت الحيرة تخيّم عليك وأستنتج من صمتك جواباً، ثم لتتابعي: «أنا؟ مثل العادة، البارحة زرت معرض لوحات وتعرّفت على... وحضرت فيلم سينما وتسجّلت بصف «اليوغا» مع السنين أصبحت رنة صوتك أخرى. فالهجرة قد طالت ولا بدّ أنك اكتشفت أنّك لا تعيشين في هذا البلد الغربي إلاّ على الهامش. لم تكن تهمّك التطوّرات السياسية به، ولم تكن تخدشك المشاكل الاجتماعية. الطقس يكاد يكون الوحيد الذي كنت تعلقين عليه. كان يقرّبك من أهاليه، رغم أنّك لم تستطيعي أن تتعاملي معه مثلهم. فأنت مازلت متكمّشة بالفصول الأربعة، وإذا داهمت منفاك موجة من الحرّ، في أوائل الربيع، أصابتك الحيرة، فأنت قد أودعت ملابس الصيف في صناديق كما في لبنان. حتى عندما التحقت بعمل حتى تصبحي فرداً من ذلك البلد، لم يبدلك هذا بل انه لم يطرأ على رنّة صوتك سوى التعب والإجهاد. ومع ذلك بقيت كلماتك: «أنا؟ مثل العادة؟ شغل وشغل. أفلام ومعارض ويوغا».

لكن عندما كثرت تنهداتك أصبحت تحسدينني على «كبّة اللبن» مع أنّك سبق وأخبرتني بأنّك تعرفت على أولغا الطبّاخة اللبنانية وأنها تزورك مرّة كل أسبوع وتطبخ لك كلّ شيء. حتى كبّة الكشك، عندما أخذت تتصلّين بي عبر السنترال وتكذبين وأنت تحجزين المكالمة قائلة إنّ الغاية من المكالمة حياة أو موت. وتكتبي لي الرسائل المتقطّعة وكأنّك طبيب تحاولين جسّ نبض المريض المصاب بالقلق، من غير أن يشعر بك. فتسألين عن الحياة اليومية في لبنان. عن الأمن، عن الكهرباء، عن المدارس، حزرت أنّك كنت تستكشفين العودة، كطيّار يودّ أن يعرف أسرار الجزيرة قبل أن يهبط عليها، فأجدني أخمد رغبتك قائلة وأنا أشهق: «أنت؟ ببيروت؟ مش ممكن تعيشي يوم واحد. وأولادك؟ ولا دقيقة. بعدها الحالة صعبة كثير. مش هلق».

كأني بردّة فعلي هذا كنت أضفي على نفسي هالة الهيبة بأنّي الوحيدة التي أتحمل الاضطراب والكوارث. كأنّي بالتالي مكوّنة من فولاذ. واني قدريّة إذا لمسني الموت أطعته. لم أعرف وقتها لماذا لم أكن أشجعك على العودة، مع أن ظروفاً جيّدة كانت تهيمن على بيروت والأمل كان يطفو بأن الحرب لم تعد سوى ذكرى. يبدو لي الآن اني كنت فعلاً أفكر بأنّنا خطان متوازيان، وبأنّي أودّ أن أكون حرّة في بيروت الجديدة. في البدء مع ناصر، ثم مع آخرين. لا روابط قديمة تهيمن روحها من غير أن تدري على الماضي. وتتركّز عليه حتى تكمل الحاضر. كنت أوجّه اللوم إلى نفسي لعدم تشجيعي لك بالعودة كلّما جلست أمام البحر ورأيت السابحات يستمتعن بالشمس وبالأمواج. كلّما بدت بيروت مدينة تواظب على عملها. كنت أشعر بانشلاع قلبك وأنت تغادرينها ومع ذلك لم أوجّه لك تشجيعاً للبقاء، بل كنت أشدّ من عزائمك قائلة كاذبة. «محظوظة.. مسافرة». شوقك إلى الدفء وحاجتك إليه كانا يزدادان يوماً بعد يوم. كنت تتمنّين لو أحطّ عليك حيث أنت حتى تنعمي بعيشك، حتى تتدفّئي كما لو كنّا حول الموقد في ضيعتك، تماماً كما في عيد العنصرة. بعد أن اصطحبتني معك إلى الكنيسة حيث في باحتها اصطفت المراجيح والعربات والألعاب وبائعو الحلويات والبائع الذي قيل عنه إنّه بدوي وكانت أسنانه كلّها ذهبيّة، ينادي: «اشتروا عصفور العيد اللي ما عندو عصفور ما عندو عيد» قطفنا وقتها ليمون البوسفير وأكلنا البسكوت والحلقوم وعندما عدت إلى بيتنا كنت قد حوّلت لهجتي إلى لهجة أهلك وقريتك.

لا أعتقد أنّه خطر ببالك أنّ وجودي في غربتك لن يجعلك تنعمين بالدفء سوى لمدّة قصيرة. لأنّي بعد مدّة سأشعر بالبرد مثلك. والصوف الذي ترينه يغلفني والذي يمتدّ منّي إليك سرعان ما يتفكّك عنّي. وجودي قربك سيكون كإبرة البنج الموضعي يزول مفعولها وإذا بالإبرة ذاتها ستحتاج إلى كميّة من البنج. ما كتبت لي مرّة حفرته كالوشم على جلدي.: «تبدو خطورة اليوم وأنا أكبر وأولادي يكبرون، كأنّ هذه الأيّام أصعب من أيّام الحرب. أيّة ظلمة أنا

وأولادي قادمون إليها. ففي الخارج التعايش سطحي وغير محرّض، الأيّام لا تحفر سطراً في الذاكرة، كأنّي أنهض في الصباح لأقضي حاجاتي. ولا أعرف التوهّج إلاّ بمقدار بسيط وضئيل، وهذا لا يكفي للعيش» مع كل هذا أجلس الآن في غرفة الانتظار في مطار بيروت الدولي. إذ قلت لك إني لم أفكّر بموضوع تركي لبيروت جيّداً بل اتّخذته وأنا تحت تأثير جواد. لن تصدّقي. وإذا صدّقت فلسوف تلوميني بينك وبين نفسك، بأنّ صداقة قديمة طويلة لم تحثّني على السفر. بينما رجل ومرتبط بامرأة أخرى جعلني أجلس فوق هذا المقعد الجلدي الذي يلصق بملابسي. ستقولين بينك وبين نفسك: «كانت أسمى تنتظر الرجل، فمشكلتها كانت الحبّ وإيجاد الرجل، بينما اختلطت الأمور علينا وأيقنّا بأنّها لا تستطيع مفارقة بيروت خوفاً من أن تموت إذا عاشت بعيداً عنها».. أعرف أنّه كان عليّ أن أخبرك عن جواد قبل الآن. فكّرت بذلك لكن ما هي الوسيلة؟ الحديث عن الحبّ والأسرار بين صديقتين لا يصرّح به إلاّ والوجهان متقاربان في ركن ما بعيداً عن الآذان والأعين. هل تذكرين؟ عندما كنّا نودّ التأكد إن كانت زمزم أو أمّك تنصتان إلينا فنتحدّث بالألغاز ونضيف تاء التأنيث ونقلب أسماء الشباب إلى أسماء بنات ونضحك ونغرق في الضك. هل معقول أن أحجز مخابرة دولية وأجلس بين المنتظرين الذين على وجوههم إما الألم وإما الحيرة. فهذه المخابرات الدولية أصبحت غالية وضرورية للأخبار عن الموت أو الزواج أو السفر أو الحاجة الماديّة. وعندما يحين دوري أهتف من الكابين: «حياة أنا بحب واحد اسمه جواد، لما مسك اصبعي، تصوّري إصبع واحد غشى على قلبي، لما مسك رأسي كأنّه وضع يده على كل شيء، أفكار وخربطات وماضي وجمال. ولما مسك صدري شفت فلاش بعيني وصرت مثل الفرن. وفكّرت انه هو أول واحد بيمسك صدري. الكلّ كانوا مش منتبهين انه عندي صدر لأنّه صغير».

الأسرار بين صديقتين لا عمر لها. سمعت من زمزم أنّ زينب العجوز أخبرت نعيمة كيف أخذ زوجها العجوز يضرب رأسه بيده عندما افتقد العشر ليرات ولم يجدها في جيبه. وعندما قالت له

زينب بلا مبالاة: «شو صار؟ أنا أخذتها، اشتريت فيها ضمّة نعنع» أنّبها على فعلتها: «شو هالقصة، هيك بتحطي ايدك بالجيبة بلا أحم احم وبلا دستور وبتاخدي المصاري». أجابته زينب باللامبالاة ذاتها: «بعمري ما سمعتك بتقول احم احم أو دستور لما بتحط إيدك على...». أعرف أنك ستفكرين بناصر وأنا أخبرك عن جواد. لا تسأليني كيف يسلك الحب غصناً آخر ويستوي فوقه رغم موته مع الأحباء السابقين لدرجة أنّ ذكراهم لم تعد تؤلم أو حتى تسعد. بل ان استرجاع ما جرى أثناءه لا يجلب معه سوى شريط سينمائي. لا يؤثّر على المتفرّج مطلقاً، سوى بأنّه يراه. وإذا تحرّك به شيء فهو ليستغرب أو ليستهجن ذلك الحبّ الذي مضى.

أتوقّف عن كتابة الرسالة إليك، يا عزيزتي حياة، فالمقطع الأخير هو خاص. لن تستوعبيه، ولا أقصد هنا أنّي أشك في ذكائك أو استيعابك للمواقف وللخواطر، لكن هذا المقطع يأخذني عميقاً إلى نفسي يريدني أن أنكش تربتها كآلة زراعية. لا يفوتها ذرّة رمل. والاسترسال في الكتابة إليك يحوّلني عن دربي هذا رغم أن رسالتي إليك نبشت ما هو مطمور، إذ هو الحافز الحقيقي الذي جعلني الآن فوق هذا الكرسي. أشعر الآن وكأنّي تلميذة تستعدّ لامتحان قريب وعليها أن تستعيد الكلمات وشكل الصفحات والصور.

بعدما تبقّى له يومان في بيروت وجدتني أتحدّث إليه بلهجة جافّة وبرود. لم أكن أفتعل هذا. بل كنت قد تحدّثت مع نفسي كثيراً ووصلت إلى هذه النتيجة بأنّه مادام سيسافر بعد يومين لماذا لا أعتبره قد سافر وانتهى بدلاً من هذا التمزّق. إذ استحوذ السفر علينا. فكلّما ابتعدنا عن فكرته كلّما وجدنا أنفسنا نعود إلى قلبه ونتحدّث عنه. كلّما غاص كلّ منا بجسم الآخر، كلّما تشبثنا ببعضنا خوفاً. أخذ السفر يأكل الساعات أكلاً، فالوقت البطيء الذي كان يزحف خلاف أي وقت فوق الكرة الأرضيّة أخذ يدور بنا. فما نوشك أن نلامس موضوعاً حتى يهبّ بنا في دوران من جديد. إذا غافلت فكر سفرة عادت ونبتت أمامي من جديد وسط استعداده للسفر الطائر في أنحاء البيت، المحصور في غرفة جدّي. ألمح أوراقه

وحاجياته وحقيبته الكحلية. وتذكرة السفر وقمصانه التي قامت بكيّها روحية، وأرى الصور التي أخذها لنا، في الطبيعة. صور أظهر بها وحدي ومع جهينة، ومع روحية. روحية تقطف كوز الرمّان، روحية تدخّن، روحية تغنّي، وروحية تبكي.

كأنّه باستعداده للسفر لم أعد أرى ما أراني إيّاه في بيروت من ماض وذكريات بل من الأوساخ. ولم أعد أستنشق سوى الزبالة ولم أعد أرى سواها. إنّه يأخذني مع الوسائد المطرّزة والزجاج بلون الفيروز والبسط الملوّنة وصينية روحية القشّ. يأخذ منّي حبّي لبيروت والذي كان قد أعاده إليّ بقدومه. رغم أني حاولت عدم الاستسلام لهذه المشاعر السلبيّة، مذكّرة نفسي بأنّ هذا يحدث لي كلّما فارق أصدقائي لبنان. تستحوذ عليّ الكآبة لأيّام قبل أن أعود إلى روتيني. لكن اختلف الأمر هذه المرّة منذ أن دقّ على باب غرفتي ولم يدفشه كروحية أو فضيلة. دخل قبل أن يمهلني لأنهض من على السرير وأطرق إلى الأرض: «عطيني نمرة تلفون حياة وممات والله أعلم.. ماذا أخبرهم؟». إذ كنت قد طلبت منه الاتصال بأصدقائي حال وصوله إلى تلفون، أجيء بمفكرتي الحمراء الصغيرة، بعد أن بحثت عنها في الأدراج وأنا أقلب صفحاتها قال: «مش مفكّرة قديمة؟».

أجبته ضاحكة: «من خمس سنين، شو أنا مثلك؟».

منذ خمس سنوات، كتبت على أوراق أيّامها وتواريخها وأرقام تلفونات في لبنان وفي كل بلاد العالم. أقلب صفحاتها وأقرأ الأسماء وأرقام الهاتف. حياة، ناصر، إيمان، سهام، أمّي، وأرقام كثيرة، في تونس في القاهرة في الولايات المتحدة، يمرّ هؤلاء في ذهني، صوراً مشوّشة. تفرقعوا تفرّقوا تماماً كالألعاب النارية التي ندّ عنها توهّج سرعان ما انطفأت والمطر يدخل فيها. كلّهم بعيدون كلّ منهم له حياته. سأل: «من خمس سنين؟ لم تشتري مفكرة جديدة؟ يعني المستقبل عندك غير موجود؟».

قلت: «الماضي عندي مهم. مثلك».

قال: «مش الظاهر وإلاّ هالمفكرة كانت محفوظة عندك حتى ما تنقطعي عن الأصحاب، عثرت عليها بعد جهد جهيد. انت مش فارق معك شيء، بتعرفي إذا ضاعت مفكرتي، كأنه ضاع قطعة منّي».

– «أنا بحفظ بعقلي وبقلبي، وانت لازم تكتب كل شي حتى تتذكره».

لم يبال بجملتي الأخيرة بل خفض من صوته: «مش قادر اتركك وأسافر»

جملته هذه زعزعت داخلي، جعلتني أرتعش، لكن أجيبه بكلّ برود: «بكرة بتتعوّد».

«قلبي بيوجعني عليك إذا بقيت هون».

– «هون أحسن دنيا!! حرام انت ليش تارك».

لكنه أخذني من رأسي وكبس كلتا يديه على صدغي، لدرجة أني لم يعد بوسعي فتح عيني. شعرت وكأنّي دلقت في جوفي ليترات من النبيذ الدافئ، فتركني خفيفة الوزن والرأس وثقيلة الأجفان وكأنّها ممتلئة بأنابيب من الدموع تودّ الانفجار. قال: «ليش انت باردة معي أو ندمانة شو صار بيني وبينك؟ أو بدك ياني أبقى هون أو بدك تسافري معي. أي واحد من هالثلاثة؟».

كلماته لي جعلت كل الحوارات التي أجريتها وأقنعت نفسي بها تتهالك وتسقط لحظتها أمام وجوده.

أشعر أنّي لا أريد فراقه. لأجد نفسي خفيفة. كالأولاد في سنّ الصغر. ينعمون في الحاضر، لا يفكّرون إلاّ في اللحظة، إذ الماضي لا يعرفونه والمستقبل ما هو إلاّ فعل من الأفعال الثلاثة، ما أن يطبقوا كتاب القواعد حتى ينسوه. فأصبح طفلة صغيرة. يضعني تحت إبطه ويسير بي، أو يحملني بين ذراعيه. لأرى الدنيا من علوّها. وجدتني أستسلم معه لتكملة التيّار الجارف الذي بدأناه كأنّه لم يعد في الصباح أو في الليل أي ترقّب أو ذعر أو ابتهال لأن يطول أن ينجلي. الليل هو كيف أذوب في المخدّة وفي جسمه وفي صوته وفي

قصصه الماضية البعيدة عن الحرب. عن هذه السنوات الطويله. والنهار لكي أقفز معه ومع أفكاري في الطرقات، وفي الأماكن تسرع كلماتي تؤكّد له العكس عندما يهمس: بأنّه عليّ السفر معه».

«أنا؟ أبداً، أنا مش ممكن، أبداً، أبداً، أبداً» لا مش ممكن أترك. بدي موت هون. لكن يبدو اني لم أقصد ما كنت أقوله، إذ وأنا أرى حاجياته هنا وهناك أخذت تذكرني بأجواء جديدة، ذات أبعاد. أخذت أتصوّر نفسي في شقّة أسمع عبر نافذتها الأغاني الفرنسية وأنا ألبس القفطان اياه، حولي أصدقاؤه الأجانب نسمع الموشّحات وأم كلثوم. أسرع الخطى تحت المطر، كما من زمان في بيروت أفتح المظلّة وأضواء المقاهي تجذبني إليها بما فيها من رائحة الدفء والقهوة والسكائر، أسير في الليل الذي يعِدُ بشيء. التسكّع في النهار على الأرصفة. أعتمر قبعة. أو أصبغ خصلة من شعري باللون البنفسجي، أرى الأفلام التي أقرأ عنها، اشتري المجلاّت، أحفّ عن نفسي الصدأ. أبعدت هذه التصوّرات ونظرت حولي. كيف أترك كلّ هذه. ولم تكن سوى البيت الذي كاد يهرّ دهانه فوقي.

«عطيني سبب؟»

«سبب؟ تسألني عن سبب؟»

وكدت أضحك، قراري بالبقاء في بيروت يكاد يكون قطعة من الفولاذ لا ينفذ إليها أو منها أيّ شيء لذلك لم يعد أحد يجرؤ على طرح هذه الفكره عليّ ولو كانت الدنيا تزلزل في بيروت، وها هو يسألني عن سبب؟ سبب؟ سبب؟.

«عملهك شوي إذا متأكده من حالك. انت خايفة تأخذي وتعطي بالموضوع؟ عطيني سبب واحد ليش ما بدّك تسافري؟.

«حياتي هون!».

«هون حياتك؟ مع ستّك زمزم وفضيله وروحيّة؟ حتى ريكاردو راح. نسيت بكره بيطلع كاظم. ونسيت كمان خي كاظم، مين بدّو يؤمن له الصيصان».

أضحك. ثم أتصنّع الضحك. حتى أمهل نفسي بما سوف أجيبه. كلّما فكرت بسبب لقائي في بيروت وهممت بقوله. تراءى لي سبب مائع. ليس بحجم شعوري تجاه بقائي وتجاه بيروت.

«مش ضروري أعطي سبب».

ولدهشتي لم يلحّ عليّ. بل أمسك بيدي: «تصوّري بعد بكره. لما أنا بسافر. تخيّلي حالك من غيري. وتذكّري قدّيش انبسطنا مع بعض، قدّيش منكون مهتمّين ببعض حتى لما كان في حرب بيني وبينك بالضيعة. حتى لما كان في سبب للضيق. تضايقنا من بعض وواسينا بعضنا البعض. فكرك الإنسان سهل يلاقي حدا يحسّ معه كأنّه مع نفسه؟ فكري. غمضي عيونك، فكري.».

أردفت بسرعة عجيبة من غير أن أغمض عيني: «ما فيني سافر بعد بكره. خلليني فكر. لازم حضّر حالي».

وكأنّ التي تتحدّث لا علاقة لها ببيروت، بالراحة التي تمدّني بها وأنا أعيش أيامها. رغم خلوّها من الأماكن.

«هلّق ضبّي أغراضك وتلفني واحجزي محلّ، ومنروح منشتري التذكره وإذا ما معك أنا بدفعلك».

«بدّي حضر حالي» أي إني أريد أن أتراجع. لا، أنا أريد أن أسافر، وأريد تهيئة نفسي. وأخذت أبكي فجأة. لم أكن أتصوّر أنّ أعصابي بهذا الارتجاج. وقلت: «ما عندي فيزا». وعدت أبكي وأشهق كأنّي كنت أخطّط لسفري منذ مدّة طويله. أصبت فجأة بخيبة أمل وكأنّ جواز سفري أعيد إليّ من غير دمغة التأشيرة وكأنّه أتاني خبر ضياعه. أو تخيّلت أنّي في كلّ مرّة اذهب بها لأصدر جوازاً جديداً تبدأ المعارك وتمتدّ الحرائق إلى سجلات العادلية. لتنفي كلّ ما يؤكّد وجودي وتجبرني على البقاء هنا. لكن أشعر وكأنّي لص أريد أن أهرب قبل أن يقبض علي. أن أهرب من هنا والحنين الذي ظننته يتغلغلني والذي يمنعني من الرحيل لم يعد له مكان في قلبي. تأتي روحية مهرولة من المطبخ على صوتي وأنا أخبّئ وجهي بين يدي وأبكي بتهدّج. بينما يحاول جواد أن يهدئني

وهو يأخذني أمامها بين ذراعيه، وأنا رغم ارتباكي من روحية أجدني أريح وجهي على صدره وأنا مازلت أشهق رغم تأكيده لي «خلص! اجري وإجرك، راح أوجّل السفر وبنطرك حتى تجيبي الفيزا».

أزحت رأسي من على صدره مكتشفة أني لوّثت قميصه بكحل عيني. خائفة من روحية لأنّها تلومني في قلبها، لكنّها تلومني بملء صوتها: «شو القصة يا أسمهان، وليش يا حبيبي بدّك تنتظر، شو القصة؟ دخيلك تسهّل». لكنه تجاهلها وشدّ على رأسي عندما تململت، اسمع صوته يتكون في صدره، لم أكن قريبة من صوت أحد كهذه اللحظة وهو يؤكّد لي بأن عليّ أو ابن فضيلة يتوليان المهمّة عنّي.

«بطّلت الوسايط تنفع بالسفارات».

«مندوح أنا وإيّاك، منأخذ باسبوري معي وأنا بحكي القنصل».

صاحت روحية من جديد: «شو يا حبيبي. شو في هلّق بتحطّ باسبورك بالسفاره وبركي السفارة اجتها شي قنبله، شو بتعمل وشو بنعمل، بدّك ياني قطّع حالي من القهر؟؟».

أرتدي ملابسي بعجلة، انتعل حذائي، أحاول أن لا أسمع ما يجري من حديث بين جواد وروحية. افتح قنينه ماء الورد أدلق منها على يدي ثم أمسح بها وجهي. إنهما يتحدّثان عني، انها تسأله وهو يجيبها، لا أعرف ماذا يقول لها، لكني أسمعها تناديني وما إن أهم بالخروج من غرفتي حتى كانت في وسطها: «وين بدّك تودّيني على جهنم، والله ستّك بدها تشويني وتقليني، وجدك بدو ياكلني أكل».

«إن شاء الله مفكرة إذا سافرت مع جواد يعني بدّي عيش معه؟ هو أصلاً عايش مع كاترين نسيتي؟» «قاطعتني: «هاالله هاالله، يا دنيا هيك صرنا بنقول بدي عيش وعايشه مش بدنا نتزوج..؟».

قاطعتها بدوري «خليني كمّل، أنا مسافرة، مثل ما كل هالعالم عم بتسافر. يمكن بعدين سافر لعند أمّي، لعند صاحبتي حياة، مش عارفة!!».

لأنّ جواد لم يتعجّب من جوابي هذا، فكرت اني لم إفارقه، أشار إلى روحية ضاحكاً: «ليش واقفه وكأنك في عزاء..؟.

ولم اتصل بالضيعة، كيف أؤكد السفر والتأشيرة ليست في حوزتي والحلم المشؤوم الذي حلمت به البارحة، الثعبان الذي كان يلحث بابنة حياة ليقبلها أو ليعضها، ،كان حدسي بأني لن أستطيع الحصول على تأشيرة قد تحقّق. فنمرة علي لا تجيب. أحاول الاتصال به على نمرة هاتف مختلفة أترك له الخبر والرسالة. والجواب يأتيني دائماً «مدموزيل اسمهان، كيف الواحد بينسى اسم اسمهان».

مرّ الصباح والظهر والغروب والمساء ولم أسمع منه. بل سمعت فضيله تسأل ما الخبر. وإذا كان ابنها موسى يستطيع مساعدتي بدلاً من عليّ، فموسى كان في صحبة من أجابني على إحدى النمر الخمس. أعجب جواد بما سمعه وقال: «مش عارف ليش بعد في حرب والعالم كلّها بتتنصت بآذان مثل آذان الغولة».

وكان أسرع منّي وأخبر موسى عن التأشيرة. أهتم موسى وكأنه أسندت إليه مهمّة عسكرية: «عن اذنكم» لينزوى بالتلفون النقّال الذي كان يحمله وسمعناه يتمتم ويقهقه ويشتم ضاحكاً. ويعود يطلب من جواد جواز سفره مع رساله منه تؤكّد بأنّي قريبته وبأنّه يدعوني لقضاء إجازة في باريس.

تمرّ الساعات، يمرّ يوم، يوم آخر، ويدي على قلبي. يد روحية على حلقها. مستعدّة لأن تسحب منه روحها إذا لم يعد جواز سفر جواد إليه. بينما يحاول جواد أن يقنع نفسه بأنّه حتى لو اختفى جواز سفره، فإنّ السفارة تستطيع أن تعوّضه له بآخر. رغم انه استسلم للقلق الذي استولى عليّ وعلى روحية إلاّ انه استخدم هذه الحالة ليصل إلى لبّ الحياة الآن في بيروت التي تعكس قلقها على أشخاصها. أخبرني عن الخاطر الذي أخذ يتحرّش به ويعكّر صفاء سفري معه، بحجة لربما عليه تركي وشأني في المياه الخطرة التي اتقنت العوم فيها والتي لا بدّ أنّي استمد من خطورتها شعوراً

خاصاً يمدّني بالثقة وبالسعادة. ليجد أنّ هذا الخاطر ينفي نفسه ونحن ننتظر جوازي سفرنا ليكتشف أن الإنسان هنا لا يملك حتى حرية الاختيار. حتى في السفر، وبأنّ البلدان تصبح لديه عبارة عن خرائط، يمدّ المرء أصابعه يشير إلى ألوانها وخطوطها فقط. أقول له بأنّ البلدان لم تعد تهمّني فعلاً وبأنّه لا يجب أن يرى الحياة من منظاره الخاص. كنت في دوّامة من تشابك الأفكار بين علي الذي سوف يعرف بأنّي أنجزت هذه المهمّة عن طريق موسى وبين شعور اللامبالاة إزاء ما يحدث حولي من تعطّل محرّك الكهرباء إلى أصوات المتفجّرات في المنطقة الشرقية إلى المهندس الذي خطف حديثاً لتنصبّ كلّ أفكاري على جواز سفري وإذا كنت سأَمنح التأشيرة أم لا، حتى أصبحت كقطيع غنم تقاد في اتجاه واحد، تعزّزه حواسي التي تجعلني أرى موسى بين دقيقة وأخرى. أسمع صوته الهشّ، أسمع بوق السيّارة، أرى يده تحمل جواز السفر خاصّتي، أسمع قصّة الجيمس بونديه التي رافقت إتيانه بالتأشيرة، كنت قد اعتدت على علي وهو يقصّ علينا قصّة شطارته وحربقته الفريدة في الإتيان بأيّ تأشيرة إلى أن ضبطناه مرّة متلبّساً بجريمة الكذب.

كأني نقلت قلقي إلى جواد الذي أخذ يستفسر عن السفارة وعن الوقت وعن نمرتها. تفكيره بالاتصال هاتفياً بها معناه انه لم يعد يفهم العقلية التي تركها خلفه، لكني لم أتوقّف عند هذا الاكتشاف داخل لعبة تعنى عكس ما أريده. كرهت جواد وها أنا أحبّه، أكره السفر معه وها أنا أنتظر بفارغ الصبر أن ألمح جواز سفري وها أنا أسمع بوق سيارة وأصوات ابن فضيله وطقطقة كعب فضيلة: خذي باسبورك يا ست أسمى».

قالتها فضيله بفخر. كأنّ موسى قادر على كلّ شيء، ثمّ أضافت «واللّه هو لازم من هلّق ورايح ينتبه عليك، علي لم يعد فاضي، صار بخبر كان».

بينما زغردت روحية وأرادت أن تطلع بموّال لكنها عادت وأسرعت تمسك جواز سفر جواد تقلّبه لتتأكّد منه. وموسى يقاطع

الجميع يخبرنا عن الاهتمام بجواز سفر جواد، وعن قرار الموظّف لمنحه لي تأشيرة في غضون ساعة لينهي جملته بأنّه حتى رئيس جمهورية لا يتوقّع هذه المعاملة من السفارات الأجنبية في هذه الأحوال. رحت أفكّر بأنّ الأيّام الماضية قد ولّت. الوسائط تأتي الآن من الذين في الخارج إذ هم مصدر القوّة.

«شكر جواد موسى الذي أراد أن يصل إلى لبّ الموضوع: «أستاذ جواد بتعملي شي كم رسالة للطوارئ، ومنصوّر باسبورك لربّما أمّي أرادت السفر، كذلك بنت خالتي؟».

أتأمّل التأشيرة الفرنسية مطبوعة على جواز سفري وأفكّر أنّنا بالتالي نعيش حياة طبيعية، تُدمغ التأشيرات على جواز السفر ومن ثمّ نملك جواز سفر ونطير بالطائرة، أقلب صفحات الجواز. تأشيرات من مصر وإسبانيا وتونس وعمّان. طفت كلّ هذه البلاد من أجل ناصر، إلى جانب هذه تتربّع التأشيرة الفرنسية الملوّنة بعد سنوات طويلة من التأشيرات الماضية. ترى أهي من أجلي أم من أجل جواد أم من أجلنا معاً؟».

وكانت فضيلة تعرف أن مكافأتي لموسى ستكون كبيره. خاصة أنه اصطحبني إلى البنك وإلى صديقة أودّعها وإلى الارتيزانا لأشتري صابون زيت زيتون وإلى شركة الطيران وكنت قد تخلّيت عن صبري، أردت أن أعجّل في السفر، خفت أن يغلق المطار من غير سبب، وكانت عجقة السير غير طبيعية ووجدتني أردّد بدلاً من أن أصبح عصبيه: «خي... خي... تاركة كل شيء ورائي».

عندما أخذت جواد إلى مدرسة ليلية كان يتعلّم بها الفرنسية قبل سفره وكانت تسكنها الآن صديقة لي وجدتني أجلس معها غير مبالية، متعجّبة كيف لا أهتم لأحجار الشطرنج، التي كنت أتكوّم حولها. أردت أن أعجّل وأسافر قبل أن يطرأ شيء إذ أقرأ في جريدة رأسي: «رصاصة طائشة أصابت شابّة كانت تستعدّ للسفر». تمنيت لو أخبّئ رأسي في كعب السيّارة للمحافظة عليه، سرت بمحاذاة الجدران، صعدت إلى جانب موسى وكلّي توثّب،

أحيد من اليمين إلى الشمال حتى إذا خرقت رصاصة، أضاعت هدفها. أعدو إلى البيت أقبّل روحية. وعندما تبادرني: «جواد مش هون» أضع يدي على قلبي، يعود خبر الجريدة إلى رأسي «كاتب فرنسي من أصل لبناني يصاب برصاصة طائشة، أسألها بلهفة: «راح وحده؟».

قالت: «يا ريت لوحده ألست فضيلة أخذته عند قريبه رسام أنيس... بس لمّا لفظت اسمه فضيلة جنّ وما عاد صدّق». وقفت في وسط الحديقة أفتح الباب من وقت لآخر. ألقي نظرة على الشارع أعود إلى البيت وقلقي على جواد يزداد ثم أقرّر التحدّث مع جدّتي مهما طال عذابي لأدير رقم مصنع الشوكولا في الضيعة. الذي ما أن سمعني من هناك أطلب زمزم أو نعيمة حتى نادى: «تحت امرك» لكن انقطع الخطّ وأنا أنتظر. لأعود فأجرّبه بعد ربع ساعة وأسمع صوت زمزم أخبرها عن أمر سفري وأحاول أن أطمئنها وأنا أسمع ردّة فعلها العصبيّة والخائفة، أعدها بأن لا أتأخر، وبأن تبلغ حبّي لجدّتي مؤكدة لها أني لن أسافر إلى أمريكا، وأنهيت مكالمتي قائلة: «اي روحية تقفل البيت بالمفتاح وبتعطيه لفضيلة، وفضيلة بتعطيه لعلي. البيت كثير منيح نضيف ومرتّب والحديقة عال».

ولم ابتدئ بإعداد حقيبتي إلا عندما عاد جواد. كنت أختار الكثير ثم القليل وأتخبّط في الحيرة وأسأل روحية، وأسأل فضيلة التي أرادت أن ترسل رسالة إلى أمّي وأخرى إلى ريكاردو، وكان جواد يفضّل ملابس الارتيزانا والقفاطين الشرقيه وملابس جدّتي، يقول عن ما هو عصريّ: بطّل عالموضة أو اللون مش حلو أو أوكازيون النايلون». ومن حولي تجمّعت تلال الملابس ألوانها تدعوني تجعلني أفضّلها على غيرها. لكن الذكريات التي ترافقها كانت تحثّني أن لا اتركها. أتلفّت حولي وأتخبّط. أنا فعلاً مسافرة اترك كلّ هذا، وأخذ بعض هذا وأسافر، أجدني أتمنّى لو أعدل عن السفر. فأنا أشتاق لكلّ ما أراه. وأريد أن أبقي كلّ شيء على حاله. كأنّي أردت أن آخذ كلّ ما أملكه حتى من الملابس التي كنت وضعتها في أكياس والتي لا أرتديها بل أشعر بالحنين لها. ولم تكن

الملابس فقط التي اشتهيت أن ترافقني بل أشياء أخرى: من صحن سيكاره، إلى صورة وبعض أشياء جدّتي، من بينها علبة بودرة فارغة. بل أردت أن آخذ جدّتي معي. ثم أجدني أدور كالكلب الذي أراد اللحاق بذنبه فجأة، أدور حول نفسي وألمس الأشياء وأتركها وأعود فألمس غيرها. كانت الأشياء الجامده تأخذني إلى أمّي وإلى إسعاف وإلى والدي وإلى طفولتي حيث في ذهني صورة لطائرة في الجوّ وكأنّها قلم برتقالي يخطّ على السماء الزرقاء خطاً سرعان ما يمّحي. كيف تحتوي حقيبة سفري كلّ هذا؟ كيف أترك كلّ هذا. بدوت كقطّة في سوق السمك من اشتمامي للرائحة النافذة تاهت حواسي. لم أعرف من أين أبدأ وأنا أحاول أن أحزم متاعي. أريد هذه الغرسة. كيف أحزم شقوق السقف التي كانت تريني ظلالاً وأشكالاً؟ بعد أن ظننت أنّي أعددت حقيبتي وأعددت بالتالي نفسي. اكتشفت أنّي كلّما أزلت عثرة من طريق سفري أقلقتني عادت فنبتت عثرة أخرى. وها أنا أفكّر بأنّ جواد سيُخطف في الغد. لأنّه يحمل جواز سفر فرنسياً. ولأنّه قد حقّق معه ونحن في طريقنا إلى بيروت عائدين من الضيعة. لما أطلعته على هواجسي قرّبني منه يطمئنني ويحيطني بذراعيه ويسألني وكأنّي طفلة صغيرة يعرف أنّها لن تستوعب سؤاله إذ أنّها محاطة بوسائل اللهو من كلّ صوب.

«كيف عشت كلّ هالسنين وما خفت»

«كنت أفكّر أني طرف في الحرب شاهده بغبطة أو حزن على من يدخلها ومن ينتصر ومن يتقهقر. كالمقاتل الذي لا يخاف من الرصاص المنهمر باتجاه حاجزه. أمّا الآن فإني أشعر بأنّ الطاعون قد دبّ في المدينة فجأة. وها أنا أفرّ بجلدي. يبدو أني زرعت بذرة القلق في جواد، فهو أخذ يقصّ عليّ ما حدث مبتهلاً بأن يكون أمر خطفه لساعات ترحيباً به كما قال له المحقّق، تمجيداً لأدبه، لاسمه في أوروبا والعالم. أراد لفت نظر جواد عما تبذله سوريا من أجل لبنان، وعن إجحاف اللبنانيين بحقّهم، فدمشق هي التي تفرج عن المخطوفين وهي التي تحرص على إعادة السيادة إلى لبنان وهي تعرف بمخطّط إسرائيل تجاه لبنان. قبل أن يدخل السوريون بيروت

الغربية ليوقفوا نزف الدماء بين الأحزاب. كانت المنطقة الغربية يحكمها إبليس. لم يكن أحد يتجرّأ على مدّ رأسه خارج نافذة بيته أو شرفته والآن يخرج الأجنبيّ من وكره في عزّ النهار، ومع ذلك لا ينوّه اللبنانيون بالحقيقة. بأنّ سوريا قد أعادت لهم نسيم الحرية. «باختصار طلبوا أن أكتب هذا الكلام..».

«يعني بدّه ياك تكون من أتباعهم والسلام».

«مضبوط، جاوبت الضابط ولو كلّ شيء عم تعملوه كرمال سواد عيوننا. كلّ هالشيء مشان عيون اللبنانيه وحبّكم باللبنانية؟ القضايا السياسة والمحليّة والعالميّة.. أين..».

حيرتي تجاه ما يقوله جعلتني لا أعلّق بل أشرد. ومع ذلك اقترب جواد منّي بوجهه يريد شفتي وأنا أفكّر بأنّنا ربما لن نسافر في الغد. كنت آخر من يريد شفتيه، كانت شفتا علي هما اللتان أودّ أن أسمعهما تردّان عليّ وتعدانني بأنّه سيأخذنا إلى المطار بعد أن اتّصلت به وتركت له خبراً. فأنا لا أعرف مدى نفوذ أصدقاء موسى في المطار. همست لجواد وأنا أتململ حتى آخذ نفساً، تماماً كالحيتان التي وجدت نفسها في بحيرة من جليد ذات ثقب صغير لتتنفّس منه: «عقلي مش معي».

رغم أنّه همس بدوره: «وأنا كمان». إلاّ أنّه وضع يده فوق صدري، ثم أمال رأسه فوقه، ثم استرق النظر إلى ثديي من خلال فتحة القميص وكأنّه لصّ. وقال إني أملك صدراً جميلاً ثم بصوت منخفض أضاف أن حلمته تذكّره بحلمات نساء عائلته. انها واسعة وزهرية. سألته إذا كان يسترق النظر إليهن؟ أجاب بصوت منخفض: «كيف عرفتِ».

قال إنّ أمه أرضعته طيلة خمس سنوات لأنّه كان نهماً. كان ينادي أمّه إذا كانت تجلس في الدار مع الأخريات ويشير إلى صدرها ثم إلى غرفته وإذا بي أشدّه وأقبّله بنهم وأقول له: «من وين جيتني بهاالآخرة؟».

لبثنا صامتين لفترة تتناوبنا مئات من الأفكار العتمه، تتكاثر ثم

تنجلي كفقاعات من الصابون. ويبدو انه استسلم لنوم خفيف. إذ أصبحت أسمع أنفاسه الخفيفة المنتظمة. انسحبت على مهل أخرج من غرفة جدّي، كانت روحية ممدّدة على الكنبه. تدخن سيكارة وما إن سمعت وقع خطواتي حتى بادرتني: «ولكم ما بتشبعوش من بعض، والله غلطانين والله بدّو ياك يللا يطلبك من ستّك وجدّك هلّق قبل بكره. أوعى تكوني المصّاصة يمصّ عافيتها ثم يرميها». اكتفيت بالابتسام وأنا أفهم أنها رغم تطوّرها عن كل نساء الضيعة وحتى عن الكثير ممن هنّ في قلب بيروت، فإنها لاتزال روحية التي عاشت في فكرة أنّ «الرجال ملهومش أمان» قصدت معي بيت الجيران بعد أن حثّتني لأتّصل بعلي من جديد فهي لا تتصوّر أنّ موسى ابن فضيلة لديه معارف يعتمد المرء عليهم في المطار، وهي تودّ أن تطمئن على جواد إلى أن تقلع الطائرة وتراها في الجوّ. بعيده عن سماء بيروت. أمسكت بالمفتاح وبغرسة الفلّة وخرجنا بهدوء دققنا باب الجيران لنسمع صوتاً ينادي: «مين؟» لتجيب روحية بصوت ساخر ومنخفض: «أبو أمين عندكم بصّة نار».

لكن رفعت صوتي: «أنا أسمهان الجارة».

وفتح الباب بسرعة لتتجمّع عائلة جيراننا من كبيرهم إلى صغيرهم عند الباب. أودع عندها الفلّة ريثما تعود جدّتي وأنا أشعر بالحنين فجأة وعيني تدور في الغرفة أرى عبر زجاجها جدار بيتنا وإحدى شجيرات حديقتنا وأعين الصغار الجريئة مفتوحه تتأمّلني بكلّ حبّ..

وجودي كان مهمّاً في فترة ماء، كنت أساعدهم على تأمين الضروريات اليوميّة من غاز وماء وخبز وأطباء حتى بالمواصلات. مع ذلك لم يكونوا ينسبونني إلى أي جهة. عاد الزوج والصبيان إلى الشرفة المعتمة. أسمع صياح الأولاد مع أولاد البناية المقابلة وهم يتحارجون يتّفقون على تبادل الرصاص وقطع الشظايا. تماماً كما كنّا نتبادل الطوابع وديدان الحرير. بينما أسمع الأب يؤدّي النصائح إلى قريبه الشابّ مطوّلاً باله على تمرّد الآخر آتياً على ذكر أفراد العائلة وقصصهم: «العائلة هي أهمّ شيء أوعى تفكّر غير شكل. إذا

الواحد فكّر بحالو وفكّر شو عم يصير برّه ضاع وضيّع حالو وغيرو».

خافت روحية أن أكون قد نسيت سبب دخولنا بيت الجيران. فنبهتني قائله: «وعلي؟ نسيت علي؟ سألت الجارة: «فيني أعمل تلفون؟»».

أجابت: «تكرم عيونك» وهي تتّجه إلينا. سرنا خلفها، نقصده وكأنّه شخص علينا تأدية احترامنا وواجبنا تجاهه. من العجب أنّه مازال يُصدر صوتاً ورنيناً ولدهشتي أجاب: «طبعاً عرفت» ثم يخبرني بأنّه هو الذي توسّط لموسى من أجل التأشيرة الفرنسية، وبأنّه سوف ينتقم من فضيلة في القريب العاجل وبأن موسى لا يستاهل قرش منّي.

فرحت لأنّ الوسائط لم تزل تأتي من الداخل لا من الخارج ولأنّي لم أعط موسى مكافأته بعد. ثم كمشت نفسي متلبّسه بصفة البخل. وعدم العرفان بالجميل. خاصه أنّ التنافس كان من جهة موسى فقط.

قال جواد: «بُكرَا مثل هالوقت منكون بباريس، يمكن تكون الدنيا عم تشتّي. بتذكر قبل ما إجي هالمرّة علبنان قلت قبل بليلة وأنا عم نام مثل هلّق بكون بالضيعة عند روحية، وما صدّقت إلاّ لمّا ليلتها عقصتني برغشة».

«لا أفكّر بالغد أو بليلة الغد وأين سوف أكون، بل أشعر وكأنّي داخل محرّك سيارة يضجّ وكل آلة تضغط على الأخرى حتى تتحرّك وتحرّك سواها. باريس بعيدة لا تهمّني. يبدو أنّ عدم تحدّثي فسّره جواد على شكل آخر، إذ سألني «عم تفكري إذا بكره بالليل راح نكون مع بعض مثل هلّق؟ يمكن صعب» أنفي بسرعة: «أبداً، أبداً» وعيت بأنّنا حتماً لن نبات معاً في الليل. ولم يزعجني هذا واستغربت من عدم انزعاجي وتساءلت ربّما لا أحبّه بل إنه وسيلتي للسفر».

يكمل هامساً: «ما بدّي أصدمها من أوّل ليلة» صوته لا وقع

جملته عليّ هو الذي جعلني أتراجع عن فكرة بأني ربما لم أعد أحبّه. لم أنم، ربما نمت كالأرنب البرّي الذي ينام وعيناه مفتوحتان، وحلمت بأنّي في مقهى الجامعة، وجواد قبالي، رأيت وجوهاً لم تخطر على بالي من قبل لأشخاص كنت أراهم ولا بدّ أنّهم رحلوا عن بيروت من زمان: المصوّر، صاحب محلّ الأسطوانات، الحلاّق، أستاذ الجامعة. صيدلي كان يبيعني الكريمات لتغذية رموش الأعين، وكريم آخر كان يعدّه لصديقتي إيمان حتى لا يتهدّل صدرها. ثم رأيت وفاء التي كانت تداوم في الجامعة ونراها في المقاهي وتحت الشجيرات وأثناء الامتحانات. لنعرف أنّها لم تكن مسجلة بالجامع، كلّنا نبكي في المقهى ونتبادل القبل. رغم أنّ هذا الحلم أخافني فإنّني لم أعد أفكّر به لحظة أو أتلوه كما هي عادتي. إذ دخلت لعبة السفر لأكتشف أنّ التي أيقظتني كانت هي دقّات قلبي. ما إن لمس النور أجفاني حتى وجدتني أسرع وألبس داخل الحمّام وأسرح شعري بينما يحضّر جواد نفسه على مهل. أصوات روحية وفضيلة تجعلني أستفقد جواز سفري، تذكرة السفر، رقم تلفون أمّي، تلفون حياة، الحقيبة. استفقد عقلي. أدور في البيت. أترك ورائي الأشياء التي أريدها. كأنّ زمزم سوف تجمعها من خلفي، عندما ألمح فرشاة أسناني التي لا بدّ أنّي وضعتها على الطاولة ريثما أفتح الباب عرفت أن عليّ أن أركّز كلّ أفكاري وأضع كلّ شيء في حقيبتي للتوّ. لأنّ الوقت يجري منّي وبأنّي سوف أبتعد عن هذا البيت بعد قليل. وعندما نزلت السلالم لم أشعر بأني لن أعود. أراه عندما دخلت السيّارة لم أشعر بأنّي مسافرة. عندما ودّعت جيراننا بتلويح يدي لم أشعر بغصّة كما توهّمت قبلاً، لم أهتم لسماعي أدعية روحية الخاصة بالسفر. قبلات فضيلة لم تترك أثراً على وجنتي. واستلامي لرسائل من موسى حتى أودعها في بريد باريس جعلتني أفكّر لا بدّ أنّه يحلم. فأنا لم أتصوّر أصابعي تلصق عليها الطوابع، ولا يدي تدخلها في صندوق البريد في باريس. لكن ابتدأ شعوري بأني مسافرة عندما رأيت أحياء نسيت أنّها موجوده، وأبنية كانت عالقه في الذاكرة وقد تشوّهت فأصبحت خربة، والصنوبر المحروق

والتحف القبيحة وباعة الخضر. ليعود يختفي الشعور بالسفر أمام الحواجز. الحاجز الأوّل هو للاطّلاع على حقائب السفر. يسرّ علي بإذنهم شيئاً ثم يريهم بطاقة. عندما يبتسم لنا الجندي ويقدّم لكلّ منّا لوحاً من الشوكولا يقول علي: «أوّل مبارح كانو عم يعطوا موز».

يلوح المطار من بعيد، بلونه المدموغ في الذاكرة، بساعته المألوفة التي فقدت كلّ عقاربها وبدت كأنّها حشرةٌ ميتة علقت على الحائط. أطلال من الاسمنت؟ أم انها جسور من باطون مقطوعة. تتوقّف السيّارات الكثيرة بعيداً. تفرغ حمولتها من الحقائب والمسافرين والمودّعين.

يصيح عليّ بروحية، لأنها أتت معنا وهو يريد أن يدخل معنا إلى الأمن العام ثم الجمارك.

ولم تجبه روحية بل عانقت جواد عناقاً شديداً وضحكت وهي تبكي وشتمته وهي تمسح دموعها وقرصته في وجنتيه وعادت تعانقه وتناديه: «يا حبيب الفؤاد» وضمّتني إلى صدرها، ولم تتركني إلاّ عندما أزحت نفسي عنها. يوقف علي السياره، ثم يحمل حقيبتي بينما يحمل جواد حقيبته. انتهى علي بدفش الرجال والصغار الذين أرادوا الاستنفاع إمّا بالدّعاء بسلامة سفرنا أو بمحاولة أخذ حقيبة جواد من يده بينما كان قلبي مع جواز سفر جواد الذي أمسكه جندي قبل أن يعيده إلى علي قائلاً: «مع السلامة» ولم تفتح حقائبنا «لأنّ المال عرف طريقه إلى الأيدي» وعلي يعرف الجميع.

المطار يئنّ من الوحدة، رغم الجموع، البلاط الوسخ واللافتات المعلّقة. مجموعات سياحية، جميع الاتجاهات قسم من الكلمات في الأجنبية. المسافرون من غير حقائب ايروفلوت. انترفلوك. ك.ل.م عاليه. البلغارية، الجوية البريطانية، اير فرانس. بان اميركان.

كلّ هذه كانت موجوده قبل الحرب تنادي ونحن لا نراها، لا نحتاجها إذ كانت تمتّ إلى عالم آخر. لا يمتّ لنا بصلة، عالم متّصل بالعوالم الأخرى وعالمنا كان في لبنان وفي بيروت بالذات. أمامنا الآن صفوف المسافرين طويلة، بل تجمّعات المسافرين مع حقائبهم

وأولادهم. كان علينا أن نفتح حقائبنا رغم أنّ عليّ أسرّ في أذن الجندي اللبناني شيئاً لكنّ الجندي اللبناني أشار إلى جندي سوريّ ثم أمسك بقميصه. ينفضه كمن يقول: «ما عندي علاقة» ليتفقّد حقائبنا ويدسّ بيده الخبز المرقوق وكيس الصعتر حتى مجمع الحلاوة. قبل أن يردّد: «مع السلامة» ثم أخذ الجندي السوري جواز سفرنا ثم أعاده لنا قائلاً: «ليش مع بعض؟» أجبت: «قرايب». ثم وقفنا في معمعة فوضى الشنط والناس وصياح فضيلة وروحية اللتين وقفتا مع موسى خلف الحاجز الحديد كبقية المودعين الذين دخلوا بإذن خاصّ. يقف المودّعون وراء الحديد الأصفر والزجاج وكأنّهم ينتظرون أن تدار عليهم مأكولات الإغاثة خاصّة الماء. حتى ترطّب الشفاه وتجد طريقها إلى القلب، فتسنده. لم يعد المسافر مسافر ما قبل الحرب للسياحة، للزيارة أو حتى للعمل المؤقّت. والمهاجر لم يعد مهاجراً كما في الماضي. هو الآن راحل ليبتدئ باسم جديد. بعقل جديد حتى بجسم جديد. انه كمن يصبح دخاناً قبل أن يدخل في قمقم الجان وليختفي في بلاد بعيدة، والمودع الواقف يشعر بحرقة وبغيرة في آن وبضياع إزاء المسافر الذي قد نسي من أمره حتى وهو مازال في المطار وانصرف عند إظهار العاطفة بانهماكه في تدبير الحقائب ومعاملات السفر.

أرض المطار التي كانت بلون السكّر وطالما كانت تذكر بهندسة الستينات، أصبحت ذات بقع سوداء، كأنّ معامل تكرير الزيوت والنفط أقيمت فوقها. أعقاب السكائر أينما كان. كأنّ الأرض هي منفضة واسعة. كان دخان السكائر قد اعتلى الجدران ولم يفارقها. هل يحتاج الإنسان إلى أن يكون وسط الطبيعة ولا يحتاج إلى النّور والديكور من حوله حتى يبدو هو مقبولاً، منسجماً مع نفسه وما حوله؟ لا كهرباء في المطار، السقف المنخفض لم يكن من الاسمنت، بل مربّعات بلاستيك. قلعت بعض مربّعاتها. كأنّ المهندس الذي وضع هندسته عرف بأنّه سيكون مطاراً مؤقّتاً. على حائط فقير. صورة رجل من غير اسم. من غير لقب. فقط الأرزة هي التي تشير إلى من هو. كانت صور رؤساء جمهورية لبنان تؤثّر على من يراها.

وتحفر نفسها في الذاكرة، ربّما للنيشان الذي كان يشقّ الصدر كأنّه يوحي بالحزم والقوّة، صور حافظ الأسد أينما كان وتحتها اسمه. أراد عليّ لفت انتباه جواد بأنّنا عند الدرجة الأولى ثم تراجع قائلاً: «يللا هلّق عندي واسطة. أنا بدبر».

لكن جواد أصرّ على أن يدفع لي الفرق حتى أطير معه. ثم التفت إلى حيث روحية وفضيلة وموسى وقال: «بس ما تنتبه روحية وإلاّ بصير عندها نوبة قلبيّة». عندما علمت روحية بأنّ جواد يسافر درجة أولى توسّلت إليه أن يطير درجة سياحيّة ويمنحها الفرق. ثم انتبه جواد أنّه يضع السمكة في فم القطة، توسّل لعلي أن لا يفتح الموضوع أمامها.

ضحك علي فرحاً لأنّ جواد يفهمه جيّداً وقال: «ولا يهمك» ثم نظر إلى حيث تقف روحية وأشار إلى لافتة الدرجة الأولى، لكنها لم تفهم وحاولت الاستفهام رغم ضحكهم. المطار كأنه قدر تغلي بحبّات الذرة: رؤوس تعلو، رؤوس تنحني، الضجيج على قدم وساق. ودّعنا علي عندما دخلنا إلى الأمن العام رغم أنّه بقي واقفاً ينتظرنا. تقدّمنا من أمن الجوازات، قلبي يغوص من جديد. عندما أعطى جواد جواز سفره للجندي السوريّ في اللباس المدنيّ: «جواد مولود في... وفرنسي». أجاب جواد ضاحكاً: «شو بدنا نعمل عطونا الجنسيه والباسبور منقول لا؟». ثم أخذ الجندي جواز سفري ونظر في وجهي «شعرك هلّق أحلى يا صبية». وكان شعري في الصورة قصيراً. أشرنا بيدنا إلى علي ثم إلى روحية وفضيلة وموسى قبل أن نختفي عنهم.

عندما دخلنا صالة الانتظار انكمشت. اعتدت على العتمة في البيوت لا في المطار. ثريا تتدلى من السقف كانت من الزجاج الأزرق المنفوخ الذي يذكر بفندق الفينسيا. بلون البحر والصفاء. كأنّي التقي باللبنانيين وجهاً لوجه لأوّل مرّة. كان المطار هو ميزان أشعّة. السفر يفضح المسافر ويبدو الإنسان على حاله. بلا جوانب. لذلك اكتشف الآن كم أنّ اللبنانيين قصيرو القامة. ربما لذلك صمّم المهندس هذا السقف المنخفض الذي يكاد يطبق على الرؤوس

المنتصبة. هذا البلد عادي. لا حرب فيه. إنما بلد فقير. يختلط العجائز والشباب والأطفال مع طاولات الستانليس ستيل العتيقة وطفايات السكائر التي هي من الستانليس ستيل أيضاً. سنوات طويلة مرّت على هذه السجادة الخضراء الزرقاء ذات الثقوب الكبيرة والصغيرة «قهوة ساده، أي سادة. من غير سكّر».

سمعنا مواء ولم نعره أيّ اهتمام، نتّجه إلى الدكّان المعفيّ من الضرائب وكأنّه في بلد في مجاهل الأرض. كل ما هو معروض بدا قديماً. توقفنا عند دكان الأرتيزانا التي بدت في عتمة المطار واحة في صحراء. اشترى جواد حمالات للمفاتيح تنتهي بأعين زرقاء. عدنا إلى صالة الانتظار. قطّة وأولادها كمكبات صوف تلعب تحت الكراسي وفوقها تلاعب أمها وتسحب من قشّ المقاعد المهترئة. طفلة تلعب مع إحدى القطط التي هي بحجم الكفّ، ثم تلتفت حواليها قبل أن تضعها في حقيبة يد كانت قرب أهلها، ثم تقفل عليها وتسير عليها قليلاً قبل أن تعيدها يد الأم وتفتح الحقيبة بيد وتصفع البنت باليد الأخرى بينما تفرّ القطّة وتعدو هاربة كالمجنونة بعينيها اللتين أصيبتا بالحول. لم أسترخ، شيء ما كان يقلقني ولم أعرف مصدره، بل أشعر كأنّي في مطار موسكو وبأنّه سمح لي أخيراً بالسفر، وبأنّي أترقّب ركوب الطائرة بين لحظة وأخرى وأترقّب أيضاً منعي بين لحظة وأخرى. شيء أبيض يقترب الهاني عن نفسي، لعبة كبيرة محمرة الوجنتين والشفتين تقترب. إنّها من بني آدم، عروس في بذله عرس بيضاء طويلة وعلى رأسها الطرحة. لم تكن تنظر إلى أحد، بل إلى حقيبة يد كبيرة يمسكها لها موظف في المطار. تجلس العروس وتقرب الحقيبه من حذائها الأبيض ذي الكعب العالي. تعبق الرطوبة والحر من كثرة الزحام ومن دخان السجائر، استحوذت العروس على كلّ اهتمامنا وقلت: «يا حرام راح تفطس» وأنا أراها تهوّي وجهها بجزدان من البلاستيك تناولته من حقيبتها. قال جواد: «دائماً أنت سلبيّة. هي مبسوطة. الكلّ يهتم بها ويطلع عليها. انا ندمان جبتك معي، في أحلى منها انك تنزلي بمطار شارل ديغول بها البدله البيضاء؟»

ضايقني مزاحه رغم أنه أضحكني أيضاً: «شو هي خروف طبعو عليه دمغة الذبح. يعني ضروري الكل يعرف انها عذراء ورايحة عند خطيبها، اللي راح يصير زوجها اليوم هي الطاهرة الشريفة لابسة أبيض. وهالمكياج على وجهها مثل كأنها بعيد البربارة».

«كل شي بتاخديه بشكل شخصي. هي حرّة، العالم حر. ونحن حرّين بدنا نتفرّج» ثم فتح حقيبته يخرج منها فيلماً يعبّئه في الكاميرا.

الطائرات تتأخّر عند الاقلاع وعند الهبوط. تعالت تنهدات في الصالة. الحرّ يزداد والعروس أصبحت ميزان الحرارة الجوّي.

الغرسون في البدلة السوداء وإن كانت قديمة، ينحني يجمع الكؤوس الفارغة، يضع البقشيش في جيبه يأخذ الطلبات، يقول بالفرنسية مرسي، أو بردون بكل أدب. لماذا أنا هنا أنتظر موعد إقلاع الطائرة؟ لماذا أريد حياة أخرى. بينما الحياة من حولي والضحكات والمسافرون وبرج المراقبه يعجّ بالموظّفين وموظفي شركات الطيران هنا وهناك. طائرات تحطّ، طائرات تقلع، والغرسون يعود فيضع الطلبات بكلّ تأنّ وأدب.

أقول لجواد: «هل تصدّق قبل شهر ونصف كان في معارك وقصص، شوف الدنيا شو عاديّة طبيعية؟ المسافرين من حولك لا يشبهوا أي مسافرين بأي بلد. صاروا أغراب ببلدهم. شوفي كيف عم يشتروا وكيف عم يحكوا كأنّهم سواح. عم يحكوا كمان بالأجنبي مع الأولاد. بكلّ البلاد المسافرين بيستمدّوا من الآخرين ألفة، بيصيروا كأنّهم ينتموا إلى ناد واحد إلى أن يصيروا بالبلد اللي رايحين عليه، إلاّ هون. شو في كل واحد عم يتضايق وينتقد الثاني».

أفكّر: «في الملاجئ في البنايات أثناء الضرب هم في نادٍ واحد. لا بدّ أنّهم يصبحون في ناد واحد في الخارج أيضاً. كما كنت أرى عند باب كنيسة الأشوريين في منطقة الحدث، كان يجتمع عند بابها

العجائز والشباب والأطفال، والكلّ يبدو وجهاً واحداً أو قامة واحدة. وحركات واحدة. لكن رأيت اللبنانيين صورة واحدة، قامّة واحدة عبر نشرة الأخبار التلفزيونية. عندما وصلت الباخرة إلى قبرص كان باستقبالهم جميعة نسائية قبرصية، شعارها التضامن مع الشعب اللبناني. رأيت العيون الدامعة واحدة والأفواه واحدة. عندما فرقت عليهم الحلوى والمشروب ازددت غضباً ووجدتني ألومهم وأنا مسترخية على الكنبه أشاهد نشرة الأخبار، أتساءل لماذا هم ليسوا مثلي في بيوتهم الآن أو في بيوت أقاربهم أو أصدقائهم أو في بيوت احتلّوها، بدلاً من هذه الدموع أمام الباخرة التي أقلّتهم ولم تزل تهتزّ في البحر الهائج.

باقتراب جواد منّي تقترب الدنيا الأخرى التي لا بدّ أنّي مشرفة عليها. هو الطعم الدافئ الذي جرّني من كسلي المتخدِّر، من النعومة التي ترافق أيّامي الهادئة من حالة اللاشيء يهمّ إلى هذا الكرسيّ في المطار حيث أنا متوثّبة أتفقّد جواز سفري من وقت لآخر، أنصت إلى نداء الطائرات، أحاول أن أرسم صورة للحياة التي سأتبعها. وكلّما ابتدأت بالتفكير بأنّي أنهض في الصباح في غير هذه البلاد وبأنّي أحتاج إلى النشاط الجسماني من أجل الاعتياد على نمط حياة آخر، أغوص في الكرسي من جديد. لن أرى أحداً قبل أن أشتري الملابس وأذهب إلى الحلاّق. لن أغادر البيت قبل يومين. أودّ أن أتأقلم في الجوّ الفرنسي. هل سيتوفّر لي سرير في البداية، هل ستستقبلنا كاترين أم أنّنا سنصل في الساعات الأولى من الصباح؟ هل سأنزل في فندق أو أنهما سوف يأخذانني إلى بيتهم ويدخلان غرفة نومهما، يتركانني أشدّ على أسناني، وهما يتمنّيان لي ليلة سعيدة، بعد أن يتصدّقا عليّ بحرام صوفي؟ سوف أتمدّد على الكنبة وأحاول البكاء، لكن التعب سيجعلني أغمض عيني مستأنسة لأفكاري التي ستوحي لي بهذا الموّال:

أوف أوف أوف

جبتني عفرنسا وجبتني

ومشان هالبرصه فتتني

وبردانة عالكنبايه تركتني

اسألها شو عم غنّي وشو عم قول

وبقصّ إيدي إذا هي عرفت المصيطبه من أبو الهول

والبليلة من الفول

عاد الشعور بالانتظار يهيمن عليّ وعلى جواد باختفاء العروس البيضاء، إلى أن سمعنا اسم جواد يذاع. غصت في قلبي وعرفت أنّ من الفوضى ينبع النظام والنظام يجرّ الفوضى، كيف حزروه من بين حقائب وجوازات السفر والبطاقات والأمن العام وشركة الطيران والوقت المسترخي والمستعجل؟ لماذا هذا البلد هو هكذا، يُعنى بأدقّ التفاصيل فجأة ويهمل أهمّها فجأة أخرى. هل يريدون إخافته؟ أم توديعه وحثّه على التحدّث عن السوريين ودورهم بلبنان، أم.... أم... «أستاذ جواد المسؤولين متأسّفين على هالتأخير. صالون الشرف تحت أمرك». ارتاح جواد عندما سمع هذه الجملة، لكنه وجد أنّ هذه اللفتة عبء عليه، أخذ يعتذر والمسؤول يصرّ ملمّحاً إلى أنّ هذا سوف يغيظ رجال مخابراتهم الذين انتشروا هنا وهناك.. ولكنّ جواد يردّد: «صلّي عالنبي يا خي لا صالون شرف ولا هم يحزنون والله مبسوط هون ومرتاح ومتشكّر».

رغم الجلبة التي أحدثها هذا العرض فقد فكّرت بأنّ الدنيا تتبدّل، الكتّاب يصبحون من المهمّين كالسياسيين والنجوم. أجبرونا على الدخول إلى أحد صالوني الشرف، الكنبات الجلديه المنخفضة المتشقّقة. سجادة من الغبار فوق السجادة الملوّنة، الطاولات الزجاجية وكأنّها دلقت عليها مادّة لزجة فعلّقت على سطحها. صرصار ميّت في زاوية. صالون الشرف هذا كان مختلفاً عن المخيّلة. فيه الضوء لا الصراصير وبيوت العناكب. فيه الشعور بالاستعلاء وبأنّ الوطن إنسان. باستطاعة المرء مصافحة يده. مسافرون يدخلون هذا الصالون بعد أن توسّطت من أجلهم العلاقات العامّة أو الميليشيات أو السياسيون. هذا الصالون أو

غرفة الخيبة والحسرة والتي أرتني فعلاً بأنّ ما كنت أتشبّث به هو يسبّح مثلي. ثم اكتشفنا أنّ الذي أدخلنا لم يكن اسم جواد بل واسطة من علي، إذ جاء من يقول لنا، ان علي يهدينا أحرّ السلام والوداع.

وجدنا أنفسنا نرتاح فجأة على هذه الكنبات، لن نفشّل علي. سنشرب الليموناضه ونتصرّف كما تليق بنا صالونات الشرف!

أراقب النساء بملابسهن التي تبدو وكأنّها تقليعات أوروبية. الألوان الغربية كذلك ملمس القماش، جعلني أؤكّد أنّهن يعشن في الخارج. يمتلكني شعور بالغربة والتمنّي لأن أكون في هذا الفستان أو في هذه البلوزة أو أني أنتعل هذا الصندال كأنّي أقف وجهاً لوجه أمام الحياة في العالم الخارجي، والتي دخلت عصراً جديداً من دوني.

يصرّ جواد على أن نعود إلى صالة الانتظار العادية. بعد أن خجل من كثرة استفهامه للموظّف عن وقت اقلاع طائرتنا وها هو يريد أن يسأل غيره.

خليط من الناس في صالة الانتظار الأخيرة، حيث البوسطات تنقل المسافرين إلى الطائرات. بدا كلّ شيء بعيداً. لا لون له. ولم تكن السماء زرقاء. بل رماديه تغلّفها طبقة من الضباب. الجبال ممتدّة، تلال من الرمل الأحمر لا يذكر جواد أنّها كانت بهذا الاحمرار وبهذا الجمال.

أشعر بكراهية تجاه جميع من أرى. لا أسمع سوى أحاديث عن التأشيرات وعن لفظة كندا، كندا، يأتي جواد وينقل إليّ أخبار من تحدّث معهم. يشير إلى الرجل البارز الصدر يقول أنّه سيهرب من ديترويت إلى كندا. أخوه سبقه في الهرب إلى سويسرا عن طريق إيطاليا والآن يعمل «غرسوناً» في مطعم. هاجر. يهاجر. هجرة. لا أنظر إلى هذه الهجرة بنظرة رومانسية. معظمهم يهاجر سعياً وراء العمل والرزق، لا من أجل الارتياح من العنف: «ليست هذه الهجرة كما اعتدنا على قراءتها في التاريخ والتي نراها في الأفلام الوثائقية

حيث الوجوه الهاربة من أزيز الطائرات. الوجوه البائسة من المجاعة وهي تتدفّق على البواخر وعلى الطرقات. هجرتنا نحن مختلفة. نعد الحقائب نقفل منازلنا. نحجز الأماكن في الطائرات والقمرات في البواخر. لم تكن الطريقة التي يهاجر بها اللبنانيون والقيّمون فيه هي التي تدعو إلى التعجّب من قبل العالم. بل الأماكن التي كانوا يهاجرون إليها. فاليساري الذي أصبح مواطناً تحت قيد التجربة في أميركا اختارها مكرهاً لأنّ البلاد العربية لم تعد تسمح لليساري بالدخول إليها. بينما المثقّف رضي أن يعيش في بلاد الخليج التي طالما انتقد حياتها وشعوبها وحكامها. أقف على حجر يزلزل من تحت قدمي. أخاف من هذين العجوزين الضائعين لأنّي أشبههما. إنهما يتكلّمان بقلق وبصوت عال وأنا بصوت خافت. سوف يلقيان بهمومهما على ولدهما الذي ينتظرهما هناك. وأنا سوف أحتمي بجواد الذي يأخذ أمر تركي بيروت بصورة بسيطة. طبيعية. سوف ألقي بنفسي عليه ولو لأيّام. فأنا منذ أن وعيت لم ألقها على أحد سوى على إسعاف بينما اعتدت على تلقّي أثقال الآخرين. كان يسعدني هذا. شعوري الآن إزاء الاعتماد على جواد كأنّي أتعرّى من ملابسي. ولم يكن شعور العراء هذا منعشاً بل وكأنّي أحمل جسماً خفيفاً فارغاً من أعضاء داخلية متشابكة. يطير ويتفتت عندما تهبّ عليه نسمة هواء.

لم يكن المقعد هنا مريحاً، والحرّ يلصق ملابسي بجلد الكرسي المشقّق المهترئ عندما أخذت أفكّر جدّياً بكيفية العيش في فرنسا. شعرت أنّي كنت في حلم أخذت أخرج منه شيئاً فشيئاً. ماذا أفعل هناك؟ هل يكفي أن يقول لي: «ما تخافي الأمور بتدبّر» هل سيبحث لي عن عمل مملّ في إحدى المؤسسات العربية الفرنسية؟ سأتّكل عليه في البداية اتكالاً شاملاً. معناه أنني سأبالي حتى باللقمة التي سوف تمتدّ يدي إلى تناولها. لماذا آمن أهلي بالأراضي والأملاك بدلاً من المال بين الأصابع؟ ووجدتني أستحضر ما حدث لصديقتي الرسّامة عندما وصلت إلى الولايات المتّحدة، إبان الحرب. لتعمل وتنتسب إلى الجامعة. الطموح لأن تعيش وحيدة جعلها تشارك

طالبة أخرى في غرفة رطبة في شارع تكاد حيطانه تتداعى من كثرة ما سمعت من بؤس وفقر وعنف. اكتشفت أن في الغربة تعدّ الأشياء والحاجيات كأنّها خلقت مع الشخص ووجدت مع جدران البيت. حتى شرب الماء كان يكلّف ثمنه. وكيس الشاي يستعمل أكثر من مرّة. لذلك لم تجد صديقتي بداً من الانتقال بعد أشهر إلى شقيقتها في ولاية أخرى حتى يتسنّى لها أن تشرب الماء من غير ثمن لتكتشف أنّ النوم عند أختها كان له ثمن. إذ انتقدتها لهذا النوم العميق الذي كان يمتدّ حتى الساعة العاشرة صباحاً. تحجّجت صديقتي أنها لم تكن تنام في بيروت من جرّاء صدى المعارك. والانتقال إلى الملجأ. بينما في الحقيقة كانت تتذرّع بالنوم والبقاء في فراشها لتحاول لملمة شتات نفسها ونسيان ما خلّفته وراءها من دمار وخيبة أمل وسط أصوات التلفزيون الأميركي وقنواته العشرين. ولأنّ صديقتي لم تستأنس بالأسواق المسقوفة ولا بمراقبة ابن أختها وهو يلعب الكرة. ولا بزيارة الجارة وجّهت اختها لها اللوم وهي تصفها بحبّ الذات. بينما فكّرت صديقتي أين هي ذاتي حتى أحبّها أو أكرهها. لتنهض صباح ذات يوم على طرقات خشب كان زوج أختها يصنع لها طاولة. فرحت صديقتي. ستكون هذه الطاولة لتعاود الرسم من جديد رغم هذه الحديقة التي لا تذكر سوى بالشيخوخه وبالوحدة. إذ من على جانبيها كانت ترى العجائز الأميركيين يقومون بتشذيب حشيشها الأخضر ببطء لكن فرحتها لأن أختها وزوج أختها أدركا أخيراً ما تعانيه، وها هما يحاولان أن يعيداها إلى فنّها الذي رغم حبّها له لم تعد تمارسه هنا. ولم تتم فرحتها، إذ اكتشفت أنّ هذه الطاولة صنعت لها حتى تصبح واقعية على حدّ قول شقيقتها وتقوم بخبز المناقيش والفطائر بالسبانخ أسوة بالجارات المكسيكيات اللواتي كنّ يحضرن التورتيا ليعرضنها للبيع صباح كل سبت.

ينظر جواد إلى ساعته بقلق: «هلّق ست بدور بتكون قلقانة». أبتسم له وأنا أتساءل كيف يستطيع هو أن يحبّ امرأتين في وقت واحد؟ هل كنت رضيت بهذا لو لم أكن عملة تخطّاها الزمن ولم تعد

تتداول لكنها موجودة، على ورقها طبعت الآثار الجميلة، التي تحمل ماضياً لا يستطيع نفيه أحد. أتيت بمرآة حقيبة يدي. أتأمّل وجهي وأعدل عن وصفي لنفسي بالعملة القديمة.

أخذت أشعر بتعب يمتدّ إلى مفاصلي. أضبط نفسي وأنا أتمنّى لو أنّي في سريري أو في البيت متمدّدة بارتياح أستمع إلى مواء قطّة الجيران. كأن التوق إلى السفر لم يعد كما كان وأنا أنتظر التأشيرة إذ وقتها كان يخالطه العناد لأنّ السفر بدا مستعصياً عليّ. لا بدّ أنّ المسافرين الذين أراهم الآن، خاصّة المرأة الشقراء، هم الذين يهدّون من عزيمتي. ولن أدعهم يفعلون هذا بي. أقنع نفسي بأني أعرف ما يتوجّب عليّ القيام به ما ان أصبح في فرنسا. سأهتمّ من جديد بنفسي، سأعمل، سأدرس حتى الكومبيوتر. سوف أجد غرفة تروق لي. أسأل جواد عن الناس الذين يعاشرهم هناك، يجيبني بأنّهم قلائل فنّانون، أفكّر بأنّي سأرفض التعرّف باللبنانيين هناك، لا أريد أن أصبح مثلهم!

عليّ أن أوقف هذا التخبّط. سفري الآن ضروريّ، فلماذا أتناسى الآن شعوري بالغربة حتى وأنا في بيتي وفي محيطي الذي كاد يصل إلى حدّ العدائية؟ ألم أبتدئ رسائلي هذه قائلة إنّني أشعر كأنّي مخطوفة. في مكان لم أعد أفهم لغته، ما الذي تبدّل حتى أخذ يتراءى لي الجميع الآن كانعاج المسالمة؟

أراه الآن يلتقط بعدسة الكاميرا وعدسة عينيه، كأنّه يصل بهذه الصورة الفوتوغرافية حياته الآن بحياته الماضية. بعد أن تبلورت له الحاسّة الجديدة زيادة على حواسه الخمس. أحدس لماذا أصبح يتمنّى هو الرحيل في هذه اللحظة. لأنّ الأوكسجين الذي سيتنفّس منه هناك يجب أن يظلّ طازجاً حيوياً، بينما التأخير في هذه القاعة سيفقده بعض خلاياه. انه كجمل يبلع ويبلع واعداً نفسه بلذّة الاجترار بعد أن ينزوي في واحة هانئة ظليلة. عندما يعود إلى فرنسا ويسدل الستائر ستتعذّر عليه معرفة أين هو إذ يعيش في الماضي وفي الكتابة عنه، عندما يعود إلى فرنسا سيسير في البرد ولا يرى سوى شموس كثيرة كثيرة تتدلّى من عناقيد العنب وأعمدة

كهربائيّة ارتبطت بنقطة ارتكاز وطائرة من ورق ملوّن ذات ذنب طويل وشخصيات نسيها لكنها تقفز أمامه كأنّها البهلوان المخبّأ في علبة. لكن حتى ولو أنّ الحرب لم تقع كان سيشعر بهذا الحنين إلى الماضي. إذن لماذا العوده إلى أماكنها إذا كانت هي في الذاكرة؟ سألته هذا ونحن في عتمة الحديقة ليجيبني: «أزورها في الجسد حتى أكتشف كم تبدلت هي وكم تبدلت أنا لدرجة أنّي لو حاولت العيش بينها لما استطعت ولما دعتني هي لكنها في الفكر تعيش معي. ومع ذلك تمنعني من أن أكمل حياتي كما أحب. إنّها لا تجعلني أهنأ. إنّها عثرة. قلت مواسية وكلّي فرح لأنّه يتعذّب قليلاً: «لكنّها سبب نجاحك؟».

أعرف أني أقطف ثمار الحرب المرّة وأكتب بلغة الغرب عن خلجات تكمن بين أحرف لغتي وبين ضميري. كلّما ازداد نجاحي كلّما أنّبني ضميري. فأنا كنت بيني وبين نفسي أبتهل لدمار هذا البلد من زمان.

وكأنّي لأوّل مرّة أرى بيروت كما هي: كره داخل كره داخل كره. ذات دهاليز وطرق تؤدّي إلى طرق وطرق تؤدّي إلى دهاليز. وأرى أنّ كلاً منّا لم يختر حياته كما اختارها جواد بل وجد نفسه مهرولاً في طريق سمحت له الظروف بالسير فيها، وبأنّ الصدف هي التي تمسك بالقلم وتخطّ لنا كيف ينزل علينا وحي تفضيل عمل على آخر. مزاج على آخر. وأعي أنّي قد وصلت إلى منتصف العمر من غير أن أنتبه، إذ الحرب أشبه بقطار سريع لم يتوقّف عند محطّة ما بين العمرين. بل ظلّ راكضاً آخذاً معه كلّ شيء.

جواد خائف من أن لا تقلع الطائرة، وأنا خائفة أن أصرّح حتّى لنفسي أنّي أودّ أن أظلّ قوت الجمل، وكلّ ما يراه هو في عدسة آلة التصوير وما يسجّله في مفكرته لا أريد أن أصبح مثله أجمع الظروف والوجوه وما يقوله غيري وكل من حولي حتى أجد معنى لشخصي وحتى أستطيع أن أهنأ بالعيش بعيداً عن هنا. لا أريد أن أخطف بلدي إلى الذاكرة. فالذكريات مهما كانت واضحة تصبح ذكرى. تطمرها الأيّام ومن ثمّ تبعثرها. مجرّد لفظ ذكرى. يعني

أيضاً التذكّر لا النسيان. بين هاتين الحالتين زوايا فارغة. أريد كلّ شيء كما هو وكما أصبح. ثم وكأنّي أفتح عيني لأوّل مرّة فأفكّر: ربما كان جواد يصرّ على أخذي معه كما أصرّت حياة من قبل، حتى أكون صلة الوصل بينه وبين وطنه حتى يقبض عليه، كأنّي مصاصة قنينة حليب يلتذّ بها الطفل بعد أن يفارقه ثدي أمّه.

ولكن ماذا عن سنين الحرب هذه التي وكأنّي برحيلي عنها تصبح هباءً؟ وإذا لم أرحل بل أصل هذه اللحظة بالسنوات الماضية. متناسية سنوات الحرب الطويلة. ستهبّ التيّارات الساخنة تلسعني سائلة: «ماذا أنجزت؟ ماذا فعلت؟. كيف عشت؟».

إنه خائف من أن لا تقلع الطائرة. وأنا خائفة من أن تقلع. خائفة من أن أصرّح لنفسي أنّي أشعر بالحزن لأنّي أريد أن ألقي سنوات الحرب هذه خلفي. كأنّي لم أكن شاهدة على الذين جاؤوا ورحلوا أو بقوا من الموارنة والدروز والشيعة والفلسطينيين والقوّات اللبنانية والسوريين والجيش اللبناني واللواء السادس والعثمانيين والفرنسيين والصليبيين والإسرائيليين تحت شعار قوات السلام من أجل الجليل. كيف يمكن أن ألقي خلفي سنوات التحمّل والانتظار والخوف والدهشة والترقّب؟ لقد جعلني ناصر أهلّل للحرب، مثلما جعلني سيمون أراها عن كثب، وها هو جواد يحاول أن يبعدني عنها. ما هو السلم؟ أسأل نفسي. أنقل حربي معي أينما كنت. كأن أذني لها مخيّلة. أسمع رشقات من الرصاص، رغم أنّ الفضاء ساكن والجبال هادئة والمطار يضجّ والفرح أينما كان. أجدني أريد العودة إلى البيت والحديقة والوجوه. الشعور الذي كان يلي المعارك. والفرح الذي كان يمتلكني لأضع ملابسي وأسرّح شعري. إذ أحاول الآن القبض على هذه اللقطة التي أفرحتني. أجدني أوثّب نفسي على ريائها، أمسكها من كتفيها، أدير وجهها إلى ما خلفته وراءها. أريها نفسها وهي تحاول أن تختبئ من أصوات المعارك، من الصوت الذي كان يعبث بشرايين الدماغ. يخنقها لدرجة أنّه كان ينبت لها فم وتأخذ بالنداء طالبةً النجدة. أجبر نفسي على رؤية نفسي وأنا في سريري والعتمه تريني الدهان الذي انقشر. الأثاث

المتراصّ فوق بعضه بعد أن أنقذته من بناية والدي. المرايا المتكسّرة، الكتب التي تعود إلى زمن بعيد. لم يعد البيت كما كان من زمان. له روح يتنفّس وينتظر. لم يعد وجوده واقعاً كوجود ملامح وجوهنا.

أجدني أغصّ لمجرّد فكرة تصديق أفكاري بأنّه ربّما كان عليّ البقاء. أنظر إلى جواد، وأشعر أنّي أودّ معانقته. أنظر إليه من جديد وإذا بالتفاصيل التي حفظتها عنه تزدحم حتى تعلق في حلقي. طبعة ذقنه. الشعرة البيضاء الوحيدة عند آخر حاجبه، العظمة الصغيرة البارزة عند صدره. كيف سأغلق عيني بعد الآن وأنام نوماً عميقاً؟ كيف أصحو من غير أن يعذّبني فقدانها. أجبر صوراً لأن تفد عليّ الآن عندما كنت في شوارع بيروت وعند المرافئ بعد أن اختفي ناصر ولم تته معالمه. كأنّه ترك آثاراً كثيرة في البنايات والشقق. ولحقت به إلى مدن البحر، عندما جلس أخيراً قبالتي كنت لم أزل أبحث عنه إذ فقداني له كان قد شطرني إلى شطرين وكان عليّ أن أجد الشطر الآخر حتى أؤمن بأنّه قبالتي. تركت يدي تمرّ على مسامه رغم أنّي لم ألمسه، أحدّق في الشعيرات الصغيرة بين حاجبيه، هذه النقطة الأرجوانيّة عند رقبته، هذه الرموش الكثيفة، هذا الضرس الكحلي، هذه اليد السمراء. هذا الرسغ الدقيق رغم قامته الطويلة. كانت كل هذه تحفزني وكأنّها يد طبيب أسنان تاهت بين السنّ واللحم. مع ذلك جلست أنظر إليها بعيدة عنها. حتى الصوت الذي كان يلامسني أصبح صداه يضرب بكأس الليموناضه، وبالذكرى. لا الصوت الذي كان يتحوّل إلى شوق عندما يقول: «حبيبتي» ولا إلى شهوة عندما يقول «مشتاق، مشتاق».

وعرفت من القلم الجديد الذي في جيب قميصه بل من لون قميصه، من تلفون اليد، من المرافق الذي صرفه، من السائق الذي أوقف سيارته، من مدّه يده إلى جيب بنطلونه، من كيفية نظرته إلى الفاتورة، ليسدّدها. من وقع سؤاله عن بيروت. وعن لفظه لكلمة مشتاق – عرفت ان ما بيننا قد انتهى وكان عليّ أن أقرّ بهذا منذ أن غادر بيروت، بل منذ أن دخل الإسرائيليون وأصبح لبنان آخر، وأصبح الفلسطينيون رأساً على عقب. واعترفت في قرارة نفسي

أني كنت على علم بأنّ كلّ ما بيننا قد انتهى لكن أردت أن أقيم جنازة ومأتماً وأبكي على الميت حتى تنعيه نفسي وأبتدئ من جديد.

يقترب جواد منّي يخبرني بضيق بأنّ الرحلة سوف تؤجّل إذا لم تقلع الطائرة في خلال ساعتين، لأنّ مطار باريس لن يستقبل الطائرة بعد ساعة معينة. ولم يتسمّر مثلي على المقعد ينتظر بل وكأنّه قد حقن بإبره منشّطة. إذ لم تعلّمه الحرب كما علمتنا أن نكون إما في حالة تأهّب، ننسى فيها كل شيء ما عدا حرصنا على الروح، وإما في حالة استمتاع نمجّد الهدوء ونستسلم له.

«تقلع الطائرة إلى...» نداء الطائرة المسافرة إلى عمّان جعله يستدرك ويسأل بحماسة: «شو منطير بأيّ طيّارة تاركة لأيّ بلد وبعدين منسافر لباريس». أجبته: «ما عندي فيزا إلا عفرنسا وصار اللبناني بحاجة إلى تأشيرة لأيّ بلد». ثم أضفت أطمئنه: «خبّروك بإلغاء الرحلة حتى لا تعود تسألهم، الشركة عم تخسر ولازم يطيروا..» وأعطيته يدي، فشعرت براحة عندما أصبحت بين كفّيه. حرارتها أخذتني من الأفكار التي كانت تتقاذفني والتي كنت من قلقها كأنّي وسط موجة تتدخل الريح في مدّها وجزرها. سخونة يديه جعلتني لا أتمنى الآن إلاّ أن أكوّن على مقربة منه، كيف سأكون على مقربة منه في فرنسا؟ يتململ، أسحب يدي، ينهض. لو كان يكتب على الجبين كلّ ما نفكّر به لقرأت الآن أنّه يتمنّى لو كان وحيداً حتى يطير مع أيّة طائرة مقلعة.

لكن إذ أدير نظري فيما حولي الآن وإذا التقت عيني حتى ببوز حذائي أعرف أنّ كلّ شيء يبدو طبيعيّاً هنا. كان حذائي يمدّني بالطمأنينة. حذائي المتوسّط الكعب الكحلي اللون يدلّ على الحياة التي أصبحت هادئة هنا. مهما حاولت أن استجلب أصوات المعارك وما ينتج عنها من خوف ووحشة ويأس أجدني أفكّر بأنّ العنف لا يمكن أن يتجدّد. وبأنّ الماضي قد مضى فعلاً وترك خلفه هذا الخدر اللذيذ الذي يكتنفني الآن مبتدئاً بأعلى قدمي. يرافقه التثاؤب المتواصل. هل باستطاعتي وأنا في هذا الهدوء والارتخاء الوقوف وإمساك حقيبة يدي والصعود إلى الباص والركوب في الطائرة.

وتحمّل مشقّة السفر وعذابه؟ أجدني أتحامل على نفسي وأنهض من قبالته، أتناول الكاميرا من بين يديه بهدوء وأضعها إلى جانبه فاسحة مكاناً لي بقربها. أمسك بيديه أحيط بهما وجهي بعد أن أخفض رأسي غير مبالية بالمطار المكتظّ وأمرّ بشفتي على باطن الكفّين أقبّلهما وأشدّهما على وجهي. أترك الدموع تجد طريقها إليّ مهما حاولت ضبطها، مهما تحاورت معها، أتركها تتساقط على يديه، وأمسحها قبل أن أواجهه وأقول له إني بدّلت رأيي وبأنّي لست مسافرة.

أرى وجهاً آخر لا يمتّ إلى حامل الكاميرا ولا إلى هذا المطار، بل يمتّ إلى الذي كنت أسير معه فوق الحجارة، الذي كان يعانقني فوق أرض بيتي. عيناه تحملان العاطفة والغضب والحيرة معاً. ثم الغضب فقط وهما تنظران إليّ وتتخطيان وجهي وكل ما يكوّنني وهو يكتفي بترديد كلمة «شو؟ شو» يتهالك على الكرسي يأخذ رأسه بين يديه ويتمتم وكأنّه طفل صغير فقد لعبته ولا يعرف سواها: «يا ربي... يا ربي... ما تطلع الطيارة قبل ما تقنعي».

لم أكن أتصور ردّة فعل كهذه، كأنّه تاه عن بالي أنّي لم أكن أشاركه بحواري مع نفسي الذي كأنّه لعبة قماش تشدّ من كلتا يديها، منذ أن بدأت الأحاسيس تلعب معي وكأنّها ظلال للأشياء تركها الضوء على السقف لتظهر كلّما اشتدّ الشعاع وتبهت ثم تغيب كلّما مرّت غيمة فوقه، وحجبته قليلاً، كأنّ جواد طوال مدّة تردّدي ونقاشي مع نفسي لم يكن إلاّ كناية عن مرافق الذي يخافون من السفر.

يقترب منّي ويمسك بيدي حتى تلامس ركبته ركبتي ويحيطني بذراعيه سائلاً «شو صار زعلانة لأني قلت هلق ست بدور بدها تجنّ؟ بدك ياني قرّر بينك وبينها! بدك نتزوّج؟ بس قوليلي؟.

أتملّص من بين ذراعيه. خجلة من الذين حولنا. ومع ذلك أستطيع أن أفرج عن ابتسامة ثم ضحكة وإن كانت عصبيّة وأهمس: «مش قادرة سافر، مش قادرة».

«من شو خيفانه، يمكن الحق عليّ ما طمّنتك بالنسبه لعيشتك، ما حكينا بالتفاصيل، كنا مشغولين بالفيزا وبابن فضيلة وبالمطار وبالعروس. دخيلك شو صار بها الثلاث ساعات؟».

يلتفت حوله، مرتبكاً، يحاول الانتباه إلى ما كانت تذيعه شركة الطيران ليستأنف حثه لي للإجابة وفي عينيه حيرة وخوف «إذا غيّرت رأيك عنّي معليش، ولا يهمّك.. لا تخلطيه بالسفر».

لا أشعر بوطأة الحرب مثله لكنّي أخذت أبكي وأنا ألوح برأسي إلى الجهتين «مش فاهم سبب البكاء..».

أبكي لأنّي لا أعرف أن أتمالك نفسي، أرفع رأسي إليه لكن ما أن أرى النبض يزداد في عظام فكيه وألاحظ أنّ شعيرات ذقنه النابتة ترتجف حتى أجد نفسي لا أحتمل أن أضيّع كلّ هذا، فكيف التفاصيل الأخرى التي أعرف أنّي سوف أشتاق إليها وأسترجعها؟ وماذ عن صوته الذي أصبح منّي ولا أستطيع سلخه عنّي بعد الآن «بحبّك كثير بس بدّي ضلّ ببيروت».

«بتحبيني بس بدّك تبقي ببيروت، يعني بدّك انه أبقى ببيروت. يمكن أحسن لي مين بيعرف؟» يبقى هنا، ويعيش في الحالة التي أعيشها. غير معقول ودائرة البيكار تضيق بنا. سيفقد هنا حتى بهجة كلامه، هكذا تفعل بيروت بالذين لم يشهدوا حربها، تنزع الابتسامة ثم تخلع طاقية الأمان. ثم تسدّ العينين بشاشة سوداء مغبّرة ثم تدهن الأنف بمعجون أسود واللسان بطعم زيت الخروع وتترك الجسم عرضة لطيور ناهشة ثم تضيق الدائرة تصبح شساعة الأرض أمتاراً.

«يمكن بدك ياني ابقى»

«لا» وأخبره بما أفكر به

«ليش انت بدك تتحمّلي...؟»

كنت قد قرأت ما كتبه في مفكّرته عندما تركها ملقاة على المقعد. اكتشف ان حنيني ما هو إلاّ الشعور بالغربة في فرنسا. كم تقت

للذات التي كنت أحسبها في مكان آخر كأنّي عكرت صفو الحلم بمجيئي. أشعر الآن وكأنّي لم أر هذه الأرض من قبل ولم أتعرّف بهذا الإنسان، لم أر الجبال بل الباطون في البلد التي كلّها سوداء مثل الليل. جدرانها سواد. عساكرها سود، يرتدون الأسود، وملكها أسود الكلّ يعيش فوق سقف تحته أكبر مخزن للسلاح في العالم.

«ببيروت شو عم تعملي غير طق الحنك وغير انه صار كل طموحك بالحياة تأمين الكهرباء والمي والخبز؟ ولتجنّب القذائف كأنّك غير قادرة تعيشي إلاّ بحالة بين الحرب وعدمها هالحالة مش لازم تكون هي معنى للحياة. سامعة؟ وبعدين في دنيا واسعة. في كرة أرضية طويلة عريضة مدوّرة».

«ما بدّي صير روح وأتعذّب وإشتاق وأقول يا ريت بعدني ببيروت. ما بدّي صير مثلك بين هون وهونيك أنا عارفة مش مبسوطه هون. ليش بدّي صير مش مبسوطه ببلدين؟».

«ليش سلف عم تفكري. بكل هالأمور. جرّبي وبعدين قرّري».

«أسهل للواحد يعيش ضمن اللي عم يخلّيه ينقهر من أن يهرب منه. وينقهر عليه من بعيد. من بعيد كلّ الأمور بتتضخم».

«مش فاهم ليش عم تفكري بالقهر هون وهونيك؟ سافري وبعدين بتشوفي كيف شعورك؟».

يصمت لبرهة ثم يجد نفسه من جديد يناقشني: «بيروت حجّة. هي صارت المنخل تتخبي خلفه خيفانة أن تبتدئي حياة جديدة. أريد مساعدتك، حتى تفكري بغير الكهرباء والمَيْ وترجعي تكتشفي أنه في عالم غير بيروت».

بيروت المطار الدولي. بيروت، وكأنّي أسمع هذه الكلمة لأوّل مرّه ورددتها أكثر من مرّة بيروت، رأيتها مكتوبه، رأيتها على الخريطة، رأيتها في البطاقات، الزيتونة، المعرض، ساحة الشهداء. رياض الصلح، رأيتها في الصور المأخوذة من المطارات ومن أعالي البنايات ومن الجبال، صور في الكتب الأجنبية القديمة، رأيتها مكتوبة كأنّها

عربة أطفال ذات عجلة مستديرة عالية من حرف الباء إلى الواو بينما التاء كأنها ياقة زيّ المدارس.

بيروت كأنّها مدموغة في ذهني، إبان الحرب فقط. عندها تأخذ حجماً، شكلاً. أستطيع أن أمسك به. بينما إبان أيام السلم كانت الحياة مراباً لا أستطيع أن أمدّ حتى أظافر أناملي إليه. تبدو لي بيروت الآن وكأنّها حفرة كبيرة فيها الأخاديد والتجاويف الصغيرة والحفر الأصغر، جرداء إلاّ من أعشاب صغيرة خضراء ثابتة على أطراف الحفرة، بدأت رسائلي بأني مخطوفة وأنا الآن أحاول أن أرى هذه الأعشاب الصغيرة فهي كلّ ما تنتجه أرضي. هنا حياتي ولكلّ بلد حياته.

«بتعرفي. انت صرت مدمنة على الحرب».

لا أقول شيئاً.

«انت خايفه إذا سافرت ما تبقي ملكة» مثل ما انت ببيروت، بين الجيران وفضيلة وريكاردو انت ناسية أنه تجربتك أهمّ من أيّ واحد قاعد بفرنسا وترك من زمان».

«المثل بقول: السفر هو القليل من الموت. على كلّ لا فضول عندي لأعيش في باريس».

«ليش ما عندك فضول لأنّك كسلانة. خيفانة»

«يمكن لو سافرت قبل الآن كنت فكرت بطريقة أخري. لكن لكل بلد حياته وأنا حياتي ببيروت».

«وأنا، وين أنا بحياتك؟».

أجمع كل شعري إلى جهة واحدة وأعضّ شفتيّ، كأنّهما أخذتا قلبي بينهما وأطبقتا عليه.

«سؤالي سخيف... ربما ليس وقته..»

وأخذ يبدو لي الآن كل ما تركته في بيروت مغلّفاً بالشوق. ربّما لأنّي في المطار حيث هو صلة المسافر بالمدينة التي على وشك أن

أفقدها. ورغم معرفتي أنّه لحظة ما أحطّ نظري فوقها من جديد ستبدو لي كم هي متآكلة، تحوم حولها أطياف من البهلوانات في ملابس ملوّنة.

كلما ازداد نبض يده، كلما شعرت بذرات من العرق تحاول أن تجد طريقها بين مسامها وتنفذ إليّ مختلطة برائحته التي أخذت أتشبّث بها. أفكّر أنّ ما أقوله له وما أفكّر به هباء.

يتوقّف جواد عن إقناعي ويكتفي بتأمّلي ثم بتقبيل يدي بين وقت وآخر. يهزّ رأسه ويعصر شفتيه على يدي. لا يستطيع مفارقتها. يلمس وجنتي ويقول انه يشتاق لي وأن شوقه يزيد كلّما نظر إليّ. يهزّ رأسه وكأنّه يبعد عنه فكرة ما، ثم لا يتمالك إلاّ أن يعود فيأخذ يدي بين يديه ويداي تنتظرانه بحرقة وهما تبدوان لي يتيمتين مستسلمتين إذ يقول بشبه توسّل بأنّه لا بدّ أن الحق به في الغد أو بعد الغد.

أفكّر بأنّي سوف ألحق به الآن. سأنهض معه ما أن يعلن عن الطائرة. فأنا لست في موقف أستطيع أن أرى نفسي وحيدة أو أن أراه يسير وحيداً من دوني.

وجدتني أفرح لهذا القرار وأودّ مفاجأته فأخذ كفّه هذه المرّة وأدنيها من وجنتي كأنّي أخبره بما عزمت عليه. لكنّه وهو يحاول أن يستعيد نفسه، يسأل: «شو بتوصّيني»، «كل شي كهرباء لكن عالبطارية حتى سشوار شعرك. شو رأيك. ربما إذا صار عندك كل هالأشياء بتلاقي حالك بلا هدف..».

التحدّث بهذه الأشياء جعلنا كلينا نفكّر ونهتف في آن: «الحقيبة».

«حقيبتك؟ شو بدّك تعملي فيها».

وأجد نفسي لا أخبره بأني سأسافر معه بل وجدتني أشعر بالرّاحة لأنّه أخذ أمر بقائي واقعاً وكأنّه هو الذي اتّخذ هذا القرار.

«بتركها.. وإلا انتظاري لن ينتهي».

«عال بتتركي غراضك معي حتى تسافري من أجل الحقيبة».

ثم كأنّ صوره لمعت في آلة تصويره: «يا الله شو بدّي أعمل بثيابك. بدّي أخلطها مع ثيابي، بجيبة بنطلوني، بين كتبي».

تضايقني فرحته بأغراضي كأنّها بديلتي، عدا أنّ الحقيبة قد بدأت تحرّضني لأن أفعل شيئاً. أشرق وجهه من جديد لفكرة أخذ حقيبتي معه بينما أحاول إخفاء قلقي وندمي وأنا أستعرض متاعي وأغراضي.

أجدني أصمت على مضض وأستسلم، هذا هو مصيرها الآن. ربما عليها أن تكون همزة الوصل بيننا. سوف نرى تأثير هذه الأشياء الصامتة علينا ثم كأنّ الكلام مات بيننا فجأة. أرى نفسي صغيرة في غرفة جدّتي في الضيعة وقد ألبستني جدّتي فستاناً جديداً وحذاء ملتمع الجلد. وقد سرّحت شعري طويلاً قبل أن تضع وردة اصطناعية فوق أذني لطالما رأيتها تنتقل من فستان إلى آخر ثم ولدهشتي مررت يدها على شفتيها تأخذ قليلاً من حمرة شفاهها لتضعها على وجنتي، رشّتني بكولونيا أتت بها من صندوقها الخشبي ثم صفّقت بيديها وقالت: «هلّق اطلعي عليهم مثل البدر».

وخرجت إلى البنات الصغيرات والصبيان الذين يتوافدون من أنحاء الضيعة لرؤيتي وقد اكتفوا بتأمّلي بينما لم يجرؤ أحدهم على الاقتراب من المصطبة. بل وقفوا ينظرون إليّ من بعيد. لا أعرف ما أفكّر بهم ولا أعرف ما يفكّرون بي. وعندما أطلّت جدّتي تشجّعهم بابتسامتها تفرّقوا، وعندما نادتهم اقتربوا بحذر، ومع ذلك لم نتبادل الحديث بل اكتفينا بالنظرات لمدّة رغم أنّني شككت إذا كانوا يبصرون. فنظرتهم كانت جامدة وأعينهم لم تكن ترمش، حدّقت في أقدام بعضهم الحافية وفي الحبوب التي تناثرت على الأرجل، تأمّلت شعورهم غير المسرّحة. أرى أيضاً جواد الذي خرج مع ابن المنجد من قهوة الضيعة وكنت أنتظرهما عند الباب وأجيبه عندما سألني ماذا تريد روحية منه: «بدها تقلّك حتى تتجوزني».

كل من أحبه يرحل. حتى الذين لا أحبّهم. حتى المخطوفون

سوف يرحلون واحداً خلف الآخر، يطلب جواد أن يقبّلني على فمي وأرفض لكنّه ينهض من مكانه ويقرب وجهه ويقبّلني على فمي قبلة طائرة تجعلني ألوم نفسي كيف أترك رجلاً كهذا يمضي. لكني تركته يقف في الصف وحيداً مع الكاميرا وحقيبة يده عندما أعلن عن قيام الطائرة. وكان النشاط قد دبّ بأوصالي من جديد. وعاد الدم يتدفّق بي ويصل حتى أظافري. فأنا سأواجه من جديد المدينة التي جعلت حربها تموت من التعب.

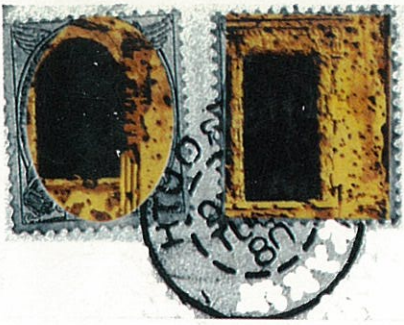

بيروت كأنها مدموغة في ذهني، إبان الحرب فقط. عندها تأخذ حجماً، شكلاً. أستطيع أن أمسك به. بينما إبان أيام السلم كانت الحياة مرآباً لا أستطيع أن أمدّ حتى أظافر أناملي إليه. تبدو لي بيروت الآن وكأنّها حفرة كبيرة فيها الأخاديد والتجاويف الصغيرة والحفر الأصغر، جرداء إلاّ من أعشاب صغيرة خضراء ثابتة على أطراف الحفرة. بدأت رسائلي بأني مخطوفة، وأنا الآن أحاول أن أرى هذه الأعشاب الصغيرة، فهي كلّ ما تنتجه أرضي. هنا حياتي ولكلّ بلد حياته.

«بتعرفي. انت صرت مدمنة على الحرب»

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٩١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت